مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية والاجتماعية

يونيو 2010

المركز الجامعي بالوادي
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية

مجلة الباحث

في العلوم الإنسانية والاجتماعية

دورية أكاديمية محكّمة تُعنى بالدراسات والبحوث في العلوم الإنسانية والاجتماعية

العدد [1]

يونيو2010

ISSN 2170-0370

المدير الشرفي
د/ عز الدين حفطاري
مدير المركز الجامعي بالوادي

مدير المجلة
د/ عمر روينة
مدير معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية

رئيس التحرير
أ/ محمد حركات
المدير المساعد لما بعد التدرج والبحث العلمي

هيئة التحرير

د/ لامية بوبيدي	أ/ عبد الباسط هويدي
أ/ محمد السعيد عقيب	أ/ عثمان زقب
أ/ محمد رضا شنة	

الهيئة الاستشارية

أ.د/ الطاهر سعد الله	د/ علاوة عمارة
أ.د/ بوبكر لشهب	د/ علي غنابزية
د/ حسان الجيلالي	د/ محمد الحبيب بشاري
أ.د/ شاوش حباسي	د/ محمد الطاهر طعبلي
أ.د/ عبد العالي دبلة	أ.د/ نور الدين زمام
د/ عبد النور خيثر	د/ يمينة شيكو

البريد المجلّة الإلكتروني

elbahith@saharama.net

افتتاحية

يسعدني أن أقدم للقارئ الكريم لمجلة الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية، والتي تصدر عن معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية بالمركز الجامعي بالوادي، في عددها الأول، حيث جاء متضمنا لألوان من الفكر، وأصناف من المعرفة في مقالات أكاديمية، قدّمها صفوة من الأساتذة والباحثين من مختلف الجامعات الوطنية، إسهاما منهم في ترقية البحث، وتعميم المعرفة العلمية، وذلك كله تلبية للفضول المعرفي للقارئ الكريم، متمنيا أن تستجيب لتطلعاته العلمية والثقافية، وإني لأقدر حجم الجهد المبذول في سبيل استصدار هذا العدد، والذي هو ثمرة طبيعية، وباكورة جهد متواصل لهيئة التحرير ومدير المجلة الدكتور عمر روينة، شاكرا كل الأساتذة المحترمين الذين أسهموا في إثراء المجلة بمقالاتهم القيّمة وبحوثهم المميّزة في شتى مجالات المعرفة، ووفقنا الله لخدمة وطننا المفدى.

المديـــــر الشرفـــــي

د. عز الدين حفطاري

شروط و قواعد النشر في مجلّة الباحث
في العلوم الإنسانية و الاجتماعية

01 - المجلّة متفتّحة على جميع البحوث في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المؤلّفة باللغات الثلاث العربية و الفرنسية و الإنجليزية.
02 - أن يكون الباحث حاصلا على درجة الماجستير على الأقل، أو مسجّلا في الدكتوراه، ويُرفق مشروع مقاله ببيان سيرته الذاتية وصورة فوتوغرافية شخصيّة.
03 - يُعبّر المقال عن رأي صاحبه الذي يتحمّل المسؤولية المدنية المترتّبة عنه، ولا يُعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة.
04 - ألاّ يكون المقال تلخيصا لمذكرة أو أطروحة جامعية.
05 - أن يكون مشروع المقال أصيلا وجديدا لم ينشر سابقا.
06 - أن يلتزم الباحث في مقاله بقواعد البحث العلمي و مناهجه، و بنظام المراجع البيبلوغرافية *ISO 690* ، وأسلوب الإحالات المختصرة داخل النصّ.
07 - يتألّف مجموع المقال من 4000 إلى 8000 كلمة، على ألاّ يتجاوز بجميع مكوناته العشرين صفحة.
08 - تُطبع المجلة باللون الأسود، و يمكن أن يشتمل المقال على صور بالأبيض والأسود أو أشكال توضيحية أو بيانية من اللون نفسه.
09 - يُزوّد المؤلّف مقاله بملخصين أوّلهما بلغة المقال والثاني بلغة أخرى من المذكورة أعلاه، وعلى أن يكون أحدهما بالعربية، وألاّ يتجاوز الملخّص 100 كلمة.
10 - ويُزوّد المقال كذلك بخمسة كلمات مفتاحية بلغة المقال، وبترجمتها إلى العربية إن كان المقال بلغة أجنبية.
11 - يُرسَل نصّ المقال في ملف *Microsoft Word* ، ويُرسَل معه كذلك الملخّصان رفقة الكلمات المفتاحية في ملف مستقل والبيبليوغرافيا في ملف ثالث من النوع ذاته.
12 - ترسَل الصور والأشكال التوضيحية والبيانية في ملفات *Bitmap* منفصلة.
13 - إرسال جميع الملفات المطلوبة معا في رسالة إلكترونية واحدة إلى العنوان الإلكتروني للمجلة، وفي حال أي نقص لا يُلتفت إلى المشروع.
14 - تخضع جميع المشاريع المقترحة لفحص علمي دقيق من قبل هيئة خبراء استشارية وقرارها غير قابل للنقض، ولا يمكن إجراء أي خطوة لنشر المقال قبل صدور قرار إيجابي.
15 - يتحمّل مؤلّف المقال مسؤولية إجراء كافّة التعديلات المطلوبة من هيئة الخبراء أو من فريق التحرير وذلك للسماح بنشر المقال.
16 - تتمّ مراسلات تأهيل المقال للنشر بين المجلّة والمؤلّف بالبريد الإلكتروني.
17 - يُلغى المشروع في حال عدم ردّ المؤلّف في أجل 30 يوما من تاريخ آخر مراسلة إلكترونية له من المجلّة.
18 - يُرسل مؤلّف المقال تعهّده بالالتزام بشروط وقواعد النشر في المجلّة، بعد توقيعه، إلى عنوان المجلّة عبر بريد المركز الجامعي بالوادي.
19 - لا تنشر المجلّة إلاّ المقال الذي تكتمل فيه جميع الشروط، ولفريق التحرير الحقّ في تأجيل نشره إلى عدد لاحق عند الضرورة.
20 - لا يترتّب أي تعويض مادّي للمؤلّف في حال نشر المجلّة لمقاله.

فهرس الموضوعات

أ / بعلي الشريف حفصة	التعليمية	6
أ / بالطاهر النوي	إستراتيجية التدريس الجامعي في ظل مواصفات الأستاذ	24
أ / عمراني زهير	أهمية الرياضيات والطبيعة المعرفية لعسر الحساب	34
أ.د/ لشهب بوبكر	منهج الاجتهاد في النوازل	52
أ / خويلدي أحمد	منهج علماء المالكية في استثمار المقاصد الشرعية عند استنباط الأحكام	63
د / دبابش عبد الرؤوف	التدخل الإنساني وأثره على السيادة في القانون الدولي والفقه الإسلامي	75
أ / حاقة عبد الكريم	الوظيفة اللغوية للوقف في قراءة القرآن الكريم	84
أ / جراية محمد رشدي	الحضارات النيوليتية بالصحراء الجزائرية (النيوليتي ذو التقاليد السودانية أنموذجا)	99
أ / حاج سعد سليم	ابن حزم الأندلسي والفتنة القرطبية	119
أ / دحدي سعود	ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية ومواجهة التحدي الاستعماري الفرنسي (**1842–1895**)	130
د / غنابزية علي	دور وادي سوف في معركة المقارين (**1854**) وآثارها على المقاومة المسلحة في المنطقة الجنوبية الشرقية	149
د / قاصري محمد السعيد	علي الحمامي الجزائري ونضاله التحرري في العالم العربي و الإسلامي (**1902–1949**)	165
أ.د / حباسي شاوش	مصطلحات ومفاهيم في الحركة الوطنية الجزائرية	186
أ / بن زروال جمعة	الحزب الشيوعي الجزائري وموقفه من حوادث **8** ماي **1945**	197
د / قمعون عاشوري	الشيخ الهاشمي حسني (**1320–1410**هـ/ **1902–1989**م) و دوره في الحركة الإصلاحية والوطنية	208
أ / بلفردي جمال	ثورة أم حرب تحرير ؟؟ جدلية تحديد المفهوم عند مؤرخي الثورة "حربي– مينيي– إلسنهانس"	232
أ / تيتة ليلى	هيئة الأمم المتحدة والبعد العالمي للثورة الجزائرية **1955 – 1960**	247
أ / نابت عبد النور	مسألة الديمقراطية في فلسفة هابرماس	257
أ / هويدي عبد الباسط	مكامن الضعف في النظام التربوي الجزائري دراسة نقدية لأركان المنظومة التربوية الجزائرية	267
د / غنابزية علي	ذكريات الوفاء والعرفان... مهداة إلى روح الفقيد الدكتور إبراهيم مياسي	274
أ / قعر المثرد السعيد	فارس، يكتب أمّة (قصيدة)	278

التعليمية

أ / بعلي الشريف حفصة
المدرسة العليا للأساتذة / الجزائر

ملخص

يتناول هذا المقال تطور مفهوم التعليمية باعتبارها إحدى طرائق التعليم التي تزايد الاهتمام بها حديثا إلى أن أصبحت مقاربة تعليمية ــ تعلمية لها مفاهيمها ومبادئها ... ومنها المثلث التعليمي ــ التعلمي أو ما يعرف بمثلث القوى المتضمن للمعرفة، المعلم والمتعلمين، والذي تلتقي أضلاعه مثنى مثنى في نفس المستوى، وهي قوى تكون في تفاعلها منظومة متزنة تتكامل فيها أدوار أضلاع المثلث التعليمي ــ التعلمي.

Résumé

Le présent Cet article présente les concepts plus utiliser par la littérature didactique d'enseignement - apprentissage, comme par exemple: le triangle didactique qui peut être définie par ces trois éléments: le savoir, le professeur et les élèves, dans chaque deux de ces éléments se constituent comme sujets, est les relations binaires qu'on peut établir entre les pôles du triangle didactique peuvent être constituer une intégration systémique.

مقدمة

تتميز التعليمة (La Didactique) بأنها فعل تربوي تواصلي مفتوح بين المعلم والمتعلم، مبني على جملة مفاهيم منها مثلث القوى بقممه الثلاث المتمثلة في "المعلم" الذي يتبادل "المعرفة" والخبرات مع "لمتعلم"، والعلاقة القائمة بينها والمتمثلة في نقل المعرفة العالمة وتطويعها إلى معرفة قابلة للتعلم، وفي العقد التعليمي المتضمن تعايش المعلم مع المتعلم عقليا ووجدانيا لبلوغ التعليم الفعال.

وبالنظر لاختلاف المواد المعرفية فإن تعاريف تعليمياتها يختلف هو الآخر أيضا، ولهذا نجد أن تعريف تعليمية العلوم الطبيعية مثلا مختلف عن تعريف تعليمية التاريخ، وهذا الأخير مختلف عن تعريف تعليمية الفيزياء والرياضيات...

I ــ التعليمية:

تشكل كلمة "التعليمية La Didactique" رغم قدم تاريخ ظهورها موضع جدل ونقاش، لما يشوبها من غموض، وهي إلى حد الآن ما زالت تحتاج إلى إجماع حول تحديد مفهومها. وتعرف (La Didactique بـ: (التعليمية) وهو مصطلح يستعمل عندنا في الجزائر)[1]. أما في المغرب فتعرف (بعلم التدريس أو الديداكتيك وأيضا بالتربة الخاصة أو المنهجية)[2] وفي تونس تعرف (بتعليمية المواد)[3] أما في مصر و الأردن فمقابل مصطلح التعليمية هو: (تطوير التعليم)[4].

وتفسر كلمة "La Didactique" بـــ: (فن أو علم التعليم)[5] وهنـــاك مـــن يعرفهـــا بأنهـــا (نوع من الأدب التعليمي)[6]. وهناك من يخلط بين التعليمية و البيداغوجيا ويعتبرها مرادفا لها فمصطلح (La Didactique الوارد عند "Piaget"، ليس له نفس المفهوم عنـــد "Develay" أو"Astolfi" مثلا. حيث تستعمل كلمة التعليمية عند "Piaget" كمرادف للبيداغوجيـــا)[7].

ويعتقد بعض التربويين أن سبب الاضطراب الذي يعرفه التـــأليف في مجـــال التعليميـــة يعـــود (..إلى عدة أسباب، لعل من أهمها مدى الاضطراب الذي يعرفه التأليف في هذا الميدان. إذ ما تـــزال تؤلف كتب وترد علينا أخرى من العالم العربي وغيره في مواضيع هذا العلم دون أن تتضمن وعيـــا واضحا وصريحا باستقلاله، أي دون أن تكون مدركة لحدود التخصص الذي تؤلف له. فنلاحظ أنها ما تزال حائرة مترددة بين مختلف فروع التربية فمنها من يتحدث عن أصول التدريس وطرقه، ومنها من يذكر التربية العلمية أو التربية الخاصة أو التربية الميدانية أو التطبيقية... وغيرها من الأسماء، مما يفقد هذا التخصص مصداقيته ويجعل مواضيعه مشتتة بين علوم التربية جميعها. هذا فضلا عن وجود العديد من الباحثين اللذين لم يتوقفوا لحد الآن عن الحديث عن التدريس باعتباره فنا، و لم يهتدوا إليه كعلم تطبيقي له قوانينه ويتطور حسب مبادئ و مناهج خاصة. لذلك فإننا نعتقد أنه حان الوقـــت لإدراك حدود هذا العلم في انفصالها وفي تقاطعها مع بقية فروع التربية)[8].

وتعريف التعليمية في المجال التربوي يبقى يفتقد إلى الاستقرار فهو لا يزال في حاجة إلى المزيـــد من البحث والتحليل والإجماع على تحديده، وهذا ما عبر عنه "R.Galisson" في قاموسه بقولـــه: من بين جميع المصطلحات الخاصة بالتعليم تعد التعليمية La Didactique الأكثر غموضا وإثـــارة للجدل[9].

ولفظ Didactiqu يقابله في اللغة اليونانية لفظ Didaktikos وهو يعني (دراسة طرق التدريس أو تقنيات التدريس)[10] وهو مشتق من كلمة "Didaskein" وتعني علّـــم، كمـــا يعـــني لفـــظ "Didakhé" التعليم[11]. (والديداكتيكا هو لفظ أعجمي مركب من لفظين هما "ديداك" و"تيكـــا"، وتعني أسلوب التسيير في مجال التعليم وغيره بواسطة الحاسوب وتطلق على فضاء التلقين بـــالإعلام الآلي)[12].. أما مفهوم التعليمية أو التعلمية فإن موضوعها يهتم بدراسة آليات اكتساب وتبليغ المعارف الخاصة بمجال معرفي معين، لذاك يركز أتباعها على التفكير المسبق في محتويات ومضامين التعلـــيم المطلوب تدريسها، من حيث المفاهيم الداخلة في بناء الموضوع، ومن حيث تحليل العلاقـــات الـــتي تربطها ببعضها، كما ينصب اهتمامها على تحليل المواقف والوضعيات التعليمية التي تأتي في نهاية الفعل التعليمي ـــ التعلمي، لفهم وتفسير ما جرى في عرض الدرس، سواء تعلق الأمر بتصورات التلاميذ أو التعرف على أساليب تفكيرهم واكتشاف الطرائق التي تمكنهم من معرفة ما طلب منـــهم أو مـــا عرض عليهم، ومدى نجاعة المدرس في الخطة التي اختارها والأساليب والطرائـــق والوســـائل الـــتي وظفها... وموضوع التعليمية يمكن حصره في دراسة آليات اكتساب وتبليغ المعارف المتعلقة بمجـــال معرفي معين، فهي تمثل في آن واحد تفكيرا وممارسة يقوم بهما المدرس لمواجهة الصعوبات التي يلاقيها في تعليم مادته.

تمتد جذور تاريخ "La Didactique" إلى القرن السابع عشر، فأول ما ظهر هذا المصطلح كان في فرنسا سنة (1554م) واستعمل ليقدّم الوصف المنهجي لكل ما هو معروض بوضوح. واستعمل هذا المصطلح في علوم التربية سنة (1657م) كمرادف لفن التعليم، الذى يقصد به نوع من المعارف الفلسفية والدينية آنذاك[13] وعرف "Ian Amus Kamenski" الديداكتيك في مؤلفه "Didactika Magna" أو ما يعرف بـ"الديداكتيكا الكبرى" كالآتي: (إنه يعرفنا بالفن العام لتعليم الجميع كل شيء، إنه فن لتعليم الجميع مختلف المواد التعليمية، وأنه ليس فنا للتعليم فقط، بل إنه للتربية أيضا)[14]. و يتدرج مفهوم كلمة التعليمية من كونها فنا إلى مفهومها كنظرية للتعليم تستهدف الفرد، إذ يرى العالم والفيلسوف الألماني "Herbert"، مؤسس القواعد العلمية لهذه النظرية وأنصاره (أن الوظيفة الرئيسية للتعليمية هي تحليل لنشاط المعلم في المدرسة. بينما يرى "Dewey"، أن التعليمية نظرية للتعلم لا للتعليم)[15].

إن الممارسات التي عرفتها مختلف تعلميات المواد خلال العقدين الأخيرين في التحام وثيق مع مواد علمية مختلفة، مثل الرياضيات، التاريخ، النحو، البيولوجيا...الخ، تجعل من العسير على الباحث المعاصر إيجاد تعريف واحد متفق عليه للتعلمية و أن المتصفح للأدبيات المنشورة في هذا الباب يجد نفسه أمام مجموعة من التعريفات التي تلقي أضواء مختلفة على هذا العلم.

مفاهيم التعلمية:

تبين في العقدين الأخيرين من هذا القرن من خلال الممارسة والتنظير والتجارب والدراسات الأكاديمية، أن عملية نقل المعرفة تتضمن نشاط تفاعلي بين المعلم والمتعلم والمعرفة، وتشكل هذه المفاهيم الثلاثة (المعلم والمتعلم والمعرفة) رؤوس مثلث قوى أو (مثلث تعليمي)، يربطها ببعضها مفاهيم أخرى تحدد العلاقة القائمة بينها تمثلها أضلاع ذلك المثلث، أنظر الشكل (1)، على نحو يكون فيه أحد أضلع المثلث يربط بين المعلم والمعرفة ويحدد مفهوم نقل وتطويع المعرفة العالمة. ويربط الضلع الآخر بين المعلم والمتعلم وهو موقف تقدم فيه المعرفة المطوعة بصورة منظمة ومقصودة ويحدده بمفهوم العقد التعليمي ـــ التعلمي ويقتضي تبيان المعرفة، وتوضيحها للمتعلم، لأنها من ضمن حقوقه التي يتمتع بها، ومن الواجبات التي على المعلم الالتزام بها منذ اللقاء الأول في حجرة الدراسة و خلال كل الموقف التعليمي. أما الضلع الثالث (الضلع الحاضر الغائب) فهو يوصل بين المعرفة والمتعلم بصورة متقطعة لأن تعلم المعرفة في هذه الحالة يكون إما بصورة فطرية أو بصورة تلقائية وعشوائية.

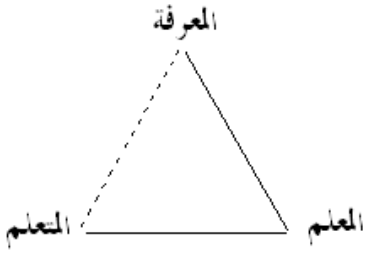

شكل (1) يبين العلاقة بين العناصر الأساسية للنظام التعليمي

يمثل مجموع هذه المفاهيم المعلم، المعرفة، المتعلم، (رؤوس مثلث متساوي الأضلاع)، والنقل التعليمي، والعقد التعليمي التعلمي المكونات الأساسية للمثلث التعليمي التعلمي والذي يعد واحدا من المفاهيم المميزة لعلم التعليمية إضافة إلى المفاهيم الأخرى، والتي تعتبر المدخل الحقيقي لهذه المقاربة وتميزها عن البيداغوجيا.

و فيما يلي تعريف بهذه المفاهيم[16] :

1 ــ الوضعية التعليمية ــ التعلمية: La situation didactique

تمتاز الوضعية التعليمية ــ التعلمية بأنها تمزج بين التعليم، أي مجموع العمليات التي توفرها عناصر الوسط التربوي من معلمين وأولياء أمور بالإضافة إلى المؤسسة التربوية، وبين التعلم، وهو مجموع التمشيات والعمليات التي يقوم بها الفرد في ظروف معينة الهدف منها هو اكتساب مؤهلات جديدة من معارف ومواقف ومهارات وتراوح بينهما.

2 ــ المثلث التعليمي: Le triangle didactique

و يتكون من جوانب ثلاثة[17] متساوية، تمثل العلاقات الناشئة بين عناصره الثلاثة: المعلم ويقصد به المكون أو المرشد، والمتعلم ويقصد به التلميذ المتكون أو المتدرب، والمعرفة ويقصد بها المضمون، أي الموضوع الذي سوف يتعلمه المتكون.

3 ــ التبليغ أو النقلة التعليمية: La transposition didactique

ويهتم بالتحولات التي تطرأ على المعرفة حتى تصبح صالحة للتعلم وهذا يستدعى انتقالها عبر مراحل متتابعة:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة المعرفة المتداولة من طرف المختصين، "معرفة العالِم" وتتمثل في مجموع المفاهيم والقوانين والتعريفات المبنية على المفاهيم المجردة ومنفتحة على كل ما هو جديد.

المرحلة الثانية: وفيها يتم ضبط المعرفة الواجب تعلمها، وانتقالها إلى المعرفة المطلوب تعلمها والمتمثلة في صياغة المناهج و البرامج الرسمية وبذلك تضبط عوامل الانتقال المعرفي لكل تخصص.

المرحلة الثالثة: وتمتاز بصياغة المناهج و الكتب المدرسية وهيكلة محتواها المعرفي الذي يكون مقفلا على نحو مخالف للمعرفة العلمية المنفتحة التي استمدت منها هذه المعرفة. ويعتمد في اكتسابها على العمل التربوي للمعلم وعلى المراقبة التربوية وعلى ضوابط التقويم المختلفة. ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الآتي[18] :

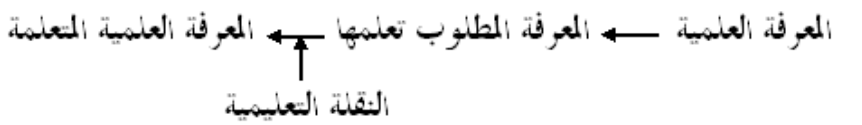

مخطط (1): يوضح تحديد موقع النقلة لتعليمية

إن تحقيق الارتباط بين المعرفة العلمية والمعرفة المتعلمة يستدعى نقل (نُقلة) المعرفة العلمية وتبليغها للمتعلم بعد تحويلها إلى معرفة قابلة للتعلم.
ويعرف ("Chevallard,1980" النقل البيداغوجي على أنه: ...التمشي الذي يهدف إلى جعل المعرفة العلمية تتحول إلى معرفة للتعلم ثم إلى موضوع تعلم. كما أنه يطرح بالضرورة قضية المسافة الفاصلة بين المعرفة العلمية والمعرفة المدرسية. ويواجه مفهوم النقل حاليا نوعا من النقد من طرف بعض التعلميين من الجيل الثاني...انطلاقا من مادة النحو الفرنسي أن المعرفة المدرسية لا تستقى دائما من المعرفة العلمية ... لذلك فهو معرفة مستقلة بذاتها لا تحتاج لتركيز مشروعيتها، إلى معرفة "ما بعد مدرسية"وذلك خلافا للرياضيات أو الفيزياء مثلا..)[19] وهذا الموقف سيجر إلى اعتبار مفهوم النقل غير قابل للتعميم على كل المواد المدرسية. وللوصول إلى المعرفة المطلوبة فإن (هذه العملية تمر بمستويين هما:

3 ــ 1: النقلة التعليمية الخارجية La transposition didactique externe

وتتطلب من المعلم انتقاء المعرفة التي يجب أن يعلمها ويطوعها لتصبح في مستوى المتعلمين)[20] كما أن (تأثير الواقع على العملية التعليمية كما بينه "أسطفلي" في كتابه 'مفاهيم التعليمية' قائلا: إن الحديث عن الممارسات الاجتماعية المرجعية من شأنه أن يثري هذه التحاليل المتعلقة بالنقل. فهو يذكرنا بأن النقل التعليمي ليس مجرد عملية تطويع للمعرفة العلمية وأن العملية تتأثر في الواقع بالممارسات الاجتماعية السائدة، لتترك بصماتها وراء المضامين المعرفية التي يتحدث عنها المنهاج المدرسي. ذلك أن اختيار هذه المضامين لا يتأثر بالمعرفة العلمية فقط ولكنه يتأثر كذلك بالممارسات السائدة في المجتمع. ولنا في الإعلامية واستعمالاتها الاجتماعية خير مثال على ذلك. وعلى ذلك فإن مهنة التعليم تحتاج إلى كفايتين متكاملتين: كفاية متعلقة بالنقل التعليمي والتي تجعل المربي قادرا على تطويع المضامين المعرفية حسب المستوى الحقيقي لتلامذته من ناحية، وكفاية متعلقة بالممارسات الاجتماعية المرجعية والتي تجعل المربي قادرا على ربط المعرفة المدرسية بما يجرى داخل المجتمع)[21]. وما يمكن الإشارة إليه هنا هو أن المؤثرات الخارجية التي تتدخل لتضبط وظيفة النقلة التعليمية الخارجية لابد أن تكون منطقية وتناسب كل الأطراف المعنية بالعملية التعليمية. ذلك لأن (التدخل الخارجي في وظائف أي منظومة قد يختزل كفاءتها وإذا زاد هذا التدخل عن حد معين فإنه قد يؤدى إلى توقفها تماما)[22].

3 ــ 2 النقلة التعليمية الداخلية La transposition didactique interne

وتهدف إلى وضع البرامج بعد تحديدها و إعداد المؤلفات وتحضير المعلمين للمادة التي سوف يدرسونها للتلاميذ. أثناء القيام بهذه العملية لابد وأن يؤخذ بعين الاعتبار تقليص المسافة بين المعرفة العلمية والمعرفة المدرسية. (ففي التعليم الثانوي يكون توظف النقلة التعليمية الخارجية مباشرة بعد تحضير البرامج، وذلك لأن المستوى التصوري للمتعلمين في هذه المرحلة

يسمح لهم بالتعامل مع الأفكار المجردة)[23]. وقد بين "شفلار" مفهوم النقلة التعليمية في تعلم الرياضيات بأنه الانتقال من معرفة العالم إلى معرفة المتعلم. ويأتي مفهوم النقلة التعليمية ليصف المراحل التي تقطعها المعرفة لتحتل مكانها داخل المنهاج المدرسي "كمعرفة يجب تعلمها" ثم داخل الفصل "كمعرفة تتعلم من طرف التلاميذ، وقد أكد "شفلار" على ضرورة الانتباه إلى المسافة بين معرفة العالم ومعرفة المتعلم، ويستدل في ذلك بقناعات المختصين في التعلمية من أن المواضيع الرياضية التي يتم تناولها في الفصل يجب أن تكون مختلفة عن المعارف الرياضية المتداولة لدى المختصين وذلك لسببين على الأقل:

أولهما أن عمليات تملك المفاهيم الرياضية تخضع كغيرها من عمليات تعلم المفاهيم، لقانون النمو الذهني للطفل. لذا وجب على معلم الرياضيات احترام هذا القانون السيكولوجي إذا هو أراد أن يضمن لعمله أكبر حظوظ النجاح. ومهما يكن من أمر فإنه من غير المعقول أن نقترح على الأطفال نفس المضامين الرياضية التي يتداولها المختصون وهم كهول قد أنهوا بعد نموهم الذهني ومختصون قد تبحروا في استعمال المفاهيم الرياضية.

وثانيهما أن الطفل لا يأتي إلى الفصل خالي الذهن من المعارف الرياضية،.. فطفل السنة الأولى يدخل المدرسة وهو مسلح بمفاهيم رياضية حدسية وقدرة في التعامل مع المشاكل البسيطة. من أجل ذلك وجب على المعلم الانطلاق من هذه المعرفة ما قبل العلمية وتحليلها والاعتماد عليها في عملية إعانة الطفل على تملك المفاهيم الرياضية)[24].

وقد اعتبرت المعارف القبلية عند المتعلم كعائق للتعلم، وهي معارف فردية تمليها الحياة اليومية والمحيط، يأتي بها المتعلم إلى القسم، وبقدر ما هي متنوعة ومتسعة في مجالاتها بقدر ما هو مطلوب من المعلم بأن يتعامل معها لتشذيبها وتقويمها ...، وهذا في كل التخصصات (إن تدريس العلوم غالبا ما تعترضه الأفكار القبلية لدى التلاميذ والطلاب)[25]. ولهذا تعد المعارف ما قبل المدرسية من الثوابت التي ينبغي التعامل معها في تعليمية المواد مهما اختلفت المادة ويفسر كل من "Favre"[26] و"Clément"[27] ذلك بأن (تعليمية أي اختصاص علمي تهتم بعمليات نقل واكتساب المعرفة المرتبطة بهذا الاختصاص، وهذه العمليات هي فردية واجتماعية في آن واحد). ولتوضيح المقصود من فردية واجتماعية فقد بين ("mugny" ذلك فهو يعتقد أن الأنشطة المعرفية تستقى معناها من التفاعلات الاجتماعية سواء كانت هذه التفاعلات حقيقية أم رمزية، كما نعتبر أن الطفل يطور ملكاته الذهنية ومعارفه بصفة بنائية وتدريجية لا في إطار نشاط فردي بل عن طريق تفاعل اجتماعي مع الآخرين. ويعتبر هذا المبدأ المنظم للنظرية النفسية الاجتماعية جد بسيط: ويتمثل في القول بأن النمو المعرفي للطفل يتحرك نحو الأفضل عندما يشارك هذا الأخير في تفاعلات اجتماعية تفرز بدورها صراعات مستوى الأجوبة التي يدلى بها مختلف أفراد المجموعة)[28].

4 ــ العقد التعليمي ــ التعلمي Le contra didactique

ويمثل مجمل العلاقات التي تحدد بصفة صريحة في بعض الحالات وضمنية في أغلبها ما هي الواجبات التي يقوم بها المعلم والمتعلم خلال حصة تعلمية ــ تعليمية، ولكون هذه الواجبات تتغير بتغير الوضعيات فإن بنود العقد التعليمي ــ التعلمي تصبح متحركة وتتطور حسب تقدم المتعلمين في اكتساب المعرفة المدرسية أو تعثرهم في هذا المسار، وهو يسبق الوضعية التعليمية ــ التعلمية ويحددها: إن تعايش المعلم مع المتعلم داخل المؤسسة المدرسية يفرض عليهما ومنذ اللحظة الأولى الالتزام ببعض الواجبات والتمتع بمجموعة من الحقوق وذلك مهما كانت الوضعية التعليمية ــ التعلمية... ولهذا فإن مفهوم العقد يطبق في المواد العلمية (الرياضيات، الفيزياء...) أكثر مما يطبق في المواد الاجتماعية (التاريخ مثلا) وذلك تبعا للطبيعة المهيكلة التي تمتاز بها المواد العلمية. وهذه ملاحظة تفسر قلة استعمال هذا المفهوم في كل الخطابات التعلمية قياسا بالمفاهيم الأخرى.

5 ــ تصورات التلاميذ La représentation des élèves

يلتحق التلاميذ بالقسم بخلفيات معرفية، وتصورات ذهنية مسبقة يستعملونها في تفسير ظواهر العالم الذي يعيشون فيه، وعلى المربي الذي يهدف إلى تغيير أو تطوير تلك التصورات أن يبني خطته انطلاقا من تلك التصورات لأن الانطلاق من تصورات المتعلمين والاعتبار به خلال الحدث التربوي من شأنه أن يجود العملية التعليمية ــ التعلمية.

6 ــ أخطاء التلاميذ Erreurs des élèves

لم يعد خطأ التلميذ في نظر المربين ذلك الغلط الذي يستوجب المعاقبة عليه لكي لا يتكرر، بل أصبح الأداة التي تشير إلى الصعوبات التي يصادفها المتعلم عند محاولة انطلاقه في عملية التحصيل المدرسي لمعارف جديدة.

7 ــ الوضعية ــ المشكل La situation ــ problème

إن لكل موقف تعليمي نقطة بدء، والوضعية ــ المشكل هي بمثابة نقطة انطلاق كل تمشي منظم للعملية التعليمية ــ التعلمية يكون الهدف منه هو بناء معرفة جديدة، فالمتعلم في هذا الوضع يكون مجبرا على أن ينأى بنفسه عن تكرار تطبيق ما اكتسبه من أفكار ومهارات قبلية من أجل إيجاد حل للمشكل المطروح، وهذا يقوده إلى إعادة صياغة فرضياته من جديد واستعمال قدراته العقلية الذاتية لجمع معارفه المشتتة والتفكير في تجريب وسائل أخرى تحد من تعثره أثناء تحقيق مشروعه وتمكنه من استنباط الحلول المناسبة للوضعية المشكل.

إن ما أحرزته التعليمية من اهتمام بموضوعها، خلال العقدين الأخيرين من قبل بعض الباحثين ومن سعى في إيجاد مفاهيم خاصة بها ومنهجية منفردة، كان له تأثيره الجيد عليها فقد

مكنها من البروز على الساحة التربوية والانطلاق لتحقيق ما كانت تتوق إليه في إيجاد مكان لها بين الاختصاصات المرجعية لعلوم التربية، مستعينة في ذلك بعلم النفس المعرفي الذي يهدف إلى فهم الكثير من أساليب النشاط العقلي التي يمارسها الإنسان في مختلف مواقف حياته، وإلى تفسير السلوك الإنساني بوجه عام والتعلم بوجه خاص، وكذلك دراسة العمليات العقلية التي تحدث داخل عقل المتعلم نفسه من كيفية اكتسابه للمعرفة وتنظيمها وتخزينها في ذاكرته، إلى غيره من العلوم الإنسانية التي تبحث في مجال اكتساب المعرفة بصفة عامة. وبذلك أخذت التعليمية تنأى بنفسها عن كونها مجرد جملة من النصائح والتوصيات التربوية، لتصبح بعد ذلك أسلوب بحث في طرائق تعليم المضامين المدرسية. (وقد بين ذلك J.L Martenand في "كتابه تعليمية الفرنسة": إن المقاربة التعلمية تتمثل في تحليل تمشيات التعليم والتعلم من وجهة نظر المعرفة المدرسية، ومن هذا المنظور فإن تعليمية المواد ليست قائمة من النصائح والتوصيات التربوية، إنها بحث معمق في طرائق تعليم المضامين المدرسية واستراتيجيات تعلمها من طرف الأطفال)[29]. و أن القصد من علم التدريس هو: (الدراسة العلمية لطرق التدريس وتقنياته ولأشكال تنظيم مواقف التعلم التي يخضع لها التلميذ قصد بلوغ الأهداف المنشودة سواء على المستوى العقلي أو الوجداني أو الحسي ــ الحركي. وعادة ما تضع التصنيفات هذا العلم إلى جانب العلوم التطبيقية مثل التنظيم والتوجيه المدرسي. إن هذه العلوم وإن كانت لا تستبعد الخطاب النظري والنقاش الأكاديمي إلا أن التطبيق يبقى المبرر الأساسي لوجودها)[30]. وأن (الفهم الجيد للعملية التعليمية أدى إلى اعتبار التعليمية نظاما من الأحكام والفرضيات المصححة والمحققة تتعلق بالظواهر التي تخص عملية التعليم ــ التعلم، ونظاما من أساليب تحليل وتوجيه هذه الظواهر)[31].

ومن وجهة نظر موقع مقاربة التعليمية، في مجال التدريس، من المقاربات الأخرى، يري بعض الخبراء (أن المدخل المنظومي ليس مدخلا للتدريس والتعلم فقط وإنما هو مدخل يتناول كافة مناشط الحياة التي يقوم بها الأفراد داخل المجتمعات والدول. وفي التدريس والتعلم لم يعد مدخلا منفصلا بل هو المظلة التي يندرج تحتها معظم مداخل التدريس والتعلم القائمة حاليا...)[32]

البيداغوجيا والتعليمية:

من خلال مقارنة بسيطة بين البيداغوجيا والتعليمية يتبين أن موضوع البيداغوجيا وهي علم تربوي غير مختص وشامل une science transdisciplinaire، يهتم بإشكالية التعليم داخل حجرة الدراسة، وبمختلف القضايا التربوية على اختلافها كالأهداف و القيم وبكل أشكال العلاقات التربوية؛ أما موضوع التعليمية وهي علم مختص Une science disciplinaire فيهتم بالتعليم والتعلم من وجهة نظر المعرفة وتحليل الأبعاد المنهجية والابستيمولوجية لعمليات التعليم والتعلم أي بالتفاعلات التي تجري بين أقطاب المثلث

التعليمي، ولكن في إطار مفاهيمي معين بمعنى مادة معرفية معينة. أما منهجيتها فتستعمل الطريقة التجريبية كمنهجية أساسية في البحث العلمي والتي تخضع للملاحظة وللافتراض والتجريب.

وكما تمت الإشارة إليه سابقا فإن ظهور تعليميات المواد خلال السبعينيات جعل هذا العلم التربوي يتأثر ضرورة بمختلف العلوم الإنسانية، التي عرفت ازدهارا لا مثيل له خلال النصف الثاني من القرن العشرين مثل علم النفس وعلم النفس الاجتماعي و الابستيمولوجيا... إلى غير ذلك من العلوم الإنسانية التي بحثت في قضية اكتساب المعرفة بصفة عامة، والنظريات المنضوية تحت لواء هذه العلوم كالنظرية البنائية، والنظرية النفسية ــ الاجتماعية، والنظرية الابستيمولوجية...الخ؛ ويطور مفاهيم نظرية خاصة به. من بين هذه المفاهيم العقد التعليمي، والتبليغ التعليمي، وغيرهما...)[33]. ومن هنا يتبين الفرق بين التعليمية والبيداغوجيا فهما (علمان تربويان مختلفان في الموضوع و المفاهيم الخاصة والأساسية ومتكاملان من حيث كونهما يهتمان بإشكالية التعليم والتعلم)[34].

التعليمية العامة:

يوحي اختلاف محتويات المواد المعرفية والاختلاف في تعريف تعليمياتها بأنه لا توجد تعليمية عامة. (أن مادة المعرفة العلمية تهيكل بالضرورة الخطاب التعلمي، فقد جاءت تعلميات هذه المواد مختلفة عن بعضها لاختلاف محتوياتها المعرفية ومن هذا المنطلق يتضح أنه لا توجد تعليمية عامة)[35]. غير أن اشتراك مختلف المواد المعرفية في اهتمامها بكيفية سيرورة العملية التعليمية ــ التعلمية بين المعلم والمتعلم، وفي طرائق التدريس التي تهتم بالمتعلم وتجعل منه عنصرا فعالا ونشطا وتضع المدرس في موقف المشرف على التسيير والتوجيه. و في استعمالاتها المشتركة لمفاهيم النقل التعليمي، العقد التعليمي ــ التعلمي، التبليغ،...الخ. يقود إلى وجود تعليمية عامة، (إن وجود التعلمية العامة هو الآن محل نقد من طرف بعض المختصين.. ينبغي أن نميز داخل هذا العلم بين فرعين مختلفين ومتكاملين في آن واحد وهما: علم التدريس العام 'الديداكتيك العامة'، وعلم التدريس الخاص 'الديداكتيك الخاصة'. ويقصد بعلم التدريس العام مجموع المعارف التعليمية القابلة للتطبيق في مختلف المواقف ولفائدة جميع التلاميذ. هذا ولا ينعدم من يرفض هذا التمييز بدعوى أن علم التدريس العام يمكن أن ينحل في نهاية المطاف ويتلاشى في علم التدريس الخاص. لكننا نعتقد في ضرورة الفصل بينهما على النحو التالي: إن علم التدريس العام يعالج القضايا المشتركة والإشكاليات العامة، أي يدرس العملية التعليمية في مجملها بغض النظر عن المادة الدراسية المقررة. ويحاول وضع الفرضيات واستخلاص القوانين وصياغة النماذج التي يمكن أن تفيد المدرس مهما كان تخصصه ومهما كانت المادة التي يدرسها)[36].

ومن وجهة نظر تاريخية يتبن أن موضوع التعليمية مر خلال عدة عقود بمراحل ثلاث (ففي الستينات من هذا القرن كان التركيز على النشاط التعليمي وتحول في السبعينات والثمانينات إلى النشاط التعلّمي وانتقل في التسعينات إلى التفاعل القائم بين النشاطين التعليمي والتعلمي، ومنه يتضح أن موضوع التعليمية العامة هو دراسة الظواهر التفاعلية بين معارف ثلاثة وهي: المعرفة العلمية، المعرفة الموضوعة للتدريس، المعرفة المتعلمة التي تهتم بجوهر العملية التعليمية وأهدافها والمبادئ العامة التي تستند إليها من مناهج، طرائق التدريس، الوسائل التعليمية، سياق تنظيم العملية التعليمية، أساليب التقويم...الخ. ومن ثم القوانين العامة التي تتحكم بتلك العناصر وبوظائفها التعليمية)[37].

ويرى بعضهم تبعا لهذا التوجه أن (...التيار الذي نشأ في ألمانيا أواخر القرن الماضي.. كان ينظر للديداكتيك ليس فقط وسيلة لنقل المعلومات ولكن، وفي الدرجة الأولى، أداة لتكوين الأفراد وإكسابهم روح المسؤولية وشحذ وعيهم وضميرهم الخلقي)[38].

التعليمية الخاصة:

وتعرف أيضا بتعليمية المواد. وتدرس تعليمية المواد المختلفة كعلم الأحياء، والتاريخ، و..إلخ. وتتناول تاريخ تلك المواد ومبادئها وأصولها المنطقية وكل الكفايات المتعلقة بها وكذلك ظروف تعليمها وتعلمها داخل الإطار المدرسي. وتعتبر التعليمية أن مبادئ وأصول المادة هما اللذان يحددان تعلم المتعلمين لها (فإذا كانت تعلميات المواد تختلف في تحديد موضوعات بحوثها، فإنها رغم ذلك تحاول الإجابة عن السؤال الجوهري التالي ما هي الميكانسمات والقوانين التي تنظم امتلاك المعارف المدرسية من طرف المتعلمين؟. ولقد وجدت التعليميات بمختلف اختصاصاتها، إجابات ثرية في مختلف نظريات العلوم الإنسانية)[39]. والتعليمية الخاصة يقصد بها: (الاهتمام بالنشاط التعليمي داخل القسم في ارتباطه بالمواد الدراسية، والاهتمام بالقضايا التربوية في علاقتها بهذه المادة أو بتلك، فنقول علم التدريس الخاص بالرياضيات وعلم التدريس الخاص بالتاريخ...الخ.. ويركز علم التدريس الخاص 'ديداكتيكية المواد أو التربية الخاصة بالمواد' وفي إطار العملية التعليمية على المقتضيات الخاصة بكل مادة.

(والتعليمية الخاصة تهتم بنفس القوانين (قوانين التعليمية العامة) ولكن على نطاق أضيق، أي القوانين التفصيلية التي تتعلق بمادة تعليمية واحدة. وفيما يخص العلاقة بين التعليمية العامة والتعليمية الخاصة فإن التعليمية العامة تمثل الجانب التوليدي للمعرفة...بينما تمثل التعليمية الخاصة الجانب التطبيقي لتلك المعرفة، أين يتم تطبيق تلك القوانين والمبادئ والتعميمات بمراعاة خصوصية المادة)[40].

التعليمية كعلم مقارن:

أدى تنوع تعريف تعليمية المعرفة حسب تخصصاتها المختلفة، والبحوث العلمية في التعليمية منذ السبعينيات إلى التساؤل عن ما هو مدى إمكانية تطبيق تعليمية مادة معرفية على مادة معرفية أخرى ؟ وهذا التساؤل قاد الباحثين إلى التفكير أو الحديث عن تعليمية مقارنة، ومنه قول ("Caillot,1996": إن ممارسات العشرين سنة الماضية في ميدان البحث التعليمي تسمح لنا اليوم بالحديث عن تعليمية مقارنة)[41] وقد بين أن السبيل إلى ترسيخ تواجد علم التعليمية على الساحة التربوية هو استثمارها لنتائج أبحاث تعليمياتها الخاصة (إن هذا العلم التربوي لا يمكن أن يفرض وجوده على الساحة إلا إذا اتبع المنهج المقارن واستعمل نتائج كل البحوث التي تنتجها التعليميات الخاصة بصفة بعدية)[42].

ويكمن الهدف من ضرورة وجود التعليمية المقارنة في توضيح أوجه الاختلاف والتشابه بين تعاريف التعليميات الخاصة، وأيضا في تعميق فهم المشكلات التعليمية وإيجاد الحلول لها، بذلك تتأكد القيمة النفعية والإصلاحية لعلم التعليمية من جهة، وتتضح أبعاده من جهة أخرى فيستطيع بذلك أن يرسم حدوده ويضبطها كمقاربة تعليمية، (.. يحدد مجال تفاعله مع الاختصاصات الكثيرة، التي يلتقي معها وتجعل منه ما يعرف "بعلم ــ الجمع Une science pluriel")[43]، أو كما يفسرها بعض التربويين مستندين إلى ما ورد في قاموس"D.cost,1976" بأنها 'ملتقى اختصاصات' أو 'تركيب لمقاربات' أو 'مجال تفاعلي')[44]، أو كما مثلها بعضهم على أنها (ملتقى طرق مفتوح على مجالات مختلفة ومتأثر بها)[45].

إذا تمكن علم التعليمية من إتباع المنهج المقارن فإنه يكون بذلك قد أزاح كل الصعوبات التي تقف أمام صياغة عامة لتعريفه وضبط تعليميته العامة التي كما ذكرنا سابقا ما زال وجودها معرض للنقد من طرف بعض المختصين.

النظرة الشمولية (المنظومية) لعلم التعليمية:

قاد الفهم الجديد للعملية التعليمية إلى اعتبار التعليمية نظاما من الأحكام والفرضيات المصححة والمحققة تتعلق بالظواهر التي تخص عملية التعليم ــ التعلم، ونظاما من أساليب تحليل وتوجيه هذه الظواهر ؛ وقد تبين ذلك من خلال وصف نموذج التحليل الديداكتيكي للعملية التعليمية المكون من الأهداف، ونقطة الانطلاق، ووضعية العمل التعليمي، وفي الأخير ضبط النتائج؛ بأن أهم ما يمكن ملاحظته على هذا النموذج هو قربه من المواقف التعليمية ومن الواقع المدرسي، بالإضافة إلى كونه يتصف بنوع من الشمول والمرونة بين طبيعة العلاقة بين عناصره[46].

ويمكن اعتبار موضوع التعليمية كما ذكرنا سابقا أنه "علم ــ الجمع" لشموليته كل المواد المعرفية ولتنوع تعاريفه المتخصصة". فإذا مثلنا عمليات علم التعليمية بالتفاعل الحادث بين مدخلات أي نظام تطبيقي، فإنه لتكوين المخرجات، لا بد من تزامن اشتراك منظومة من العناصر الأساسية مثل المعلم و المتعلم، والمعرفة العلمية، والمعرفة العلمية الواجب تعلمها،

والنقل التعليمي، والعقد التعليمي ــ التعلمي...الخ؛ مع عناصر منظومة أخرى ضرورية ومدعمة كالمؤسسة التعليمية وهي أحد محاور السوسيولوجيا التربوية، ومرجعيات أخرى كعلم النفس المعرفي وغيره من العلوم الاجتماعية التربوية والمدرسية، والبيداغوجيا واللسانيات التطبيقية والفلسفة والابستيمولوجيا، والبيولوجيا، والتاريخ، والفيزياء...الخ. إن هذا التفاعل يجعل التعليمية في موقع يكون قريبا من المواقف التعليمية والتربوية على اختلافها مما يكسبها الخصائص البنيوية للمقاربة المنظومية التي تعرف (بأنها كل حقيقي، يحتوى على أجزاء ذات خصائص وعلاقات بنيوية وأنه جملة لا يمكن إلا أن تكون مفتوحة لها مدخل ولها مخرج ومدد خارجي يغمر حركيتها ولها غاية تحدد هويتها)[47].

المفهوم البنائي للتعليمية:

يرتكز مفهوم البنائية في مجال تعليمية المواد على أفضل الوسائل والطرائق لاستخدام المعلومات. و تأتي الطريقة الأكثر فعالية في إحداث التغيير أو بناء معارف جديدة من داخل المتعلم نفسه وبمساعدة معلمه ورفقائه. وفي هذا المجال نجد أن البنائية لا تتفق وما يركز عليه التعليم وفق التفكير الخطي المتسلسل الذي يعمل على توصيل الأفكار ولا يعمل على إعادة بنائها. مرتكزا في ذلك على بث وإرسال المعلم المعرفة إلى المتعلم الذي يكون في وضع المستقبل السلبي للمعلومات. ويقول " أنطوان بروست " مؤكدا على أهمية المثال البنائي لفهم تمشيات التعليم والتعلم وتجويدها ما يلي: يمكن تلخيص البنائية التعلمية في عبارة واحدة: إن المعارف لا تمرر، وذلك خلافا للاعتقاد السائد، بل يجب بناؤها بصفة دائمة من طرف المتعلم والمتعلم وحده.وتمثل البنائية المرجعية الابستيمولوجية المركزية بالنسبة لمخلف تعلميات المواد وذلك خلافا للنظريات البيداغوجية التي غالبا ما نراها تعتمد على مرجعيات سلوكية مثل بيداغوجيا الأهداف أو تقنيات الملاحظة أو بيداغوجيا التحكم وغيرها...)[48].

أهمية التعلمية:

تعد التعليمية من أهم العوامل المؤثرة في عمليات التعليم والتعلم في كل مراحله سواء ما قبل الجامعية منها أو الجامعية، فهي المصدر الأساسي في تنشئة أفراد بقدرات معرفية ومهارات تكنولوجية تساير الحداثة والتطور (والديداكتيكا تعني أسلوب التسيير في مجال التعليم وغيره بواسطة الحاسوب. وتطلق على فضاء التلقين بالإعلام الآلي)[49] كما أنها تستمد أهميتها، في حالة النهوض، بها من قوة تأثيرها في كل المجالات ومتانة ارتباطها بها (إن النهوض بمنظومة التعليم والتعلم سوف يستتبعه نهضة في كافة منظومات العمل الوطني للدولة، وفي المقابل فإن تدني منظومة التعليم والتعلم سوف يصاحبه تدني في مستوى الأداء في كافة هذه المنظومات)[50]. وأنها وسيلة لدراسة آليات اكتساب وتبليغ المعارف المتعلقة بمجال معرفي معين، فهي تمثل في آن واحد تفكيرا وممارسة يقوم بهما المدرس لمواجهة الصعوبات التي يلاقيها في تعليم مادته كما أنها (فن لتعليم الجميع مختلف المواد التعليمية، وأنها ليست فنا للتعليم

فقط، بل إنها للتربية أيضا)[51]، وهذه السمات يمكن توفيرها عند توفر نوع من المناهج التي يطلق عليها اسم منهج الجودة، (هذا النهج، لا يقتصر فيه نوع المعرفة على النصية المباشرة بل يتسع ليتضمن المعرفة الأسلوبية بما يجعل التعلم مزرعة للفكر البشري التي تثمر الدربة والخبرة وتنتج مهارات البحث والتطوير في متتابعة تزايدية تتمثل محصلتها و مخرجاتها في فكر إبداعي ابتكاري بما يحقق الانتقال بالمتعلم من مستوى أداء المهارة إلى مستوى كفاءة الإبداع ومن مستوى الحفظ إلى مستوى التمكن والابتكار)[52].

II ــ أنواع التعلميات:

نظرا لكون التعليمية علم مختص بمادة معرفية معينة فإنه بات من العسير إيجاد تعريف عام لها متفق عليه، على عكس تعليمية المواد الخاصة التي يغترف كل تعريف منها خصوصيته من محتوى مادتها المعرفية، وليس هذا فقط وإنما يرتبط بها أيضا، وهذا ما أدى إلى انفراد كل مادة معرفية بتعريف تعليميتها.

لقد جاء تعريف تعليمية العلوم مختلفا عن تعريف تعليمية التاريخ، وهذا الأخير مختلف عن تعريف تعليمية الفيزياء والرياضيات وغيرها من الموا د الأخرى. ومن منطلق أن التعميم في المعرفة العلمية يقود إلى مترلقات قد تعيق تقدم هذه المعرفة فإننا نجد التعليمية تميل إلى التخصص، أي أن كل تخصص معرفي مستقل بتعريف تعليميته، وهذا يتوضح في تعاريف تعليميات المواد المختلفة التي وضعها المختصون في هذه المجالات المعرفية، وننقلها كما جاءت مترجمة إلى العربية كما يلي:

تعليمية العلوم :

تعريف دوبان (J . J. DUPIN) سنة 1993: وهو مختص في تعلمية العلوم، ويعرّف التعلمية في كتابه "مدخل إلي تعلمية العلوم و الرياضيات" كما يلي: "تدرس تعلمية العلوم تمشيات التعليم وظروف تمرير الثقافة العلمية من ناحية، وشروط امتلاك المعارف العلمية من طرف المتعلمين من ناحية أخرى".

تعليمية التاريخ :

تعريف مونيو (H . MONIOT) سنة 1993: وهو مختص في تعلمية التاريخ، ويعرفها في كتابه "تعلمية التاريخ" كما يلي:

"من المهم أن نؤكد على أمر مبدئي وهام: إن تعلمية المادة لا تأتي بعد هذه المادة لتلتصق بها حتى تعطيها قيمة مضافة من الناحية التربوية. إن التعلمية تحلل عن قرب تدريس هذه المادة وظروف تعلمها من طرف التلاميذ. إنها تدرس العمليات التي تجري بذهن المتعلم عندما يتعلم هذا الأخير التاريخ من ناحية و تساعد المدرّس على السيطرة على المشاكل المترتبة عن تدريس

التاريخ للتلاميذ من ناحية أخرى. وقد أصبحت تعلمية المواد مجالا للبحث والمعرفة قائم الذات".

تعليمية الفيزياء:

تعريف مارتيناند (J. L. MARTINAND) سنة 1993: وهو مختص في تعلمية الفيزياء والتكنولوجيا، ويقول في كتابه "دليل التعلمية" ما يلي:

'أود في البداية تعريف لفظة تعلمية بالنسبة للفظة بيداغوجيا رفعا للالتباس الذي غالبا ما يحصل لدى البعض عند حديثهم عن قضايا التربية والتعليم. إني أسمي بيداغوجيا كلّ ماله علاقة بالفصل وبالعلاقة التربوية وبالملكات التواصلية للمدرس... وأسمي تعلمية المقاربة التي تحلل تمشيات التعليم والتعلم من وجهة نظر المعرفة العلمية. ذلك أنني لا أعتقد في وجود محتويات تعليمية دون تفكير ابستيمولوجي في هيكلة المعرفة وتنظيمها وأرجع هذا التفكير في المادة المدرسية إلى مجال التعلمية. ومن هذا المنظور فإن التعلمية ليست مجرد قائمة من النصائح والتوصيات التربوية. إنها بحث في طرائق تعليم المضامين العلمية وفي استراتيجيات تعلمها من طرف الأطفال'.

تعليمية الرياضيات :

تعريف فارنيود (G. VERGNAUD :1995) : وهو مختص في تعليمية الرياضيات، ويعرّفها في كتابه "التعلم والتعليمية" كما يلي:

" تدرس تعليمية الرياضيات تمشيات التعليم المتعلقة بمادة الرياضيات. فهي تصف الصعوبات الناتجة عن هذه التمشيات وتحليلها، كما تقترح على كل من العلمين والمتعلمين الوسائل التي من شأنها أن تعينهم على تخطي هذه الصعوبات من ناحية، وعلى جعل المعرفة المدرسية معرفة حية، وظيفية من ناحية أخرى".

تعليمية الجغرافيا:

تعريف ماسون (M. MASSON: 1994) : وهي مختصة في تعلمية الجغرافيا، وفي كتابها "الجغرافيا المدرسية" بدأت تعريفها لتعليمية الجغرافيا بالاستفسار التالي: "ماهي التعلمية وما هي مشاغلها؟ تهتم تعلمية الجغرافيا مثلا بتحليل ملابسات تدريس هذه المادة المدرسية التي توجه للمتعلّمين داخل الفصل، وتحتوي على مضامين قد وقع بناءها في علاقة متينة مع البحث العلمي الجامعي. غير أن الجغرافيا تتميز عن الرياضيات مثلا بتعدد مراجعها الأكاديمية (بتعدد المدارس الجغرافية). لذلك نقول بأن التمشيات التعلمية لمدرّسي الجغرافيا تختلف باختلاف توجهاتهم الابستيمولوجية، سواء كانت هذه التوجهات صريحة أم ضمنية... ونلاحظ أخيرا أن تعلمية الجغرافيا تهتم كذلك بقضايا تملّك المعرفة الجغرافية من طرف المتعلّمين، وذلك لارتباطها بتمشيات تعليمها داخل المؤسسة التربوية".

تعليمية اللغة:

تعريف هلتاي (J. F. HALTE :1992): وهو مختص في تعلمية اللغة. يقول فرانسوا هلتاي في كتابه: "تعلمية الفرنسية"ما يلي: " يمكن تقديم ثلاث تحديات متكاملة لتعلمية اللغة:

أولا ــ تهتم التعلمية بالتفكير في محتويات التعليم (النحو، القراءة، اللغة،...) وذلك بتحليل خاصياتها المعرفية، ومتزلتها الابستيمولوجية ومنهجية بنائها وكذلك طريقة صياغتها في منهج مدرسي. ومن الواضح أن المقاربة الابستيمولوجية هي المسيطرة على هذا البعد الأول من التحاليل التعلمية.

ثانيا ــ ويمكن للتعليمية أن تهتم كذلك بالظروف المنظمة للتملّك الاصطناعي للمعرفة من طرف المتعلّمين، ذلك بالتساؤل حول بناء المفاهيم من طرف التلاميذ وما يستلزمه هذا البناء من معارف سابقة وما يعترضه من تصورات وعوائق ... ويسيطر البعد السيكولوجي على هذه المقاربة الثانية.

ثالثا ــ وقد تهتم التعلمية أخيرا بالبحث في تمشيات التعليم والتعلم الخاصة بمادة مدرسية معينة وذلك بمحاولة ربط التحاليل المقامة في 'ثالثا' بواقع الفصل كأن تستعمل هذه الأخيرة لتسليط الأضواء على تمشيات التعليم وميكانيسمات التعلم... ويسيطر على هذه المقاربة البعد النفسي ــ الحركي".

التعليمية وعلم النفس:

يقول"بياجيه" في مقدمة كتاب "التعليمية السيكولوجية" لمؤلفه "أيبلي"(1951م) ما يلي: "...تطبيق نتائج علم النفس على التربية لا يعود إلى المختصين في علم النفس، لأن هؤلاء وإن كانوا عارفين بسيكولوجية الطفل فإن معرفتهم لواقع الفصل منعدمة، غير أن المربين من ناحيتهم لم يتمكنوا من استغلال نتائج تجاربنا السيكولوجية لفائدة تجويد العملية التعلمية ــ التعليمية. ذلك أن المعرفة العميقة للميكانيسمات الذهنية، لا تأتي من مطالعة الكتب السيكولوجية فحسب بل تتطلب إلى جانب ذلك المشاركة الشخصية في التجارب المقامة على الأطفال داخل المخابر المختصة... ويدعو المؤلف إلي ضرورة بناء الوضعيات التعلمية ــ التعليمية على مبدأ نشاط الفرد، وأنّ الدعوة إلى النشاط لا تعود فقط إلى سيكولوجية الدافعية بل تفسر كذلك بالميكانيسمات العميقة لنمو الذكاء وتطوره؛ ذلك أن البناء الحقيقي للمعارف لا يمكن أن يجري خارج النشاط الفعلي للفرد.

ورغم أن الدراسات السيكولوجية التي قام بها "بياجيه" ليست لها مقاصد تربوية مباشرة، فإن تعليمية المواد قد استوحت منها الكثير وذلك لأن كلا الميدانين (علم النفس النشوئي وتعليمية المواد) يهتمان بنفس القضية وهي: كيف تجرى عملية التعلم أي كيف تجرى عملية اكتساب المعرفة من طرف الفرد؟)[53].

الخاتمـــة

التعليمية هي طريقة عملية لضبط الموقف التعلمي ـــ التعلمي داخل القسم بين المعلم والمتعلم لتبليغ أهداف الجانب المعرفي من جهة، وخلق الانسجام بينهما لتحقيق أهداف الجوانب الوجدانية و الحركية من جهة أخرى.

كما أنها وسيلة لدراسة آليات اكتساب وتبليغ المعارف المتعلقة بمجال معرفي معين، فهي تمثل في آن واحد تفكيرا وممارسة يقوم بهما المدرس لمواجهة الصعوبات التي يلاقيها في تعليم مادته.

وللتعليمة مفاهيم خاصة بها، وهي على عدة أنوع: تعليمية العلوم، وتعليمية الرياضيات والفيزياء واللغة والتاريخ ... ولكل تعليمية منها تعريف خاص يتماشى ومحتواها المعرفي العلمي.

تعد التعليمية من أهم العوامل المؤثرة في عمليات التعليم والتعلم في كل مراحله سواء ما قبل الجامعية منها أوالجامعية، فهي المصدر الأساسي في تنشئة أفراد بقدرات معرفية ومهارات تكنولوجية تساير الحداثة والتطور.

قائمة لمراجع حسب ورودها في البحث

1- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية محكم تصدرها المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية ببوزريعة، العدد 16، الجزائر.ص117.

2- محمد الدريج (2000): مدخل إلى علم التدريس تحليل العملية التعليمية. كلية علوم التربية، المركز الوطني لتكوين مفتشي التعليم، الرباط، قصر الكتاب، البليدة.صص 3 - 8.

3- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية ISBN ،تونس. ص5

4- رضا مسعد السعيد (2004): آليات البحث التربوي بين الخطية والمنطومية، المؤتمر العربي الرابع حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم من 3 إلى 4 أبريل 2004، مركز تطوير تدريس العلوم، جامعة عين شمس، القاهرة.ص349.

5- منير البعلبكي (1978): المورد، قاموس انجليزي - عربي، ط$_{12}$، دار العلم للملايين، بيروت.ص271.

6-Belot, j.B., (2001): Dictionnaire Français – Arabe. Copyrigt by Imprimerie catholique Biroute – Liban. p162.

7-Chabchob, A. (1996): psychologie et pédagogie chez Piaget: Quels rapport épistémologique?. L'apport de Piaget aux étude pédagogiques et didactiques. Acte du colloque international. Jean Peaget. Tunis. P32

8- محمد الدريج (2000): مدخل إلى علم التدريس تحليل العملية التعليمية، (مرجع سابق)ص4

9- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).

10-Foulquié,P. (2000): Dictionnaire de la langues pédagogique. P. U. F, Parais. pp126, 127

11-Larousse 3 volumes en couleurs: Dictionnaires Encyclopydiaue. E^{d}, 1983, vol 1 .p91

12- خالد لبصيص (2004): التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر.صص151، 9، 133.
13-Chabchob, A. (2001): introduction au didactiques de disciplines. M[ed] Ali Edition Tunis.p11
14-Develay, M. (1992): De l'apprentissage à l'enseignement. E.S.F, Parais. P 68.
15-Decorte & coll, (1992): Les fondements de l'action didactique. E[d] Bruxelles, 2[eme] E[d].pp329, 337
16- منير البعلبكي (1978): المورد، قاموس انجليزي - عربي، (مرجع سابق).ص271.
17-Decorte & coll, (1992): Les fondements de l'action didactique. E[d] Bruxelles, 2[eme] E[d].p 337 (مرجع سابق)
18-Suzanne, Mainville,(1997): La recherche en didactique, Département d'études en éducation et d'administration de L'éducation, Faculté des sciences de l'éducation, Université de Montréal. p4
19- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
20-Clément,P.& Harfouche, Z. H. (2000): Elaboration de programme au Liban: La transposition didactique externe en œuvre. Didactique de la Biologie. Colloque internationale de la biologie. Alger- Algérie, 23 – 25 octobre 2000. p222
21- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
22-Wittman, Eric . (2000): développement Mathematics in a systemic process, A plenary lecture in TCME-q, Makahuri, Tokyo, Japan. p: 174
23-Clément,P.& Harfouche, Z. H. (2000): Elaboration des programme au Liban: La transposition didactique interne en œuvre. Didactique de la Biologie. Colloque internationale de la biologie. Alger- Algérie, 23 – 25 octobre 2000. p221
24- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه، سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
25-Chevalard, Y. (1985): La transposition Didactique: du savoir savant au savoir enseigné. Grenoble: la pensée sauvage (nouvelle édition augmenté en 1989). didactique de la Biologie. Colloque internationale de la biologie. Alger-Algerie, 23 – 25 octobre 2000. P 223
26-Favre, D.(2000): La dimension affective dans l'apprentissage des sciences. didactique de la Biologie. Colloque internationale de la biologie. Alger-Algerie, 23 –25 octobre 2000. p83
27-Clément,P. (2000): La recherche en didactique de la biologie. didactique de la Biologie. Colloque internationale de la biologie. Alger- Algerie, 23 – 25 octobre 2000. p11
28- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
29- نفس المرجع.
30- محمد الدريج (2000): مدخل إلى علم التدريس تحليل العملية التعليمية. (مرجع سابق).
31- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).
32- فاروق فهمي (2004): المدخل المنظومي وإدارة وضبط الجودة الشاملة في منظومة التعليم المؤتمر العربي الرابع حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم من 3 إلى 4 أبريل 2004، مركز تطوير تدريس العلوم، جامعة عين شمس، القاهرة.ص 17.
33-Develay, M. (1992): De l'apprentissage à l'enseignement. E.S.F, Parais. P 68. (مرجع سابق)
34- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه، سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
35-Chabchob, A. (2001): introduction au didactiques de disciplines..(مرجع سابق)

36- محمد الدريج (2000): مدخل إلى علم التدريس تحليل العملية التعليمية. (مرجع سابق).
37- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).
38- محمد الدريج (2000): مدخل إلى علم التدريس تحليل العملية التعليمية. (مرجع سابق).
39- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
40- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).
41- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
42-Caillot, M. (1996): Histoire des sciences ou Histoire personnelles des eléves. , in chabchoub, A. (1998): obstacle a l'apprentissage des sciences. Sfax publication de l'univercité. p14
43- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
44- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).
45-Astolfi, j.p. (2001): preface, in chabchoub, A. introduction au Didactiques des sciences. M^{ed} Ali Edition Tunis. P8
46- قلي عبد الله (2000): التعليمية العامة، مجلة المبرز، فكرية أدبية(مرجع سابق).
47- عبد الحميد بن تشيكو (2004): حول الأسس العلمياتية (الابستيمولوجية) للمقاربة المنظومية، الملتقى العربي الأول حول المقاربة المنظومية في التعليم والتكوين، من 9 - 10 مارس، ابجزائر, مجلة المبرز. العدد 21. ص225.
48- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).
49- خالد لبصيص (2004): التدريس العلمي والفني الشفاف بمقاربة الكفاءات والأهداف،(مرجع سابق).
50- فاروق فهمي (2005): تطبيقات المدخل المنظومي في مواجهة التحديات الحاضرة والمستقبلية، المؤتمر العربي الخامس حول المدخل المنظومي في التدريس والتعليم من 16 إلى 17 أبريل 2004، مركز تطوير تدريس العلوم، جامعة عين شمس، القاهرة. ص 23.
51-Chabchob, A. (2001): introduction au didactiques de disciplines.(مرجع سابق)
52- فاروق فهمي، (2001): المدخل المنظومي في مواجهة التحديات التربوية المعاصرة و المستقبلية، دار المعارف (ج. م. ع). ص 15.
53- شبشوب أحمد (1997):تعليمية المواد منهج وتطبيقه،سلسلة وثائق تربوية (مرجع سابق).

إستراتيجية التدريس الجامعي في ظل مواصفات الأستاذ

أ / بالطاهر النوي
المركز الجامعي بالوادي

مقدمـــة

الجامعة في أي مجتمع هي المسئولة على تنمية أهم ثروة يمتلكها المجتمـــع الثـــروة البـــشرية أو الرأسمال البشري. حتى صار التعليم الجامعي أمل المجتمعات المعاصرة في إمدادها بالإطـــارات والكوادر ذات الكفاءة العلمية والفنية، التي سوف يعتمد عليها لقيادة التغيير وتحقيـــق التنميـــة الشاملة اقتصاديا واجتماعيا وتربويا وثقافيا.

والأستاذ الجامعي هو العنصر الفعال في العملية التعليمية الجامعية، والمحرك الأساســـي لهـــا فخصائصه الشخصية والمعرفية والانفعالية لها دور هام في فعالية العملية التعليمية،لأنـــه مهمـــا كان مستوى المناهج التي تقدمها الجامعة،والتجهيزات والمخابر والهياكل التي تتـــوفر عليهـــا، لا يمكن لها أن تحقق أهدافها في إحداث التغيير المطلوب،وفرض قيادتها العلمية والاجتماعيـــة، ما لم يتواجد فيها الأستاذ الكفء تدريسا وبحثا، فالأستاذ الجامعي دو الكفاءة العاليـــة يمكـــن أن يعوض أي نقص

أو تقصير محتمل في الإمكانات المادية والفنية في الجامعة،ويمكن أن يجعلها تقـــود المجتمـــع وتتبوأ المكانة المتميزة التي ينبغي أن تكون عليها.

ومن منطلق أن الأستاذ الجامعي الكفء أساس التدريس الفعال، دلك انه بالشكل الـــذي يكون عليه الأستاذ يؤثر في سير ومجريات العملية التعليمية. فالتساؤل الـــرئيس الـــذي يمكـــن أن ننطلق منه في هده المداخلة، هو: فيما تتمثل المواصفات التي يتميز بها الأستاذ الجامعي كقائد على درجة عالية من الكفاءة والجودة في إطار تكوين الطلاب من خلال عملية التدريس، هذه الأخيرة التي قد تعوقها معوقات تظهر أساسا في صور التواصل الهـــش والتفاعـــل المنقـــوص بين الطالب والأستاذ؟

ماهية عملية التدريس:

التدريس هو المهمة الأساسية الأولى للأستاذ الجامعي، ويعني نقل المعارف والمحافظة عليها.

ويعرف التدريس على انه عمل مخطط لمساعدة شخص ما لاكتساب المعارف أو المهـــارات أو الاتجاهات أو الأفكار أو تغييرها وفقا لمنهج دراسي معين[1].

و فيما يتعلق بمجالات أنشطة عملية التدريس في الجامعة، فهي ما يلي:

أولا: التخطيط لإعداد الدروس وإلقائها، من حيث:

1- تحديد أهداف الدرس
2- تحديد وضعيات الطلبة قبل التدريس
3- تحديد مضمون الدرس(مفاهيم، حقائق، معلومات، قواعد...)
4- تحديد الأنشطة(طرائق التدريس، ما يقوم به الأستاذ، ما يقوم به الطلاب)
5- تحديد أساليب التقويم(مدى تحقيق الأهداف)
6- التحكم في سلوك الطلبة أثناء إلقاء الدرس[2].

والسؤال المطروح في هدا السياق، هو كيف يتم تحضير الدروس؟

إن تحضير الدروس والمحاضرات، يكون انطلاقا من الرزنامة الوزارية الخاصة بالمناهج التعليمية، هده الرزنامة تحدد فيها المحاور الأساسية لكل مقياس، وفي إطار هده المحاور يستوجب من الأستاذ القيـــام ببحث من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع المتخصصة لتحضير الدرس أو المحاضرة في هدا المحور أو ذاك، من خلال تضمين الدرس جملة من العناصر ذات الصلة والعلاقة بالمحور محل التناول.

وفيما يلي أمثلة توضيحية لكيفية تحضير الدروس والمحاضرات لبعض المقـــاييس في التربيـــة وعلم النفس، كما وردت في الرزنامة الوزارية للتعليم العالي.

1- السنة أولى علم النفس (جدع مشترك)

مقياس: مدخل إلى علم النفس

1- موضوع علم النفس(مفهومه وأهميته)
2- مدارس علم النفس
3- الوظائف النفسية الأساسية(الإحساس، الإدراك)
4- القياس والاختبارات النفسية
5- الميادين العلمية والتطبيقية لعلم النفس

مقياس: منهجية عامة أو منهجية البحث

1- مقدمة: طرق تحصيل المعرفة وتدوينها
2- البحث العلمي وخصائصه
3- أنواع المناهج: الوصفي، التجريبي...الخ
4- تصنيف البحوث العلمية
5- طرق جمع البيانات: الملاحظة، المقابلة، الاستبيان، الاختبارات

6- القيام ببحث علمي، من خلال:
- تحديد المشكل
- صياغة الفرضيات
- الدراسات السابقة
- معالجة النتائج وكتابة التقرير

من خلال هدا المقياس، يحاول الأستاذ عن طريق سلسلة من الدروس والأعمال الموجهة، تدريب الطلاب على كيفية بناء مشروع بحث انطلاقا من القواعد المنهجية الأساسية لإعداد البحث العلمي.

2- الجدع مشترك علوم التربية

مقياس: القياس في التربية

1- أهمية القياس في التربية
2- نظريات القياس في التربية وعلم النفس
3- مستويات القياس
4- تصنيف الاختبارات(الذكاء، القدرات، التحصيل، الاتجاهات والميول)

مقياس: مناهج البحث في التربية

1- البحث العلمي وتطوره
2- مناهج البحث العلمي(المنهج الوصفي، التجريبي، دراسة الحالة)
3- جمع البيانات والكتابة العلمية

مقياس: تطور الفكر التربوي

تطور الفكر التربوي في مختلف الحضارات:

الصينية، واليونانية، والرومانية، والإسلامية، والتربية في عصر النهضة الأوربية، والتربية في العصر الحديث.

لغة أجنبية: التركيز على دراسة المصطلحات التربوية والنفسية من خلال سلسلة من المحاضرات والدروس.

3- السنة الثالثة إرشاد وتوجيه: مفاهيم ونظريات

1- مفهوم التوجيه
2- مفهوم الإرشاد
3- نظرة تاريخية لتطور التوجيه والإرشاد
4- ميادين التوجيه ومجالاته
5- مؤسسات التوجيه والإرشاد وأساليبهما
6- نظريات التوجيه
7- نظريات الإرشاد

مقياس: القياس النفسي وبناء الاختبارات
1- مدخل حول القياس النفسي والتربوي
2- الاختبارات النفسية وتصنيفها
3- بناء الاختبارات النفسية وتكييفها
4- التطورات المعاصرة في القياس النفسي
مقياس: المعلوماتية والتربية
1- مدخل إلى المعلوماتية وتطورها
2- المعلوماتية والمجتمع
3- أنظمة الحاسوب والتربية
4- التربية المعلوماتية والمتعلم
مقياس: تقنيات إعداد وتنفيذ البحث التربوي

يقوم الأستاذ بتكليف الطلبة بإعداد مشاريع بحوث انطلاقا مما درس في مناهج البحث التربوي في السنة الثانية ثم تقديمها للدراسة والمناقشة والتصحيح مع الطلبة في القاعة، ويسبق هده العملية تذكير بما قدم في مجال منهجية البحث العلمي والبحث التربوي.

مقياس: خصائص التعليم في الجزائر
1- خصائص التعليم ما قبل المدرسة
2- خصائص التعليم الأساسي بأطواره الثلاثة
3- خصائص التعليم الثانوي
4- خصائص التعليم العالي

4- السنة الرابعة إرشاد وتوجيه

مقياس: التأخر الدراسي وطرق علاجه
1- التأخر الدراسي: مفهومه وعوامله
2- آثار التأخر المدرسي على حياة التلميذ
3- أنواع صعوبات التعلم
4- الإجراءات العلاجية
مقياس: تقنيات الفحص والكشف
1- مدخل عام
2- تقنيات الفحص والكشف(الملاحظة، المقابلة، الاختبارات...)
3- اختبارات الشخصية(الاختبارات الاسقاطية والموضوعية)
4- اختبارات القدرات العقلية والتحصيلية

وتجدر الإشارة في هدا السياق، إلى أن أسوأ طريقة للتدريس الجامعي، وهي سائدة في كثير من جامعاتنا، هي طريقة الإملاء التي يستغرق فيها الأستاذ كل زمن المحاضرة، وفي بعض الأحيان تتم هده العملية دون شرح للمعلومات التي يتم إملاؤها على الطلبة.

صحيح أن الأسلوب الشائع في التدريس، هو استخدام المحاضرة. هدا الأسلوب الذي يحتاج في المقام الأول إلى مهارات لابد أن يتدرب عليها الأستاذ الجامعي ويتقنها، كتكرار المعلومة بأساليب متنوعة استمرارا لجدب الانتباه والاهتمام،والتغيير من نبرة الصوت والحركة، وإتاحة فرصة الترويح المناسب تلافيا للملل، والاهتمام بتصرفات الطلاب والتحكم في سلوكهم أثناء المحاضرة.

من هدا المنظور، تحرص المؤسسة الجامعية على استقطاب أفضل الكفاءات العلمية في مجال التدريس، ليؤدوا دورهم القيادي في إعداد الطلاب وتزويدهم بالعلم والمهارات اللازمة.

وحسبنا هنا،الطرح الذي قدمه **جون كوتر**(John Kuter) بخصوص أساس التغيير الفعال لأي مؤسسة خدمية أو شركة أعمال،حيث يرى: "انه في العالم الحقيقي، تبوء بالفشل معظم محاولات تغيير مؤسسات الأعمال والارتقاء بها نحو الأفضل بسبب:

1- وجود حالة كبيرة من القصور الذاتي التي لا يمكن التغلب عليها دائما في خطوة واحدة.

2- الحاجة إلى قيادة على درجة عالية من الكفاءة والجودة، بدلا من الإدارة، حتى ولو كانت هذه الإدارة تتسم بالتفوق والامتياز.ولذلك حسب **جون كوتر**، يتطلب القيام بتغيير أي مؤسسة من المؤسسات في المقام الأول وقبل كل شيء، قادة يفهمون عملية تغيير العمل وقادرين على تنفيذها[3].

فكذلك الحال بالنسبة للمؤسسة الجامعية، فهي بحاجة إلى أساتذة أكفاء تتوفر فيهم الخصائص والمواصفات اللازمة لإحداث التغيير المرغوب، والاستثمار الناجح في المورد البشري الذي يعد بمثابة حجر الأساس في عملية البناء والتطوير.

من هنا كان الاهتمام بالأستاذ وكان حرص المؤسسة الجامعية على أن تظم بين أسوارها أفضل الأساتذة، ذلك أن الجامعة تتوقع من أساتذتها أن يكونوا ذو قدرات وخصائص مميزة أكاديميا ومهنيا، ماهرين في التدريس متحمسين لمهنتهم، بالإضافة إلى ما يتسمون به من خصائص إنسانية،وعلاقات اجتماعية سليمة وطيبة مع طلابهم.

وتأسيسا على ما سبق، يمكن أن نتساءل عن الخصائص والمواصفات التي تميز الأستاذ الجامعي كقائد ومحرك لعملية التغيير من خلال ما يقوم به من أنشطة بيداغوجية مختلفة وفي مقدمتها نشاط التدريس؟

خصائص الأستاذ الجامعي الكفء:

إن كفاءة الأستاذ تتحدد من خلال المكتسبات العلمية للطلبة، ومن خلال تأثيره فيهم من حيث إكسابهم قيم واتجاهات وعادات مرغوبة، وبمعنى آخر، فان الأستاذ الكفء هو الذي يحقق أهداف التعليم كما تظهر في سلوك الطلبة بعد التعرض لعملية التعلم.

وفي هذا الإطار سيتم تناول بعض الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع على النحو التالي:

في دراسة أجراها(**ف. بوج**-1965 F .Pogue) على عينة تكونت من 307 طالبا وطالبة أن يرتبوا عشر خصائص للأستاذ الجامعي حسب أهميتها،فجاءت النتيجة أن الأستاذ المتمكن من المادة والواضح في الشرح والدقيق في تقويم الطلبة من أهم خصائص الأستاذ الكفء. أما الاشتغال بالبحث والتأليف والنشر والعناية بالطلاب وتشجيعهم على التفكير الناقد من اقل الخصائص أهمية في تحديد الأستاذ الكفء.

وبينت دراسة(**ب. م جادزيلا**- 1968 B.M Gazella) إن تمكن الأستاذ من مادته وإعداده لمحاضراته والتشويق في عرض المادة، تعتبر من أهم خصائص الأستاذ الجامعي الكفء. أما العناية بالبحث والتأليف والمظهر الخارجي والمشاركة الاجتماعية فهي اقل الصفات أهمية.

وبينت دراسة **فرج عبد القادر طه**(1989) في مصر، أن هناك عددا من الخصائص الشخصية والسلوكية تساهم في نجاح الأستاذ الجامعي من بينها:

1- الرغبة في التدريس
2- الضمير الحي
3- الاتزان الانفعالي
4- الذكاء
5- المعرفة العلمية
6- الإلمام الواسع بمجال التخصص
7- المهارة اللغوية
8- اتساق الفكر ومنطقيته[4]

أما الدراسة التي أجراها **عبد الله السهلاوي** (1992) على 102 من طلاب كلية التربية بجامعة الملك فيصل بالسعودية،بينت أن أهم عشرة خصائص للأستاذ الجامعي هي:

1- تنمية روح التفكير الابتكاري لدى الطلبة
2- الحيادية والموضوعية في التعامل مع الطلبة وتقويمهم
3- الإحاطة بالمادة والحرص على متابعة ما يجد فيها من أبحاث
4- البشاشة والمرح
5- المشاركة في الندوات والمحاضرات والأيام الدراسية
6- الاستغلال الجيد للحوافز المادية والمعنوية في العملية التعليمية
7- الاهتمام بالمظهر الخارجي
8- الاهتمام بالبحوث العلمية والتأليف والنشر
9- الحماس لتدريس المادة
10- الالتزام بمواعيد المحاضرات[5]

وبينت دراسة **صلاح الدين أبو ناهية** (1992) التي أجراها على 92 طالبا وطالبة بكلية التربية بالجامعة الإسلامية غزة بفلسطين. أن أهم عشرة خصائص للأستاذ الجامعي الفعال أو الكفء، هي كما يلي:

1- التمكن من الموضوع الذي يدرسه
2- المواظبة على محاضراته والالتزام بمواعيدها
3- مؤهل بدرجة عالية أكاديميا
4- يعدل بين طلابه ويعاملهم بالتساوي
5- يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه
6- يتصف بالحيوية والدافعية نحو العمل
7- يعرض المحاضرة بطريقة شيقة
8- يعرض المحاضرة بوضوح وبساطة
9- يحترم آراء الطلبة حتى ولو كانت مخالفة لرأيه
10- متحمسا لتخصصه[6]

وفي كلية التربية بجامعة صنعاء باليمن أنجز **عبد الصمد الاغبري** (1996) دراسة على 221 طالبا وطالبة من تخصصات علمية وأدبية تبين من نتائجها أن أهم عشرة خصائص للأستاذ الجامعي، هي:

1- القدرة على ربط المادة بالواقع
2- الإلمام بالمادة
3- الالتزام بالقيم الإسلامية
4- القدرة على توصيل المعلومات
5- المظهر الحسن
6- النشاط العلمي في البحث والتأليف
7- التواضع
8- التحلي بالصبر
9- القدرة على ضبط الطلاب
10- الاعتزاز بالمهنة[7]

وبجامعة قطر، أجرت **شيخة عبد الله المسند** (1996) دراسة حول مقومات التدريس الجامعي الفعال. وتكونت العينة من 330 طالبا وطالبة من مختلف كليات جامعة قطر، فجاء ترتيب المقومات كما يلي:

1- الصفات الشخصية
2- الامتحانات وتقويم الطلاب
3- التفاعل مع الطلاب
4- الأداء التدريسي
5- البحث العلمي[8]

وبينت دراسة **تيسير عبد الله**(1997) على 142 طالبا وطالبة من تخصصات أدبية وعلمية بجامعة بيت لحم بفلسطين، أن هناك ترتيبا معينا لخصائص الأستاذ الجامعي الجيد كما يدركه الطلاب، وهو كما يلي:

1- الخصائص الاجتماعية مثل: العطف، التسامح، حب الطلاب، القيادة، المرونة في المعاملة، القدوة الحسنة، التواضع، التفاعل الصفي، المظهر اللائق.

2- الخصائص الشخصية مثل: الصبر، الذكاء، الثقة بالنفس، الاتزان الانفعالي، المعرفة العلمية المتخصصة، المهارة اللغوية، أسلوب التدريس الجيد.

3- الخصائص المهنية مثل: الضمير المهني الحي، احترام الطلبة، الموضوعية في التعامل مع الطلبة، العدالة في التقويم، الدافعية، الالتزام بالمواعيد[9].

إذا تمعنا في نتائج الدراسات السابقة، نلاحظ أن الخصائص التي أسفرت عنها نتائجها أنها لم تتفق على أهمية خصائص معينة، إلا أنها تميل في اغلبها إلى اعتبار الخصائص المتعلقة بالتدريس والعلاقات الطيبة مع الطلبة هي المهمة مقابل الخصائص الشخصية.

في تحليله لبعض عوامل تدني مستوى التكوين العالي بالجامعة الجزائرية، يذكر **الطيب بلعربي**: أن ضعف الدروس خاصة النظرية منها، حيث أنها لا تجدد وتلتزم بتقديم القديم من المعلومات والتي بإمكان أي طالب أن يحصل عليها من المراجع القليلة الموجودة، علاوة على المشكلات البيداغوجية كتباين طرائق التدريس والتقويم وعدم وضوحها للطالب خاصة.

إن هذه الممارسات قد تعزى إلى غياب الرؤية الواضحة والمتبصرة لدى الأستاذ الجامعي، وافتقاره للخصائص والمواصفات سالفة الذكر.

من الشروط الأساسية في عملية الاتصال (La communication)، التي تربط المبلغ (الأستاذ) والرسالة والمستقبل(الطالب)، أن يكون الأستاذ ذا شخصية مقنعة بما في ذلك المظهر الخارجي، وتحكمه في اللغة كأداة توصيل وتواصل، وإيمانه بسلامة الرسالة المنوطة به[10].

وفي سياق الحديث عن الآلية التي ينبغي أن تتم بها عملية التدريس الجامعي، وتلافيا للمعوقات التي قد تعوق عملية التواصل بين الأستاذ والطالب، يستحسن التأكيد على جملة من النقاط هي:

1- إجبارية مرور طلبة الماجستير بعملية إعداد تربوي مكثف مع التدريب على عملية التدريس عن طريق تكليفهم كأساتذة مؤقتين، وذلك قبل التحاقهم الرسمي بالجامعة.

2- أثناء عملية التوظيف، ينبغي الاهتمام باختيار الأساتذة ذوي الكفاءات العالية أكاديميا وأخلاقيا.

3- تنظيم ندوات دورية للأساتذة غير المؤهلين لتعريفهم بأحدث الأساليب البيداغوجية في التدريس واطلاعهم على البحوث التربوية ونتائجها للاستفادة منها في تطوير تدريسهم.

4- الاستفادة من الأساتذة الأكفاء، ومضاعفة آثرهم عن طريق إشاعة محاضراتهم بواسطة أشرطة الفيديو وأجهزة الكمبيوتر.

5- ضرورة التنسيق بين الأستاذ المحاضر والأستاذ المطبق، وهذه قضية في غاية الأهمية في العملية التعليمية.

6- تنظيم ملتقيات وطنية حول التدريس الجامعي، لتبادل الخبرات بين الأساتذة والاستفادة من تجاربهم في المجال التعليمي.

7- وإجمالا، فانه يتوجب العناية بالأستاذ وتكوينه، وتوفير الشروط الضرورية للقيام بدوره، وبدون ذلك يكون الفشل مال عملية التدريس برمتها.

الخلاصة

إذا نظرنا إلى عملية التدريس كإستراتيجية وتتبعناها من زواياها المختلفة، نجد أن الأستاذ يمثل محور هذه العملية، وهناك صفات كثيرة يمكن أن تقال عن الأستاذ الناجح إلا أن هناك صفات أساسية لابد من توافرها في الأستاذ الناجح، وهي كما يلي:

- إن أول ما يشترط في الأستاذ الناجح أن يكون ملما بالمقاييس التي يدرسها.

- أن يحب الأستاذ المقاييس التي يدرسها ويحب مهنته، ذلك أن حب الأستاذ للمقاييس يجعل عملية التدريس سهلة حتى ولو كان المدرس متعبا، ومن الضروري أن يكون المدرس معدا لنفسه ولمستقبله لكي يكون مدرسا بأتم معنى الكلمة.

- أن يحب الطلاب، فإذا لم يكن الأستاذ محبا لطلابه فخير له أن يترك التدريس. ومحبة الأستاذ لطلابه لابد أن يتوافر لها ركن آخر وهو أن يعرف الأستاذ طلابه، وان فهم الأستاذ لطلابه يساعده في التغلب على كل ما يقابله من صعوبات ومشكلات في إطار مهامه البيداغوجية المختلفة.

- روح المرح: إن وجود هذه الروح لدى الأستاذ يساعده على إبقاء نشاط الطلاب وتيقظهم أثناء الدرس.

إلا أن السؤال المطروح بعدما عرفنا الشروط الواجب توافرها في الأستاذ الناجح هو:

هل هناك قدرات لابد من توافرها في الشخص الذي يعمل بالتدريس ؟

أول هذه القدرات: الذاكرة وليس المقصود بالذاكرة أن يتذكر الأستاذ أسماء طلابه فحسب، بل انه يتعدى ذلك إلى أن يتذكر مادته وما يقوله خلال عملية التعليم التي يقوم بها لكي يربط بين ما قيل سابقا وما يقال الآن. إن عملية الربط هذه تدفع الطالب إلى التعرف على تلك المادة على أنها مادة متكاملة وينظر إليها نظرة شاملة وليست تلك النظرة السطحية الضيقة.

ثانيا: قوة الإرادة، فالمدرس الكفء شخص يستطيع اتخاذ القرارات، وان يكون حازما ذو إرادة قوية.

ثالثا: أن يكون الأستاذ عطوفا، دلك أن الشفقة والعطف لا يتعارضان مع الحزم وقوة الإرادة. فلو أدرك الطالب إن حزم الأستاذ إنما هو لصالحه، لأقبل على الدرس والتحصيل العلمي دون ملل. ولا يمكن أن يظهر ذلك إلا في إطار من الشفقة والعطف على الطلاب.

وما ينبغي التأكيد علية في هذا الصدد، انه من الحكمة أن يحب الأستاذ طلابه بإخلاص، وهذه المشاعر نحو الطلاب تعتبر ضرورية للتدريس الفعال ولتحقيق العلاقات الصحية داخل الحرم الجامعي في مختلف منابر العلم والمعرفة.

إن التدريس الفعال يتوقف على مدى تمتع الأستاذ بالخصائص والمواصفات سالفة الذكر، ولا شك أن النقائص والمزالق التي تعاني منها عملية التدريس بالجامعة مردها بالأساس غياب الأستاذ الكفء بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من دلالات، وذلك على اعتبار أن الأستاذ هو المحرك لهذه العملية وعلى عاتقه تعد مخرجات الجامعة من الكوادر والإطارات المؤهلة لبناء المجتمع وتطويره.

الهوامش

1 محمد كامل الناقة: في التدريس الجامعي، دراسات تربوية تصدر عن رابطة التربية الحديثة، القاهرة، العدد الثاني، 1986.

2 مصطفى حداد: إعداد أعضاء هيئة التدريس وتأهيلهم، العلوم التربوية- يصدرها معهد الدراسات التربوية بجامعة القاهرة، المجلد الأول، العدد الأول- يوليو، 1993.

3 جون كوتر: قيادة التغيير- خطة عمل في(www.alkhulasah.com)

* جون كوتر(John Kuter): أستاذ في كلية هارفارد(Harvard) لإدارة الأعمال متخصص في مجال القيادة في الأعمال.

4 عبد القادر طه: الأستاذ الجامعي- الإنسان والسلوك، مجلة علم النفس، تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد 11 سبتمبر،1989.

5 عبد الله السهلاوي: الأستاذ الجامعي الجيد،دراسات تربوية، تصدر عن رابطة التربية الحديثة،القاهرة،المجلد الثامن،الجزء47 ،1992.

6 صلاح الدين أبو ناهية: خصائص المعلم الجامعي الفعال كما يدركها طلبة الجامعة في غزة، مجلة كلية التربية بجامعة الأزهر، العدد22، 1991.

7 عبد الصمد الاغبري: الصفات الواجب توافرها في عضو هيئة التدريس، التربية المعاصرة، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، العدد44، ديسمبر1996.

8 شيخة عبد الله المسند: مقومات التدريس الجامعي الفعال في جامعة قطر من وجهة نظر الطلاب وأعضاء هيئة التدريس، مجلة كلية التربية بجامعة الأزهر، العدد54، فبراير1996.

9 تيسير عبد الله: بعض خصائص الأستاذ الجامعي كما يدركها طلبة جامعة بيت لحم- فلسطين، مجلة علم النفس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، العدد43، سبتمبر1997.

10 الطيب بلعربي: بعض عوامل تدني مستوى التكوين العالي، مجلة الرواسي، العدد الأول، رجب/شعبان 1411هـ - جانفي/فيفري1991م، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة- الجزائر

أهمية الرياضيات والطبيعة المعرفية لعسر الحساب

أ / عمراني زهير
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى توضيح ماهية، ومدى أهميـــة، وأهداف تعليم الرياضيات في المرحلة الابتدائية، مع التطرق أيضا إلى عسر الحساب Dyscalculia وصعوبات التعلم، تصنيفها، والنماذج النظرية المفسرة لحدوثها.

من خلال هذا البحث نتوصل إلى أن سبب عـــسر الحساب هو ليس ضرورة حتمية نابجة عن قصور عضوي للمناطق العصبية المسؤولة عن إجراء العمليات الحسابية في العقل، بل هو حالة معرفية خاصة نابجة عن قصور مهارات ما وراء معرفية عليا، ويتمثل ذلك في خلل في مكونـــات نظام تجهيز ومعالجة المعلومات في الذاكرة العاملة.

Abstract

This paper seeks to clarify all of the nature, the importance, and the goals of learning mathematics in primary school. It also discusses dyscalculia and learning disabilities, their classification, and their underlying theoretical models.

By this search we conclude that Dyscalculia is not necessarily due to brain damage (loss), but a specific cognitive state due to a metacognitive dysfunctionning. The latter is a mere handicap in information processing model in the working memory.

مقدمـــة

تتضمن الكفاءة الرياضية القدرة على الاستكشاف والتخمين والتفكير الاستدلالي المنطقي، وحل المشكلات غير الروتينية، إن مرونة ومثابرة واهتمام وفضول وإبداع التلاميذ يؤثر هو الآخر على تحقيق الكفاءة الرياضية، فتعليم الرياضيات لا يقتصر على تنمية مهارات إجراء عمليات رياضية في الحساب والهندسة فحسب، بل يمتد إلى تنمية جوانب معرفية من حيث المفاهيم والقوانين، وتكوين اتجاه إيجابي للرياضيات باعتبارها نتاج للفكر والذكاء الإنساني. هذا ما يدفعنا إلى القول أن صعوبات تعلم الرياضيات (عسر الحساب) يعتبر مشكلة حقيقية تواجه التلميذ، حيث لا تنعكس نتائجها على المستوى التعليمي والأكاديمي للتلميذ فقط، بل يمتد ذلك إلى مختلف النواحي المعرفية والفكرية والاجتماعية.

إشكالية الدراسة:

من خلال ما سبق ذكره في المقدمة من النتائج الناجمة عن صعوبة تعلم الرياضيات، حاولنا الخوض في الاتجاهات التي حاولت تفسير أسباب تلك الصعوبات، غير أنه بدا لنا مدى اختلاف وتباين تلك الاتجاهات في تفسيرها، كل حسب اختصاصه، ذلك ما دفعنا إلى طرح

التساؤل الآتي: ما هي الأسباب الحقيقية والموضوعية التي تحول بين التلميذ وتعلمه للرياضيات؟

وللإجابة عن هذا السؤال قمنا أولا بتحديد ماهية الرياضيات وأهميتها وأهداف تدريسها، مع تعريف عسر الحساب، وذكر خصائص التلاميذ ذوو عسر الحساب، ثم تكلمنا عن ميدان صعوبات التعلم، ذلك أن عسر الحساب يندرج ضمن ميدان صعوبات التعلم، وفي الأخير قمنا بالعرض النظري لمختلف الاتجاهات التي حاولت تفسير أسباب الإصابة بعسر الحساب، مع تحديد الانتقادات التي وجهت لكل اتجاه.

فرضية الدراسة:

انطلاقا من تيار تجهيز ومعالجة المعلومات – Information Processing Model – والذي يرى أن الذاكرة العاملة تعمل على تخزين المعلومات المجسدة في موقف التعلم أو حل المشكلة، واستدعاء جميع المعلومات المماثلة في البنية المعرفية التي لها علاقة بالموقف المشكلة الحالي من أجل حلّها، يمكننا افتراض أن عسر الحساب ينتج عن قصور في مهارات الذاكرة العاملة، مع أن خبرات الفشل هاته تقود هؤلاء الأطفال إلى الاعتقاد بأنهم لا يملكون القدرة على النجاح، وأن جهودهم في سبيل ذلك لا قيمة لها، ومن المتوقع أن تقودهم هذه الاعتقادات إلى خفض جهودهم في التحصيل، فتنمو لديهم صورة سالبة عن الذات وعن مستوى الإنجاز في المادة المشكلة (أي الرياضيات).

طبيعة الرياضيات:

تعتبر الرياضيات أحد المباحث الأساسية المحكمة البناء في جميع المراحل الدراسية، والرياضيات هي أداة لتنظيم الأفكار بتسلسل وترابط، وفهم أكثر دقة للبيئة المحيطة بنا، والتي تنمو من خلال الخبرات الحسية الواقعية، ومن خلال احتياجاتنا المادية لحل مشكلاتنا ضمن هذا الواقع، ويمكن تقسيم الرياضيات إلى أربع مجالات متداخلة وغير مستقلة عن بعضها تماما وهي (عبابنة وآخرون، 2007)[1]:

1* الحساب: وهو المجال الذي يعالج الأعداد والأرقام والعمليات عليها كالجمع والطرح أو الضرب والقسمة، مع التطرق إلى خصائص هذه العمليات كالتبديل والتجميع والعنصر الحيادي وغيرها، والقدرة على التطبيق بطرق مرنة لتطوير الإستراتيجيات المفيدة لحل المشكلات الحسابية (بدوي، 2007)[2]، وقد كانت البدايات الأولى للحساب في الأعداد الطبيعية والعمليات عليها، وقد أمكن ذلك من اشتقاق مجموعة الأعداد الصحيحة والحقيقية والمركبة.

2* الجبر: الجبر الكلاسيكي بشكل عام دراسة موسعة ومجردة للأعداد والأنماط، وهو باختصار حساب أكثر تعميما وشمولا، أما الجبر الحديث فهو نظام مجرد واستنباطي مبني على المسلمات والتعاريف الأولية والنظريات المشتقة منها، وهو يعنى بدراسة البنى الرياضية الافتراضية (أبو زينة، 2003)[3] ، ويستخدم الجبر للتلاميذ لتطوير فهمهم للمتغيرات ككميات

غير ثابتة، أين تقدم المتغيرات كمجاهيل، ويطور التلاميذ تقنيات لحل المعادلات عن طريق المساواة (بدوي، 2007)[4].

3* الهندسة: نشأ علم الهندسة في مصر القديمة نظرا لحاجة المصريين إلى مسح أراضيهم، أما الهندسة المستوية التي تدرس اليوم في المناهج الدراسية فهي تنسب إلى الإغريق، فقد نظم الرياضي المشهور إقليدس (والذي تنسب إليه الهندسة الإقليدية) محتوى الهندسة المعروف في كتابه المبادئ (Elements)، والهندسة هي دراسة الأشكال وخصائصها، والعلاقات بينها كالتوازي والتطابق والتعامد والتناظر... وتعتبر الهندسة سمة مهمة للحس المكاني، سواء كان ذلك في المستوى (معلم ثنائي الأبعاد) أو الفضاء (معلم ثلاثي الأبعاد)، وقد تطورت الهندسة بشكل كبير فمن الهندسة الإقليدية إلى الهندسة اللاإقليدية ثم الهندسة الإحداثية وأخيرا هندسة التحويلات النقطية.

4* التحليل الرياضي: هو الدراسة المنضبطة للكميات اللانهائية، فقد كانت فكرة اللانهاية ∞ Infinity مصدر حيرة للرياضيين القدامى، ويتضح التحليل الرياضي كمجال في موضوعات التفاضل والتكامل وحساب مساحات الدوال العددية والمركبة، ويشمل التحليل الرياضي حاليا موضوعات في الإحصاء، الاحتمالات واختبار الفرضيات، أين يتعلم الطلاب الطرق المختلفة لجمع وتنظيم وعرض البيانات الإحصائية.

أهمية الرياضيات:

تتجلى الرياضيات بوضوح في حياتنا اليومية، وتتجسد بوضوح في عملياتنا التفكيرية، إذ نستعملها في مختلف مناحي الحياة، وقد أشارت إلى أهميتها عدة دراسات، ذلك ما أدى إلى اعتمادها في البرامج التربوية كمادة رسمية مع إعطائها قدرا من الأهمية، هاته الأخيرة تبرز بوضوح في النقاط التالية:

1ـــ الرياضيات هي أداة للاستخدام والتطبيق، حيث تعين الفرد على تسيير أموره في الحياة، فالمهارات الرياضية يحتاجها الفرد لتنظيم أمور حياته، وهناك مهارات يحتاجها الفرد ليعيش ضمن مجتمع يتفاعل مع مؤثراته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ويتطلب ذلك مستوى معقولا من المعرفة الرياضية.

2ـــ الرياضيات هي نظام معرفي له بنيته وتنظيمه، فهو ذو بنية هيكلية تساعد الفرد على تنمية الاستدلال والاستنتاج والتفكير الناقد، وبناء شخصيته وقدرته على الإبداع (عبابنة وآخرون، 2007)[5].

3ـــ الرياضيات لغة اتصال من حيث مصطلحاتها ورموزها والتمثيلات التي تعبر عن محتواها في صورة معادلات أو رسومات بيانية.

4ـــ الرياضيات هي أسلوب للتعليل والبرهان، ويقصد بالبرهان التفكير والتحرك من المعطيات لاستخلاص تسلسل من النتائج المتتابعة والتي توصلنا إلى المطلوب.

5ــ الرياضيات هي أداة لحل المشكلات، حيث أكد مجلس المعلمين (NCTM) بأن دراسة الرياضيات يجب أن تتجسد في حل المشكلات، والمشكلة تعني وجود موقف محير يجتذب الشخص بحيث يجعل بؤرة تركيزه واهتمامه لحلها (وليم، 2004)[6].

6ــ الرياضيات هي أداة للتفكير حيث يتطلب حل المشكلة الرياضية استعمال مهارات معرفية عليا من وعي، انتباه وإدراك للمشكلة، يلي ذلك التفكير في الحلول الممكنة، ويتجسد ذلك في تنشيط الذاكرة العاملة للبحث في الذاكرة طويلة المدى عن مشكلات تم حلها سابقا والتي تشابه المشكلة الراهنة، فضلا عن البحث عن الإستراتيجيات الفعالة والممكنة.

أهداف تدريس الرياضيات في المرحلة الابتدائية:

يهدف تدريس الرياضيات في المرحلة الابتدائية حسبما أشار إليه جونسون ورايزنج JOHNSON & RISING إلى تحقيق الأهداف التالية:

1ــ تبصير الطالب بأهمية الرياضيات، ومساعدته على اكتساب كفاية من المفاهيم والمبادئ والمعلومات الرياضية، وتمكين الفرد من استخدامها وتوظيفها في حياته اليومية، وتنمية القدرة على فهم وتحليل العلاقات الكمية والعلاقات الهندسية الفضائية، مع التعرف على وحدات وأدوات القياس المستخدمة والتمكن من استخدامها.

2ــ فهم البنية المنطقية للمعرفة الرياضية وطبيعة البرهان الرياضي، وتمكين الطالب من إدراك الطبيعة الإستنتاجية والاستدلالية للرياضيات، ومساعدته عل تنمية تفكيره المنطقي.

3ــ القدرة على إجراء الحسابات بدقة وكفاءة، وعلى وجه التحديد اكتساب المهارات والكفاءات الأساسية المتعلقة بالأرقام والعمليات الحسابية عليها.

4ــ اكتساب وتنمية القدرة على حل المشكلات، وتعويد الطالب على تمثيل البيانات المعطاة بطرق تساعد على فهم المشكلة (JOHNSON & RISING 1971)[7].

قد يحدث وألا تؤدي هذه الأهداف المسطرة غايتها المنشودة، إذ يفشل التلميذ لسبب أو لآخر عن تحقيق التقدم المنتظر منه بعد الفصل الدراسي، وهو ما يجعله متأخرا عن مواكبة زملائه في الفصل، نشير هنا أننا سنتناول هذه المشكلة والتي لا يرجع سببها إلى عجز حسي أو تخلف ذهني، ويجمع الباحثين في هذا المجال إلى إهمال البحث في عسر الحساب مقارنة بعسر القراءة والتهجي بشكل واضح وبلا مبرر (KIRK 1984 , BRYAN & BRYAN 1986, ERVIN 1990, BYRON et al 1970, عوض الله وآخرون 2006، كوافحة 2003...)، وقد حاول "الزيات" أن يحصر عوامل إهمال البحث في صعوبة تعلم الرياضيات كالتالي:

ــ تنطوي الرياضيات على درجة عالية من التعقيد، وتعتمد على عدد كبير من العمليات المعرفية والأنشطة العقلية المصاحبة لها، كالانتباه والإدراك والتفكير والذاكرة وغيرها.

ــ تشير نظريات صعوبة تعلم الرياضيات إلى أن هذه الصعوبات تنشأ نتيجة الصعوبات النوعية في العديد من فروع الرياضيات مثل: الحساب، الجبر والهندسة.

ـــ إن كل فرع من الفروع السابقة ينطوي على مجالات فرعية تشكل كل منها درجة من التعقيد، ففي الحساب مثلا نجد: مدلول الأعداد، العد، المفاهيمية، إجراء العمليات الحسابية كمجالات فرعية يجب إتقانها للتمكن من الحساب (الزيات، 2008)[8]، ونشير هنا إلى أن كوسك (KOSC 1974) قد استخدم مصطلح عسر الحساب Dyscalculia الذي يعني عسر الحساب النمائي، وذلك على النقيض من مصطلح الحبسة الحسابية Acalculia الناتجة عن أذى أو ضرر أصاب الدماغ أو فقد القدرة الحسابية بعد اكتسابها (كيرك، 1984)[9].

صعوبات التعلم وعسر الحساب:

كخلاصة للدراسات التي قام بها العديد من الباحثين أمثال (الياسري، 2006)[10]، (HAMMILL 1990)[11] (HALAHAN & KOUFFMAN 1976)[12]، (عوض الله وآخرون، 2006)[13]، يتضح لنا وجود تيارين لتعريف صعوبات التعلم:

- تيار أكد على الاضطراب السلوكي الانفعالي والوجداني كسبب لصعوبات التعلم، واعتبر اضطرابات وظائف الجهاز العصبي المركزي ما هي إلا واحدة من بين الأسباب.
- تيار أكد على الاضطراب الوظيفي للجهاز العصبي المركزي كسبب وحيد لصعوبات التعلم.

إلا أنه يجمع بين معظم التعاريف عناصر مشتركة يتفق عليها المتخصصون:

- أن تكون مشكلة التعلم موضوع البحث مشكلة ذات طبيعة خاصة، وليست ناتجة عن حالة إعاقة عامة كالتخلف العقلي، أو الإعاقات الحسية، أو المشكلات البيئية.
- أن يظهر الطفل شكلا ما من أشكال التباين أو الانحراف بين قدراته العقلية وتحصيله الأكاديمي (محك التباين).
- أن تكون صعوبة التعلم التي يعاني منها ذات طبيعة سلوكية كالتفكير،القراءة، الكتابة، التهجئة أو الحساب.

تصنيف صعوبات التعلم:

تعد صعوبات التعلم أصل ذو طبيعة متعددة، لذا فإنه بات من المؤكد على الباحثين والمتخصصين في هذا المجال تصنيف هذه الصعوبات ضمن فئات أكثر توافقا، وهناك عدة تصنيفات من بينها تصنيف جونسون وموراسكي (JOHNSON & MORASKY) حيث حصرا إحدى عشر نوعا من المشكلات التي تظهر لدى التلاميذ أثناء التعلم (JOHNSON & MORASKY 1980)[14]، غير أن هذا التصنيف ركز أساسا على الصعوبات التي تظهر في الفصل الدراسي، ورغم أهمية هذا التصنيف وغيره إلا أننا عدلنا عن ذكره في هذا المجال لأن التصنيف الأكثر تداولا وشيوعا في الأوساط العلمية والتربوية هو تصنيف كيرك وكالفنت (KIRK & CHALFANT)، حيث ميزا بين نوعين من صعوبات التعلم[15]:

صعوبات التعلم النمائية: يعرفها الزيات بأنها الصعوبات التي تتناول العمليات ما قبل الأكاديمية، وتتمثل في العمليات المعرفية المتعلقة بالانتباه، أو الإدراك، أو الذاكرة، أو التفكير واللغة (كوافحة، 2003)[16].

- صعوبات التعلم الأكاديمية: تظهر هذه الصعوبات لدى أطفال متمدرسين، ويشير هذا النوع إلى الاضطراب الواضح في تعلم القراءة أو الكتابة أو التهجي والتعبير الكتابي أو الحساب.

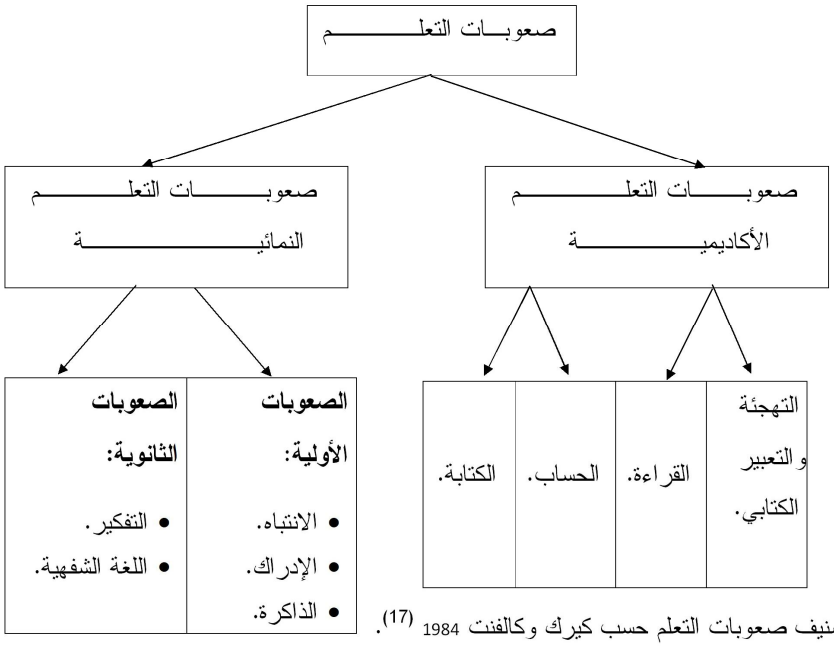

تصنيف صعوبات التعلم حسب كيرك وكالفنت 1984 [17].

انطلاقا من هذا التصنيف فإن هذه المقالة تهدف إلى معالجة جانب محدد من صعوبات التعلم والمتمثل في الصنف الأول أي صعوبات التعلم الأكاديمية، وتحديدا صعوبة تعلم الرياضيات (عسر الحساب).

تعريف عسر الحساب:

نعني بعسر الحساب عدم قدرة التلميذ على التعامل مع الأرقام والمعادلات الرياضية، والتلميذ الذي يعاني من صعوبة في الحساب قد لا يستطيع التفريق بين 2.6 و 6.2 أو ليس له القدرة على الجمع الصحيح مثل 23+43 = 4323، أو لا يستطيع أن يفرق بين إشارة الجمع (+) وإشارة الضرب (×) وغيرها (كوافحة، 2003)[18]

نسبة انتشار عسر الحساب:

يذكر كوسك (KOSC 1974) وباديان (BADIAN 1983) أن 6% من أطفال المدرسة الابتدائية لديهم صعوبة دالة في الحساب، ويرى دير (DEER) أن 50% من ذوي صعوبات التعلم لديهم عسر في الحساب، كما توصلت مختلف الدراسات التي أجريت في البيئة العربية مثل دراسة أحمد عواد 1992، عبد الناصر أنيس 1992، مصطفى أبو المجد 1998... أن نسبة صعوبات الحساب تتراوح بين 12.5% إلى 13.8% من العينة الكلية.

خصائص التلاميذ ذوو عسر الحساب:

من خلال الدراسة التي قمنا بها، وبالاستعانة بمراجع أخرى (أنظر هارجروف 1988[19]، كوافحة 2003[20]، LANKFORD 1981[21]) قمنا بحصر خصائص التلاميذ الذين يعانون من عسر الحساب، وهي كالتالي:

1* يقوم التلاميذ ذوو عسر الحساب بابتكار إجراءات خاصة بهم لحل العمليات الحسابية أو المشكلات الرياضية عندما ينسون ما درسوه، وغالبا ما تكون هذه الإجراءات خاطئة.

2* بينما يستخدم التلاميذ العاديون استراتيجيات متعددة لحل المشكلات المقدمة إليهم مع إمكانية تغيير الإستراتيجية الفاشلة بإستراتيجية أخرى ملائمة، نجد أن ذوو عسر الحساب يستخدمون استراتيجيات محدودة مع عدم القدرة على تغيير الفاشلة منها.

3* يتحقق التلاميذ العاديون من عملهم إذا شعروا أن إجابتهم خاطئة، على عكس ذوو عسر الحساب الذين لا يملكون القدرة على التخمين والتحقق من ذلك.

4* ينسى التلاميذ الذين يعانون من عسر الحساب قوانين العد العشري ووقت استخدامه.

5* يميل الأطفال ذوو عسر الحساب إلى تكرار الأخطاء التي يرتكبونها.

6* يقع هؤلاء الأطفال في أخطاء ترتبط بالفشل في تعلم المفاهيم الحسابية، أو الخلط بين أحد هذه المبادئ أو المفاهيم بمبدأ أو مفهوم آخر، مثل:

15	12	22	32
+ 17	× 5	+ 4	× 13
= 22	= 510	= 66	= 36

7* يقع هؤلاء الأطفال في أخطاء ذات علاقة بتسجيل العمل بسبب الإهمال في تشكيل الأعداد ونقل الأرقام والخطأ في تسلسلها.

8* يفشل هؤلاء الأطفال في حل المسألة الحسابية لأنهم يؤمنون أن المسألة صعبة جدا، أو لأنهم لا يتذكرون حل المسألة أو لأن الدافعية تنقصهم، وهذه النقطة تتطلب منا في هذا العمل مزيد من التفصيل، حيث أن حل المشكلات يحتل نشاط كبير في ميدان التعلم، ولاسيما في الرياضيات إذ أن ذوو عسر الحساب يعانون من صعوبات جمة في حل المشكلات.

وقد عمل مونتاجو (MONTAGUE 1992)[22] على حصر خصائص ذوي صعوبات تعلم حل المشكلات الحسابية في 4 فئات هي:

1ـ الخصائص المعرفية: وتتمثل في صعوبة التمييز والتكامل بين المعرفة التقريرية والمعرفة الإجرائية، وعدم القدرة على تطبيق هذه المعرفة في حل المشكلات، مم ينتج عنه قصور الإستراتيجيات المرتبطة بتمثيل المشكلة وعمل تصورات عقلية، أو وضع خطط وافتراضات للحل عن طريق فحص المعطيات وتحديد المطلوب.

2ـ الخصائص ما وراء المعرفية: والتي تشير إلى القدرة على عمل تنبؤات عن حلول المشكلة، والاستمرار في تقويم الحل، وذوو عسر الحساب يغلب عليهم صعوبة انتقاء العمليات المعرفية اللازمة لإكمال المهمة، وعدم القدرة على دمج العديد من العمليات في إستراتيجية ملائمة نتيجة عدم تسخير القوى العقلية المعرفية لأداء المهمة، وخلل في ضبط وتوجيه الأداء وتقويمه.

3ـ الخصائص الانفعالية: يرتبط النجاح في حل المشكلات الحسابية بالاتجاه الموجب نحو تعلم الرياضيات، والدافع للإنجاز فيها، وثقة الفرد في قدراته، ومن ثم يغلب على ذوي عسر الحساب اتجاهاتهم السالبة نحو الرياضيات، ولديهم مستوى مرتفع من القلق اتجاه الرياضيات (فوبيا الرياضيات) مم ينقص من ثقتهم في قدرتهم على حل المشكلة الرياضية، كما أن دافعيتهم للأداء منخفضة وتقديرهم للذات متدني.

4ـ الخصائص اللغوية: إن التفكير المؤدي إلى حل المشكلة هو عملية أساسية في الحساب، ولا يمكننا التفكير بدون استعمال اللغة، هذا يدل على أن اللغة متغير مهم من متغيرات الأداء في الرياضيات، وتشير الدراسات والبحوث إلى أن ذوي عسر الحساب يفتقرون للمستوى اللغوي الذي يمكنهم من الوصول إلى الإتقان الكافي للرياضيات (BRAYAN & BRAYAN 1998)[23].

حل المشكلة الرياضية وعسر الحساب:

يتمركز حل المشكلات في هرم سلم تعلم الرياضيات، وهو ركن أساسي ينبغي الوصول إليه، وعملية ضرورية من خلالها يتمكن الطلاب من إحراز التقدم في مجال الرياضيات، حيث يعطى للطلاب أثناء حل المشكلات فرصا عديدة لربط وتنمية الأفكار الرياضية (بدوي، 2007)[24]، وتعنى حل المشكلة بتنمية معرفة الطلاب الرياضية فضلا عن كونها الناتج الأكثر أهمية لتعلم الرياضيات، فالمشكلة تتطلب من القائم على حلها أن يبحث عن الطريقة المثلى لحلها بدلا من تتبع مجموعة من الإجراءات، ولكي يتمكن التلاميذ من ذلك الأمر فإنهم بحاجة إلى صياغة أسئلة ونمذجة موقف المشكلة بطرق مختلفة، مع تعميم حل المشكلات في سياقات رياضية وحياتية (بدوي، 2007)[25].

تعريف المشكلة الرياضية:

تشكل مهارات حل المشكلات الغاية الكبرى بعيدة المدى لأي برنامج تعليمي في الرياضيات، وتقوم برامج حل المشكلات على دعم وتنمية القدرة الاستدلالية، ومهارات تطبيق الأسس

والقواعد والقوانين التي تقوم عليها الرياضيات في مختلف مواقف الحياة الواقعية، وتحتل صعوبة حل المشكلات Difficulties in Problem Solving موقعا محوريا في صعوبات تعلم الرياضيات (الزيات، 2008)[26]، وهناك عدة تعريفات للمشكلة الرياضية نأخذ منها:

تعريف رضا سعيد الذي يرى أن المشكلة عبارة عن موقف جديد يواجه الطالب ولا يجد له حلا جاهزا في الحين، بل تتطلب منه أن يجول بفكره ويتمحص ويستدعي ما تعلمه من مفاهيم وتعميمات رياضية (عوض الله وآخرون، 2006)[27].

وبالنسبة لمفهوم المشكلة في الحساب ترى الباحثة ناظلة أن المشكلة الرياضية غالبا ما تكون في شكل مسألة رياضية أو حتى عملية حسابية، بحيث تشكل موقفا جديدا تتطلب تفكيرا من الفرد حتى يصل إلى الحل (ناظلة، 1973)[28].

ويحدد حسن سلامة شروط المشكلة الرياضية كالآتي:

- يجب أن تكون المشكلة ذات دلالة رياضية، أي تتضمن معلومات رياضية وتخدم هدفا حسابيا.

يجب أن تكون للمشكلة أكثر من طريقة للحل، ومن ثم فإنها تتيح فرصا متعددة لمستوى الطلاب كل حسب قدراته (سلامة، 1985)[29].

مراحل حل المشكلة الرياضية:

يتطلب حل أي مشكلة القيام بعدد من الخطوات المتعاقبة التي تساعد على التوصل لذلك الحل، وهنا نلاحظ اختلاف الباحثين في تسمية تلك المراحل بل وحتى في عددها، وفيما يلي عرض لبعض تلك النماذج:

نموذج بوليا 1975 POLYA الذي يرى أن حل المشكلة يتضمن أربع خطوات:

1ـ فهم المشكلة: وهنا يتم استخراج المعلومات والبيانات الموجودة في المشكلة، وإيجاد علاقة بين المعطيات والمطلوب.

2ـ اقتراح خطة للحل: وهنا تتم محاولة مطابقة المشكلة الراهنة بمشكلات سابقة تم حلها، وقد يتطلب ذلك إعادة صياغة المشكلة من جديد وإيجاد نموذج رياضي يعكس العلاقات بين عناصر المشكلة.

3ـ تنفيذ خطة الحل: وهنا يتم تطبيق الإجراءات التي تم إعدادها في المرحلة السابقة.

4ـ مراجعة الحل: وهنا يتم التحقق من الحل الذي توصل إليه، هل هو معقول ومنطقي، هل يوجد تناقض رياضي بين المعطيات والنتيجة (PERICOLA 1992)[30]، ويذهب لابلانس LABLANCE إلى تأييد هذا النموذج (LABLANCE 1997)[31].

نموذج كيرك وكالفنت KIRK & CHALFANT: يفترض هذا النموذج وجود ستة مراحل لحل المشكلة هي:

1. إدراك وجود المشكلة: حيث يتم هنا التحقق من وجود المشكلة، مم يولّد الإحساس بعدم الرضا وعدم التوازن، وهنا يعاني الكثير من التلاميذ المصابين بالعسر الحسابي من نقص في الوعي بوجود المشكلة.

2. تقرير حل المشكلة: عندما يكتشف التلميذ المشكلة فإن عدم التوازن يدفع رغبته في إيجاد حل للمشكلة، ويعاني ذوو عسر الحساب من التردد في التورط في حل المشكلة خاصة إذا شعروا أنهم لن ينجحوا في ذلك، مع عدم استمرارهم في الحل إن كانوا قد بدؤوا المحاولة.

3. تحليل المشكلة: وتتضمن هذه المرحلة عملية التفكير لتحليل المشكلة وذلك بجمع المعلومات وتنظيمها وتفسيرها، وربط العلاقة بين المعطيات والمطلوب.

تشكيل أساليب بديلة: تتمثل هذه المرحلة في تشكيل حلول بديلة عند حل المشكلات الصعبة، وقد حدد كل من (CUNNINGHAM & BARKLEY) نوعين من الاستجابات للمشكلة تحدث عند ذوي عسر الحساب هما: الاندفاعية والانعكاس، فعندما يواجه بعض هؤلاء التلاميذ مشكلة ما وتخلق لهم حالة عدم التوازن فإنهم يستجيبون بسرعة وبدون تفكير، واختيار الحل الأول الذي يبدو أنه صحيح (الاندفاعية)، أما البعض الآخر ممن يتشكل لديهم انعكاس حيث يدركون أن المشكلة أكثر تعقيدا مما هي عليه في الواقع، وبالتالي فإنه لا داعي للقيام بمجهودات فاشلة أو تشكيل بدائل لحلول أخرى (CUNNINGHAM et al 1978)[32].

4. فحص الأساليب البديلة: وتتضمن هذه الخطوة فحص الأساليب البديلة التي تم تشكيلها، هل تتناسب مع المشكلة المطروحة، وهل هناك روابط بين المعطيات والنتيجة المنتظرة، ويعاني ذوي عسر الحساب من نقص في تفحص أساليبهم البديلة نتيجة اندفاعيتهم، واختيار أساليب بديلة أخرى دون التفحص الكافي للأساليب السابقة، فضلا عن عدم تشكيلها أصلا لدى الغالبية منهم.

5. حل المشكلة: وهي المرحلة الأخيرة، فإذا تم حل المشكلة فإنه ستتحقق حالة التوازن والرضا، أما إذا لم يتم حل المشكلة فإن حالة عدم التوازن تدفع بالتلميذ إلى المرحلة الثانية من السلم (تقرير حل المشكلة) ليعيد نفس الخطوات اللاحقة، أما ذوي عسر الحساب فنتيجة لخبرات الفشل لديهم فإنهم يتوقفون عند هذه المرحلة ولا يعاودون الرجوع إلى المراحل السابقة.

وحسب كيرك وكالفنت فإن الخلل في أي واحدة من هذه المراحل يؤدي إلى صعوبة حل المشكلة بأكملها، هذا ويختلف ذوو عسر الحساب في المرحلة التي يحدث فيها الخلل من طفل لآخر، ومن مشكلة لأخرى لدى نفس الحالة (كيرك، 1984)[33].

المحكات الخاصة لتشخيص عسر الحساب:

لتمييز عسر الحساب عن حالات الإعاقة الأخرى أو أشكال التخلف التربوي، فمن الضروري أن نتقيد بجملة من الشروط التي تميز هذه الفئة عن غيرها، وقد حدد الباحثون ثلاث نقاط يجب أخذها بعين الاعتبار لتحديد ما إذا كان التلميذ يعاني من عسر الحساب وهي:

1ـ محك التباين (أو التباعد): ويقصد به اختلاف المستوى التحصيلي الفعلي عن المستوى التحصيلي المتوقع به في الحساب، أو تباين مستوى تحصيل التلميذ نفسه في مواد مختلفة حيث يكون ضعيفا في الرياضيات ومتوسطا أو قويا في المواد الأخرى (عوض الله وآخرون، 2006)[34].

2ـ محك الاستبعاد: ونعني به استبعاد الحالات التي تعاني من التخلف العقلي العام أو صعوبات سمعية أو بصرية، أي أن صعوبات التعلم لا ترجع إلى التخلف العقلي أو الإعاقة الحسية أو الانفعالية (علي كامل، 2005)[35].

3ـ محك التربية الخاصة: حيث أن ذوي صعوبات التعلم لا تصلح لهم طرق التدريس المتبعة مع الأطفال العاديين، حيث يفضل استخدام المنهج التربوي الفردي لاستثمار جميع إمكانيات الحالة، وذلك على عكس الأطفال المتخلفون تربويا الذين لم تتح لهم فرصة التعلم، أو أنهم تعلموا بشكل متقطع فبإمكانهم التعلم وفق الطرق المتبعة مع الأطفال العاديين (كيرك، 1984)[36].

وهناك بعض الباحثين ممن أضافوا محكا آخرا لصعوبات التعلم الأكاديمية وهو:

4ـ محك الأعراض النيرولوجية: والذي يمكن الاستدلال عليه من خلال التلف المخي البسيط باستخدام رسم النشاط المخي الكهربائي، وكذلك عن طريق تتبع التاريخ المرضي للطفل، وتنعكس هذه الأعراض في:

- اضطرابات الإدراك: وخاصة الإدراك البصري والإدراك المكاني، حيث يعاني الطفل من يفشل في تذكر ما يراه، يعاني من صعوبة في استنساخ ما هو على الصبورة في كراسه، وصعوبة في تمييز اليمين من اليسار أو تحديد مكان الأشياء في الفراغ.
- اضطراب السلوك: حيث يعاني هؤلاء الأطفال من إفراط في النشاط أو الحركة، الاندفاعية أو الخمول، لا يكملون العمل الذي يبدؤون به، شرود الذهن.

اضطرابات الأداء الوظيفي الحركي: حيث لا يستطيع هؤلاء الأطفال الكتابة بوضوح، ولا رسم الأرقام في مواضعها الصحيحة (الياسري، 2006)[37].

النماذج النظرية المفسرة لصعوبات التعلم:

تم التطرق لصعوبات التعلم في هذا العنوان لأن عسر الحساب يعتبر ميدان من ميادين صعوبات التعلم، وما ينطبق على صعوبات التعلم عموما ينطبق على عسر الحساب خصوصا، ومن خلال خوضنا في هذا المجال لاحظنا اختلاف وجهات النظر بين تفسيرات أسباب حدوث صعوبات التعلم، حيث يرى التيار العصبي أن السبب الرئيسي لصعوبات التعلم إنما يعود إلى إصابة المخ، بينما يرى التيار النفسي أن السبب الرئيسي هو قصور العمليات النفسية (الانتباه، الإدراك، الذاكرة)، وهناك تيار سلوكي يفسر عسر الحساب بأنه راجع إلى متغيرات السياق الاجتماعي وتاريخ تعلم الفرد، وأخيرا تيار تجهيز ومعالجة المعلومات الذي يرى أن صعوبات التعلم ناتجة عن طريقة التجهيز الخاطئة للمعلومات مم يؤدي إلى صعوبة استدعائها وقت الحاجة، وفيما يلي توضيح لهذه التيارات:

* ***التيار العصبي:*** ويتضمن هذا التيار الخلل الوظيفي البسيط للمخ الناتج عن عدم توازن الكيمياء الحيوية، أو إصابة المخ المكتسبة كسبب لعسر الحساب، والتي تؤدي إلى ظهور سلسلة من جوانب تأخر النمو في الطفولة المبكرة وصعوبات في التعلم المدرسي في الطفولة المتأخرة، وقد أطلق عليهم مايكلبست MYKELBEUST 1967 مصطلح العجز عن التعلم النيروسيكولوجي (علي كامل، 2005)[38]،

وهناك من يشير إلى اختلال توازن قدرات التجهيز المعرفي بين نصفي المخ حيث يرى جوردن GORDEN أن نصف الكرة المخية اليمنى تختص بالتكامل الشامل للمثيرات البصرية المكانية، أما نصف الكرة المخية اليسرى فتختص بالتكامل المتتابع للمثيرات اللغوية، والتكامل بين النصفين ضروري لعملية التعلم (COPLIN & MORGAN 1988)[39].

وقد لاقى النموذج العصبي قبولا لفترة زمنية حتى أنه انعكس على بعض تعاريف صعوبات التعلم، إلا أن ليرنر LERNER أورد بعض الانتقادات التي ساهمت في اختفاء الأضواء عن هذا النموذج وهي أن الجهاز العصبي للطفل في حالة تغير مستمرة، وإن لم يصل إلى مرحلة الاكتمال في بعض الأحيان، لذلك فمن الصعب غالبا أن نفرق بين حالات تأخر النضج وحالات التلف البسيط في الجهاز العصبي المركزي، كما أن مدى واسعا من العلامات النيرولوجية (اضطرابات الإدراك، اضطراب السلوك، اضطرابات الأداء الوظيفي الحركي) تظهر أثناء التعلم حتى لدى بعض الأطفال الذين لا يعانون من صعوبات تعلم (LERNER 1986)[40].

* ***التيار النفسي:*** يركز هذا النموذج على العمليات النفسية الثلاثة (الانتباه، الإدراك، الذاكرة) باعتبار أن القصور في هذه العمليات يؤثر على المهارات الأكاديمية، كما نلاحظ هنا أن بعض تعاريف صعوبات التعلم تشير إلى هذا القصور وأنه السبب الرئيسي وراء تدني التحصيل لهؤلاء التلاميذ، ويرى بريان وبريان BRAYAN & BRAYAN أن صعوبات التعلم تنشأ بصفة أساسية نتيجة للعيوب في الانتباه وهو ما يؤثر بشدة على التحصيل الأكاديمي (BRAYAN & BRAYAN 1986)[41]، وتشير نظرية الاضطراب الإدراكي الحركي أن معظم ذوي صعوبات التعلم يعانون من صعوبات في هذا المجال (علي كامل، 2005)[42]، ومشكلات في الإدراك البصري وصعوبـــــة في تكامل المعلومات البصرية (عبد الناصر أنيس، 1996)[43]، وأخيرا يشير عوض الله سالم أن الأطفال ذوي صعوبات التعلم يعانون عادة من مشكلات في تذكر المثيرات السمعية والبصرية، فالطفل الذي يعاني من اضطرابات في الذاكرة البصرية يعاني من صعوبات في استرجاع سلاسل الأرقام التي تقدم له بصريا، مم يجعله يحذف، يبدل، يزيد منها، أما الذي يعاني اضطرابات في الذاكرة السمعية فإنه يعاني من صعوبة في تذكر الحقائق (عوض الله وآخرون، 2006)[44].

غير أن التيار النفسي قد تعرض للعديد من الانتقادات حيث أنه فشل في تقديم تعليل كافي لأسباب صعوبات التعلم الخاصة، فصعوبات الانتباه واضطراب الإدراك الحركي والإدراك البصري ومشكلات تذكر المثيرات السمعية والبصرية يمكنها أن تؤثر على التحصيل عامة فتجعل التلميذ متخلف دراسيا، ولكن لا يمكنها تفسير خصوصية التخلف في مادة واحدة دون سواها من المواد الأخرى (COPLIN & MORGAN 1988)[45].

* ***التيار السلوكي:*** يرى هذا التيار أن سبب صعوبات التعلم يرجع للعديد من الأسباب بخلاف الاختلال الوظيفي العصبي، حيث ذكر روس ROSS أن فرض اختلال المخ الوظيفي هو استنتاجي يعتمد على معامل الارتباط بين ما يوجد لدى الأطفال من صعوبات وما يوجد لدى البالغين

من إصابات مخية (ROSS 1980)[46]، ومن العوامل المهمة التي يركز عليها المنظرون السلوكيون هي الاتجاهات السلبية للوالدين نحو الإنجاز والتحصيل المدرسي، مم يدفع بالطفل إلى الابتعاد عن الدراسة، وبالتالي تتشكل له الصعوبة التي سيظل يعاني منها (COPLIN & MORGAN 1988)[47]، كذلك من بين العوامل نجد الحرمان البيئي وسوء التغذية، فالحرمان البيئي يؤدي إلى قصور في نمو المهارات اللغوية الأساسية، والذي سوف يؤثر على مهارات القراءة والكتابة والحساب فيما بعد، كما أن هناك دلائل على أن الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية وخاصة في السنة الأولى من حياتهم، يتعرضون لقصور في نموهم الجسمي وفي نمو جهازهم العصبي المركزي خاصة، وهو ما يؤثر على تحصيلهم الأكاديمي لاحقا (السرطاوي وآخرون، 1987)[48]، وهناك عامل آخر حسب السلوكيون وهو استراتيجيات التعليم غير الفعالة في القسم، فالطفل الذي لديه إستراتيجية سمعية مفضلة في الإصغاء قد لا تناسبه الإستراتيجية المرئية المتبعة في عرض البيانات الحسابية، كما يلعب التعزيز وخبرات الفشل دورا في تطوير صعوبات التعلم لدى الطفل (COPLIN & MORGAN 1988)[49]، أما العامل الأخير فهو الأسلوب المعرفي للفرد حيث يرى جيربر GERBER أن ذوي صعوبات التعلم لديهم قدرات سليمة، غير أن أساليبهم المعرفية الاندفاعية أو الانعكاسية غير الملائمة لمتطلبات الفصل هي التي تعيقهم عن التعلم، وأن هؤلاء الأطفال بإمكانهم التعلم الجيد حين تتناسب المهام المدرسية مع أساليبهم المعرفية المفضلة، وحين تدرس لهم بإستراتيجية تعليم أفضل (GERBER 1983)[50]

وإن كان التيار النفسي صائبا في بعض العوامل إلا أنه تعرض لبعض الانتقادات حيث فشل في تقديم تعليل كافي لأسباب صعوبات التعلم الخاصة، فالأسلوب المعرفي الاندفاعي للطفل، والاتجاهات السلبية للوالدين أو الحرمان البيئي وسوء التغذية يمكنها أن تؤثر على التحصيل عامة فتجعله متخلف دراسيا، ولكن لا يمكنها تفسير خصوصية التخلف في مادة واحدة دون سواها من المواد الأخرى (COPLIN & MORGAN 1988)[51].

* ***تيار تجهيز ومعالجة المعلومات***: يندرج هذا التيار ضمن الاتجاه المعرفي المعاصر، ويفترض هذا التيار أن هناك مجموعة من ميكانيزمات التجهيز والمعالجة للمعلومات Information Processing داخل الفرد، تقوم كل منها بوظيفة أولية معينة على شكل تحليل وتنظيم وتسلسل، وعلى ضوء ذلك تحدث صعوبات التعلم بحدوث خلل أو اضطراب في إحدى هذه العمليات (علي كامل، 2005)[52]، ويمكن تصور أسلوب تجهيز وتناول المعلومات على أنه دراسة لكيفية استقبال المدخل الحسي Sensory Input، معالجته، تخزينه، استرجاعه واستخدامه (SWANSON 1986)[53] كما ينظر اتجاه تجهيز ومعالجة المعلومات إلى الإنسان باعتباره يشبه الحاسوب الآلي، فكلاهما يستقبل المعلومات ويجري عليها بعض العمليات ثم يعطي بعض الاستنتاجات (أبو حطب، 1983)[54]، ويرى ستيرنبرغ STERNBERG 1977 أن هناك خمسة مصادر للفروق الفردية حسب هذا النموذج وهي:

ـــ مكونات وعمليات التجهيز.

ـــ المحتوى المعرفي الذي يمثل قاعدة التأليف بين مكونات التجهيز والمادة المراد تعلمها.
ـــ ترتيب مكونات المعالجة القائم على التزامن أو التعاقب أو كلاهما.
ـــ الإستراتيجيات المعرفية (استراتيجيات التجهيز والمعالجة).
ـــ التمثيل العقلي المعرفي للمعلومات القائم على تفاعل مكونات التجهيز مع محتوى البناء المعرفي (الزيات، 1985)[55]، كما اقترح STERNBERG 1984 في نظريته للذكاء الثلاثي أنه ثمة ثلاثة ميكانيزمات تحكم الذكاء الإنساني في ضوء تجهيز ومعالجة المعلومات:
ـــ ما وراء مكونات التجهيز Metacomponents وتشمل عملية اختيار وتنفيذ الإستراتيجية الملائمة.
ـــ أداء المكونات Performance of components وتعبر عن فاعلية الإستراتيجيات في حد ذاتها.
ـــ مكونات اكتساب المعرفة Knowledge acquisition components أي العمليات المستخدمة في اكتساب معلومات جديدة، وتشمل مكونات اكتساب المعرفة وهي: الاحتفاظ، التجهيز، المعالجة، التعميم، الاستدلال، التخزين والاسترجاع، وهذه المكونات تختلف لدى ذوي صعوبات التعلم عنها لدى العاديين (الزيات، 2002)[56].

وتضيف سوانسون SWANSON 1986 أن طرق تجهيز المعلومات التي يستخدمها ذوو صعوبات التعلم لا تسمح لهم باستنفاذ كفاءتهم العقلية، فهم يعانون من عدم القدرة على الانتقال من إستراتيجية إلى أخرى، بمعنى أنهم يفشلون في استبدال الإستراتيجية غير الملائمة بإستراتيجية أخرى ملائمة (SWANSON 1986)[57]، فهم متعلمون غير نشطين وسلبيين بسبب فشلهم في الإصغاء بشكل انتقائي، وفشلهم في تنظيم المادة المراد تعلمها، وفشلهم في استخدام استراتيجيات فعالة أو في المحافظة على سلوك المهمة التي يتم تنفيذها (RAYAN et al 1986)[58] ويتطلب أداء المهمة دمج أنواع عديدة من الإستراتيجيات العقلية المعرفية بدلا من استعمال إستراتيجية واحدة تبدو مناسبة حتى نتمكن من نقل ومعالجة العملية التعليمية بكفاءة، إذا ليست صعوبات التعلم نقص في المكونات المعرفية ولكنها عجز في التنسيق بين العديد من هذه المكونات والمتضمنة في عملية تجهيز المعلومات (SWANSON 1986)[59].

تحدث صعوبات التعلم وفق هذا النموذج نظرا لثلاث عوامل هي:

1ـــ قصور ما وراء المعرفة Metacognitive Deficits: استخدم هذا المصطلح للدلالة عن الفشل في تطبيق المهارات المألوفة في المواقف غير المألوفة، وقد وجد أن ذوي صعوبات التعلم يعانون من قصور في الإستراتيجيات الداخلية مثل التخزين والتكرار اللفظي، كما أنهم يعانون من قصور أساليب مهارات المهمة التي تتضمن القدرة على التركيز على المعلومات المناسبة فقط في المهمة، وتؤكد الدراسات على أن القصور في الإستراتيجيات المعرفية يؤدي إلى فهم غير كاف وتعلم غير فعال للمادة العلمية وبالتالي يشكل صعوبة تعلم (RAYAN et al 1986)[60]، ووجد ويبستر WEBSTER أن الطلاب ذوي صعوبات التعلم يستخدمون آليات تشفير مختلفة عن تلك التي يستخدمها العاديون، ويعانون من صعوبة في استرجاع تلك الشفرات

(WEBSTER 1979)[61]، وامتدادا لهذه الفكرة أكد بلات BLATT أن ذوي صعوبات التعلم يعانون من قصور مهارات ما وراء المعرفة وقصور في الإستراتيجيات المعرفية الفعالة والتي تؤدي إلى الحل الصحيح (BLATT 1985)[62].

2ـ مشكلات الدافعية المعرفية: حيث تعتبر مشكلات الدافعية المعرفية من الأمور المهمة التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند تحديد مسببات الصعوبة، حيث يتأثر النشاط العقلي المعرفي بدوافع الفرد من حيث نوعها ودرجة أهميتها، وقد وجدت فروق في الدافعية المعرفية لدى ذوي صعوبات التعلم مقارنة مع أقرانهم العاديين، ويرجع ذلك إلى العزو السببي لهم، فهم لا يربطون سوء أدائهم بمجهوداتهم الضئيلة ومهاراتهم المتدنية، بل يرجعون ذلك إلى عوامل خارجية مثل نقص القدرة أو الاتجاه السلبي لمعلمهم نحوهم (عوض الله وآخرون، 2006)[63]، وتنعكس هذه الأنماط الإرجاعية للأطفال ذوي صعوبات التعلم على مواقف الاتجاه حيث ينظر إليهم على أنهم متعلمون عاجزون، ويتقبلون في أنفسهم أن ليس لديهم القدرة على التحكم في المواقف، وبناءا على ذلك يصبحون سلبيين ويتقبلون في أنفسهم الفشل على أنه أمر حتمي يتعذر عليهم اجتنابه، وقد وجد هارتز HARTZ ارتباطا ضمنيا بين الإرجاعات السالبة وبين الإستراتيجيات المعرفية المستخدمة، حيث تعتبر قدرة الأطفال على فحص سلوكهم بشكل موضوعي ومعرفة النتائج واكتشاف الروابط بين المقدمات وبين النتائج في المهمة، جزءا مهما لاستخدام الإستراتيجيات بفعالية، وهو مالا يتوفر عند ذوي صعوبات التعلم وبالتالي يؤثر على أدائهم الأكاديمي (RAYAN et al 1986)[64].

نتائج البحث:

نستنتج من خلال هذا البحث مدى أهمية ودقة نموذج تجهيز ومعالجة المعلومات من تفسير صعوبات التعلم حتى وإن كانت الاتجاهات الأخرى قد حاولت ذلك إلا أن الانتقادات التي وجهت إليها جعلت الأضواء تختفي عنها، فهذا النموذج حقق إنجاز أكبر في فهم وتفسير التعلم الإنساني، من خلال عمليات استقبال ومعالجة وتجهيز المعلومات، وهو بذلك يختلف عن النظريات الأخرى من حيث أنه لم يكتف بوصف العمليات المعرفية التي تحدث داخل الإنسان فحسب، وإنما حاول توضيح وتفسير آلية حدوث هذه العمليات ودورها في معالجة المعلومات وإنتاج السلوك، وذلك من خلال تشبيهها بما يحدث في الحاسوب ، كما نستنتج كذلك مدى أهمية الذاكرة العاملة في التعلم، فهي بمثابة الخزان الآني والمتزامن للمعلومات، والتي لا تكتفي فقط بتخزين المعلومات، وإنما تقوم بترميزها، وتخزينها بدقة من جهة، كما تقوم بالبحث عنها واستدعائها وقت الحاجة إليها من جهة أخرى.

خاتمة

رغم أن مجال صعوبات التعلم قد شغل مجالا واسعا في البحث التربوي الأكاديمي، ونذكر بالأخص ميدان عسر القراءة وعسر الكتابة، وبالرغم من أهمية الرياضيات في النواحي العلمية والمهنية، وكذا انتشار عسر الحساب لدى التلاميذ المتمدرسين، إلا أن ميدان عسر الحساب

لم يحظى بقدر كاف من الدراسات، وقد حاولنا هنا أن نبحث عن أسباب هذه الصعوبة، والتي تجعل من التلاميذ غير قادرين على استيعاب دروسهم أو عدم قدرتهم على تطبيق دروسهم في إنجاز التمارين الحسابية، هذا ومع أن الأنشطة والعمليات العقلية المعرفية المستخدمة في الرياضيات، تقف خلف الكثير من الأنشطة الأكاديمية الأخرى، فإن حيوية وتنشيط وتفعيل هذه الأنشطة يقوم بدور كبير في تنشيط وتفعيل معظم الأنشطة الأكاديمية الضرورية للنمو العقلي المعرفي للتلميذ، وعلى الرغم من أن الدراسات المتخصصة في صعوبات التعلم الأكاديمية قد انحازت دون مبرر إلى صعوبات القراءة خاصة وصعوبات الكتابة، فإن هذه الدراسة هدفت إلى التناول العلمي المعرفي لعسر الحساب، وقد خلصت إلى أهمية ودور الذاكرة العاملة في تفسير درجات عسر الحساب، فالتلاميذ الذين يعانون من قصور أو اضطرابات في الذاكرة، أو في نظام تجهيز ومعالجة المعلومات، قد يفهمون حقائق النظام العددي والقواعد التي تحكمه، غير أنهم يفشلون أو يجدون صعوبة في استرجاع تلك الحقائق بالسرعة أو الكفاءة أو الفاعلية المطلوبة، وهم بذلك يستنفدون الكثير من الوقت والجهد في إجراء الأنماط المختلفة للعمليات الحسابية، مم يجعلهم عرضة للوقوع في الأخطاء، أو عجزهم عن مواصلة الحل، وفي نفس الوقت تؤدي بهم خبرات الفشل هذه إلى انخفاض تقدير الذات لديهم، أو تقدير الآخرين لهم، وهو ما يؤدي بهم إلى تكوين وتنمية اتجاهات سالبة نحو الرياضيات، وبالتالي الإعراض عن المشكلات الرياضية أو الحسابية خصوصا والتوجهات العلمية عموما.

قائمة المراجع والدوريات

(1)- عبد الله يوسف عبابنة وآخرون، مناهج تدريس الرياضيات للصفوف الأولى، دار المسيرة، عمان، الطبعة الأولى 2007، ص15.
(2)- رمضان بدوي، تدريس الرياضيات الفعال، دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى 2007، ص44.
(3)- فريد كامل أبو زينة، مناهج تدريس الرياضيات المدرسية وتدريسها، مكتبة الفلاح، عمان، 2003، ص23.
(4)- رمضان بدوي، مرجع سبق ذكره، ص46.
(5)- عبد الله يوسف عبابنة وآخرون، مناهج تدريس الرياضيات للصفوف الأولى، مرجع سبق ذكره، ص17.
(6)- وليم عبيد، تعليم الرياضيات لجميع الأطفال، دار المسيرة، عمان، الطبعة الأولى 2004، ص53 - 65.
(7) - JOHNSON W, RISING D, Guidelines for Teaching Mathematics, Wadsworth Pub, 2nd edition, 1972, pp 266 - 271.
(8) - WEBSTER R, Visual and Oral Capacity Deficients in Mathematics Disabled Students, Journal of Education Research, N° 5, 1979, pp 277-282, p281. .
(9) - BLATT B, Who are Disabled? What is Disability? Journal of Learning Disabilities, N° 8, 1985, pp 558-570, p563.
(10)- عوض الله سالم وآخرون، صعوبات التعلم (التشخيص والعلاج)، مرجع سبق ذكره، ص54.
(11) - RAYAN et al, Loc cit, p521-522.

(12) - JOHNSON W, MORASKY L, Learning disabilities, Allym and Bacon, Boston, 2nd edition, 1980, p74.
(13)- صامويل كيرك و جيمس كالفنت، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، مرجع سبق ذكره، ص19- 21.
(14)- تيسير مفلح كوافحة، صعوبات التعلم والخطة العلاجية المقترحة، مرجع سبق ذكره، ص59.
(15)- صامويل كيرك و جيمس كالفنت، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، مرجع سبق ذكره، ص19.
(16)- تيسير مفلح كوافحة، صعوبات التعلم والخطة العلاجية المقترحة، مرجع سبق ذكره، ص95.
(17)- لندا هارجروف وجيمس بوتيت، التقييم في التربية الخاصة والتقويم التربوي، ترجمة عبد العزيز السرطاوي، مكتبة الصفحات الذهبية، الرياض 1988.
(18)- تيسير مفلح كوافحة، صعوبات التعلم والخطة العلاجية المقترحة، مرجع سبق ذكره.
(19)- LANKFORD F, Quantitative Evaluation Procedures for Learning Disabilities, Journal of Learning Disabilities, N° 04, 1981, pp 84 – 87.
(20)- MONTAGUE M, The Effect of Cognitive and Metacognitive Strategy Instruction on the Mathematical Problem Solving of Middle School Students with Learning Disabilities, Journal of Learning Disabilities, N° 25, 1992, p230.
(21)- BRAYAN T, BRAYAN J, Conformity to peer pressure by students with Learning Disabilities, Journal of Learning Disabilities, N 22, 1989, p 458-459.
(22)- رمضان بدوي، تدريس الرياضيات الفعال، دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى 2007، ص48.
(23)- المرجع السابق، ص35.
(24)- الزيات فتحي، صعوبات التعلم الإستراتيجيات المعرفية والمداخل العلاجية، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الأولى 2008، ص 340.
(25)- عوض الله سالم وآخرون، صعوبات التعلم (التشخيص والعلاج)، مرجع سبق ذكره، ص105.
(26)- ناظلة حسن، أصول تدريس الرياضيات، عالم الكتاب، القاهرة، 1973، ص36.
(27)- حسن سلامة، مرجع سبق ذكره، ص85 - 86.
(28)- PERICOLA L, et al, Improving the Mathematical Problems Solving Skills of student with Learning Disabilities, Journal of Special Education, N° 01, 1992, pp 1 – 19, p 5.
(29)- LABLANCE F, You can teach Problems Solving, Arithmetic teacher, N° 02, 1997, pp 16–20, p16.
(30)- CUNNINGHAM C, et al, The role of academic failure in hyperactive behavior, Journal of Learning Disabilities, N° 02, 1978, pp 274 – 280.
(31)- صامويل كيرك و جيمس كالفنت، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، مرجع سبق ذكره، ص201.
(32)- عوض الله سالم وآخرون، صعوبات التعلم (التشخيص والعلاج)، مرجع سبق ذكره، ص39.
(33)- محمد علي كامل، صعوبات التعلم الأكاديمية بين الفهم والمواجهة، مرجع سبق ذكره، ص 24.
(34)- صامويل كيرك و جيمس كالفنت، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، مرجع سبق ذكره، ص201.
(35)- حسين نوري الياسري، صعوبات التعلم الخاصة، مرجع سبق ذكره، ص37.
(36)- محمد علي كامل، صعوبات التعلم الأكاديمية بين الفهم والمواجهة، مرجع سبق ذكره، ص 41.
(37) - COPLIN W, MORGAN B, Learning A Multidimensional Perspective, Journal of Learning Disabilities, N° 10, 1988, pp 614 – 622,
(38) - LERNER J, Children with Learning Disabilities, Allym and Bacon, Boston, 1986, p51.
(39) - BRAYAN T, BRAYAN J, Understanding Learning Disabilities, West Publishing Company, Boston, 1986, p51.
(40)- محمد علي كامل، صعوبات التعلم الأكاديمية بين الفهم والمواجهة، مرجع سبق ذكره، ص26.

(41)- عبد الناصر أنيس وآخرون، فعالية استخدام أسلوب تحليل المهمة والعمليات العقلية لدى التلاميذ ذوي صعوبات التعلم في القراءة بالصف الثالث ابتدائي، مجلة كلية التربية، عين شمس، العدد الثامن، ص ص 194 - 267، ص200.
(42)- عوض الله سالم وآخرون، صعوبات التعلم (التشخيص والعلاج)، مرجع سبق ذكره، ص46.
(43) - COPLIN W, MORGAN B, Learning A Multidimensional Perspective, Loc cit, p 620.
(44) - ROSS A, Psychological Disorder of Children A behavioral Approach to Theory Reseqrch and the Therapy, McGrow, New York, 2nd edition, 1980, p231 .
(45) - COPLIN W, MORGAN B, Learning A Multidimensional Perspective, Loc cit, p 619.
(46)- زيدان أحمد السرطاوي وآخرون، المعاقون أكاديميا خصائصهم وأساليب تربيتهم، عالم الكتب، الرياض، 1987، ص 32 - 33.
(47) - COPLIN W, MORGAN B, Learning A Multidimensional Perspective, Loc cit, p 620.
(48) - GERBER M, Learning Disabilities and Cognitive Strategies, Journal of Learning Disabilities, N°5, 1983, p 255 – 259, p 258.
(49) - COPLIN W, MORGAN B, Learning A Multidimensional Perspective, Loc cit, p 621.
(50)- محمد علي كامل، صعوبات التعلم الأكاديمية بين الفهم والمواجهة، مرجع سبق ذكره، ص46.
(51) - SWANSON H, Information Processing Theory and Learning Disabilities, Journal of Learning Disabilities, N° 09, 1986 pp 03-07, p03.
(52)- فؤاد أبو حطب، القدرات العقلية، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، الطبعة الرابعة 1983، ص193.
(53)- الزيات فتحي، الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات، سلسلة علم النفس المعرفي، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى 1995، ص 345.
(54)- الزيات فتحي، علم النفس المعرفي مداخل ونماذج ونظريات، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الأولى 2001، ص462.
(55) - SWANSON H, Loc cit, p04.
(56) - RAYAN et al, The role of Cognitive Strategy Training in Improving the Academic Performance of Learning Disabled children, Journal of Learning Disabilities, N° 9, 1986, pp 521-528, p521. .
(57) - SWANSON H, Loc cit, p03.
(58) - RAYAN et al, The role of Cognitive Strategy Training in Improving the Academic Performance of Learning Disabled children, Journal of Learning Disabilities, N° 9, 1986, pp 521-528, p522.
(59)- الزيات فتحي، صعوبات التعلم الإستراتيجيات المعرفية والمداخل العلاجية، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الأولى 2008، ص310.
(60)- صامويل كيرك و جيمس كالفنت، صعوبات التعلم النمائية والأكاديمية، مرجع سبق ذكره، ص359.
(61)- حسين نوري الياسري، صعوبات التعلم الخاصة، مرجع سبق ذكره، ص26.
(62) - HAMMILL D, On Defining Learning disabilities an Emerging Consensus, Journal of Learning Disabilities, N°2, 1978, PP 74 – 83, P 79.
(63) - HALLAHAN D, KAUFFMAN J, Introduction to Learning disabilities: Psychobehavioral Approach, Engle wood cliffs, 1976 .
(64)- عوض الله سالم وآخرون، صعوبات التعلم (التشخيص والعلاج)، دار الفكر، عمان، الطبعة الثانية 2006، ص23 - 24.

منهج الاجتهاد في النوازل

أ.د/ لشهب بوبكر
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

1. الاجتهاد في الفروع فريضة شرعية، وحتمية تحتاج إلى تهيئة وإعداد، وأغلب الفقه من باب توليد فروع جديدة لم ينص عليها عن فروع منصوص عليها بدافع الحاجة إلى التوليد والتفريع.
2. الاجتهاد في تطبيق النص والحكم لا يقل شأنا عن الاجتهاد والبحث عن الحكم أو النص.
3. والنوازل إما أن تكون مما يحتاج إليه الناس، وإلى معرفة حكم الشارع فيه، أو أن لا تكون كذلك؟ فكل ما كان من الأولى فالاجتهاد فيه حتمية، وواجب شرعي، بخلاف ما كان من الثاني.
4. الأصل في البحث النازلة المعينة، الحاجة إلى معرفة حكم الشرع فيها وقد عم الابتلاء بها، ولم يسبق العلم بوجود نص صريح فيها، أو إجماع، ولا اجتهاد سابق، أو لتغير أحوال الناس مما يجعل من الاجتهاد السابق غير محقق لمقاصد الشرع العالية.
5. و أن تكون النازلة مما يجوز فيه الاجتهاد والنظر، و الناظر فيها مالك لأدوات النظر بالفعل؟

وفي هذه الورقة نحاول الوقوف على هذه المفاهيم، ثم ضبط ما نتمكن من ضبطه والله المستعان؟

تمهيـــد

الشريعة الإسلامية تمثل نظاما قانونيا متميزا، تراعى فيه المصالح بموازنة فريدة، بين العام والخاص، والثابت والمتغير، ينطلق من: أن كل حادثة جليلة أو دقيقة إلا ولله فيها حكم قد بينه نصا أو دلالة لقوله عز وجل (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[1]، وأن ما يبينه النبي صلى الله عليه وسلم لا يخرج عما بينه الله في الكتاب لقوله تعالى: (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[2].

نظام شامل لحياة الإنسان، من غير إهمال للفوارق الذاتية والاختلافات الزمنية والبيئية، ينظم الكون ومن فيه وفق نواميس ثابتة، بنصوص منها القطعي ومنها الظني، كل ما كان من الأول يجب الوقوف عنده، بخلاف ما كان من الثاني فإنه مجال للنظر والتأمل، بمراعاة مقاصد الشريعة الكلية والجزئية، والقواعد العامة التي تستخرج بها الأحكام، وتمسك المجتهد بالمقاصد والغايات، والقطعي من النصوص، لا يمنعه من اعتبار الوسائل المتغيرة والمتطورة، وإنما يمكنه من إظهار حقيقة مسايرة الفقه الإسلامي للتطور الاجتماعي والعلمي والتكنولوجي الحاصل للبشرية.

والاجتهاد في النوازل لا يخرج عن تحقيق هذه الأهداف، ولا يحصل إلا باجتهاد من مجتهد أو مجتهدين تتوفر فيه أو فيهم أهلية الاجتهاد.

والنوازل إما أن تكون مما يحتاج المكلف إليه وإلى معرفة حكم الشارع فيه، أو أن لا تكون كذلك؟ فكل ما كان من الأولى فالاجتهاد فيه حتمية، وواجب شرعي، وما كان من الثاني فالاجتهاد فيه توسعة، وجائز شرعا، لأن الكل داخل تحت حكم الشريعة من غير نزاع؟ إما واقعا أو توقعا؟ ولا يسلم هذا العمل إلا وفق قواعد ومناهج مضبوطة، وشروط محددة، ونبدأ بمفهوم الاجتهاد الشامل للواقع والمفترض من الوقائع، ثم نتبعه بالنوازل:

أولا: مفهوم الاجتهاد ومشروعيته

في اللغة من مادة [جهد] وتعني استفراغ الوسع في أي فعل[3]. أما في اصطلاح الأصوليين فإن تعريفاتهم وان اختلفت في المباني فإنها تتحد في المعنى وخلاصته[4]: ***بذل الجهد في نيل حكم شرعي بطريق الاستنباط.***

ويقيده اغلبهم بالعملي إخراجا للعقدي من جهة، وإشارة خفية لإخراج المفترض من جهة ثانية، وبالظني إخراجا للقطعي.

وبذل الجهد المذكور في مستهل التعريف يقتضي من المجتهد الشعور بالعجز عن الزيادة في الطلب من مالك لأدواته، وليس مجرد النظر، و ليس نظر غير المجتهد.

كل مسألة شرعية ليس فيها دليل قطعي الثبوت والدلالة، تعد مجالا للنظر والتأمل من مالك لأدوات الاجتهاد المنصوص عليها عند أهل الاختصاص، لأن عدم وجود الدليل القطعي إشارة من الشارع إلى جواز الاجتهاد.

وهو مشروع بما لا يدع مجالا للشك، وبأدلة قطعية من الكتاب والسنة وآراء أهل العلم، لأن شريعة الإسلام خاتمة لجميع الشرائع، واجبة التطبيق إلى يوم الدين، حاكمة على جميع أفعال وأقوال العباد، تحقق لهم المصالح وتدفع عنهم المفاسد بنصوص محدودة ولا يكون المحدود قاضيا على اللامحدود إلا باستعمال الاجتهاد بحيث يتم رد غير المنصوص عليه إلى المنصوص عليه، وتستخرج الحِكم والعِلل التي من أجلها جاءت الشريعة، ليتم الحكم على كل مستجد وكل ما لا نص قطعي فيه.

الاجتهاد بالمفهوم الذي سبق من فروض الكفاية على المجتمع مثل الصناعات والحرف المختلفة وجميع أنواع العلوم من طب وهندسة وجبر وجيولوجيا وإعلام آلي، وكل ما تحتاج إليه الأمة لاستقامة الحياة، ومن باب أولى ما تحتاجه الأمة في أمور دينها، لهذا لم يختلف العلماء في مشروعية الاجتهاد، ووجوبه متى توفرت الأسباب والشروط.

نقل الإمام الشوكاني عن بعض الفقهاء قولهم: لا بد أن يكون في كل قطر من يقوم بالاجتهاد على الكفاية... فإن قصر أهل عصر بتركه أشرفوا على خطر عظيم... لأن الأحكام الاجتهادية مترتبة على الاجتهاد ترتب المسبب على السبب[5].

ويذكر الإمام النووي في المجموع أن الاجتهاد المستقل فقد من رأس المائة الرابعة للهجرة، بخلاف المنتسب فإنه باق إلى أن تأتي أشراط الساعة الكبرى ولا يجوز انقطاعه شرعا.

ولا يخلو عصر من العصور من مجتهدين على رأي جمهور علماء الأصول لما رواه الإمام مسلم في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة"[6]، وما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعا: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جُهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا"[7].

فالأرض لن تخلو من وجود مجتهد يبين أحكام الشرع فيما يحتاج إليه الناس، وإلا عطلت الفرائض، وتوقف الشرع، وذهبت مصالح الناس وحلت المفاسد مكان المنافع، ودخلت الأمة في ضلال وخطر باتباع الآراء والأهواء، وقد أمرت باتباع الشرع في كل صغيرة وكبيرة، وقد تعهد عز وجل بحفظ الذكر، وحفظه يتحقق بحفظ الأحكام تنظيرا وتطبيقا.

والله سبحانه وتعالى قال في محكم تنزيله على لسان إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم: "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين وبذلك أمرت.."[8] وقال أيضا: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"[9].

فالإنسانية خلقت لعبادة خالقها بالمفهوم الكامل للعبادة الذي يعني كل الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، وواقع الأمة الإسلامية بل واقع الكون ومن فيه في حاجة دائمة إلى اجتهاد لبيان الأحكام الشرعية في كل مستجد أو طارئ.

ثانيا : النوازل :

النوازل التي نتكلم عن الاجتهاد في حكمها في اللغة: جمع نازلة، والنازلة: اسم فاعل من نزل يترل إذا حلّ. وقد أصبح اسمًا على الشدة من شدائد الدهر. فهي: المصيبة الشديدة من شدائد الدهر تترل بالناس[10]، وأصلها من الفعل "نزل" بمعنى: هبط ووقع كما قلنا " ونزل عن دابته، ونزل المطر من السماء نزولاً، والنازلة: الشديدة من شدائد الدهر تترل"[11].

أما في اصطلاح أهل الاختصاص فهي: وقائع جديدة لا يعلم فيها نص معين ولا اجتهاد محدد. و هي اسم للمجتهد فيه أو لمحل الاجتهاد، من المسائل والقضايا المستجدة؟

ويذهب الكثير من الأصوليين إلى عدم التفريق بين الاجتهاد والإفتاء، وأن المجتهد مفتي، والمفتي مجتهد، ولعل التفريق أدق: فالإفتاء إخبار بثمرة الاجتهاد، ولا يتضمن الاجتهاد إخبارا. كما أن الفتوى في الغالب جوابا عن سؤال من مستفت بخلاف الاجتهاد.

واجتهاد المجتهد لا ينقض بمثله، بخلاف الفتوى... ومسائل الاجتهاد كما تكون في الوقائع التي وقعت تكون فيما يتوقع، وغالب مسائل الفتوى في التي وقعت لأنها جواب عن سؤال، والنوازل تتناول ما وقع؟

وهناك علاقة بين تقدم الأمة بل الأمم قاطبة، والقدرة على الاجتهاد بالنظر والتأمل في المستجدات والنوازل لا تنفك...

أما توقف آلة الاجتهاد، والحجر على المجتهدين فدليل على ضعف الأمة وهوانها، كما أن تفعيل وسائل الاجتهاد، وفسح المجال أمام أهل الفكر والذكر لولوجه دليل على قوة تقدم الأمة ومظهر من مظاهر ازدهارها.

ما يجب مراعاته عند النظر في النازلة:

أولا: الوقوع: لأن الأصل في البحث في النازلة المعينة، الحاجة إلى معرفة حكم الشرع فيها وقد عم الابتلاء بها، لعدم وجود نص صريح فيها، ولا اجتهاد سابق، أو تغير أحوال الناس ولو مع اجتهاد سابق مما يجعل من الاجتهاد السابق غير محقق لمقاصد الشرع العالية، أما ما لم يتزل أصلا، أو لم تعم البلوى به ففي الاجتهاد فيه خلاف ليس هنا محل تحريره؟

ثانيا: جواز النظر: أي أن تكون النازلة مما يجوز فيه الاجتهاد والنظر، وأن يكون الناظر فيها مالك بالفعل لأدوات النظر ؟

ثالثا: الفهم الدقيق: ذلك لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وللوصول إلى حقيقة ما وقع في الواقع يحسن الاستعانة بالقرائن والأمارات والملابسات، لتحديد وتعيين الواجب في النازلة، ولهذا فلا غنى للناظر في النازلة عن الاستعانة بأهل الخبرة من تخصصات أخرى، بحسب موضوع النازلة.

وفق شروط منها ما يتعلق بالنازلة المجتهد فيها، ومنها ما يجب توفره في المجتهد، والمجتهد له نكتفي هنا بالإشارة إلى ما نراه مناسبا للمقام.

شروط النظر في النازلة :

الأول: رد النازلة إلى الضوابط الأصولية والقواعد الفقهية، والتزام منهج التخريج:

برد النازلة إلى القواعد والضوابط، يتم التدرب على مآخذ الظنون ومدارك الأحكام، والإحاطة بها وهو مدخل للتعرف على أحكام النوازل والمستجدات، عن طريق معرفة النظائر والأشباه وهو الأمر الذي جعل علماء الفقه قديما وحديثا يعتنون بهذا الفن ويعدونه من أجل طرق الاستنباط، وعلامة على قدرة المجتهد ودليلا على ضبط الاجتهاد، ومنارا على استمرار الفقه وتطور الاجتهاد، إذ القواعد والضوابط بمثابة الأعمدة والأسس من البناء الذي لا يصلح بدونها، فالقاعدة الفقهية = قضية كلية منطقبة على جميع جزيئاتها[12] أو هي = حكم كلي ينطق على جميع جزيئاته لتعرف أحكامها منه.

ويعرفها البعض: بأنها أمر كلي ينطبق على جزئيات كثيرة تفهم أحكامها منه[13].

ويذهب البعض إلى أنها ترادف الأصل والقانون[14].

فهي إذا **أحكام أكثرية في نصوص موجزة دستورية تتضمن أحكاما تشريعية عامة في حوادث عامة تدخل تحت موضوعها**[15].

بهذه المعاني تكون القواعد الفقهية ليست مجرد وعاء يلجأ إليه الفقيه والمجتهد، وإنما هي منهج تشريع، مما أدى بالكثير من علماء الأصول وصفها: بالأدلة والأصول[16].

ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت[17].

إلا أن الذي يجب ملاحظته هنا: أن معظم القواعد لا تخلو عن المستثنيات، وقد تكون المسألة المبحوث عن حكمها من المسائل والفروع المستثناة [18]، فإذا نزلت النازلة ولا يعلم لها حكم فقهي ولا دليل شرعي خاص يحكمها، ووجدت القاعدة الفقهية التي تشملها، فإنه يمكن الاستناد إليها في استخراج حكم للنازلة ما لم يظهر الفرق الواضح بين النازلة وما اشتملت عليه القاعدة[19]، وكتب التخريج قائمة في الغالب على رد الفروع إلى القواعد.

هذا العمل الجليل يحتاج إلى الدراية التامة بقواعد الأئمة الأعلام، وأدلتهم الإجمالية، وطرق استنباطهم منها.

الشرط الثاني: التزام منهج التخريج :

و تخريج الأصول من الفروع، لا يخرج عن كونه: استخلاص للقواعد التي التزمها الأئمة السابقون، وجميع للضوابط الفقهية التي تتكون من الأقيسة التي استخرجوها[20]، وجمعا لما اطلعت في تعريف التخريج فإني أفضل تعريفه بما يلي:

الكشف عن أصول الأئمة،وقواعدهم من خلال فروعهم الفقهية،وتعليلاتهم للأحكام.

ليحكم في الواقعة الجديدة بالرجوع إلى قواعدهم وأصولهم و ملتزما مناهجهم.

وهو طريق يمكّن المجتهد من الحكم في النازلة بتعامل مع نصوص الأئمة المجتهدين وأفعالهم وتقريراتهم من حيث دلالتها على المعاني الرابطة بينها، والعلاقات التي تجمعها، والدوافع المؤدية إلى الأخذ بتلك الآراء منهم، بهدف الوصول إلى القواعد التي بنوا عليها الأحكام أولا ثم الحكم في النازلة.

بهذا يتمكن من فهم وتحديد العلاقات الموجودة بين الفروع وضبطها، بعد الفهم السليم لها والدراية التامة بالتعليلات، في ضوء أصول عامة وقواعد جامعة، وتكون قواعدهم ومناهجهم تمثل الوسيلة السليمة لتحقيق ثمرة الاجتهاد في النازلة.

ولا يقدر المجتهد على تحقيق ما يصبوا إليه، وما يُطلب منه، إلا بملكة فقهية تأهله للترجيح بين الآراء والأدلة والتفريع عنها انطلاقا من القواعد والأصول، أو من الفروع، ثم الحكم على–وفي–النوازل الطارئة المستجدة، إخراجا للأصول النظرية من النظرية إلى التطبيق ، وربطا بين الأصول والفروع، وتحقيقا لاستمرار الشريعة من المكلفين.

لهذا كله اعتبر الشيخ الدهلوي الطبقة الثانية من طبقات المجتهدين:المتمكنون من تخريج الأحكام على نصوص إمامهم[21]

وأشار الشيخ أبو زهرة في الطبقة الثانية من المخرجين إلى ذات المعنى بقوله:طبقة المخرجين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب.

أما ابن الصلاح فذكر في الطبقة الثانية من المجتهدين-المفتين- مواصفات منها : أن يكون عالما بالفقه خبيرا بأصول الفقه، عارفا بأدلة الأحكام تفصيلا بصيرا بمسائل الاقيسة والمعاني، تام الارتياد في التخريج والاستنباط قيما بإلحاق ما ليس بمنصوص عليه في مذهب إمامه بأصول مذهبه وقواعده [22]،وسماه السيوطي بـ:مجتهد التخريج [23]

*وعده ابن القيم في المرتبة الثانية فيمن نصبوا أنفسهم للفتوى: المجتهد المقيد في مذهب من ائتم به [24].

فالمخرج طبقة من طبقات المجتهدين، ودرجة من درجات المفتيين، والناظر في النوازل قد جمع الاثنين، فهو مجتهد ومفتي وحاجته إلى المنهج أكيدة.

الشرط الثالث : علم المجتهد في النوازل بالمقاصد الشرعية العامة والخاصة: ونعني بذلك أن يكون المجتهد في النازلة المعينة يدرك المقصد العام من كل الشريعة الإسلامية الذي يتمثل في معلمين اثنين:

أولهما: تحقيق العبودية لله تعالى وفق شرعه، قال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون..."[25] عبادة تقلب العادات والأعراف عبادات يؤجر عليها بالقصد والنية شريطة موافقة الشرع، شاملة لكل التصرفات من الأقوال والأفعال "قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين".

ثانيهما: جلب مصالح البرية المادية والمعنوية العاجلة والآجلة، ودفع المفاسد عنهم في الدارين، وتمام ذلك يدرك أن المكمل للمصلحة يلحق بها، وهو السبب الذي جعل ابن القيم يعتبر شرع الله دائر مع المصلحة أينما وجدت فثمة شرع الله، و أن كل مسألة خرجت عن المصلحة إلى المفسدة ليست من الشريعة[26]. فالشريعة هي المصلحة ؟ والمصلحة شريعة ؟.

هذا واعتبر الإمام الشاطبي العلم بالمقاصد سببا للاجتهاد لا مجرد شرط، حيث يقول: إذا بلغ الإنسان مبلغا فهم فيه عن الشارع مقصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها فقد حصل له وصف هو السبب في نزوله منزلة الخليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والفتيا والحكم بما أنزله الله. أ.هـ.

نعم لا يقدر على الاجتهاد في النوازل إلا من علم بالمقاصد والحِكم والعِلل وكان قادر على نصب الأدلة للاستدلال، وهنا يحضرني مثال نقله الإمام بن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية، عندما طلب منه أحد مرافقيه أن ينكر على جمع من التتار كانوا يشربون خمرا، فقال له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم[27]. فهي نازلة حكم فيها شيخ الإسلام رحمه الله بما يوافق مقاصد الشريعة العالية، وإن ظهر لغير العالم بها مخالفة لظاهر حكم جزئي..؟ وهذا يجرنا إلى اشتراط معرفة الناس وواقعهم، وهو مادة الشرط الموالي.

الشرط الرابع: **الدراية التامة بالناس وواقعهم:**

المجتهد في النوازل والناس حوله يتأثرون بمختلف العوامل النفسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وإهمال هذه المؤثرات يؤدي إلى مخاطبة الناس بغير عقولهم، كما أن عدم اعتبار واقع الناس مكابرة تكون سببا في الإفساد من حيث يريد المتكلم الإصلاح، نقل الإمام ابن القيم عن الإمام أحمد قوله: ينبغي للرجل الذي ينصب نفسه للفتيا خمس خصال: أولها: النية، الثانية: الوقار والسكينة، الثالثة: المعرفة، الرابعة: الكفاية (أن يكون له كفاية من العيش)، الخامسة: **معرفة الناس**[28].

واعتبر ابن القيم هذا –معرفة الناس– أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم، وإلا كان يفسد أكثر مما يصلح، وهو شرط لصحة الاجتهاد إذ قد يبلغ درجة الاجتهاد من لا يعرف واقع الناس، فيكون اجتهاده غير صحيح وان لقب بالمجتهد.

ومن هذا القبيل تغير الحكم بتغير الزمان والأحوال والأشخاص والأعراف، وحتى الإجماع الذي يجب التزامه وتحرم مخالفته، إن يبنى على عرف أو علة أو ظرف فإنه يتغير بتغير أسبابه وعلله[29].

الشرط الخامس: أن يكون المجتهد في النازلة له علم بالخلاف وأسبابه الجائز منه والممنوع:

الاختلاف نقيض الاتِّفاق، وكل ما لم يتساوَ فقد اختلف[30]، وفرق ابن عابدين بين الخلاف والاختلاف فما بني على دليل اختلاف، وقيل: القول المرجوح في مقابلة الراجح خلاف ولا يسمى اختلافا، وحقق الشاطبي في الفرق بينهما [31]، والذي نعنيه هنا ما كان في مقابلة الراجح من حكم أو دليل مرجوح ، لأن ما لا دليل له وصفه بالبطلان أو الفساد أولى ؟ وليس كل تعارض بين قولين اختلافا حقيقيا [32].

والنازلة كما تكون مستجدة ليس لها حكم ولا اجتهاد فيها، تكون مسبوقة باجتهاد قد تغيرت أسبابه ومعالمه، فيحتاج الناظر إلى اجتهاد فيها جديد، وقد يكون هو صاحب الاجتهاد الأول فلا يمنعه ذلك من معاودة الاجتهاد ؟.

لأن الخلاف في الفروع حتمية وواقع لا يمكن إنكاره نظرا لاختلاف العقول في قوة الاستنباط و ضعفها، وإدراك الأدلة و عدم إدراكها و لوضوح المعاني وغموضها، والذي يفسر النص الشرعي هو العقل في حدود اللغة، والناس في هذا متفاوتون.

وإذا أضفنا سعة العلوم الشرعية التي يتوقف عليها الاستنباط فإن دائرة الخلاف تتسع، ويتأكد وقوعه، لأن تنزيل أي حكم يختلف باختلاف البيئة، فهذا الإمام الشافعي يفتي بالقديم في العراق، وبالجديد في مصر، وفي البيئتين يتحرى الحق، ويفتي بما اطمأن إليه.

وهكذا كل عالم قد يطمئن إلى دليل لتعديل راويه أو عدم انجلاء ما يطعن فيه من الأدلة، ولا يكون كذلك عند غيره، وقد يقدم دليلا على آخر لقوته واعتقاد ضعف غيره، في حين يذهب غيره إلى عكس ما ذهب إليه لظهور أسباب عنده لم تتضح لغيره.

–والحَكم في كل ذلك قابلية الدليل لما ذهب إليه كل عالم، وأهلية المجتهد للاجتهاد.

و اعتقاد الحق المطلق الذي لاحق غيره في الظنيات مخالف للسنة الكونية (تفاوت العقول في القدرات) والواقع العلمي، ولما وقع عملا في العصور الأولى-الخيرة-لهذه الأمة، من الصحابة ومن بعدهم.

والتزام الآداب والضوابط حتمية شرعية واجتماعية

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة،ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجِنة والناس أجمعين" [33]

فالاختلاف في الاستعدادات والعلم والفهم والذكاء والمدارك العقلية... الخ مظهر-وضرورة-حتمية ملازمة للحياة الإنسانية العلمية مرتبط بالاجتهاد، إنكاره مكابرة، والتوسع فيه ذريعة يجب ضبطها، وآداب التعامل معه حتمية يجب التحلي بها[34]، ومن علم المجتهد في النازلة بالخلاف وأحوال الناس تصوره الصحيح لتتزيل الحكم.

الشرط السادس:الاجتهاد في تنـــزيل الحكم: الاجتهاد في تطبيق النص لا يقل شأنا عن الاجتهاد فيما لا نص فيه، كما أن الاجتهاد البحث عن النص الذي يحمل كما، لا يقل شأنا عن البحث عن الحكم، انطلاقا من قواعد عامة ومناهج مضبوطة، هذه حقيقة على المجتهد مراعاتها عند استنباط الحكم في النازلة، لأن الاجتهاد الأصولي يقوم على مبادئ تشريعية إما نصية: و هي الثابتة بالنص القرآني أو من السنة المطهرة.

أو على مبادئ معنوية عامة: و هي المستنبطة بالاجتهاد الأصولي من أدلة جزئية كثيرة، ومعان تتضمن معنى الأصل الكلي الذي يندرج فيه الأصل المعنوي العام.

و هناك نصوص و أحكام جزئية أو كلية قطعية محكمة لا مجال للاجتهاد فيها، و مع ذلك لا تخلو من حِكمة و معنى لابد من تحقيقها و الحفاظ عليها، لأن الشريعة كليات وجزئيات لها مقاصد يلزم صيانتها و الحفاظ عليها و بمقتضى هذه المبادئ العامة يوازن المجتهد بين واقع الناس، و المبادئ العامة النظرية و النصوص الجزئية، وأن المصلحة المكملة متى عادت على الأصل بالنقض أو ناقضت مقصود الشارع، فلا اعتبار لها.

وبالتوفيق بين مقتضى القاعدة العامة النظرية المجردة وواقع حياة الناس من غير إخلال بالمبادئ التشريعية الأساسية، والمصلحة العامة، يتم النظر في النوازل، ومن هذا القبيل ما يسمى عند الأصوليين بسد الذرائع، و النظر في مآلات الأفعال، وهو استدلال بالنصوص في ضوء المصالح..

و لا يصدق القول بخلود هذه الشريعة إلى يوم القيامة إلا بذلك.

فالرسول صلى الله عليه و سلم مع أن وظيفته التبليغ عن رّبه، يقوم بوظيفة البيان والتفسير ثم يرسم لأصحابه رضوان الله عليهم، منهج الاجتهاد و يحملهم عليه، لأنه يعلم، ويعلم أمته، أن مراعاة الملابسات لا يناقض العمل بالنص و تطبيق الحكم الشرعي و الهدف المتوخى منه.

مزيج بين تحكيم الشرع، و استعمال العقل، و اشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، و اصطحب فيه الرأي و الشرع يقول الشوكاني: و اجتهاد الرأي كما يكون باستخراج الدليل من الكتاب و السنة. يكون بالتمسك بالبراءة الأصلية، أو بأصل الإباحة، أو التمسك بالمصالح، أو التمسك بالاحتياط.

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجتهد برأيه فيمن أطلق الثلاث بكلمة واحدة، فيلزم الأمة بما رآه للأمة و يجتهد في إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم مع وجود النص القرآني والتطبيق العملي من الرسول صلى الله عليه و سلم ثمّ أبو بكر الصديق من بعده، لأنه فهم أن النص معلل و للرأي في فهمه مجال تحصيلا لمنفعة عامة للدولة، ولا عبرة بحكم لا يحقق مقصده، والحكم يدور مع علته إذا كان معللا وجودا و عدما[35]. فإن تغيرت العلة صارت المسألة نازلة يجب البحث فيها؟ من غير افتراء على الشارع ولا تعطيل لنص من نصوصه.

الخاتمة

وفي الختام نكرر بأن الاجتهاد في الفروع فريضة شرعية، و حتمية تحتاج إلى تهيئة وإعداد، وأن أغلب الفقه المنقول عن الأئمة هو تخريج عن نصوصهم، من باب توليد فروع جديدة عن فروع منصوص عليها عند الأئمة الأعلام.

و أهل العلم اتفقوا على صحة نسبة ما قطع فيه بنفي الفارق بينه وبين ما نص عليه الإمام، وما استنبط من نصه بطريق مفهوم الموافقة[36]إلى الإمام. واختلفوا في نسبة: ما استنبط من نصه بطريق مفهوم المخالفة. وما دل عليه اللازم من نصه، وما قيس على نصه الذي لم ينص على العلة فيه، بخلاف الذي نص على علته.

والظاهر أن المالكية ينسبون الفروع المخرجة على أصول وقواعد إمامهم إذا كان المجتهد فقيه نفس إلى الإمام، فقد سئل ابن عرفة هل يجوز أن يقال في طريق من الطرق هذا مذهب مالك فأجاب بأن: من له معرفة بقواعد المذهب ومشهور أقواله والترجيح والقياس يجوز له ذلك بعد بذل وسعه... ومن لم يكن كذلك لا يجوز له إلا أن يعزوه إلى من قبله كالمازري وابن رشد وغيرهما[37].

وحين سئل أحد علماء المالكية عن اختيارات الأصحاب المتأخرين من المالكية كاللخمي وغيره هل تحكى أقوالا في المذهب قال نعم يحكى قول اللخمي قولا في المذهب كما يحكى قول من تقدم من الفقهاء قولا في المذهب وهذا الرأي على سبيل النظر لأنه رأى أن كل جواب بني على أصول مذهب مالك وطريقته والمفتي به إنما أفتى على مذهبه فيصح أن تضاف هذه الأقوال وتعد منه[38].

هذا والذي يظهر من كلام ابن الصلاح: جواز نسبة القول المخرج على أصول الإمام مذهبا له حيث قال" التخريج تارة يكون من نص معين لإمامه في مسألة معينة وتارة لا يجد

لإمامه نصا معينا يخرج منه فيخرج على وفق أصوله بأن يجد دليلا من جنس ما يحتج به إمامه وعلى شرطه فيفتي بموجبه"[39].

و هو اختيار جمهور الحنفية " إفتاء المجتهد في مذهب إمامه المجتهد تخريجا بأن لا يكون المفتي به منصوصا لصاحب المذهب لكن المفتي له أخرج من أصوله فإنه يقبل بشرائط منها أن يكون أهلا للتخريج ولمعرفة ما يتوقف عليه..."[40].

وبهذا يصل البحث إلى افتراض أن ما اجتهد فيه من النوازل وفق قواعد ومناهج مذهب معين أنه من المذهب، وأن الاجتهاد في النوازل إثراء للمذهب، إضافة إلى ما سبق.

فتخريج النازلة على أصول الإمام إضافة إلى كونها حتمية، وواجب شرعي، يمكن نسبتها إلى المذهب...

الهوامش

1 سورة النحل الآية 79 ، ينظر أبوبكر الجصاص في تفسيره للآية
2 سورة الحشر الآية 7
3 المستصفى للغزالي 350/2
4 الشوكاني. إرشاد الفحول ص 250. والغزالي في المستصفى 350/2 والأمدي في الأحكام 218/4.
5 إرشاد الفحول ص 253.
6 صحيح مسلم برقم 156 في الإيمان، ورقم 2889 في الفتن.
7 رواه البخاري 174/1 و175 في العلم ، كيف يقبض العلم وفي الاعتصام . ومسلم رقم 2673 في العلم
8 سورة الأنعام الآية 162
9 سورة الذاريات الآية 56.
10 انظر معجم مقاييس اللغة 986، مادة "نزل"، والقاموس المحيط 57/4-58، مادة "النزول"، ولسان العرب 659/11، مادة "نزل" ، ومختار الصحاح 273/1، مادة "نزل".
11 ابن فارس في معجم مقاييس اللغة 986.
12 الجرجاني في التعريفات ص 219
13 الجرجاني التعريفات ص 40
14 التاهوني كشاف 5 /1176 ، و التلويح والتوضيح 1 / 20
15 الزرقاء المدخل الفقهي العام 2 /936
16 الشاطبي في الموافقات 1/ 430 وابن نجيم في الأشباه والنظائر ص 10.
17 القرافي في الفروق 1 / 3
18 الزرقاء المدخل الفقهي العام 2 / 934 و 935
19 وعلم الفروق علم جليل قائم بذاته لعله لم يحض بعد بالدراسات الكافية مع أهميته والحاجة إليه .
20 موسوعة الفقه الإسلامي ...عن جمعية الدراسات الإسلامية بإشراف الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله 59/1
21 حجة الله البالغة
22 أدب المفتي والمستفتي ص 91 إلى 94
23 الرد على من أخلد إلى الأرض ص 116
24 إعلام الموقعين 4/ 184 و185
25 سورة الذاريات الآية 56.

26 إعلام الموقعين 3/3. و العز بن عبد السلام في قواعده.
27 إعلام الموقعين 10/3 . واعتبر سفيان الثوري العلم هو اخذ رخصة من ثقة أما التشدد فيحسنه الجميع. إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية 158/1. قلت: لما في العمل بالرخصة من مراعاة للمقاصد، ودليل على علم المترخص، والله أعلم وأحكم .
28 إعلام الموقعين 199/4.
29 ولنا في هذا دراسة منشورة في مجلة المنهل عدد 570 بالسعودية ، ومصنف لا يزال تحت الطبع.
30 ابن عابدين في الحاشية 231/4
31 الموافقات 161/4
32 وقسمه الشاطبي : اختلاف تنوع واختلاف تضاد . راجع الموافقات 215/4
33 سورة هود الآية 118
34 وهناك العديد من المصنفات في العصور القديمة والحديثة في هذا المجال ، تبرز الأدب العالي للعلماء عند الخلاف والاختلاف . ومرد الخلاف إلى أسباب خمسة: أولها: اختلاف العقول . ثانيها:سعة العلوم الشرعية،ومرونتها (نصوص، قواعد، ضوابط). ثالثها:اختلاف البيئة(والأعراف والعادات). رابعها:اختلاف في الاطمئنان إلى الدليل أو راويه. خامسها:اختلاف في تقدير الدلالة.
كل اختلاف كان مرده إلى هذه الأسباب، مشروع ومعقول ومقبول،وإنكاره مخالفة لسنة كونية ثابتة، وحكم شرعي مستقر، والتعامل معه يكون وفق الآداب الشرعية ، مدار ذلك على عقل قادر على التشريع وإنزال الأحكام
35 الشوكاني إرشاد الفحول ص 202
36 أبو الحسن البصري / المعتمد، ج02، ص 313-ص 314. الشيرازي / التبصرة، ص 516-ص 517 والطوفي / شرح مختصر الروضة، ج03، ص 638. وآل تيمية / المسودة، ص 532- ص 535. والدكتور عبد الله التركي / أصول مذهب الإمام أحمد، ص 807-ص 810.
37 الحطاب / مواهب الخليل، ج01، ص 53.
38 الغبريني / عنوان الدراية، ص100-101.
39 ابن الصلاح / أدب المفتي والمستفتي، ص 31 ، وص 97.
40 أمير باد شاه / تيسير التحرير، ج04، ص 249. وابن أمير الحاج / التقرير والتحبير، 462. والدكتور الباحسين التخريج / التخريج، ص 101-ص 102.

منهج علماء المالكية في استثمار المقاصد الشرعية عند استنباط الأحكام

أ / أحمد خويلدي
أستاذ مؤقت
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

فهم مقاصد الشريعة ضروري للمجتهد، بل هو شرط لقيام أهلية الاجتهاد كما يقرر ذلك العلماء. وانطلاقا من هذه المسلمة أردت أن أبيّن في هذا البحث كيف أن علماء المالكية قد حققوا هذا الشرط، وتمكنوا من خلاله استثمار المقاصد عند استنباط الأحكام الشرعية خاصة من النصوص، فلم يتوقفوا عند حرفيتها والجمود على الظاهر منها؛ لأن تطبيق المفهوم الظاهري والاقتصار عليه قد يوقع الناس أحيانا كثيرة في حرج، ويفوت عليهم مصالح ضرورية في الحياة الدنيا والآخرة، فكان و لابد من مراعاة المعاني التي يهدف إليها النص. ولهم في ذلك منهجا متبعا ورثوه عمن سبقهم، وعضدت البحث بأمثلة تطبيقية لتوضيح هذا المنهج وقواعده.

Abstract

Understanding the ends of the Islamic law (Sharia) is required for a diligent providing that he is qualified for such a diligence. Scientists such as « Shatibi » and others insisted on this fact. Depending on this postulate, my work aims at showing how the « Maliki » scientists realized this requirement and grasped it investing the goals of the Islamic law to deduce the judgments from texts. However, they exceeded the literal and outward meanings. That was because the application of an outward concept very often leads people to perplexity and embarrassment. It also prevents them from many beneficial assets.

Moreover, depending on the literal meaning of the version and neglecting the sense may lead to the contrary of the Sharia's objectives. Of course the aim of those scientists was not to oppose fancifully the content of the Islamic law, but to achieve the spirit of those laws since their application wouldn't cause any contradiction.

مقدمـــة

لقد كان الفقهاء في عصر الأئمة المجتهدين و من بعدهم كسلفهم من الصحابة والتابعين، لهم عناية واهتمام برعاية المقاصد الشرعية، وهم بين مضيق وموسع فيها، فكتبهم امتلأت بما يشير إلى أنهم كانوا يراعون المقاصد في أحكامهم التي تصدر منهم أثناء الاجتهاد أو الفتاوى في النوازل، إلا أنهم لم يذكروا ذلك تحت مسمى المقاصد، بل نلمس ذلك واضحا وجليا من خلال الأصول التي اعتمدوا عليها في اجتهاداتهم، هذا بصفة عامة، أما إذا جئنا إلى المالكية وعلى رأسهم الإمام مالك بن أنس ـــ رحمه الله تعالى ـــ فيكفي أن نلقي نظرة على الموطأ لندرك بسهولة ويسر أنه كان أكثر الأئمة عناية وأخذا بالمقاصد الشرعية، وكذلك من جاء

بعده من علماء المالكية، حتى عرف المذهب المالكي بمذهب المقاصد الأول، فجل الأصول التي يعتمد عليها علماء المذهب المالكي في استنباط الأحكام تراعي المقاصد ن مثل سد الذرائع والمصالح المرسلة والاستحسان والعرف ومراعاة الخلاف وغيرها، وكتب النوازل عند المالكية تمثل أروع تطبيق لمراعاة المقاصد. من هذا المنطلق أردت أن أبيّن منهجهم المتبع في استثمار المقاصد عند استنباط الأحكام الشرعية، ومصدر هذا المنهج المتبع، مشفوعا بأمثلة تطبيقية لبيان نظرهم المقاصدية، مقارنة مع غيرهم. وقد تناولت الموضوع من خلال النقاط الآتية:

- من شروط الاجتهاد العلم بمقاصد الشريعة.
- أصل هذا المنهج.
- بعض قواعد منهج علماء المالكية مع أمثلة.

1. من شروط الاجتهاد العلم بمقاصد الشريعة:

العلماء عموما وعلماء المالكية خصوصا، يبنون اجتهاداتهم الفقهية المستنبطة من النصوص الشرعية على مراعاة المقاصد، ومن خلالها يصدرون أحكامهم، فيأتي الحكم الفقهي مطبوعا بروح الشريعة.

فالعلم بمقاصد الشريعة جملة وتفصيلا أحد شروط الاجتهاد، وهو ما أشار إليه الإمام الشاطبي[1] فقال: "الاجتهاد إن تعلق بالاستنباط من النصوص فلابد له من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا"[2].

فقد بين الإمام الشاطبي أن اجتهاد المجتهدين ينبني على قاعدتين من العلم ـــ إضافة إلى الشروط الأخرى الواجب توفرها في المجتهد[3] ـــ أولهما: معرفة اللغة العربية فيما يتعلق بالاستنباط من النصوص الشرعية. ثانيهما: معرفة مقاصد الشريعة إذا تعلق الاجتهاد بالمعاني من المصالح والمفاسد.

ويقول في موضع آخر من كتابه الموافقات: "إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين أحدهما فهم مقاصد الشريعة على كمالها ، والثاني التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها."[4]

وهنا ينبغي أن نفهم شيئا وهو أن الإمام الشاطبي لا يقصد الحصر في هذين الشرطين، وإنما زيادة على الشروط المعروفة الواجب توفرها في المجتهد ينبغي أن يكون فاهما لمقاصد الشريعة.

ثم يأتي الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور[5] ليؤكد هذا المعنى ويبين كيف يتصرف المجتهد في فهم الشريعة عند استنباط الأحكام، وأن هذا التصرف يقع على خمسة أنحاء فيقول:

"إن تصرف المجتهدين بفقههم في الشريعة يقع على خمسة أنحاء:

النحو الأول : فهم أقوالها واستفادة مدلولات تلك الأقوال بحسب الاستعمال اللغوي، وبحسب النقل الشرعي بالقواعد اللفظية التي بها عمل الاستدلال الفقهي وقد تكفل بمعظمه علم أصول الفقه.

النحو الثاني : البحث عما يعارض الأدلة التي لاحت للمجتهد والتي استكمل إعمال نظره في استفادة مدلولاتها ليستيقن أن تلك الأدلة سالمة مما يبطل دلالتها ويقضي عليها بالإلغاء والتنقيح. فإذا استيقن أن الدليل سلم عن المعارض أعمله وإذا لفي له معارضا نظر في كيفية العمل بالدليلين معا أو رجحان أحدهما على الآخر.

النحو الثالث : قياس ما لم يرد حكمه في أقوال الشارع على ما ورد حكمه فيه بعد أن يعرف علل لتشريعات الثابتة بطريق من طرق مسالك العلة المبينة في أصول الفقه.

النحو الرابع : إعطاء حكم لفعل أو حادث حدث للناس لا يعرف حكمه فيما لاح للمجتهدين من أدلة الشريعة و لا له نظير يقاس عليه.

النحو الخامس : تلقي بعض أحكام الشريعة الثابتة عنده تلقي من لم يعرف علل أحكامها ولا حكمة الشريعة في تشريعها. فهو يتهم نفسه بالقصور عن إدراك حكمة الشارع منها ويستضعف علمه في جنب سعة الشريعة فيسمي هذا النوع بالتعبدي."[6]

ثم يعلق الشيخ الطاهر بن عاشور على هذه الأنحاء، فيقول: "فالفقيه بحاجة إلى معرفة مقاصد الشريعة في هذه الأنحاء كلها."[7] ثم يخصص النحو الرابع منها وضرورة حاجة المجتهد إلى فهم مقاصد الشريعة فيقول: "أما النحو الرابع فاحتياجه فيه ظاهر وهو الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع والتي تأتي إلى انقضاء الدنيا."[8]

2. الأصل منهج متبع وليس مبتدع:

وعلى هذا الأساس ـــ فهم مقاصد الشريعة ـــ كان اجتهاد علماء المالكية في ضوئه عند استنباط الأحكام الشرعية والترجيح بين أقوال العلماء.

واستنباط الأحكام الشرعية في ضوء فهم مقاصد الشريعة ليس بدعا من علماء المالكية، وإنما هو منهج متبع، سار عليه الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ من قبل، فقد كان علماء الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ يراعون المقاصد في أحكامهم، إذا كان التطبيق الحرفي الظاهري للنص يؤدي إلى الإخلال بمقصد أولي أو أعلى، يقول الإمام أبو حامد الغزالي: "الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ قدوة الأمة في القياس، وعلم اعتمادهم على المصالح مع أنهم لم ينحصروا عليها في بعض المسائل، و لم يترسلوا أيضا استرسالا عاما."[9]

كما يقول ابن القيم[10]: "وقد كانت الصحابة أفهم الأمة لمراد نبيها واتبع له، وإن كانوا يدندنون حول معرفة مراده ومقصوده، و لم يكن أحد منهم يظهر له مراد رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ثم يعدل عنه إلى غيره ألبتة"[11].

كما وصف الإمام الشاطبي السلف عموما بأنهم يراعون المقاصد في استنباطاتهم فقال: "كانوا أفقه الناس فيه ـــ أي القرآن الكريم ـــ وأعلم بمقاصده وبواطنه".[12] وعن الصحابة خصوصا يقول: "هم القدوة في فهم الشريعة والجري على مقاصدها".[13]

لقد جعل الصحابة فهم المقاصد من النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام الفقهية منهجا ونبراسا يعرفون به مراد الشارع في اجتهاداتهم، وهذه بعض الأمثلة الدالة على ذلك: عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال: "قال النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لنا لما رجع من الأحزاب لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم لا نصليها حتى نأتيها ، وقال بعضهم بل نصلي لم يرد منا ذلك، فذكر للنبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ فلم يعنف واحدا منهم"[14] وقد علق الإمام النووي[15] في شرح الحديث فقال: "وأما اختلاف الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ في المبادرة بالصلاة عند ضيق وقتها وتأخيرها، فسببه أن أدلة الشرع تعارضت عندهم، بأن الصلاة مأمور بها في الوقت، مع أن المفهوم من قول النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ لا يصلين أحد العصر إلا في بن قريظة المبادرة بالذهاب إليهم، وألا يشتغل عنه بشيء، لا أن تأخير الصلاة مقصود في نفسه من حيث هو تأخير، فأخذ بعض الصحابة بهذا المفهوم نظرا إلى المعنى لا إلى اللفظ"[16].

ومن اجتهادات الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وفق المقاصد الشرعية أيضا، عدم إقامة سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حد السرقة عام المجاعة، وذلك لما رآه من عدم توفر الشروط اللازمة لتطبيق هذا الحد، ودفع الحد بالشبهة التي هي المجاعة التي دفعت الناس إلى أخذ حق غيرهم دون إذن منه للضرورة والمقصد الذي رآه مراعاة حال الناس والرفق بهم والتخفيف عنهم، دون أن يترك تعزير من أخذ حق الناس بغير إذن وتأديبه"[17] وكذلك وصية سيدنا عمر لأمرائه بعدم إقامة الحد في الغزو، والمقصد هو درء مظنة لحوق المسلم المحدود بالعدو، فسيدنا عمر قدم درء المفسدة على جلب المصلحة؛ إذ في تطبيق الحد ضرر أشد من تأخيره[18]. ولو نتتبع اجتهادات سيدنا عمر ــ رضي الله عنه ــ وفق هذا المنهج لوجدناها كثيرة، ولكن نكتفي بهذا للدلالة على الغرض.

بعدما تبين كيف كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ يراعون المقاصد في اجتهاداتهم حتى أن كثيرا من العلماء أضاف شرط فهم المقاصد في أهلية الاجتهاد، من هذا نعرف أن علماء المالكية خصوصا والعلماء عموما يتبعون منهج السلف الصالح في هذا المجال؛ فأين منهجهم في استثمار المقاصد الشرعية عند استنباط الأحكام من خلال بعض القواعد التي وضعها علماء الأصول في استنباط الأحكام الشرعية.

3. بعض قواعد منهج علماء المالكية مع أمثلة :

1 – فمن منهج علماء المالكية ــ وإن شاركهم غيرهم في ذلك ــ في استثمار المقاصد الشرعية: **تخصيص العموم الوارد في النص بالمقاصد :**

جاءت نصوص عامة علق الشارع بها أحكاما، فعند تطبيق هذا العموم الوارد في النص على جميع أفراده أحيانا يؤدي إلى الإخلال بالمقصود، فنجد علماء المالكية في مثل هذه الحالة يخصصون هذا العموم بالمقصد المراد، مثال ذلك: ورد نص عن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ يبين بعض الأحكام المتعلقة بالجنابة والحيض والنفاس.

عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ قال: "لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئا من القرآن"[19] فهذا النص بعمومه يفيد أنه يمنع على كل من الحائض ويلحق بها النفساء، والجنب قراءة القرآن، وهذا الحكم ثابت عند كل من الأحناف والشافعية والحنابلة[20]، إلا أن المالكية يخالفونهم فلا يمنعون الحائض من قراءة القرآن وكذلك النفساء حال استرسال الدم عليهما[21]، وهذا الاستثناء من حكم التحريم عند المالكية هو استثناء من عموم منع قراءة القرآن للجنب جاء استحسانا عند مالك ــ رحمه الله ــ لمقصد الاستذكار للقرآن الكريم وحفظه[22]، و من ثم عدم نسيانه. يقول الإمام القرافي[23] في الذخيرة: "يفارق الجنب الحائض في جواز قراءة القرآن ظاهرا ومس المصحف للقراءة على المشهور في الحائض لحاجة التعليم وخوف النسيان"[24] فنلاحظ كيف أن الإمام مالك وغيره من علماء المالكية قدموا مقصد حفظ القرآن الكريم والاستذكار وخوف النسيان على المنع الوارد في الحديث عند التقيد بألفاظ الحديث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن أن نضيف معنى آخر وهو أن الجنب يمكنه رفع جنابته في أي لحظة شاء فهو سيد أمره عند توفر الظروف المناسبة لذلك، من وجود الماء والتمكن من استعماله وعدم المرض... الخ، فإذا منع من قراءة القرآن حال الجنابة فإن الأمر لن يطول ويمكنه استدرك ما فاته في يومه، أما المرأة فإن الحيض أو النفاس توقفه خارج عن إرادتها، فإذا منعت من قراءة القرآن، وطالت مدة الحيض خمسة عشر يوما، فإنها لن تتمكن من حفظ القرآن، ولا المحافظة على ما سبق حفظه، ومن ثم تقع في حرج وضيق شديدين. والشريعة جاءت لرفع الحرج والتيسير على الناس.

وفي القاعدة نفسها ــ تخصيص العموم بمقصد شرعي ــ ذهب المالكية إلى جواز إعطاء الصدقة لآل البيت النبوي، إذا لم يكن لهم من الفيء ما يسد خلتهم، فإن سد خلتهم أولى من سد حاجة غيرهم[25]، وذهب إلى هذا الأمر كذلك الأحناف ، وهذا منعا لتضيعهم ولحاجتهم وإعطاؤهم حينئذ أفضل من إعطاء غيرهم كما قال بعض علماء المالكية[26].

2 – من القواعد التي سار عليها علماء المالكية في منهجهم في استثمار المقاصد الشرعية: **العدول عن ظاهر النص إلى مقصد شرعي منه:** وهو ما يعبر عنه بعضهم بالتفسير المصلحي للنصوص.

فقد يفيد الظاهر للنص حكما والمقصد منه حكما آخر فهل نقف عند ظاهر النص جامدين متحجرين أم نأخذ بالمقصد الذي يمثل روح الشريعة؟

عند تتبع بعض الأحكام نجد علماء المالكية يذهبون إلى المقصد دون الظاهر، فيكون المقصد أساس التأويل. ففقهاء المالكية عند تفسير النصوص واستنباط الأحكام منها تكون المعاني حاضرة في أذهانهم فيستصحبونها بناء على مراعاة الشرع لها، والعمل على تحقيقها، وبذلك يكون لاستحضار المعاني أثر في فهم النص وتوجيه الاستنباط منه، فقد يصرف النص عن ظاهره ويقيد ويخصص[27]... الخ.

وفي هذا الشأن ـــ أي اعتبار المعاني في الأحكام وعدم الجمود على ظواهر الألفاظ ـــ يقول الإمام القرافي: "والجمود على المنقولات أبدا ضلال في الدين وجهل بمقاصد علماء المسلمين والسلف الماضين"[28].

ومن الأمثلة على ذلك ما صح في عدة أحاديث من النهي عن بيوع الغرر[29]، وعن بيع الحصاة[30].

قال الإمام الشاطبي: "وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن بيع الغرر وذكر منه أشياء كبيع الثمرة قبل أن تزهى[31]، وبيع حبل الحبلة[32]، والحصاة وغيرها، وإذا أخذنا بمقتضى مجرد الصيغة امتنع علينا كثير مما هو جائز بيعه وشراؤه كبيع الجوز، واللوز، والقسطل في قشرها، وبيع الخشبة والمغيبات في الأرض والمقاثي كلها... ومثل هذا لا يصح فيه القول بالمنع أصلا؛ لأن الغرر المنهي عنه محمول على ما هو معدود عند العقلاء غرر متردد بين السلامة والعطب فهو مما خص بالمعنى المصلحي ولا يتبع فيه اللفظ بمجرده"[33].

فنلاحظ كيف أن عدم إعمال المقاصد ومراعاتها يؤدي إلى وقوع الناس في حرج كبير، والحرج في الشريعة مرفوع. وقبل الإمام الشاطبي نبه الإمام القرافي إلى هذا الأمر ـــ أي تتبع المقصد الشرعي من النصوص وعدم التحجر على ظواهر الألفاظ ـــ كما فعل بعض المذاهب[34] من منع كل ما فيه غرر يسيرا كان أو كبيرا لا فرق. فيذكر أحكاما لبعض البيوع فيها غرر يسير ويرجح جوازها بالمقاصد، من ذلك بيع المقاثي والقصيل ونحوهما مع الخلفة فيقول: "وهذه المسألة فيما يقولان، الخلفة مجهولة وغرر فيمتنع، ونحن نقول: هو غرر تدعو الضرورة إليه، لتعذر التمييز في المقاثي، وحفظ المالية في الجميع، فإن اشترط الخلفة قبل أن تخلق بعقد منفرد امتنع للجهالة، وعدم التبعية التي يغتفر فيها ما لا يغتفر في الاستقلال."[35]

فالإمام القرافي يفرق بين أنواع الغرر والجهالات، إذ ليس كل غرر يمنع البيع، فقد تدعو الضرورة إليه أحيانا فيكون في الأخذ به من باب المصلحة، وعلى هذا الأساس أجاز علماء المالكية بيع الخضراوات المغيبة في الأرض رغم وجود جنس الغرر فيها، إلا أنه غرر يسير وجرت العادة به واستدعته الضرورة[36].

والإمام ابن القيم ينكر أشد الإنكار على من منع مثل هذا البيع بدعوى الغرر فيقول: "بيع المقاثي، والباذنجان ونحوها بعد بدو صلاحها، كما تباع الثمار في رؤوس الأشجار، ولا يمنع من صحة البيع تلاحق المبيع شيئا بعد شيء، هذا محض قياس، وعليه تقوم مصالح بني آدم ولابد لهم منه، ومن منع بيع ذلك إلا لقطة بلقطة فمع أن ذلك متعذر في الغالب لا سبيل إليه إذ هو غاية الحرج والعسر فهو مجهول لا ينضبط... وبيع ذلك كبيع الثمار وهو قول أهل المدينة".[37] وفي هذا المعنى أيضا يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "وتسهيلا للرواج شرعت عقود مشتملة على شيء من الغرر مثل المغارسة، والسلم، والقراض، حتى عدها علماؤنا رخصا باعتبار أنها مستثناة من قاعدة الغرر"[38].

فعلماء المالكية – مثل الإمام مالك، وأبي بكر بن العربي، والقرافي، والشاطبي، والشيخ الطاهر بن عاشور وغيرهم – ينظرون إلى الأحكام من خلال ما تحققه من ثمرة، وهو النظر إلى المقصد من النص، وعدم الوقوف عند ظاهر اللفظ. فعلى الرغم من وجود جنس الغرر والجهالة في بعض العقود إلا أنها لما كانت يسيرة اغتفرت، إذ لو اعتبرت لأدى ذلك إلى تعطيل كثير من المعاملات بين الناس هم في أمس الحاجة إليها، و من ثم تنعكس الأمور فعوض أن تكون الشريعة رافعة للحرج وميسرة على الناس، توقع الناس في الضيق والحرج وهذا يتنافى وما جاءت الشريعة من أجله. وفي معرض بيان امتياز الإمام مالك عن غيره في إدراك مقاصد الشريعة ومصالحها يقول الإمام أبو بكر بن العربي: "والشافعي ومن سواه لا يلحظون الشريعة بعين مالك – رحمه الله – و لا يلتفتون إلى المصالح و لا يعتبرون المقاصد، وإنما يلحظون الظواهر وما يستنبطونه منها"[39].

3 – و من منهج علماء المالكية في استثمار المقاصد: **النظر إلى المآلات**:

النظر إلى المآلات يُعَدُّ من أهم المناهج التي يحتاج إليها في المقاصد، وهو منهج مستمد من قاعدة سد الذرائع، والتي لها علاقة كبيرة بمقاصد الشريعة، فقد اعتمد علماء المالكية على هذه القاعدة فمنعوا بيوع العينة[40] بناء على قصد التحايل على الربا، فقد فهم علماء المالكية، وكذلك الحنابلة قصد الشارع تحريم الزيادة وما يؤول إليها، فالنظرة المقاصدية لعلماء المالكية جعلتهم يأخذون بالإرادة الباطنية، ومن ثم تحريم بيوع العينة، فقد ذهب المالكية والحنابلة إلى بطلان العقد سدا للذرائع[41]؛ لأن ظاهر هذه البيوع السلامة، ولكنه في الحقيقة يؤول إلى الربا، ومن ثم منعوه، أما الشافعية الذين يأخذون بالإرادة الظاهرة[42] أباحوا مثل هذه البيوع، ومن هنا يتبين كيف أن علماء المالكية يلتفتون إلى المعاني التي شرعت لها الأحكام وخاصة في أمور المعاملات.

4 – من منهج علماء المالكية في استثمار المقاصد: **الاستحسان للمصلحة**:

للاستحسان[43] علاقة كبيرة بالمقاصد ، ففكرة الاستحسان تقوم أساسا على العدول من دليل إلى آخر؛ لأن الدافع لذلك العدول هو ملاحظة مقصد الشرع في تحقيق اليسر، ورفع الحرج ودفع العسر عن الناس[44]، ومن هنا وردت عدة تعريفات تحمل هذا المعنى منها مثلا: "ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس، وقيل الاستحسان طلب السهولة في الأحكام فيما يبتلى فيه الخاص والعام،" إلى غير ذلك من العبارات التي تفيد ترك العسر لليسر[45].

وهذا الأصل استثمره علماء المالكية من أجل تحقيق المقاصد الشرعية "فسند الاستحسان في الواقع هو رعاية المصالح التي شهدت لها نصوص الشريعة، سواء أكانت هذه الشهادة بنص معين أم بمعقول نص معين أم بمعقول جملة نصوص متفقة على معنى واحد."[46]

فعلماء المالكية في الأخذ بهذا المنهج يراعون معنى ومقصدا من المقاصد، سواء كان في العدول بالمسألة عن نظائرها أو مراعاة للمصلحة، أو في تخصيص عام، أو استثناء بالعرف، وكل هذه الصور هي عبارة عن أقسام للاستحسان[47].

ومن تطبيقات هذا المسلك عند علماء المالكية: "تأجير السفينة بجزء من ربح البضائع المحمولة عليها، وحرث الزرع بجزء من محصوله بعد حصده. فهذه الصور وأمثالها من كل ما فيه الأجر مجهول، أجازه المالكية تخريجا على المصلحة الاستحسانية." قال الإمام التسولي[48]: "أجاز ابن سراج كراء السفينة بالجزء من ربحها إذا دعت إلى ذلك الضرورة، وقال: لأنه قد علم من مذهب مالك ــ رحمه الله ــ مراعاة المصلحة إذا كانت كلية حاجيه"[49].

كما ورد عن جمع من علماء المالكية ما يشبه التصريح بجواز مثل ما ذهب إليه ابن سراج، قال في المعيار: قال أصبغ: "ينظر إلى أمر الناس في ما اضطروا إليه مما لا بد لهم منه، ولا يجدون العمل إلا به مثل حارث الزرع يستأجر بجزء منه، و لا يجد من يحرث له إلا بذلك الوجه، فأرجو ألا يكون به بأس إذا عم. قال التسولي: فهذا كله مما يدل على الجواز مع الضرورة."[50]

ووجه كون هذه المصلحة من الاستحسان أنه ورد في الشرع ما يفيد المنع من أمثال هذه المعاملات مثل ما روي عنه ــ صلى اله عليه وآله وسلم ــ أنه نهى عن استئجار الأجير حتى يتبين له أجره[51]. وجاء عن أبي سعيد الخذري ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وآله وسلم ــ نهى عن عسب الفحل وعن قفيز الطحان" ومعنى قفيز الطحان، طحن الطعام بجزء منه مطحونا[52]. ووجه منع هذين الحديثين عن صور الإجارة السابق ذكرها أن الأجر فيها غير معلوم؛ لأن ما يحمل على السفينة قد لا يربح شيئا، وقد يربح قليلا أو كثيرا أو متوسطا، فصار الأجر مجهولا. وفي الحديث المنع من الإجارة التي لم يتبين فيها للأجير أجره. وفي الحديث الثاني أيضا المنع من الإجارة على الشيء بجزء من المحمول، وهذا يدخل في الصورة الثانية في الزرع حصاده بجزء من المحصود أو حرثه بجزء من المحصود يوم حصاده، فدل الحديثان على المنع من ذلك. إلا أن العلماء الذين جوزوا هذه الصور قالوا: ليست داخلة في النهي المراد من الحديث وإن شملها لفظه، فالحديث يراد به غير الضرورة والاحتياج[53] وهذا يدخل تحت قاعدة الاستحسان بالضرورة أو المصلحة، فالضرورات تبيح المحظورات.

5 – من قواعد منهج علماء المالكية في المقاصد : **مراعاة المقصد من العقود والتصرفات:**

فمن منهج علماء المالكية في الاستفادة من المقاصد الشرعية واستثمارها في استنباط الأحكام وتخريجها؛ مراعاة القصد من العقد في تصحيحه أو إبطاله حتى جعل الإمام القرافي هذا المسلك ضابطا من ضوابط المصلحة عنده حيث يقول: "كل تصرف لا يترتب عليه مقصوده لا يشرع."[54]

ويضرب الإمام القرافي أمثلة لهذا الضابط منها: أن المقصد من إقامة الحد على الجاني الزجر بما يشاهد المكلف من الألم والذل والمهانة في نفسه، وذلك يحصل بالعقل؛ أي أن يكون الجاني وقت إقامة الحد عليه عاقلا، أما إذا كان العقل غير موجود فلا فائدة ولا مصلحة من إقامة الحد، وعليه فإن إقامة الحد على المجنون الذي كان عقله سليم وقت ارتكاب الجريمة أو الجناية يعد عبثا؛ لأنه لا يحقق المقصد المطلوب.

و من الأمثلة أيضا التي يضربها الإمام القرافي لهذه القاعدة: عدم شرعية نكاح الرجل أمته؛ لأن مقاصد النكاح حاصلة قبل العقد – أي عقد الزواج – بالملك فلم يحصل العقد شيئا فلا يشرع.[55] وهكذا فإن الإمام القرافي ينبه المجتهد إلى ضرورة معرفة المقصد من الأمر، فإن ترتب عليه مصلحة كان واجب التطبيق وعدم إهماله، وإن لم يترتب عليه مصلحة عاجلة أو آجلة لسبب من الأسباب فإنه لا يعتبر ، بمعنى أن المقصد غير متحقق منه. و من ثمة ينبغي للمجتهد البحث عن المقاصد المتضمنة لجلب المصالح ودفع المفاسد الحقيقية التي رتبت على الأوامر والنواهي من تصرفات المكلفين." ولهذه المعاني جعل الإمام مالك لكل عقد قصودا ملائمة، وقصودا منافية، وقصودا غير ملائمة ولا منافية، ورتب تأثير الشروط على هذه القصود، فمن باع بشرط ألا يبيع المشتري، و لا يهب فهذا شرط يبطل العقد؛ لأنه مناف للتمتع بحقوق الملكية، التي منها حرية التصرف في المملوك"[56] ومن تزوج بشرط عدم الدخول بها اعتبر هذا الشرط مناقضا لمقصد عقد الزواج وهو تمكين الزوج من الدخول بزوجته، وتمكينها لزوجها من نفسها، ومن هنا نجد الإمام مالك ـــ رحمه الله ـــ يفصل في الشروط في مختلف العقود[57].

الخاتمة

مما سبق بيانه من قواعد وأمثلة يتضح ويتبين كيف اشتهر علماء المالكية بمقاصد الشريعة في استنباط الأحكام الشرعية مراعاة لروح الشريعة التي تحقق مصالح العباد الحقيقية، ومن ثم بيان أن الشريعة ما جاءت إلا لإسعاد أتباعها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وبهذا المنهج فإن الشريعة تستطيع مسايرة الواقع في كل زمان ومكان، وتثبت صلاحيتها وخلودها، وينتفي عنها الجمود والعجز عن إيجاد الحلول للمستجدات والنوازل في أي مكان وأي عصر كان ولله الحمد والمنة.

الهوامش

1 هو أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي الشهير بالشاطبي، العلامة الأصولي الفقيه المحدث الورع، أخذ عن أبي عبد الله الشريف التلمساني، وأبي العباس القباب، وابن مرزوق، توفي في الثامن من شعبان سنة 790 هـ له تأليف نفيسة منها، الموافقات، و الاعتصام، الإفادات والانشادات. انظر ترجمته: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1/ 231. وأصول الفقه تاريخه ورجاله، شعبان محمد اسماعيل، ط1، سنة 1981م، دار المريخ، الرياض، ص.417. و معجم المفسرين، عادل نويهض، ط3، سنة 1988م، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 23/1.

2 الموافقات، للإمام الشاطبي، تحقيق: الشيخ عبد الله دراز، ط 1، سنة 2001م ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 4 / 117 .

3 مثل : العلم بالقرآن الكريم ، ناسخه و منسوخه، العلم بالسنة، معرفة مواقع الإجماع ومواضع الخلاف، معرفة القياس ، الإسلام والعدالة ، العلم بأصول الفقه ...الخ انظر: إرشاد الفحول في تحقيق الحق من علم

الأصول، للإمام الشوكاني ،د ط، د ت، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص 250. وأصول الفقه الإسلامي، الدكتور وهبة الزحيلي، ط 2 ، 1998م ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا، 1071/2. وأصول الفقه الإسلامي، بدران أبو العينين بدران، د ط ، 1984م، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ص 477.

4 الموافقات، للإمام الشاطبي ، 4 / 76 .

5 هو محمد الطاهر بن عاشور، ولد سنة 1879 م بتونس، فهو الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية، التحق بجامع الزيتونة وقرأ على جماعة من أعلامه حتى صار شيخا للإسلام في الفقه المالكي، توفي سنة 1973م، له عدة تصانيف منها، مقاصد الشريعة، والتحرير والتنوير في التفسير، وأصول النظام الاجتماعي وغيرها . انظر ترجمته في : تراجم المؤلفين التونسيين ، لمحمد محفوظ ، 304/3. أعلام تونسيون ، الصادق الزمرلي، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، ط 1، 1986م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ص 361، معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، تأليف: عادل نويهض، ط1، 1984م، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، 541/2.

6 مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ الطاهر بن عاشور، د ط، د ت، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. ص 15 .

7 مقاصد الشريعة الإسلامية ، للشيخ الطاهر بن عاشور، ص 15 .

8 مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ الطاهر بن عاشور ، ص 15 .

9 المنخول ، لأبي حامد الغزالي ، ص 353 .

10 هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، ولد في دمشق سنة 691 هـ ، وهو تلميذ ابن تيمية ، وكان أكثر ملازمة له من غيره ، من فقهاء الحنابلة ، توفي سنة 751 هـ ، بدمشق ، له مؤلفات كثيرة منها أعلام الموقعين عن رب العالمين ، و زاد المعاد ، والطرق الحكمية وغيرها . انظر ترجمته : شذرات الذهب ، لابن العماد ، 287/8 . و أصول الفقه تاريخه ورجاله ، لشعبان محمد إسماعيل، ص 372 . و معجم المفسرين ، عادل نويهض ، 2 / 503 .

11 أعلام الموقعين عن رب العالمين ، تأليف شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، رتبه وضبطه وخرج آياته : محمد عبد السلام إبراهيم، د ط، 1996م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، 1 / 219 .

12 الموافقات، للإمام الشاطبي، 2 / 409 .

13 المرجع نفسه ، 4 / 130 .

14 رواه البخاري في صحيحه ، كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبا وإيماء، 209/1 رقم 946 . ومسلم في صحيحه، بلفظ الظهر، كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين، 2 / 242 رقم 1770 .

15 هو يحي بن شرف بن مري بن حسن الحزامي النووي أبو بكر محي الدين ولد سنة 631 هـ ، علامة في الفقه والحديث واللغة ، تعلم في دمشق وأقام فيها زمنا طويلا ، وهو من محرري المذهب الشافعي، توفي سنة 676 هـ له مؤلفات عديدة منها : شرح صحيح مسلم ، و رياض الصالحين ، وكتاب الأذكار، المجموع شرح المهذب ، وغيرها . أنظر ترجمته : في طبقات الشافعية لابن هداية الله ص 225 . و شذرات الذهب 7 / 618 . و أصول الفقه تاريخه ورجاله ، 259 .

16 شرح صحيح مسلم ، للإمام النووي ، 12 / 318 .

17 الاجتهاد المقاصدي، حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين بن مختار الخادمي، الجزء الأول، العدد 65، جمادى الأولى، هجرية، السنة الثامنة عشر، و الجزء الثاني، العدد 66، رجب 1419 هـ، من كتاب الأمة، الصادرة عن وزارة الأوقاف،قطر. 1 / 97 .

18 المرجع نفسه 1 / 97 .

19 رواه الترمذي في سننه ، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في الجنب والحائض أنهما لا يقرآن القرآن ، ص42. و رواه ابن ماجه في سننه ، وقال عنه الشيخ الألباني: منكر، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في قراءة القرآن على غير طهارة ، ص 116 .

20 الفقه الإسلامي وأدلته ، وهبة الزحيلي ، 1 / 385 .

21 المرجع نفسه ، والجزء والصفحة .
22 علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه ، بن بية ، ص 106 .
23 هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن شهاب الدين القرافي المالكي ، ولد سنة 626 هـ ، كان إماما عالما بارعا في الأصول والفقه والتفسير و العقليات ، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي في زمانه ، توفي سنة 684 هـ ، ودفن بجوار الإمام الشافعي ، له آثار كثيرة منها شرح تنقيح الفصول ، والفروق ، والذخيرة وغيرها كثير ، فقد ألف في فنون كثيرة .انظر ترجمته في : معجم المفسرين 1 / 28 . وأصول الفقه تاريخه ورجاله، ص 265 .
24 الذخيرة ، للإمام القرافي ، 1 / 315 .
25 جامع الأمهات ، لابن الحاجب ، ص 166. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ، د ط ، د ت ، دار الجيل ، بيروت لبنان .4 / 240 . و فقه الزكاة ، يوسف القرضاوي ، 2 741 .
26 الفقه الإسلامي وأدلته ، 2 / 884 .
27 نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، ط1 ، 1997 م، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، مصر ص 224 .
28 الفروق للإمام القرافي ، 1 / 177 .
29 أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب بيع الغرر وحبل الحبلة ، 1 / 466 . ومسلم في صحيحه ، كتاب البيوع ، باب بطلان بيع الحصاة والبيع الذي فيه غرر ، 2 / 90 .
30 بيع الحصاة : هو بيع واحد من عدة أشياء وتقع عليها الحصاة التي يرمى بها ، وهو أن يأتي رجل إلى قطيع من الغنم ، أو عدد من الدواب ، أو عدد من الأقمشة ثم يقول للبائع أحذف بحصاتي هذه فكل ما وقع عليه حصاتي هذه فهو لي بكذا . وقيل أن تكون ثياب مبسوطة فيقول المبتاع للبائع أي ثوب من هذه وقعت عليه الحصاة التي أرمي بها فهو لي بكذا فيقول البائع نعم . أنظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك 3 / 316 . و أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه إمام الأئمة مالك ، جمعه أبو بكر بن حسن الكشناوي ، 2 / 70 . و مدونة الفقه المالكي وأدلته ، الصادق عبد الرحمان الغرياني، 3 / 425 و ما بعدها .
31 أي تنضج وتصبح صالحة للاستهلاك .
32 أن تنتج الناقة ثم تحمل التي نتجت . وقيل : هو بيع ولد ولد الناقة الحمل في الحال بأن يقول إذا نتجت هذه الناقة ثم نتجت التي في بطنها فقد بعتك ولدها . أنظر : شرح الزرقاني على موطأ مالك ، 302/3.
33 الموافقات ، 3 / 151 وما بعدها .
34 كالظاهرية والشافعية أحيانا .
35 الذخيرة ، للإمام القرافي ، 5 / 192 .
36 بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، لابن رشد ، ص 582 وما بعدها .
37 أعلام الموقعين ، لابن القيم ، 3 / 312 وما بعدها .
38 مقاصد الشريعة ، للشيخ الطاهر بن عاشور ، ص 176 .
39 أحكام القرآن ، لابن العربي ، 2 / 622 ، 623 .
40 العينة مشتقة من العين ، لأن صاحبها محتاج إلى العين ، وهي النقد وما يقوم مقامه ، فيشتري صاحب العينة السلعة ، لا لأنه يريدها ، وإنما ليبيعها بالنقد الذي محتاج إليه في حقيقة الأمر ، فبيع العِينة هو بيع المتحيّل به على دفع عين في أكثر منها . وقال القاضي عياض موضحا بيع العينة :" هو بيع السلعة بثمن معلوم إلى أجل ، ثم شراؤها بأقل منه نقدا ".وهذا البيع غالبا ما تكون بين شخص محتاج إلى النقد وبين آخر يريد استغلاله بطريق ظاهره السلامة من الربا ، وحقيقتها تؤول إلى الربا .أنظر : مدونة الفقه المالكي وأدلته ، الصادق عبد الرحمان الغرياني ، 3 / 380 .و الفقه الإسلامي وأدلته ، وهبة الزحيلي ، 4/ 467 .
41 أنظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، لابن رشد ، ص550 .
42 أنظر : الفقه الإسلامي وأدلته ، وهبة الزحيلي ، 4 / 468 .
43 الاستحسان : لغة عد الشيء واعتقاده حسنا ،تقول استحسنت كذا إذا اعتقدته حسنا . أنظر القاموس المحيط ، للفيروز أبادي ، 4 / 200 . أما في الاصطلاح فله تعريفات كثيرة منها : قال الكرخي من الحنفية :" هو العدول عن حكم في نظائر المسألة إلى خلافه لوجه أقوى منه . وعرفه ابن العربي من المالكية: "هو إيثار

ترك مقتضى الدليل على طريق الاستثناء والترخص لمعارضة ما يغار ضبه في بعض مقتضياته." كما قال في أحكام القرآن الاستحسان عندنا وعند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين." وعرفه الشاطبي بقوله :" وهو مذهب مالك الأخذ بمصلحة جزئية في مقابلة دليل كلي ." أنظر : الذخيرة للإمام القرافي ، 1 / 156. والموافقات ، للشاطبي، 4 / 200. والاعتصام، للشاطبي، 320/2، 321. وأصول الفقه، محمد أبو زهرة 2008. وأصول الفقه، بدران أبو العينين بدران، ص195.

44 مقاصد الشريعة الإسلامية، زياد حمد أحميدان، ص 355.

45 المبسوط، للسرخسي، تحقيق خليل الميس، 10 / 145 وما بعدها. و أبو حنيفة، محمد أبو زهرة، هامش ص 304.

46 أصول الفقه، وهبة الزحيلي، 2 / 720.

47 أصول الفقه، بدران أبو العينين بدران، ص 198 – 204.

48 هو علي بن عبد السلام التسولي الفقيه النوازلي، حامل لواء مذهب مالك المطلع على أسراره ، المتقن، له مؤلفات منها شرحه للعاصمية، توفي سنة 1258 هـ .أنظر : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف، د ط، د ت، دار الكتاب العربي، بيروت ص 397 .

49 شرح التسولى على ابن عاصم ، 2 / 188 – 251 . نقلا عن رأي الأصوليين في المصالح المرسلة والاستحسان من حيث الحجية ، زين العابدين محمد النور ، 2 / 411 ، 412 .

50 المرجع نفسه ، 2 / 412 .

51 سنن النسائي ، كتاب المزارعة رقم : 3857 ، وقال عنه الشيخ الألباني : صحيح مقطوع ، ص594. ورواه أحمد ، أنظر نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار ، للشوكاني ، 6 / 32 .

52 أنظر نيل الأوطار ، للشوكاني ، 6 / 32 .

53 رأي الأصوليين في المصالح المرسلة والاستحسان من حيث الحجية ، زين العابدين محمد النور ، 416/2 .

54 الفروق ، للإمام القرافي ، 3 / 135 . و الذخيرة ، 4 / 341 .

55 الذخيرة ، للإمام القرافي ، 4 / 341 .

56 علاقة مقاصد الشريعة بأصول الفقه ، بن بية ، ص 130 .

57 بحوث مقارنة في الفقه الإسلامي وأصوله ، فتحي الدريني ، 2 / 428 – 430 .

التدخل الإنساني وأثره على السيادة في القانـــون الدولي والفقه الإسلامي

د / دبابش عبد الرؤوف
جامعة محمد خيضر / بسكرة

ملخص

بعد تطور العلاقات الدولية وتداخلها خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة ظهرت عدة تناقضات بين بعض المفاهيم والمبادئ التي قررتها المواثيق الدولية وبين التزامات المجتمع الدولي، ومن هذه الإلتزامات التي فرضت نفسها حماية حقوق الإنسان حيث لم يعد بإمكان الدولة التنصل منه بحجة السيادة الوطنية أو التمسك بمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية.

هذه الدراسة تسلط الضوء على هذا التنـــاقض مـــع وضع مقاربة بين أحكام القانون الدولي والفقه الإسلامي فيما يتعلق بهذه القواعد والأحكام.

Résumé

La révolution Apres l'évolution des relations internationales et ses intégrité spécialement après la fin de la guerre froide, il est apparu des contradictions entre quelques principes qui ont été approuvé dans les chartes et les obligations de la société internationales, parmi ces obligations la responsabilité de la protection des droits de l'homme dont la responsabilité est maintenant internationale. Aucun pays n'a le droit de s'imposer en se basant sur le principe de la souveraineté nationale.

Cette article a pour objet de répondre a cette problématique en suivant une approche avec le « FIQH » islamique.

من أهم الإشكالات المطروحة في القانون الدولي – خاصة بعد ظهور الولايات المتحدة الأمريكية قوة عظمى وحيدة في العالم– نجد التدخل في شؤون الدول بصفة عامة والتدخل بذريعة حماية حقوق الإنسان الأساسية من الانتهاكات الجسيمة التي تتعرض لها على أيدي أنظمة بعض الدول ذات السيادة وهو ما يثير أكثر من إشكال خاصة فيما يتعلق بمدى حق هذه الدول في التمسك بمبدأ السيادة لتبقى تمارس ما تشاء من أنواع الجرائم والمظالم في حق طائفة من شعبها؟ سواء كانت الدوافع طائفية أم عرقية أم عنصرية أم سياسية، وزيادة على ذلك يجب النظر في ما قررته الشريعة الإسلامية من قواعد في مثل هذه الحالات، خاصة وأن المجتمع الدولي بدأ يتجاوز مرحلة الدولة القطرية في تعامله مع القضايا ذات التأثيرات ما فوق الوطنية، ولم يعد ممكنا التمترس خلف بعض المفاهيم التي تطور مضمونها مثل مبدأ سيادة الدولة واختصاصها الداخلي.

ندرس هذا الموضوع في ثلاث نقاط رئيسية نتناول في الأولى مبدأ السيادة في القانون الدولي والفقه الإسلامي، ونتطرق في النقطة الثانية إلى التدخل الإنساني ومدى مشروعيته في القانون

الدولي والفقه الإسلامي، وفي النقطة الثالثة ننظر في أثر التدخل الإنساني على مبدأ السيادة.

أولا: مبدأ السيادة في القانون الدولي والفقه الإسلامي:

يرجع الكثير من فقهاء القانون ظهور مبدأ السيادة الوطنية إلى معاهدة "وستفاليا"[1] التي خرج منها نظام الدولة ذات السيادة، وعادة ما يشار إليه بنظام دولة وستفاليا[2]، وقد لاقى هذا المفهوم رواجا في أوروبا كون الدول ترى فيه إثباتا لذاتيتها في مواجهة البابا والإمبراطور.

ويجب التنبيه إلى أن مفهوم السيادة لم تستحدثه معاهدة "وستفاليا"، حيث عرفت البشرية السيادة بمفهومها العام وممن تعرض لها "أرسطو" الذي يرى أنها السلطة العليا في الدولة.

وحديثنا هو عن السيادة الوطنية التي هي محل اعتبار في القانون الدولي وتثير إشكالات عديدة عندما تتعارض أعمال السيادة مع مصلحة المجتمع الدولي. وقبل التعرض للسيادة في الفقه الإسلامي والبحث إن كان هذا المصطلح القانوني من المفاهيم التي تقرها الشريعة وإلى أي مدى يتوافق مع مقاصدها الجليلة وأصولها المقررة، فإنه يجب علينا أولا تحديد مفهوم هذا المبدأ في القانون لنقرنها بما يقابلها في الفقه الإسلامي

1/ تطور مفهوم السيادة في القانون:

عرف مفهوم السيادة في القانون تطورا صاحب تطور المجتمع الدولي حيث كان يتركز مفهوم السيادة على السلطة العليا المعترف بها والمسيطرة على المواطنين والرعايا لا يقيدها في ذلك إلا القوانين الطبيعية والشرائع السماوية[3]، وقد أسهم الفكر الألماني إسهاما معتبرا في تعظيم مبدأ السيادة حتى صاغ الفقيه الألماني"يلنيك" في القرن التاسع عشر نظرية: "اختصاص الاختصاص"، الذي يقصد به السلطة الأصلية المطلقة للدولة في تحديد ما يدخل في اختصاصها[4].

وبعد الحرب العالمية الثانية عقدت الدول التي كانت تحت مظلة عصبة الأمم العزم على إنشاء منظمة يناط بها حفظ السلم والأمن الدوليين فتأسست هيئة الأمم المتحدة التي نصت في ميثاقها على مبدأ السيادة، ويتضمن قيودا على سيادة الدول الأعضاء في هذه الهيئة، ومن أهم النصوص التي تكرس هذا المبدأ ما جاء في المادة الثانية من الميثاق حيث تنص: "تقوم الهيئة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع أعضائها".

وبعد الحرب الباردة وظهور الأحادية القطبية ظهرت الكثير من الأفكار التي تصب في اتجاه أن مبدأ السيادة سيزول ويصبح جزءا من الماضي نظرا للاعتماد المتزايد بين الدول وبروز مشاكل جديدة ذات بعد عالمي تفترض معالجة شاملة كالمحافظة على البيئة، المشاكل الديمغرافية، الصحة، حقوق الإنسان وغيرها مما يجعل مبدأ المسؤولية يفرض نفسه على حساب مبدأ السيادة[5]

ومن الفقهاء من يرى أن السيادة في طريقها إلى التلاشي بسبب تطور المجتمع الدولي، فكما حلت الدولة القومية محل سبطة الإقطاع تدريجيا، فستحل الحكومة العالمية محل الدولة القومية والسيادة.

2/ السيادة في الفقه الإسلامي:

السيادة في الفقه الإسلامي تعني الولاية والحاكمية وحق الطاعة والأمر والنهي وما ينجم عن ذلك من لوازم[6].

ويتفق فقهاء المسلمين بأن السيادة بهذا المفهوم هي لله تعالى وذلك للنصوص الكثيرة الواردة في هذا المجال منها قوله تعالى: (**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**)[7]، (**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا**)[8]، و الاتفاق أيضا جار على أن ممارسة السيادة ثابتة بالنص للنبي صلى الله عليه وسلم لما ورد في القرآن من قوله تعالى: (**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**)[9]، وقوله تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**)[10]. ويختلف فقهاء المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم فيمن له حق ممارسة السيادة والحكم، وقد ظهرت في ذلك آراء وهي مبنية على ما مرت به الخلافة بعد النبي.

وكذلك بعض النظريات المعاصرة المتأثرة بالفقه الدستوري الوضعي، ويرى الشيعة أن الخلافة تكون في الإمام الذي يعتبرونه ركنا من أركان الإسلام، كما اختلفوا في حالة غيبة الإمام فيمن تكون الولاية

فالمذاهب الأربعة ترى انعقاد الخلافة والإمامة بالبيعة والعهد (الاستخلاف) ونظرية الغلبة والقهر (الاستيلاء)

وأما المعاصرون فذهبوا إلى أن السيادة هي لأهل الحل والعقد وذهب آخرون إلى أن السيادة للأمة، وذهب الشيعة الأمامية إلى نظرية ولاية الفقيه

ومبدأ السيادة بمفهوم أن يكون سلطان الدولة أصيلا غير مستمد من دولة أخرى، وأن يكون ذلك السلطان مبسوطا في كل أجزاء الدولة مهما اتسع إقليمها أو تعددت أعراقها وأن تربطها بغيرها علاقات قائمة على أساس الاحترام ولا يتقيد إلا بالعهود التي لا تمس بالاستقلال، وهذا التقيد راجع إلى الوفاء بالعهود الذي يوجبه الشرع والقانون، فإن هذا المفهوم لا يتعارض والنصوص الشرعية من كتاب وسنة كما لا يتنافى ومقاصد الشريعة الإسلامية التي جاءت لتحقيق سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، والتي تقوم على أساس منع الإكراه والاستغلال والظلم وجاءت لتكريس الحرية والعدالة والمساواة وتحقيق كرامة بني آدم التي قررها الله بنص القرآن الكريم، وأكدتها كل الأحكام الشرعية.

ومع ذلك فإن هناك اختلافات بين الفقه الإسلامي والقانون حول مظاهر هذه السيادة ولا يسعنا المجال هنا للتفصيل فيها.

ثانيا: مفهوم التدخل الإنساني **ومشروعيته في القانون والفقه الإسلامي:**

يجب تحديد مفهوم التدخل في الفقه القانوني الدولي والنظر في مدى مشروعية أعمال التدخل في القانون الدولي وفي الفقه الإسلامي.

1- مفهوم التدخل الإنساني:

ليس هناك اتفاق بين فقهاء القانون حول مفهوم محدد للتدخل الإنساني وقد انقسموا إلى فريقين، حيث أعطى الفريق الأول التدخل الإنساني مفهوم ضيقا بينما وسع الفريق الثاني من هذا المفهوم

على النحو التالي.

أ- المعنى الضيق:

يحصر أصحاب هذا الاتجاه التدخل الإنساني في التدخل العسكري والذي تقوم بموجبه قوات دولة أو دول بالتدخل في دولة أخرى لأغراض إنسانية ويعرف الدكتور محمد مصطفى يونس التدخل الإنساني بأنه تهديد من طرف واحد أو استخدام القوة المسلحة بمعرفة دولة ضد دولة أخرى لحماية مواطني الأخيرة من أفعال أو إهمال دولتهم وبشكل يصدم الضمير الإنساني[11].

وترجع أصول هذا الاتجاه إلى أراء الفقيه الهولندي جرو جيوس والذي يقصر التدخل على السلوك المتسم بالعنف وهو بمثابة الحرب[12].

وقد انتقد العديد من فقهاء القانون هذا الاتجاه على اعتبار أن حصر التدخل الإنساني بالتدخل العسكري يسمح للدولة القوية بالتدخل عسكريا في شؤون داخلية لدول ذات سيادة اقل قوة، كما يرى منتقدو هذا المفهوم أن هذا يشجع حركات الانفصالية وحركات التمرد من خلال دفعها الحكومات عمدا إلى ارتكاب انتهاكات جسمية لحقوق الإنسان تكون مدعاة لتدخلات عسكرية خارجية تدعم قضية هذه الحركات، كما أن هذا المفهوم يقلل من أهمية التدابير غير عسكرية والتي يمكن اللجوء إليها لتنفيذ مثل هذا التدخل وتحقيق الأهداف الإنسانية المطلوبة.[13]

ب- المفهوم الواسع:

يرى أنصار هذا الاتجاه انه وبغض النظر عن الوسيلة المستعملة فإنه إذا كان الغرض إنسانيا يكون التدخل إنسانيا، أي أن الوسيلة سواء أكانت عسكرية أم اقتصادية أم سياسية أم غيرها طالما تستخدم لإنقاذ أرواح بشرية أو حماية حقوق فإن ذلك يعتبر تدخلا إنسانيا.

وقد عرف الفرنسي شارل روسو التدخل الإنساني بأنه: "هو العمل الذي تقوم به دولة ما ضد حكومة أجنبية بهدف وقف الممارسات المنافية أو المنتهكة للقانون الإنساني من قبل هذه الحكومة ضد رعاياها"[14]

وفي نفس الاتجاه يرى الدكتور حسام هنداوي الذي يرى أن التدخل الإنساني هو: "لجوء شخص أو أكثر من أشخاص القانون الدولي إلى وسائل الإكراه السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية ضد الدولة أو الدول التي ينسب إليها الانتهاك الجسيم والمتكرر لحقوق الإنسان، بهدف حملها على وضع نهاية لمثل هذه الممارسات"[15]

وقد وجهت انتقادات لهذا الاتجاه الذي يرى أن التدخل يمكن أن يكون أي فعل أو قول يتعلق بشؤون دولة أخرى، ورغم أنه لا يمكن إنكار القيمة الهامة لتوسيع نطاق مبدأ عدم التدخل، ضمانا لاستقلال وسيادة الدول، فإن المغالاة في هذا الاتجاه دفعت إلى وصف الدفاع عن عدم التدخل بأنه دفاع عن الجمود وعدم التحرك.[16]

وإذا نظرنا في التاريخ نجد أن التدخل كان موجودا قبل أن ينتظم المجتمع الدولي، ونكاد نجزم أن هذا هو الأسلوب المتبع في حل النزاعات، حيث كانت القوة العسكرية هي التي تحل أي خلاف بين الدول، وقد ساد خلال تلك الفترات حملات استعمارية، وفي القرون الوسطى وبعد أن ظهر الإسلام خاض المسلمون حروبا كثيرة لتحرير البشرية من الظلم والشرك، لكن

المسلم في علاقته بغيره تحكمه علاقة سلم، وما الحرب عند المسلم إلا وسيلة لرد العدوان ودفع الظلم وحماية العقيدة ونصرة المستضعفين.[17]

2- مشروعية التدخل الإنساني **في القانون الدولي والفقه الإسلامي:**

إن التدخل الإنساني بمفهومه الضيق هو الذي يطرح وبشكل كبير مسألة المساس بالسيادة الوطنية للدول مع عدم إنكارنا مساس الوسائل الأخرى بهذا المبدأ إلا أنها أقل خطورة وأخف حده.

وقد شهد المجتمع الدولي المعاصر عدة تدخلات عسكرية على دول مستقلة وذات سيادة بحجة حماية الأرواح وحفظ الحقوق الأساسية للإنسان ومنع الانتهاكات الجسيمة من طرف هذه الدول ضد طائفة من أفراد شعبها، ومن هذه التدخلات ما تم تحت غطاء مجلس الأمن الدولي ومنها ما تم خارج هذا الغطاء، لذلك وجب التساؤل عن المعايير التي يمكن وضعها واعتمادها للحكم على العمل العسكري الذي يكون مبرره إنسانيا بالشرعية أو عدم الشرعية، وقبل التطرق إلى الجوانب القانونية والشرعية فإنه لا بد من الإشارة إلى أهمية التدخل في الكثير من الأحيان حيث لا يمكن السكوت عن الكثير من الجرائم التي تمارسها بعض الدول في حق الإنسانية، ولا يمكن أن تشفع السيادة الوطنية أو مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول للسكوت عن هذه الجرائم والتزام الصمت والحياد، وهذا الموقف المبدئي هو الذي يدفعنا للبحث عن الضوابط التي يمكن أن تجعل مبدأ التدخل فعالا لحماية الحقوق الأساسية للإنسان دون الإخلال بالقواعد التي استقر عليها القانون الدولي والتي تمثل ركنا حصينا لحماية السلم والأمن الدوليين. ولا شك أن عمليات التدخل لتقديم المساعدات الإنسانية وحماية المدنيين لا تخلو من إيجابيات إن سارت ضمن قواعد وضوابط متفق عليها، فعلى صعيد القانون الدولي نجد أن ميثاق الأمم المتحدة لا يسمح باستعمال القوة العسكرية في العلاقات الدولية[18] إلا في حالات الدفاع عن النفس وحالة استخدام القوة بواسطة الأجهزة المختصة في الأمم المتحدة، أو بناء على طلب الدولة ذاتها، أو استخدام القوة للدفاع عن حق التحرر وتقرير المصير، أو يتم التدخل بناء على تصريح من الأجهزة المختصة في المنظمات الدولية.[19]

ومن هنا يتضح لنا أن التدخل الإنساني بمفهومه الضيق والمتمثل في العمل العسكري لا يكون شرعيا إلا إذا:

1- تم هذا التدخل بطلب من الدولة ذاتها، فإذا عجزت الدولة عن حماية مواطنيها من جماعات أو متمردين أو غير ذلك وطلبت عن طريق مجلس الأمن أو منظمة إقليمية كالإتحاد الإفريقي، أو جامعة الدول العربية التدخل للحفاظ على الحقوق الأساسية للمواطنين ضحايا هذه الاعتداءات فإن هذا التدخل قد يكون مشروعا إذا كانت السلطة التي طلبته شرعية.

2- تم استخدام القوة بواسطة الأجهزة المختصة في الأمم المتحدة إذ يحق لمجلس الأمن وتطبيقا للفصل السابع من الميثاق استخدام القوة برا وبحرا وجوا لإعادة السلم والأمن الدولي إلى نصابه، كما أن للجمعية العامة تطبيقا لقرار الإتحاد من أجل السلم أن تأمر عند شلل مجلس الأمن أو فشله بسبب استخدام حق النقض باستخدام القوة المسلحة، كذلك لمجلس الأمن استخدام المنظمات الإقليمية في أعمال القمع كلما رأى ذلك ملائما.[20]

3- تم بتصريح من الأمم المتحدة ممثلة في مجلس الأمن الدولي، والأصل أن لا يتم التصريح

لدولة أو مجموعة من الدول باستخدام القوة دون رقابة الهيئة الأممية، لأنه يفترض أن يتم ذلك بقوات دولية بناء على اتفاق مع الدول التي تمد هذه القوات بالجنود والعتاد والدعم اللوجستي، وأن يتم تشكيل لجنة أركان حرب تحت رقابة وسيطرة مجلس الأمن الدولي،[21] وذلك لتجنب المخاطر التي قد تحصل جراء توكيل دولة أو دول للتصرف باسم مجلس الأمن خاصة في ظل سيطرة الدول الكبرى، وهو ما قد يدفع هذه الدول لتوظيف هذا الاستثناء لتحقيق مصالح ذاتية تحت غطاء حماية حقوق الإنسان.

وقد تم استباحة التدخل الإنساني بالاعتماد على أنه يوجد أساس قانوني متمثلا في أن قضايا حقوق الإنسان تخرج عن الاختصاص الداخلي للدول واعتبارها من الالتزامات الدولية وبناء عليه يجوز للأمم المتحدة التدخل بشأنها وذلك في حالة وجود انتهاكات جسيمة.[22]

أما من الناحية الشرعية فإن الشريعة الإسلامية كرست احترام الإنسان وحقوقه وجاءت بما من شأنه رفع القيود والأغلال عن جميع البشر، قال تعالى: **(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)**[23]، وقد كرمت هذه الشريعة كل بني آدم، قال تعالى: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)**[24]، وقد شرع الجهاد للمسلمين بهدف حماية مجموعة من المصالح الشرعية، منها ما هو خاص بالمسلمين، ومنها ما هو عام يهدف إلى تحقيق مصلحة البشرية ككل وهو المقصد الأصلي للإسلام عقيدة وشريعة.

والأصل في علاقة المسلمين بعضهم ببعض أو بغيرهم من المجتمعات هو السلم والأمان[25]، وقد أمر الله المسلمين بالجهاد لرد العدوان، ولحماية الحرية الدينية بحفظ الدعوة، كما أن الإسلام أجاز التدخل بالسماح للمسلمين بأن يدافعوا عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يعانون الظلم، قال تعالى: **(وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)**[26].

وقد اتجه الفقه الحديث إلى القول بأن هذه المناصرة لا تقتصر على المسلمين فحسب، بل تشمل غيرهم أيضا إذا كان المستغيث بالمسلمين دولة مظلومة، وتصبح هذه المساعدة واجبة إذا كانت مستندة إلى معاهدة سواء في إطار منظمة دولية أو إقليمية، أو ثنائية، ويستثنى من ذلك أن لا يكون هناك ما يمنع المسلمين من المساعدة كأن يكون عهد وذلك مصداقا لقوله تعالى: **(وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ)**[27].

ومن هنا يتضح لنا أنه ليس هناك ما يمنع الدولة المسلمة من أن تشارك ضمن قوات دولية للدفاع عن حقوق المستضعفين الذين يتعرضون لشتى أنواع الانتهاكات ضد حقوقهم وحرياتهم التي كفلت لهم بمقتضى الشرع وبصفتهم بني آدم يستحقون التكريم الإلهي سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ونهانا عن التعدي وأمرنا بمنع المعتدي حتى وإن كان مسلما، لأننا مأمورون بمنع المسلم عن الظلم، لقوله عليه الصلاة والسلام: "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله أنصره مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال رسول الله: تحجزه أو تمنعه عن الظلم فذلك نصرك له"[28]. شريطة أن لا يكون هذا التدخل ضد دولة تربطها بالدولة المسلمة معاهدة تمنعها من المشاركة في مثل هذه الأعمال، ويمكن تجنب هذا المانع بوضع بند في المعاهدة يراعي هذه الحالات ويحدد حدود التدخل وأشكاله.

ثالثا: أثر التدخل الإنساني على السيادة:

لقد تطور مفهوم السيادة متأثرا بتطور المجتمع الدولي، حيث لم تعد الدولة هي الفاعل الوحيد على الساحة الدولية، كما أنه وبعد انتهاء الحرب الباردة وظهور القطبية الأحادية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية والبدء في تجسيد نظام عالمي جديد يحمل شعار "العولمة"، فإن هذا بلا شك أخذ أبعادا قانونية تجسدت في تغيير بعض المفاهيم والمبادئ التي قام عليها المجتمع الدولي بعد الحرب العالمية الأولى والثانية، أي في ظل عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة ومن هذه المفاهيم والمبادئ القانونية نجد: السيادة ومبدأ عدم التدخل، حيث أن ميثاق هاتين المنظمتين حدد السيادة الوطنية في مجال محفوظ وهو ما عبر عنه ميثاق عصبة الأمم في المادة 15 فقرة 8 بالاختصاص الداخلي الذي لا يمكن أن تتدخل فيه المنظمة الدولية، وهو ما لم يتغير في ميثاق هيئة الأمم المتحدة الذي تم التنصيص عليه في المادة الثانية من ميثاقها.

ومن التطورات التي أثرت على السيادة نجد الحيز الذي أولاه المجتمع الدولي لحقوق الإنسان حيث اعتبر القانون الدولي هذه من الحقوق التي لا يمكن أن تبقى من صميم الاختصاص الداخلي للدولة وإنما يجب حمايتها من طرف المجتمع الدولي، وقد حل محل هذا الاختصاص الداخلي نظرية الاختصاص الداخلي المقيد بالالتزامات الدولية[29]، يقول برتراند بادي: "أن مبدأ السيادة لم يكن موجودا دائما، وأنه ينتمي إلى التاريخ بل إلى حقبة تاريخية معينة وأن هذا المبدأ تم بناؤه من أجل التمييز المطلق بين الداخل والخارج، ولكن هذا التمييز بين الداخل والخارج أصبح نسبيا، فالتناقضات والتساؤلات وعدم اليقين أصبحت ميزة المسرح الدولي الوليد"،[30] وقد أخذت تطفو الكثير من التكهنات بمستقبل السيادة في ظل ظهور الكثير من المشاكل التي أخذت أبعادا عالمية كالجرائم العابرة للحدود، والإرهاب الدولي، وحماية البيئة وغيرها من الاهتمامات التي قيدت هذه السيادة وأثقلت الدولة بالتزامات لم يعد ممكنا التنصل منها بحجة السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

وإذا لم يعد ممكنا الجمود والتمسك بالدفاع عن السيادة بمفهومها التقليدي وتقديسها، فإنه لابد من الدفع نحو وضع قواعد وضوابط تجعل من هذه القيود تصب في مصلحة الإنسانية دون تمييز وتحول دون بسط هيمنة القوى الكبرى على الدول الضعيفة كما نراه ونلمسه من بعض التطبيقات الحالة للتدخل الإنساني.

خلاصـــة

من عرضنا السابق تبين لنا أن مفهوم السيادة يختلف في مضمونه بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي ذلك أن السيادة بمعنى الحاكمية هي لله تعالى عند المسلمين فمصدر التشريع هو الله، ولكن فقهاء المسلمين قالوا إن هذه السيادة يمارسها المسلمون، واختلفوا فيمن له هذا الحق، فذهب المذاهب الأربعة إلى أن الخليفة هو الذي يمارس هذه السيادة بعد أن تثبت له الخلافة بالبيعة أو الاستخلاف أو بالغلبة والقهر، وذهب الشيعة الإمامية إلى أن هذه الولاية يمارسها الأئمة وفي غياب الإمام هي للولي الفقيه الذي ينوب الإمام، وذهب المعاصرون من أهل السنة إلى أن السيادة يمارسها أهل الحل والعقد، وذهب آخرون إلى أن السيادة للأمة مجتمعة.

كما تبين لنا أن التدخل لحماية المستضعفين من الدولة أو الجماعة التي تنتهك حقـــوق هـــؤلاء واجبة إذا كانت هذه الاعتداءات جسيمة، والإسلام يأمر المسلمين بـــأن يـــشاركوا في أي عمـــل من شأنه حماية كرامة الإنسان التي هي حق أقره القرآن الكريم لكل أبنـــاء آدم لا فـــرق في ذلـــك

بين مسلم وغيره، وليس هناك في التنظيم الدولي المعاصر ما يمنع أي دولة مسلمة من أن تشارك بقواتها المسلحة ضمن قوات دولية لتحقيق هذه الأهداف، بل إن الإسلام يبيح للدولة المسلمة أن تتدخل منفردة إذا ما دعيت لحماية المسلمين وغيرهم من المستضعفين، وخلصنا إلى أنه لابد من الدفع نحو وضع قواعد وضوابط تجعل من هذا التدخل وسيلة حقيقية وفعالة لتحقيق كرامة بني آدم وتحول دون سيطرة القوي على الضعيف.

بيبلوغرافيا

[1] د.سيد مصطفى أحمد أبو الخير، المبادئ العامة في القانون الدولي المعاصر، إتراك القاهرة، الطبعة الأولى سنة 2006، ص323.
[2] نفسه
[3] عبد المالك رسال، التدخل الإنساني في القانون الدولي وحقوق الإنسان، رسالة ماجستير في القانون، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة، سنة2008، ص14
[4] د. صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة القانون الدولي العام، دار النهضة العربية القاهرة، سنة 2007، ص46.
[5] Cristian ChavagneuxK La souvrainte : un imaginaire utile, alternatives economiques, http://www.univ-no169, avril 1999.
[6] محمد مصطفوي، نظريات الحكم والدولة دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الدستوري الوضعي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ص79.
[7] سورة يوسف الآية40.
[8] سورة الأنعام الآية 114.
[9] سورة الأحزاب الآية 36.
[10] سورة النساء الآية 59.
[11] د.مصطفى يونس النظرية العامة لعدم التدخل في شؤون الدولة – رسالة دكتوراه جامعة القاهرة 1985 ص 780.
[12] د.ياسر خضر الحويش –مبدأ عدم تدخل واتفاقيات تحرير التجارة العالمية .رسالة دكتوراه .جامعة عين شمس سنة 2001 ص154).
[13] أ.عبد المالك رسال دبابش –التدخل الإنساني في القانون الدولي وحقوق الإنسان –رسالة ماجستير –معهد البحوث و الدراسات العربية – القاهرة سنة 2008 ص48 .
[14] Rousseau C. Droit international public. Paris Sirey.1980. tome 6 p49.
[15] د. حسام أحمد محمود هنداوي، القانون الدولي العام وحماية حقوق الأقليات، دار النهضة العربية، القاهرة سنة 1997، ص52.
[16] عبد المالك رسال، مرجع سابق، ص50.
[17] د. محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان، الطبعة الثانية سنة 1997/1418، ص94.
[18] أنظر: المادة 2 فقرة 4 من ميثاق الأمم المتحدة، وتعتبر هذه المادة قاعدة آمرة تحرم العمل المسلح في العلاقات الدولية.
[19] د. أحمد أبو الوفا، مرجع سابق ص744-750.
[20] أحمد أبو الوفا، مرجع سابق ص744-745.
[21] الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة.
[22] عماد الدين عطا الله، التدخل الإنساني في ضوء مبادئ وأحكام القانون الدولي العام، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 2007، ص524.
[23] سورة الأعراف الآية 157.

[24] سورة الإسراء الآية 70.
[25] يمكن الرجوع إلى الخلاف الفقهي حول علة تشريع الجهاد إلى كتاب محمد سعيد رمضان البوطي، الجهاد في الإسلام، مرجع سابق ص94، وكذلك : د.محمد خير هيكل، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الثانية سنة 1417/1996، ج2 ص1260.
[26] سورة النساء الآية 75.
[27] سورة الأنفال الآية 72.
[28] أخرجه البخاري في صحيحه باب إذا يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه القتل، كما أخرجه الترمذي والبيهقي
[29] د.حسين حنفي عمر، التدخل في شؤون الدولة بذريعة حماية حقوق الإنسان، دار النهضة القاهرة، الطبعة الأولى، سنة2004-2005، ص345.
[30] محمد بوبوش، أثر التحولات الدولية الراهنة على مفهوم السيادة الوطنية، سلسلة المستقبل العربي، الكتاب رقم52 السيادة والسلطة، الآفاق الوطنية والحدود العالمية، مركز الدراسات العربية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2006، ص120.

الوظيفة اللغوية للوقف في قراءة القرآن الكريم

أ / حاقة عبد الكريم
أستاذ مؤقت
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

للوقف دور كبير في توضيح معاني القرآن الكريم، وذلك لارتباطه بالشكل والمضمون، ويتعلق ارتباطه بالشكل من ناحية الإعراب، إذ لا يصح الوقف على كلمة تتعلق إعرابيا بما بعدها، أما من ناحية المضمون فلا يمكن الوقف على كلمة إذا كان الوقف عليها يؤدي إلى فساد المعنى، وسنحاول في هذه الدراسة الوقوف على الوظيفة اللغوية للوقف من ناحيتي الشكل(الإعراب) والمضمون(المعنى)، وسنقوم أولا بتعريف الوقف ثم نذكر أهم أقسامه وبعدها نتطرق إلى الحديث عن دور الوقف في الإعراب والدلالة.

Résumé

La pause –dans les versets Coraniques ou entre elles -a un rôle majeur pour éclaircir le sens، parce qu'elle est liée à la forme et au contenu: en ce qui concerne la relation avec forme c'est au côté de l'analyse (*l'îrab*) car il est inacceptable de faire la pause à un verset lié analytiquement au verset suivant، quant au contenu، il est impossible de faire la pause à un mot si cette pause donne un mauvais sens، Dans cette étude، nous allons essayer comprendre la fonction linguistique en termes de forme (d'analyse) et le contenu (le sens).

تمهيـــد

إن الوقف في قراءة القرآن الكريم له دور كبير في عملية الفهم، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالتركيب والمعنى، وهو بذلك يقوم بدور مهمّ في تبليغ رسالة القرآن للناس، ولولا الوقف لخفي الكثير من معاني الذكر الحكيم والتبس فهمه على قارئه وسامعه، من أجل ذلك كانت عناية المقرئين للقرآن بالوقف منذ العهود الأولى عناية كبيرة، كما ألفت الكتب في بيان مواقع الوقف في القرآن. وعلى هذا نقول ما هو دور الوقف في التركيب ؟ وكيف يعمل على توضيح المعنى؟ وما هو الأساس الذي يتم وفقه اختيار الوقف على موضع دون آخر؟ هذه الأسئلة سنقوم بالإجابة عنها في هذا المقال، حيث سنبين وظيفة الوقف من الناحية النحوية ومن الناحية الدلالية.

1 : تعريف الوقف لغة واصطلاحا :

أ – تعريف الوقف لغة:

جاء في « مقاييس اللغة » لابن فارس: (**وَقَفَ**)، الواو والقاف والفاء أصل واحد يدل على تمكّث في شيء ثم يقاس عليه .... وحكى الشيباني: «كلمتهم ثم **أَوْقَفْتُ** عنهم» أي سكت،

وكل شيء أمسكت عنه فإنك تقول: **أَوْقَفْتَ**[1]. وفي التعريفات للجرجاني: **الوَقْفُ** في اللغة الحبس[2]. وفي القاموس المحيط : **وَقَفَ** القدر، أدامها وسكّنها[3]. وفي المعجم الوسيط: **وَقَفَ** على الكلمة نطق بها مسكّنة الآخر قاطعا لها عما بعدها، **والوَقْفُ** في القراءة قطع الكلمة عما بعدها[4].

من خلال هذه التعريفات اللغوية نستنتج أن كلمة **الوقف** لها عدة معان منها: المكث، والإمساك، والحبس، والسكون، والقطع. و كل هذه المعاني يتقارب مؤداها وتحيل على شيء واحد، وهو أن الوقف فيه انحباس لشيء وانقطاع لتتابع أو اتصال، أو إمساك عما كنا بصدده، وهذا يحيل إلى أن الواقف أثناء القراءة يقوم بعملية انحباسية، يحبس بها أو يقطع أو يمسك ذلك التتابع أو الاسترسال الذي كان يمارسه وهو يقرأ، ويتلبّث في هذا الانقطاع مدة زمنية معينة، ثم يستأنف قراءته، فهو كالماشي الذي وقف أثناء مشيه ثم عاود المشي وهذا هو وجه الربط بين التعريف اللغوي الذي مر بنا وبين التعريف الاصطلاحي الآتي.

ب – تعريف الوقف اصطلاحا:

يعرف ابن الجزري الوقف فيقول : « هو عبارة عن قطع الصوت على الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة »[5] وهو قسمان اختياري وهو المقصود هنا، واضطراري وهو ما يعرض للقارئ من عطاس أو انقطاع النفس حيث يعود للقراءة من موضع غير الذي وقف عليه أي من أول الكلام ليكون الكلام متصلا بعضه ببعض[6]. ومعنى هذا الكلام أن قارئ القرآن قد يعرض له من الضرورات ما يلزمه الوقوف وقطع القراءة، وهذا النوع من الوقف هو ما سمي الاضطراري، فإذا وقع للقارئ شيء كهذا فإن عليه أن يرجع من أول الآية أو الجملة التي وقف في وسطها ليستأنف قراءته من جديد، ولا يبتدئ القراءة من حيث وقف.

ج : الفرق بين الوقف والقطع والسكت :

الوقف والقطع والسكت مصطلحات متقاربة ومتداخلة، ولهذا كان الأولون لا يفرقون بينها، أما المتأخرون فقد فرقوا بين هذه المصطلحات وأعطوا لكل واحد منها تعريفا خاصا به وقد سبق تعريف الوقف .

أما السكت: فهو عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس[7]، وهو مقيد بالسماع والنقل فلا يجوز إلا فيما صحت فيه الرواية[8] حيث يستعمل عند ورش في روايته من طريق الأزرق عند الفصل بين السورتين من غير قراءة البسملة وهو أحد الوجوه عنه، ويستعمل في رواية حفص عن عاصم في أربعة مواضع هي:

1– على قوله تعالى : ﴿ عِوَجَاۜ ﴾ [الكهف/1].
2– على قوله تعالى : ﴿ مَّرْقَدِنَاۜ ﴾ [يس/52].
3– على قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ [القيامة/27].
4– على قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْۜ رَانَ ﴾ [المطفّفين/14] [9].

ويرمز للسكت بحرف سين صغير « س » فوق الحرف المسكوت عليه.

وأما القطع : فهو عبارة عن قطع القراءة رأسا فهو كالانتهاء فالقارئ كالمعرض عن القراءة والمنتقل منها إلى حالة أخرى سوى القراءة[10]. وينبغي معه أمران:

1- إكمال الآية برمتها قبل القطع، فلا يقطع على جزء منها.

2- تجديد الاستعاذة متى أراد العودة للقراءة[11].

2 – أهمية الوقف في قراءة القرآن الكريم:

يعدّ علم الوقف أحد علوم القرآن الكريم ، وقد كان يحظى بما يحظى به غيره من العلوم الأخرى من الاهتمام والعناية منذ الصدر الأوّل من هذه الأمّة، و إن لم يكن قد دوّن في كتاب شأنه شأن غيره من العلوم، إلى أن بدأ عصر التدوين وجمع العلوم، ونحن لدينا أثران هامّان ذكرهما ابن الجزري في النشر، يظهران مدى العناية بعلم الوقف في القراءة القرآنية منذ الرعيل الأول: أمّا الأثر الأوّل فهو المرويّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمّل:4]، فقال: «الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف». وأمّا الأثر الثاني فهو المرويّ عن عبد الله بن عمر رضي عنهما إذ يقول «لقد عشنا برهة من دهرنا وإنّ أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على النبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ فيتعلّم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها». وقد استدل ابن الجزري بالأثر الأول على وجوب تعلم الوقف، وبالأثر الثاني على أن تعلمه إجماع من الصحابة رضي الله عنهم[12]. إنّ علم الوقف من العلوم المرتبطة بالقراءة والأداء، وقد كان يؤخذ شفاهيا من أفواه القرّاء، وكان تلاميذهم يروونه عنهم فيما يروون من وجوه قراءتهم، يقول ابن الجزري: «وصح بل تواتر عندنا تعلمه والاعتناء به من السلف الصالح كأبي جعفر يزيد ابن القعقاع إمام أهل المدينة الذي هو من أعيان التابعين، وصاحبه الإمام نافع بن أبي نعيم وأبي عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي وعاصم ابن أبي النجود، وغيرهم من الأئمة وكلامهم في ذلك معروف ونصوصهم عليه مشهورة في الكتب»[13] ومن شدة عناية السلف بهذا العلم- علم الوقف- أن القرّاء كانوا يدخلونه ضمن شروط الإجازة. قال ابن الجزري:«ومن ثَمّ اشترط كثير من أئمة الخلف على المجيز أن لا يجيز أحدا إلا بعد معرفته الوقف والابتداء». وقال «وكان أئمتنا يوقفوننا عند كل حرف ويشيرون إلينا فيه بالأصابع .... سنة أخذوها عن شيوخهم الأولين رحمة الله عليهم أجمعين»[14].

وتكمن أهمية الوقف في كونه سبيلا إلى فهم القرآن الكريم، وذلك لتعلقه بالإعراب والمعنى، والإعراب والمعنى مرتبطان ببعضهما، ولتعلق الوقف بهما معا فإن الخطأ في الوقف يؤدي إلى فساد المعنى، وبالتالي انغلاق الفهم على المتلقي، وليس هذا من مقاصد القرآن الكريم، لأنه أنزل لهداية الناس إلى ربهم سبحانه، وهذا يتطلب وضوحه وبيانه، ولهذا يتحتم على القارئ أن يعرف مواضع الوقف، ويقف عندها لئلا يلتبس المعنى على السامع.

3 – التعلق اللفظي والمعنوي :

التعلق اللفظي والمعنوي هو الذي عليه مناط الوقف، فإذا كان للكلمة تعلق بما بعدها سواء كان لفظيا أو معنويا فإنه يمتنع الوقف عليها لئلا يؤدي الوقف إلى فساد في المعنى أو خلل في الإعراب، فما المقصود بالتعلق اللفظي والمعنوي ؟

1 – التعلق اللفظي : ويراد بالتعلق اللفظي أن يكون بين الكلمة الموقوف عليها أو ما قبلها ارتباط نحوي بما بعدها من الكلام، والوقف في حقيقته هو بيان لمواضع انتهاء الجمل وابتداء جمل أخرى، وهو قطع للجمل المنفصلة عن بعضها وبه يتضح المعنى، وبناء على هذا فلابد من مراعاة قواعد النحو في مواضع الوقف، لأن الوقف يجب أن يكون مؤسسا على هذه القواعد، بحيث إذا وقف القارئ على موضع مّا تحتّم عليه ألا يكون وقفه مخلا بالقواعد أو مفسدا للسياق. يقول الدكتور أحمد سليمان ياقوت:« يرتبط كل من الوقف والإعراب بالآخر ارتباطا وثيقا، إذ إن الوقف يؤثر على المعنى وهذا بدوره يؤثر في الإعراب، ومن ثَمّ كان لزاما لمن يدرس الوقف في القرآن أن يكون ملما بأوجه الإعراب المختلفة وما يستوجبه كل وجه من وقف في القراءة عند موضع معين»[15]. إن بعض العلماء الذين كتبوا في الوقف جعلوا من النحو مقياسا لبيان مواضع الوقف فابن الأنباري مثلا منع الوقف على مواضع محددة لأن فيها فصل بين كلمات تتعلق ببعضها فلا يصح عنده الوقف على المضاف دون المضاف إليه ولا المنعوت دون نعته و لا المؤكد دون توكيده ولا المعطوف دون المعطوف عليه ولا البدل دون المبدل منه ولا إن أو كان وأخواتها دون اسمها ولا اسمها دون خبرها، ولا المستثنى منه دون الاستثناء ولا الموصول دون صلته [16].

2 – التعلق المعنوي : ويراد بالتعلق المعنوي أن الكلمة الموقوف عليها لا يتم معناها إلا بكلام يأتي بعدها، ولهذا قيدوا الوقف بما لا يكون فيه إخلال بالمعنى، قال ابن الجزري: «ويتحتّم ألا يكون ذلك – أي الوقف – مما يحيل المعنى أو يخل بالفهم إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد »[17] وإن المعنى ليتغير ويتعدد بتغير الوقف وتعدده كما قال الشيخ الطاهر ابن عاشور: « والوقف عند انتهاء جملة من الجمل قد يكون أصلا لمعنى الكلام، فقد يختلف المعنى باختلاف الوقف مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146] فإذا وقف عند كلمة «قتل» كان المعنى أن أنبياء كثيرين قتلهم قومهم وأعداؤهم ومع الأنبياء أصحابهم فما تزلزلوا لقتل أنبيائهم فكان المقصود تأسيس المشركين من وهن المسلمين على فرض قتل النبي صلى الله عليه وسلم .... وإذا وصل قوله « قتل » عند قوله «كثير» كان المعنى أن أنبياء كثيرين قتل معهم رجال من أهل التقوى فما وهن من بقى بعدهم من المؤمنين»[18]. مع ملاحظة أن الشيخ يفسّر على رواية ورش ففيها (قتل) بدل (قاتل) المثبتة في الآية وهي على رواية حفص، فمن خلال هذا المثال يتضح لنا كيف أن تعدد الوقف يفضي إلى تعدد المعنى، وأن تغير موضع الوقف يؤدي إلى تغير المعنى، ولهذا قال ابن عاشور بعد هذا:

«على أن التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات في تعدد المعنى مع اتحاد الكلمات»[19].

4 – أقسام الوقف :

أقسام الوقف هي تقسيمات اجتهادية وضعها العلماء للتفريق بين أنواع الوقف المختلفة، لأن الوقوف ليست متماثلة، ويأتي اختلاف الوقوف من جهة تعلق الكلمة الموقوف عليها بما قبلها وما بعدها لفظا أو معنى، فالتعلق اللفظي مرتبط بالإعراب والنحو، وموقع الكلمة من التركيب، والتعلق المعنوي مرتبط بالمعنى الذي يؤديه التركيب ودور الكلمة الموقوف عليها فيه. وقد اجتهد العلماء في هذه التقسيمات واختلفت لذلك المصطلحات قال ابن الجزري: «وقد اصطلح الأئمة لأنواع أقسام الوقف والابتداء أسماء، وأكثر ما ذكر الناس في أقسامه غير منضبط ولا منحصر»[20]. ويرجع السبب في الاختلاف حول تسمية هذه الأقسام إلى كون هذه التسميات والمصطلحات جاءت بعد الصدر الأول من المسلمين فرغم عناية السلف بمعرفة الوقوف والعمل بها إلا أنه لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة تسمية الوقوف باسم معين[21]. ولهذا فإن هذه التقسيمات على ما فيها من اختلافات لا تعدو أن تكون اصطلاحات تواضع عليها علماء هذا الفن، ولكل فن من الفنون ولكل علم من العلوم مصطلحات يتفق عليها أهله والمختصون، وهذه هي أقسام الوقف:

1 – الوقف التام : وهو الوقف على كلمة لم يتعلق ما بعدها بها ولا بما قبلها، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى [22]، أو هو الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ولا يكون بعده ما يتعلق به[23]، وقد سمي هذا النوع بالتام لتمامه وانتهاء الغرض عنده، ولهذا فهو يحقق الفائدة التي يحسن السكوت عليها، وأكثر ما يكون في رؤوس الآي وانقضاء القصص. ومثال الوقف التام، الوقف على: ﴿ فَيَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾ [آل عمران /127].

2 – الوقف اللازم : وهو ما لو وصل طرفاه غيّر المراد [24]، أو هو الوقف على كلمة لو وصلت بما بعدها لأوهم وصلها معنى غير المعنى المراد[25].ومثاله الوقف على: ﴿ وَلَدٌ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء/171]. فالوقف على ﴿ وَلَدٌ ﴾ وقف لازم وذلك حتى يتم الفصل بينها وبين ما بعدها، لأنها لو وصلت بقوله تعالى: ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ لأوهم ذلك أن هذه الجملة في محل رفع صفة لولد، وهذا يفيد أن المنفي ولد موصوف بأن له ما في السماوات وما في الأرض، وليس كل ولد، وإنما المراد نفي الولد مطلقا، فجملة ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل تنزيه الله تعالى عن الولد.

3 – الوقف الكافي : هو الوقف الذي يحسن القطع عليه والابتداء بما بعده، غير أن الذي بعده متعلق به معنى لا لفظا، وبعبارة أخرى : هو الوقف على كلمة لم يتعلق ما بعدها بها ولا بما قبلها من حيث اللفظ، وتعلق بها أو بما قبلها من حيث المعنى، فهو منقطع لفظا متصل

معنى ويكون في رؤوس الآي وفي أوساطها[26]. ومثاله قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات :4] فالوقف على ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وقف كاف لأن الآية التي بعدها وهي ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات:5]. لا تعلق لها بما قبلها من حيث اللفظ، باعتبارها جملة مستأنفة، ولها تعلق بما قبلها من حيث المعنى، لأن الآيات كلها مسوقة لبيان مقام النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومكانته عند الله تعالى، وللحث على تعظيمه وتوقيره وحفظ الأدب معه في الحديث والخطاب.

4 – الوقف الحسن: هو الوقف الذي يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الابتداء بما بعده لتعلقه به في اللفظ والمعنى[27] وتوضيح ذلك: أن الجملة الموقوف عليها تامة في ذاتها، مفيدة في نفسها، والجملة الثانية الواقعة بعدها غير مفيدة في نفسها ولا تتم إلا بالجملة الأولى لوجود التعلق اللفظي، بل وسياق الموضوع[28]. ومثال الوقف الحسن قوله تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة:46] فالوقف على ﴿ وَنُورٌ ﴾ وقف حسن، لأنه كلام مفيد في ذاته، ولكن الابتداء بما بعده وهو قوله ﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ لا يجوز، لأنه متعلق بما قبله لفظا ومعنى، وذلك من وجهين: الأول: أن يكون معطوفا على موضع ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ والتقدير: آتيناه الإنجيل كائنا فيه هدى ونور ومصدقا. الثاني: أن يكون ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ الثاني معطوفا على ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ الأول، فيكون حالا من (عيسى) مؤكدا للحال الأول ومقررا له.

5 – الوقف الجائز : وهو ما يجوز فيه الفصل و الوصل لتجاذب الموجبين من الطرفين[29]، وبيان ذلك أن الجملة التي تلي الكلمة الموقوف عليها فيها وجهان من الإعراب، ولكن لم يترجح أحدهما على الآخر، فإن كانا متساويين يسمّى «وقفا جائزا» أي جوازا مستوي الطرفين لأن كلا من الوقف والوصل جائز من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، فيجوز الوقف باعتبار أن الجملة الواقعة بعد الكلمة الموقوف عليها مستأنفة، ويجوز الوصل باعتبار أن الجملة في محل الخبر، أو الحال، أو الصفة، ونحو ذلك[30]. ومثاله قوله تعالى: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة:9] فالوقف على قوله﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ وقف جائز وذلك لأن الجملة بعدها ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يحتمل أن تكون معطوفة على قوله ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أو تكون حالا من ضمير ﴿ يُخَٰدِعُونَ ﴾ أي: يفعلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم، وعلى هذا يجوز الوصل، لارتباط الجملة الثانية بالأولى . ويحتمل أن تكون جملة ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ ﴾ مقطوعة عما قبلها لابتداء النفي، وعلى ذلك يجوز الوقف على قوله ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ والابتداء بقوله ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ ﴾ والوجهان المذكوران لا مرجّح لأحدهما على الآخر.

6 – الوقف الممنوع : ويسمى القبيح وهو الذي ليس بتام ولا حسن أي أنه لا تتوفر فيه شروط الوقف التام ولا الحسن، وهو الذي لا يفهم منه المراد[31] فهو يفسد المعنى أو يؤدي إلى معنى باطل. ولا يجوز تعمد الوقف عليه إلا لضرورة من انقطاع نفس ونحوه لعدم الفائدة أو لفساد المعنى. ومن أمثلته الوقف على ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ ﴾ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام :36] فإن الوقف عليه يفيد أن الموتى يستجيبون كما يستجيب الذين يسمعون، وليس المعنى كذلك، بل المعنى أن موتى القلوب المنكرون للبعث لا يجيبون داعي الإيمان وسيبعثهم الله يوم القيامة ليجازيهم على كفرهم ولذا يتعين الوقف على ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ والابتداء بقوله ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لأن الواو للاستئناف والجملة بعده مستأنفة لبيان حال الكفار وجزائهم في الآخرة.

7 – وقف المعانقة : وهو أن يجتمع في آية كلمتان يصح الوقف على كل منهما لكن إذا وقف على إحداهما امتنع الوقف على الأخرى[32]، ويرمز لهذا النوع بثلاث نقط على الكلمتين المعنيتين بالوقف عليهما ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة/26] ففي هذه الآية كلمتان وهما: ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ و ﴿ سَنَةً ﴾ وبينهما وقف معانقة، فيصح الوقف على كل منهما، ولا يصح الوقف عليهما معا فإذا وقفنا على الكلمة الأولى ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ وابتدأنا بقوله ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ كان معنى ذلك أن مدة التيه في الصحراء أربعين سنة أما التحريم على أولئك المعنيين بالخطاب فهو تحريم أبدي. وإذا وقفنا على الكلمة الثانية ، كان المعنى أن مدة التحريم هي أربعون سنة يتيهون فيها في الأرض ثم يرتفع عنهم هذا الحكم بعد انقضاء مدته وبين المعنيين فرق لا يخفى.

تلك هي أهم أقسام الوقف ، وقد نجد تسميات أخرى لهذه الأقسام غير أنها تندرج في هذه الأقسام ولا تخرج عنها ، لذلك اكتفينا بذكر هذه الأقسام.

5 – الوظيفة الإعرابية للوقف :

للوقف كما أسلفنا علاقة كبيرة بالإعراب وسنحاول في هذا المقام إبراز هذه العلاقة بذكر أمثلة من القرآن الكريم شواهد على وظيفة الوقف الإعرابية :

1- يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [يوسف/66]، فالفعل(قال) على من يعود ؟ فقد يقع في الوهم أن فاعل الفعل هو لفظ الجلالة لكونه هو المرفوع بعده، ولكن لفظ الجلالة واقع مبتدأ في جملة مقول القول أما فاعل (قال) فهو يعقوب ــ عليه السلام ــ وهذا اللبس الذي قد يقع يمكننا تجنبه بالوقف وقفة لطيفة على الفعل (قال) وتعد هذه الوقفة بمثابة النقطتين اللتين توضعان بعد لفظة القول(:) لبيان أن ما يأتي هو مقول القول.[33]

2 – يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يونس/65]، ففي هذه الآية الكريمة يتحتم الوقف على قوله ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾

والابتداء بقوله ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ ﴾ حتى لا يتوهم أن هذه الجملة الأخيرة من قول الكافرين أي إنه في محل نصب مقول القول ، وهي في الحقيقة جملة مستأنفة، والوقف على قوله ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ هو الذي يوضح هذا الأمر ويزيل اللبس[34].

3– الوقف على الاستثناء : والاستثناء قسمان : متصل، و منقطع. فالاستثناء المتصل هو الذي يكون فيه المستثنى من جنس المستثنى منه، و الاستثناء المنقطع هو الذي يكون فيه المستثنى من غير جنس المستثنى منه، فإذا كان الاستثناء متصلا فلا يصح الوقف قبل الإتيان بالمستثنى منه حتى تتحقق الفائدة المقصودة، ومن أمثلته قوله تعالى:﴿ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ ﴾ [البقرة :249] فالمستثنى منه في الآية الكريمة هو(واو الفاعل) في ﴿ فَشَرِبُوا۟ ﴾ والمستثنى ﴿ قَلِيلًا ﴾ وهو من جنس المستثنى منه، فالمقصود في الآية أن هؤلاء القليل بعض جنود طالوت المستثنين من مجموع الجند الذين شربوا، لهذا فلا يجوز الوقف على ﴿ فَشَرِبُوا۟ ﴾ ولا على ﴿ مِنْهُ ﴾ لأن في ذلك قطع لاستثناء متصل ولا يصح[35].

أما إذا كان الاستثناء منقطعا ففيه ثلاثة آراء:

1 – جواز الوقف على المستثنى منه دون المستثنى مطلقا سواء صرح بالخبر أم لا – قال ابن الحاجب – فيما نقله الزركشي – : وجه من جوز الوقف مطلقا أنه في معنى مبتدأ حذف خبره للدلالة عليه فكان مثل قولنا : زيد، لمن قال: من أبوك ؟ ألا ترى إلى تقدير المنقطع في قولك : ما في الدار أحد إلا الحارث، هو «لكن الحارث في الدار »، ولو قلت « لكن الحارث» مبتدئا به بعد الوقف على ما قبله لكان حسنا، ألا ترى إلى جواز الوقف بالإجماع على مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ والابتداء بقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: 44] فكذلك هذا[36].

2– منع الوقف مطلقا ، قال ابن الحاجب : ووجه من قال بالمنع مطلقا ما رأى من احتياج الاستثناء المنقطع إلى ما قبله لفظا ومعنى، أما اللفظ فلأنه لم يعهد استعمال «إلا» وما في معناها إلا متصلا بما قبلها لفظا، ألا ترى أنك إذا قلت : «ما في الدار أحد إلا فلان» فوقفت على ما قبل « إلا » و ابتدأت بها كان قبيحا، فكذلك هذا، و أما المعنى فلأن ما قبله مشعر بتمام الكلام في المعنى فإن « ما في الدار أحد » هو الذي صحح قولك «إلا فلان»، ألا ترى أنك لو قلت : « إلا فلان » على انفراده كان خطأ[37].

3 – التفصيل : فإذا كان الخبر مصرحا به جاز الوقف ، لأن جملة المستثنى حينئذ تكون مستقلة، ومستغنية عما قبلها، وإذا لم يصرح بالخبر لم يجز الوقف، لأن جملة المستثنى حينئذ تكون مفتقرة إلى ما قبلها، وهذا رأى ابن الحاجب في كتابه « الأمالى »[38].

ومن أمثلة الاستثناء المنقطع الذي لم يصرح فيه بالخبر، قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: 78] ووجه كون الاستثناء منقطعا أن الأماني جمع أمنية ، وهي كل ما يتمناه الإنسان و على تعبير الأصفهاني « الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء »[39] و في تفسير الألوسي عن ابن عباس و مجاهد أن الأماني

هنا الأكاذيب التي سمعوها من شياطينهم المحرّفين للكتاب[40]، وسواء أكانت الأماني ما تتمناه النفس أو كانت الأكاذيب فإن الاستثناء منقطع لكون الأماني ليست من الكتاب، وهذا الاستثناء لم يصرح فيه بالخبر و قد يكون التقدير إلا أماني يتمنونها من أن الله سيعفو عنهم وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات.

ومن أمثلة الاستثناء المنقطع المصرح فيه بالخبر قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾ [الانشقاق :25]، وكون هذا الاستثناء منقطعا أن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات ليسوا من جنس الذين عاد عليهم الضمير في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق : 24] و على هذا تكون « إلا» بمعنى « لكن » المخففة، والاسم الموصول «الذين » مبتدأ ، و جملة « لهم أجر غير ممنون » خبر المبتدأ.

4 – الوقف على (نعم، بلى، كلا): إن مما يبين الوظيفة الإعرابية للوقف أن العلماء المختصين بهذا العلم تناولوا في بحوثهم الوقف على هذه الكلمات، وبينوا حكم الوقف على كل منها معللين ذلك بوجوه الإعراب المختلفة.

1 – الوقف على نعم: (نعم) هي حرف جواب، يجاب بها كلام قبلها، و يختلف معناها باختلاف ما قبلها، فإذا كان ما قبلها جملة خبرية، مثبتة كانت أم منفية، فهي حرف يدل على تصديق المخبر(بكسر الباء) فإن قيل : قام محمد، أو لم يقم محمد، فتصديقه فيهما (نعم). وإن كان ما قبلها جملة إنشائية – سواء أكانت أمرية، أم نهيية، أم تحضيضية – فهي حرف يفيد وعد الطالب بتحقيق مطلوبه ....فكلمة (نعم) نابت مناب الجملة التي دلت على تحقيق المطلوب من فعل أو ترك. و إن كان ما قبلها استفهاميا فهي حرف يدل على الإعلام عن أمر مّا فالمتكلم بها يعلم مخاطبه بجواب استفهامه[41]. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن أربع مرات:

1-﴿ قَالُواْ نَعَمۡ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف/44].
2- ﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف/114].
3-﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء/42].
4 -﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾ [الصافات/18].

وحكم الوقف في الموضع الأول الجواز لعدم التعلق اللفظي والمعنوي بينها وبين ما بعدها لأن ما بعدها ليس من قول الكفار، أما المواضع الثلاثة الأخرى فلا يجوز الوقف عليها بل يتحتّم وصلها بما بعدها لأنه متعلق بها ومتصل معها بالقول[42].

2 – الوقف على بلى: (بلى) هي حرف جواب، يجاب بها الكلام قبلها، وتختص بالنفي، أي أنها لا تقع إلا بعد كلام منفي، فلا تقع بعد كلام مثبت إلا في النزر اليسير من الأساليب، وهي تفيد إبطال النفي قبلها ونقضه، و تقرّر نقيضه[43]. وهي على ثلاثة أقسام :

1 – ما يختار فيه الوقف على (بلى) لأنها جواب لما قبلها غير متعلق بما بعدها ومثاله قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة/81] فقد أفادت نفي ما زعمه اليهود في الآية السابقة من أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، وجملة من كسب سيئة ترتبط بما قبلها من جهة المعنى، لا من جهة اللفظ، وعليه يكون الوقف على (بلى) وقفا كافيا.

2 – ما يمتنع الوقف فيه على (بلى) لتعلق ما بعدها بها وبما قبلها ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:30] ووجه المنع هنا أن« وربنا » بعد (بلى) من مقول الكفار، لم يقتصروا على (بلى) بل أكدوا اعترافهم باليمين، ولا يجوز الفصل بين بعض المقول وبعضه الآخر، فلا يجوز الوقف على (بلى) في هذه الآية.

3 – ما اختلف فيه في جواز الوقف على (بلى)، والأحسن المنع لأن ما بعدها متصل بها وبما قبلها، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ ﴾ [البقرة:260]. قال ابن الجزري: قال الداني: الوقف عليها هنا كاف وقيل: تام لأنها رد للجحد، وهو مذهب الدينوري وابن الأنباري وغيرهم، ومنعه العماني وخطّأ من أجازه، وقال الاشموني: لا يجوز الوقف على (بلى) ولا الابتداء بها، أما الوقف عليها فإنك إذا وقفت عليها كنت مبتدئا بـ(لكن) وهي كلمة استدراك يستدرك بها الإثبات بعد النفي أو النفي بعد الإثبات، وأما الابتداء بها فإنك لو ابتدأت بها كنت واقفا على (قال) وهي كلمة لا يوقف عليها لأن القول يقتضي الحكاية بعده[44]. وقال الحصري: يجوز الوقف على« بلى » باعتبار تمام الكلام في الجملة، فالسؤال قد أخذ جوابه، و الفعل قد استوفى فاعله ومفعوله، ولكن الأولى الوصل لأن قوله تعالى « و لكن ليطمئن قلبي » من جملة مقول القول[45].

3 – الوقف على كلا : (كلا) حرف معناه الردع والزجر، وهذا مذهب معظم النحويين ومنهم إمام النحو سيبويه، والخليل، والمبرد، والزجاج، ليس لها عندهم معنى سوى ذلك، ولهذا يجيزون الوقف عليها والابتداء بما بعدها، وقد جاءت (كلا) في القرآن الكريم تفيد معنى آخر غير الزجر والردع فاختلف النحاة في معناها الزائد على المعنى الأول، فذهب الكسائي والكوفيون إلى أنها تفيد معنى حقا، وذهب النضر بن شميل والفرّاء إلى أنها تكون حرف جواب بمثابة أي ونعم، وذهب أبو حاتم إلى أنها تكون أداة استفتاح بمنزلة (ألا) الاستفتاحية [46].
وقد قسم العلماء الوقف على (كلا) تبعا لمعناها إلى أقسام :

القسم الأول : ما يحسن الوقف فيه على (كلا) على معنى الردع، والابتداء بها على معنى «حقا» ومثاله قوله تعالى : ﴿ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾ [مريم/79] وهي تحتمل معان عدة:

أ – أن تكون للردع و الزجر والجملة بعدها مستأنفة، وينتهي ما بينهما من تعلق لفظي، ويكون الوقف على « كلا » كافيا.

ب – أن تكون بمعنى « لا » النافية لما تضمنه القول السابق ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم/78] ويكون المعنى لا لم يطلع على الغيب و لم يتخذ عند الرحمان عهدا، والوقف عليها على هذا الوجه كاف أيضا للعلة السابقة .

ج – أن تكون بمعنى حقا فلا يوقف عليها لهذا الوجه إذ تصير حقا سنكتب ما يقول .

د – أن تكون أداة استفتاح وتنبيه بمعنى « ألا » فلا يوقف عليها لأن أدوات التنبيه تجعل في أول الجملة[47].

القسم الثاني : وهو ما لا يحسن الوقف فيه على « كلا » ولا تكون إلا مبتدأ بها على معنى«حقا» أو على معنى « ألا » أو تصلها بما قبلها وبما بعدها ولا تقف عليها والابتداء بها في هذه المواضع أحسن، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴾ [المدثر:32/31]. فلا يحسن الوقف عليها لأنها صلة لليمين والابتداء بها حسن. قال القرطبي: قال الفراء: «كلا»صلة للقسم والتقدير : إي والقمر، وقيل المعنى: حقا والقمر، فلا يوقف على هذين التقديرين على « كلا »[48]

القسم الثالث : وهو ما لا يحسن الوقف فيه على (كلا) ولا يحسن الابتداء بها، ولا تكون إلا موصولة بما قبلها من الكلام وما بعدها وذلك في موضعين:

1 – قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ :5].

2 – قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر :4].

القسم الرابع : وهو ما يحسن فيه الوقف على (كلا) ولا يحسن الابتداء بها وذلك في موضعين:

1 – قوله تعالى: ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ﴾ [الشعراء :15/14].

2 – قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ﴾ [الشعراء :61/60].

6 – الوظيفة الدلالية للوقف :

يرتبط الوقف بالمعنى ارتباطا شديدا وقد سبق أن أوضحنا علاقة الوقف بالمعنى عند حديثنا عن التعلق المعنوي وسوف نتناول هنا وظيفة الوقف الدلالية، وكيف أن للوقف دور كبير في تحديد دلالة الآية. فقد يكون لبعض العبارات معان متعددة، فلا يحسم الأمر إلا الوقف الذي يبين المعنى المراد من بين المعاني المتعددة، يذكر الدكتور فاضل صالح السامرّائي: «أن عبارات تحتمل أكثر من معنى غير أنه قد تتعين الدلالة بالتعليق أو الوقف على موطن ما من العبارة وذلك نحو: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: 7] فهذا يحتمل أن يكون الختم على القلوب والسمع وتكون الغشاوة على الأبصار، ويحتمل أن يكون الختم على القلوب، وتكون الأبصار والسمع منتظمة بحكم واحد، فإن وقفت على القلوب تعيّن المعنى الثاني، وإن وقفت على السمع تعيّن المعنى الأول، وهذا هو الراجح... بدليل قوله﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية:23] »[49] . وقد يفيد الوقف معنى ويفيد الوصل معنى آخر ومثاله

قوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقـــــــرة :96].

فهذه الآية الكريمة يختلف معناها بحسب الوصل والوقف، فمن اختار الوقف على ﴿ حَيَوٰةٍ ﴾ وهو اختيار المغاربة في مصاحفهم، ورجّحه الشوكاني[50] يكون المعنى : لتجدنّ اليهود أحرص الناس على حياة، وما بعدها كلام مستأنف : ومن الذين أشركوا أناس يحب أحدهم أن يعيش ألف سنة فلفظة يود لا تعود على اليهود، ومن اختار الوصل، ورجّح الوقـف علـى قولـه ﴿ أَشْرَكُوا۟ ﴾ وقد عزا الأشموني[51] هذا القول إلى الأكثرين، ورجّحه الرازي[52] وعلى هـذا تكون الواو للعطف والوصل أولى ويكون المعنى: إن اليهود أحرص الناس على حياة وأحـرص من الذين أشركوا، وتكون جملة ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ تعود على اليهـود والمعـنى أنهـم بلغـوا في الحرص مبلغا يفوق حرص الناس وحرص المشركين، واقتصر عليه ابن كثير[53].

ومما يختلف معناه باختلاف الوصل والوقف قوله تعـالى:﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة/102] فمن وقف على قوله تعالى: ﴿ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ واستأنف بقوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ ﴾ تكون (ما) عنده بمعنى النفي، أي نفي إنزال السحر ومن جعلها بمعنى (الذي) وصلها بما قبلها ويكون المعنى أن الشياطين يعلمون الناس السحر، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين.

ومما يظهر فيه أثر الوصل والوقف واضحا قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة:41] فقد ذكر الفرّاء والزّجّـاج في معنى هذه الآية وجهين :

الأول : أن الكلام يـتم عنـد قولـه ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ ثم يبتـدئ بقولـه ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ فيكون المعنى : لا يحزنـك الـذين يـسارعون في الكفـر من المنافقين واليهود، ثم وصف بعد ذلك الكل بأنهم سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين.

الثاني : أن الكلام قد تم عند قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ ﴾ ثم يبتدئ من قولـه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ ﴾ ويكون المعنى : نهاه الله عز وجل عن الحزن الذي سببه له المنافقون وتكون صفة السماع خاصة باليهود[54].

ومما يؤكد الوظيفة الدلالية للوقف أن المعنى قد يتمّ أحيانا قبل تمام الآية، وقد لا يتمّ المعـنى إلا بجزء من الآية الأخرى، وعليه يكون الوقف حيث يتم المعنى، فمما تمّ فيه المعنى قبـل تمـام الآية قولـه تعـالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل/34] فالوقف على ﴿ أَذِلَّةً ﴾ وقف تام لأنه نهاية كلام الملكة أما قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فهو تعقيب على قولها وليس من كلامها.ومما تمّ فيه المعـنى كذلك قبل تمام الآية قولـه تعـالى:﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان/29] فالوقف على ﴿ جَآءَنِى ﴾ وقف تام لأنه حكاية

قول الظالم وهو أُبَيْ بن خلف، ثم قال تعالى:﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾. ومما لا يتمّ معناه إلا بجزء من الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ [الصافات/137] وهو آخر الآية، والتمام في الآية الأخرى في قوله:﴿ وَبِٱلَّيْلِ ﴾ [الصافات/138].

ومما يوضح دور الوقف في المعنى أن هناك من الوقوف ما يؤدي إلى تغيير حكم شرعي أو خلل في العقيدة، ومن أمثلة ما يؤدي إلى تغيير حكم شرعي الوقف على ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ من قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ ..... ﴾ [النساء/11] فالوقف على﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾يفيد أحد أمرين: إما اشتراك البنت في النصف مع أبوي الميت، وإما أخذ الأبوين النصف كالبنت وكلا الأمرين باطل، والوقف الصحيح يكون على ﴿ فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ ﴾ ثم يبتدئ بقوله ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾وهو استئناف لبيان ميراث الأصول بعد بيان ميراث الفروع. ومن أمثلة الوقف الذي يؤدي إلى خلل في العقيدة الوقف على لفظ الجلالة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ في قوله عز وجل ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:258]، فهذا الوقف يوهم اشتراك الله تعالى مع الكافر في البهت وهو الانقطاع والحيرة وهو تعالى منزه عن ذلك، والوقف الصحيح يكون على ﴿ كَفَرَ ۗ ﴾ أو يوصل بآخر الآية. ومن أمثلته أيضا الوقف على لفظ الجلالة ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل:60] فهو يفيد أن لله المثل السوء وهو سبحانه وتعالى له المثل الأعلى، ومن أمثلته أيضا الوقف على ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى... ﴾ [القصص:50] وفي غيرها من المواطن، فإن هذا الوقف يدل على أن الله تعالى لا يهدي أحدا، لأن حذف المعمول يؤذن بالعموم ويؤدي إلى معنى فاسد .

7 – خلاصة واستنتاج :

مما سبق يمكننا القول أن للوقف في قراءة القرآن الكريم دور كبير في التركيب والدلالة، فعلامات الوقف هي التي تحدد نهايات الجمل وبداياتها، فالنص القرآني متكوّن من أجزاء هي الجمل، ومجموع الجمل هو الذي يكوّن النص، وهذه الجمل تختلف دلالاتها، والوقوف على بداياتها ونهاياتها هو الذي يفصّل المعنى ويوضّحه فالوقف إذن يقوم بتقطيع الجمل وفصلها عن بعضها ليتحدد المعنى ويتضّح. والمصاحف القرآنية قد خلت من علامات الترقيم، وهذه العلامات قد استحدث فيما بعد، و لم تكن معروفة حين كتب القرآن، مثلها في ذلك علامات الوقف والابتداء، وعلامات الترقيم هي علامات بيانية، تؤدي معان معينة، كعلامة الاستفهام، والتعجب، ونقطة النهاية، وفواصل التوقف، وهذه العلامات نجد لها تعويضا في علامات الوقف، حيث تعمل على تعويض علامات الترقيم في إبراز حالات الكلام المتغيرة، من سؤال، وتعجب، وسؤال استنكاري، وغير ذلك، وهذه وسائل بيانية خلا منها المصحف الكريم، وعلامات الوقف تغني عنها إذا أحسن القارئ الوقوف عليها مراعيا هذه المعاني. وتعد علامات الوقف رموزا دلالية مختلفة، وعلى القارئ أن يتنبه لدلالاتها حتى يقف عليها عن علم بمعانيها،

والوقف يجمع بين مزايا كثيرة ففيه استراحة للقارئ، فالقارئ يقرأ القرآن الكريم مراعيا أحكام التلاوة من مد وغنة وإمالة، وغير ذلك وهذا أمر فيه جهد مبذول، وفي الوقف يجد القارئ استراحة تهيّئه لمواصلة التلاوة على النحو الجيد دون أن يصيبه إرهاق. والوقف وسيلة بيانية، فالقارئ حين يحافظ على الوقف يحافظ على المعنى الذي يوضح دلالات التراكيب، فيؤدي رسالة تبليغية إلى السامعين.

الهوامش

1 - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر،1399هـ1979م ج: 6، ص: 135.
2 - الجرجاني الشريف علي بن محمد، التعريفات، تح:عبد الرحمان عميرة (لبنان)،بيروت،عالم الكتب، ط:1، 1416هـ 1996م، ص: 309 .
3 - الفيروزبادي ، القاموس المحيط ،(لبنان)،بيروت،دار العلم للجميع، (د.ت)، ج 3 ، فصل الواو ، باب الفاء، ص: 205 .
4 – إبراهيم أنيس وآخرون ، المحجم الوسيط ،(مصر)،القاهرة،ط:2، 1392هـ1972م، ج 2 ، ص 1052.
5 - ابن الجزري محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر ، تصحيح:علي محمد الضباع،(د.ت)،(د. ذكر الدار ولا البلد)، ج1 و ص: 240 .
6 - أبو زكريا الأنصاري، المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء،(مصر)،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، وهو بهامش كتاب منار الهدى للاشموني ،ط:2، 1393هـ 1973م، ص : 5 .
7 - ابن الجزري ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
8 - المرجع نفسه ، ص 243
9 - محمد شاعري ، المختصر المفيد في قواعد التجويد ،(لبنان)، دار الفكر، (المغرب)، دار المعرفة، ط:1، 1423هـ 2002م، ص : 183.
10 – ينظر : ابن الجزري ، المرجع نفسه ، ص : 239.
11 - بن حنيفة العابدين، منهجية ابن أبي جمعة الهبطي في أوقاف القرآن الكريم ،(الجزائر)،العاصمة،باب الواد، دار الإمام مالك،ط:1، 1427هـ 2006م،، ص: 12/11 .
12 - ابن الجزري ، المرجع نفسه ، ص :225.
13 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
14 – المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
15 -- أحمد سليمان ياقوت، ظاهر الإعراب في النحو العربي،وتطبيقها في القرآن الكريم ، (الجزائر)،ديوان المطبوعات الجامعية ، إعادة الطبع : 1983، ص : 209 .
16 - ينظر: بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط:2، 1400هـ 1980م، ج1، ص: 354 .
17 - ابن الجزري ، المرجع نفسه، ص : 225 .
18 - ابن عاشور محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للكتاب(تونس)، المؤسسة الوطنية للكتاب(الجزائر)، تونس، 1984م، ج : 1، ص : 82 .
19 - المرجع نفسه، ص:83.
20 - ابن الجزري ، المرجع نفسه ، ص :225.
21 - محمود خليل الحصري،معالم الاهتداء إلى معرفة الوقوف والابتداء، (مصر) القاهرة،مكتبة السنّة،ط:1. 1423هـ 2002م، ص : 10.
22 – المرجع نفسه : ص: 16.

23 - الزركشي، المرجع نفسه، ص: 350 ، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (لبنان)، صيدا، بيروت، ط:1408هـ ،1988م، تح:أبوالفضل إبراهيم، ج:1، ص : 232 .
24 – السيوطي ، المرجع نفسه، ص :234.
25 - الحصري، المرجع نفسه، ص: 15.
26 – ينظر: المرجع نفسه، ص :25 ، و عبد الكريم صالح ، الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم،(مصر)،دار السلام،ط:1، 1427هـ 2006م، ص: 171.
27 - عبد الكريم صالح ، المرجع نفسه، ص : 208.
28 – المرجع نفسه ، ص : 235 .
29 - السيوطي ، المرجع نفسه، ص : 235 .
30 - عبد الكريم صالح ، المرجع نفسه ، ص : 222 .
31 – ينظر : الزركشي،المرجع نفسه، ص : 352 . وكذا السيوطي، المرجع نفسه، ص : 233 .
32 - –الحصري ، المرجع نفسه، ص : 45 .
33 – ينظر: الزركشي، المرجع نفسه ، ص :354.
34 - ينظر: المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
35 - الحصري، المرجع نفسه، ص:97.
36 - المرجع نفسه، ص:98/97، و ينظر : الزركشي ، المرجع نفسه ، ص : 356 .
37 - الحصري، المرجع نفسه، ص: 99. و الزركشي، المرجع نفسه ، ص :397.
38 - الحصري، المرجع نفسه، ص:100.
39 - الراغب الأصفهاني ، مفردات القرآن الكريم، دار الكتاب العربي، بيروت، (دت)، حرف الميم ، مادة «منى » ص : 496 .
40 - شهاب الدين الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (لبنان)، دار إحياء التراث العربي، ج:1، ص:301.
41 - الحصري، المرجع نفسه، ص:102.
42 - مكي بن أبي طالب القيسي، اختصار القول في الوقف على(كلا ، و بلى ، و نعم)، تح: الشيخ جمال الين محمد شرف، (مصر)، دار الصحابة بطنطا، 1426هـ / 2005م ، ص : 28.
43 - الحصري، المرجع نفسه، ص:105.
44 - ابن الجزري محمد بن محمد، التمهيد في علم التجويد، تح: علي حسن البوّاب، مكتبة المعارف، ط:1، الرياض، 1405هـ - 1985 م، ص 190 والأشموني أحمد بن عبد الكريم، منار الهدى في معرفة الوقف والابتداء، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده،ط:2، مصر، 1993هـ -1979م، ص 64.
45 - الحصري، المرجع نفسه، ص:125.
46 –المرجع نفسه، ص: 133/132.
47 - المرجع نفسه، ص:142.
48 – القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الشروق، (د م)، (د ت)،ج10 ، ص : 6875 .
49 - فاضل صالح السامرائي، الجملة العربية والمعنى،(لبنان)،بيروت،ط:1، 1421هـ 2000م، ص: 67.
50 - ينظر : محمد بن علي الشوكاني ، فتح القدير،(مصر)،مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1351هـ ، ج1، ص : 115.
51 - الاشموني ، منار الهدى ، ص : 39 .
52 - الفخر الرازي ،التفسير الكبير،(لبنان)، بيروت، دار إحياء التراث العربي،ط:3، ج2 ، ص : 309.
53 - ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، دار الأندلس، ط:1، بيروت، 1385هـ - 1966م، ج1، ص : 127.
54 - أحمد شرشال ، الوصل والوقف وأثرهما في بيان معاني التنزيل ،مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية،(الكويت)، السنة: 15 العدد : 40 .

الحضارات النيوليتية بالصحراء الجزائرية
(النيوليتي ذو التقاليد السودانية أنموذجا)

أ / جراية محمد رشدي
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

استطاع الإنسان خلال فترة العصر الحجري الحديث تدجين الزراعة و استئناس الحيوان ، و بذلك أحدث ثورة إنتاجية غيرت مجرى حياته الى الأبد، والصحراء الجزائرية كغيرها من مناطق العالم المختلفة أحدث الإنسان القاطن بها في تلك الحقبة نهضة حضارية مماثلة خرج بها من العصر الحجري القديم مدشنا الحقبة النيوليتية و ذلك عبر اكتشافه الزراعة واحترافه الرعي و تحسين صناعته و تطوير معتقداته الدينية و الفنية.

Résumé

L'Homme, au cours de la période néolithique, a pu domestiqué l'agriculture et l'animal, ce qui a fait une révolution de productivité qui a changé sa vie pour toujours. Dans le désert algérien, comme dans le reste du monde, l'homme a pu vivre en cette ère en inaugurant une révolution semblable, lui permettant de sortir du paléolithique au néolithique marquant une nouvelle étape à travers la découverte de l'agriculture et L'élevage, l'amélioration de l'industrie et le développement des croyances religieuses et de l'art.

أولا: تعريفه، أصوله، إمتداده

النيوليتي مصطلح عام يغطي ظواهر متنوعة عديدة، حيث أن التزامن في منطقة لايعني بالضرورة تبرير التخصص في ذاك المجال، بمعنى إمكانية وجود عصر حجري حديث دون وجود حجارة مصقولة، أو دون فخار، أو دون أسلحة حجرية.[1]

ينسب النيوليتي ذو التقاليد السودانية الى موقع شهيناب بالقرب من الخرطوم بالسودان، وهو حضارة زنجية صعدت من الجنوب الشرقي للصحراء الكبرى متجهة صوب شمالها الغربي، بذلك غمرت المرتفعات الجنوبية الجزائرية، (الهقار، الطاسيلي و تخومهما)،[2] وإن كان غبريال كامبس يفضل تغيير التسمية الى النيوليتي الصحراوي السوداني لزعمه أن النيوليتي تزامن في الصحراء وفي السودان ، ومن ثم إستحالة تأثر الصحراوى بالسوداني.[3]

غطى النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية، مساحة شاسعة ، يمكن تحديدها بأربعة مناطق ، أولهما الهقار، و ثانيهما منطقة أدرار إيفوراس مع التلمسي، ثم منطقة التنيري، ورابعا منطقة الصحراء الغربية،[4] و ما يهمنا هي المنطقة الأولى، أي المرتفعات الجنوبية الجزائرية التي تدخل ضمن دراستنا (أنظر الخريطة رقم 01).

وصل النيوليتي ذو التقاليد السودانية الى الصحراء الجزائرية، حيث تم تعمير أماكن عديدة غير محدودة بالمرتفعات أو في المناطق المنبسطة المجاورة لها،[5] و يرى هنري.ج.هوجو مستنتجا من خلال حفريته بالمنية أن الانسان الذي عاش بها كان زنجيا أصوله الحضارية ترجع الى شهيناب (السودان)، و تمكن من التقدم الى الشمال الغربي حتى حل بالصحراء الجزائرية وأقام بها عدة مراكز حضارية.[6]

أسفرت دراسة بقايا جماجم هذا الانسان بأنه لا ينتمي لمجموعتي الانسان العاقل المعروفتين بالمنطقة خلال العصر الحجري المتأخر، والتي إستمرت في الشمال (المنطقة التلية) حتى العصر الحجري الحديث، فهذا الانسان ينحدر من فصيلة زنجية سودانية ، تتميز بالفك المتقدم والأنف الأفطس العريض و بإستطالة السيقان والسواعد،[7] كما قدمت لنا حفرية أمكني معلومات هامة، إذ أكدت حضور النوع السوداني (الزنجي[8]) بالصحراء في نهاية الألف السابعة قبل الميلاد.[9]

ومن خلال مخلفات هذا النيوليتي التي تم إكتشافها يمكن وضع تسلسل كرونولوجي لها، فعن طريق الكربون المشع 14 يمكن تحديد بعض النقاط التي من خلالها نستطيع تحديد الأطوار،[10]خاصة إذا علمنا أن النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية يتموقع حاليا بين الألف السابعة و فجر الألف الأولى قبل الميلاد.[11]

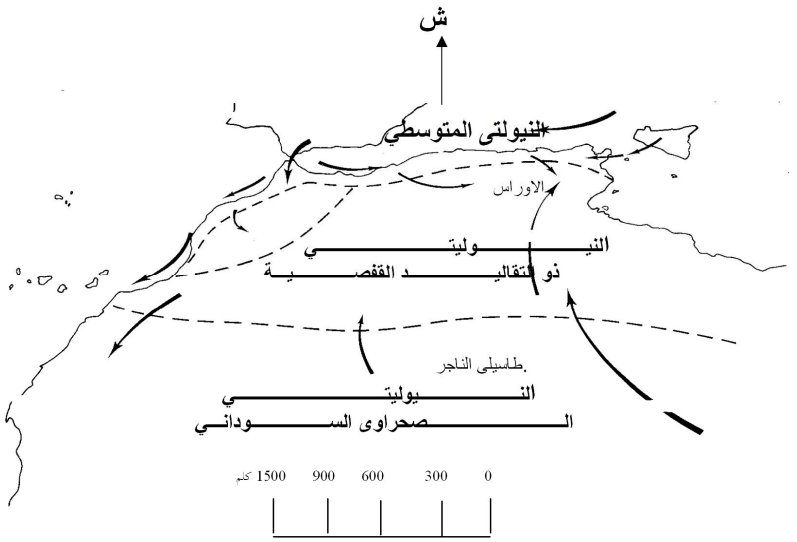

شكل رقم 01 : خريطة الأقسام الثلاثة الكبرى للنيوليتي بشمال إفريقيا والصحراء.

المرجع: G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p219 (تعريب الباحث)

تمتد المرحلة الأولى منه (الطور القديم) من نهاية الألف السابعة قبل الميلاد، الى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد، و تمثلها المواقع التالية (تمدوين 6150 ق.م ، أمكني 6100ق.م، وتين أمنصار 4550 ق.م)،[12] و حسب حفرية موقع أبولغ (1) فإن طبقته العليا أرخت بـ 4190 ق.م، و يسجل هذا التاريخ تقريبا نهاية الطور القديم للنيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية،[13] بينما ضبطت المرحلة الثانية (الطور الحديث) من خلال الطبقة العليا لحفرية أمكني (1) المؤرخة بـ 3550ق.م، و طبقات حفرية المنية 3450ق.م، باقينا (5) 3450 ق.م، و بأدرار تمترهين 2770 ق.م، وبقايا الكهف الأوسط بموقع تمنراست (2) المؤرخة بـ1380 ق.م (+أو- 250).[14]

و على هذا فالنيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية بالصحراء الجزائرية إمتد زمنيا ما بين 6100 ق.م الى 1000 ق.م على الأرجح ، بينما إنحسر مكانيا بصحرائنا الجنوبية – الشرقية كما تدل على ذلك المواقع الأثرية المكتشفة، و كان أصحابه زنوج ذوي بشرة سوداء قانية.

ثانيا : الزراعة

كثيرا ما يقال بأن الصحراء هي مهد الفلاحة الأول دون أن يستدل الكثيرون على إمكانيات إستعمال هذا المصطلح وما يترتب عليه من مغالطات،[15] مثل أن نقول أن سنابل القمح التي تم إكتشافها بموقع أمكني بالهقار تعود ولاشك للألف السابعة قبل الميلاد و هي بالتأكيد أقدم سنابل أكتشفت في هذه المنطقة ، فلا نجد لها صدى في حضارات الأودية الكبرى إلا أثناء الألف الخامسة في مصر أو في النيجر.[16]

من النتائج التي خرجت بها دراسة موقع أمكني بأن هناك بالسوية التي على عمق 1،40م والعائدة لفترة 6000 ق.م، وفرة غير عادية للسينات الزهر من صنف لونايا بكريس، مما حمل غ.كامبس على الإعتقاد بأن هذه الأرض قد استصلحت حينها وزرعت بهذه النبتة (شكل رقم 02).[17]

كما يرى هـ.ج.هوجو بظهور آثار زراعة الحبوب بموقع المنية في المستوى الأسفل والمتوسط ويتعلق الأمر بحبوب من نوع (سلتيس أوستراليس)، الموجودة بغزارة، و لقد لاحظ أ.ج.أركيل شبها لهذه الظاهرة، بالخرطوم بالسودان، كما عثر ر.موني وب.كويزيل على جرة مملؤة بمثل هذه الحبوب في قلب منطقة التنيري، مما يعطينا إنطباعا على تشابه ظروف النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية في كامل مناطق الصحراء تقريبا.[18]

وجد بأمكني إنخفاض في نسب بقايا الحبوب في كل المستويات، ولكن السوية (0،80م – 1،40م) الغنية بالبقايا، عثر بها على حبتي طلع طول كل واحدة منهما 64µ (ميكرومتر)19، قياس لايتعلق بأي حبوب صحراوية أخرى، وتم إستبعاد أصناف القمح

والسيرغو فهي تحديدا حبوب بنيسيتوم (pennisetum) المزروعة ، و حدد المجال الزمني للسوية بـ (6100 ق.م- 4850 ق.م)20، هذه التخمينات إكراما للزراعة تحولت الى شبه مؤكدة خاصة أمام هذه المعطيات الأثرية المطروحة أمامنا.[21]

شكل رقم 02 : مشهد للحصاد (جبارن).

المرجع : H.j.Hugot, le sahara avant le désert, p 173

حتى لو إفترضنا إنعدام الزراعة فهذا لايعني الجهل التام بالمزايا التي يتم بها إنتقاء نباتات وأشجار معينة دون غيرها ، مفضلين نموها في أحسن الظروف ، فهذا العمل يعتبر شكل أولي للزراعة يسبق ظهورها،[22]و هذا ما يلاحظ بأمكني إذ أن غياب فحم[23] أو رماد شجر الصنوبر و العرعار و الجوز والسرو، وهي أنواع غالبا ما تذكر في نتائج تحاليل لقاحات التربة الصحراوية[24] ربما تدخل ضمن هذا الإطار.

كما أن مراقبة النباتات والأشجار ومعرفة أوقات نضج الثمار بغية جنيها، تدخل ضمن الطور الأول المتمثل في بدايات الزراعة[25]، و من خلال حفرية المنية التي أرخت طبقاتها بـ3450ق.م فإن الزراعة بهذا المعنى كانت معروفة ، إذ أن أصحاب هذا المخيم كان يدخل في غذائهم بعض الفواكه بصفة رئيسية مثل ثمار النشم الحلوة المذاق ، التي تشكل غذاء أساسيا على الأقل في طعام الأطفال وكذلك هو حال ثمار العناب ، ويكملون غذائهم بنباتات برية التي تجنى وتجلب من خارج المخيم.[26]

ويرجح غ. كامبس أن النيوليتين سكان أمكني قد زرعوا نوعا من الذرة[27]، وإستصلحوا لأجلها السهول المغطاة بالرمل غير البعيدة من الموقع حسب ظنه، أما الفضاء الواقع بين الحذوة الغرانيتية والنهر ، فكان يجري به قطاف النباتات بنفضها وهزها دون قطعها ، وحتى ضربها بعصي الآكاسيا والزيتون بطريقة تسمح بسقوط الحبات والبذور في أواني أعدت سلفا لهذا الغرض.[28]

وتعتبر صناعة الفخار من أهم الأدلة الأثرية التي تثبت توصل الإنسان الى الإستقرار والزراعة و الإنتاج لأن الإنسان المستقر قد شعر بحاجة ماسة الى تخزين طعامه وشرابه ونجح في التأقلم مع بيئته.[29]

ومما يلفت الإنتباه كذلك هو تلك الكويرات المثقوبة، Les Boules de pierre والتي تكون قد إستعملت في سحق الحبوب، فقد عثر على نماذج لها في عدة مواقع جزائرية، لاسيما في موقع أمكني بالهقار بالصحراء الجزائرية.[30]

كما يستدل أيضا بهذا العدد الكبير من أدوات السحق والطحن المجهزة بقطع غرانيتية، والأعداد الكبيرة أيضا من مدقات الهاون التي جمعت من مناطق نفوذ النيوليتي ذو التقاليد السودانية بأنحاء الصحراء الجزائرية، بعض هذه الأدوات قد تكون أستخدمت لطحن بذور النباتات البرية، لكن كثرتها تحملنا على الإعتقاد بأنها أستخدمت لطحن حبوب كانت تزرع بعينها .[31]

و رغم ذلك فإن الإستدلال على الزراعة ، بأدوات وأشياء معروفة بأنها فلاحية ، يبقى دليلا واهنا إذا لم تبرر الأحافير والحبوب أو اللقاحات الفرضية المطبقة على هذه الأدوات.[32]

و هكذا يبقى ما نعرفه عن الزراعة بالنيوليتي ذو التقاليد السودانية بالصحراء الجزائرية قليل جدا فالطبيعة الحمضية للأرض نادرا ما تسمح بالحفاظ على بقايا من هذا النوع خاصة حبوب غبار الطلع و رغم كل ذلك لدينا قناعة أنها مورست ولو في نطاق ضيق أو أن وتيرة الجفاف المتسارعة لم تسمح لها بأن تتطور.[33]

ثالثا: الرعي

يبدو أن إستئناس الحيوان وإحتراف الرعي لم تكن راسخة في الطور القديم للنيوليتي ذو التقاليد السودانية ،لكن يمكننا الإستشهاد بأنه كان معاصرا للنيوليتي التينيري[34] الذي عرف الرعي و إستئناس الحيوان، مع قرب المسافة بينهما.[35]

كما أن عظام البقر غالبا ما يعثر عليها بالمحلات التي قطنوها خلال الطور القديم، مما يدل على بدايات الرعي،[36]فلقد سمحت دراسة البقايا العظمية بأمكني من التعرف على أكلات اللحم من نوع جنتا جنتا، و نوع من الخنازير يدعى فاكوشايروس انتوبيكوس، ونوع من البقريات ، هوميوسيروس أنتيكوس، وظباء من نوع الغزال دوركاس و ريدونكا، ونوع من الماعز يدعى أموتراكوس ليريفيا.[37]

لم يستبعد أ.ج .أركيل الذي نقب بشهيناب (السودان) في الخمسينات من القرن الماضي، بأن يكون الماعز قد أستئنس أول الأمر بمنطقة دوارف بالصحراء الجزائرية إذ تؤخذ بقايا عظام الحيوانات المتوفرة في المواقع ، على أنها لحيوانات مستأنسة،[38] إذ يبدو أن كلب الصيد السوداني (السلوقي السوداني) وهو مساعد ثمين للصيادين النيوليتين كان من سلالة قديمة جدا قد أستئنس هو كذلك بالصحراء الجزائرية الى جانب الثور و الكلب العادي اللذين أثبتا وجودهما بأوكر 2000 سنة قبل الميلاد كما تشهد على ذلك الرسوم الصخرية.[39]

إن العصر الحجري الحديث الذي شهد إتساع مجال إستئناس الحيوان الى الحد الذي أصبح فيه هذا الإستئناس يشكل نمطا معيشيا لأقوام بشرية كاملة، لم تسعفها طبيعة مناطقها الجغرافية لكي تصبح مجتمعات زراعية ، فكانت مجتمعات رعوية.(شكل رقم 03). [40]

فمن المؤكد أن النيوليتيين الذين سكنوا الطاسيلي على الأقل عاشو أساسا على رعي البقر[41] و لقد تزامنت، الحضارة الرعوية للبقارة[42] بالهقار و الطاسيلي، مع فترة النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية، في طوره الأعلى ، ومن أهم المواقع المنتمية لحضارة البقارة الرعوية، بالصحراء الجزائرية هي ، عين إتنين in-itinen الطبقة (2) 2910 ق.م، الطبقة(3) 2680 ق.م(+أو- 250) و جبارن jabbaren 2320ق.م (+أو-300)، و أوان طارتي Aouan-tartai 2520ق.م.[43]

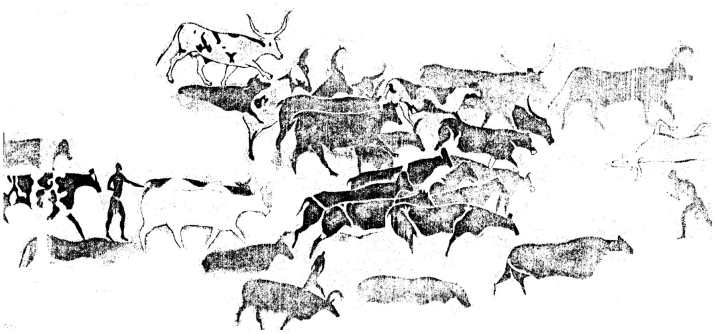

شكل رقم 03 : قطيع بقر (جبارن)

المرجع: C.Brahimi, Initiation a la préhistoire de l'Algérie, ph24

هذه المجتمعات الرعوية كانت تعيش وراء الحيوان وليس عليه، أي أن جهودها كانت منصبة على تكاثر القطيع بفعل الرعاية و الرعي، لأنه كان يشكل عنوان الثروة والجاه.[44]ولايعلم إذا ما عرفت المنية رعي الأبقار لكن المعروف أن الرسوم الصخرية الطاسيلية، التي تصور قطعان البقر المستأنسة تعود الى نفس الفترة التاريخية، التي تعود إليها نشاطات الحياة بالمنية،[45] كما يبدو أن الحضارة الرعوية المنتمية الى حضارات النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية، قد أنتهت ما بين 2500 و 1500 ق.م.[46]

و على هذا فالأدلة المقدمة واضحة على أن حرفة الرعي قد مورست خلال النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية بالصحراء الجزائرية، خاصة رعي الأبقار التي شكلت على الأقل نمطا معيشيا لأقوام الرعاة البقارة.

رابعـــا: الصناعـــــة

أ/ صنـــاعة الحجر و العظم :

تتميز الصناعة الحجرية بالصحراء الجزائرية المنتمية للنيوليتي ذو التقاليد السودانية بفقرهـــا وردائتها بسبب المادة الأولية المنتمية الى هذا المحيط المتمثل في المرتفعات البركانية لهذا فإن أغلب المواد المستعملة عبارة عن صخور بركانية، كالبازلت و والريوليت والفنوليـــت والكـــوارتز[47] فالمحاولات التي أجراها الصناع تدل على مكابدة ومعاناة حقيقية عند صـــنع الأدوات تلبيـــة لرغبات الجماعة، بسبب رداءة المواد الحجرية الخام، فغالبا ما يضطرون الى إستخدام مواد غـــير طيعة،لاتستجيب لضربات القادح، مثلما هو الحال في منطقة إيميدير و لكن رغم ذلـــك فقـــد نجحوا في صنع الأسلحة والأدوات الأخرى المختلفة.[48]

أما في جهات أخرى فاعتمدوا على قطع الصوان والمتاجرة به، ثم يجلبـــون مـــواد هـــم في حاجة إليها، مثل اليشب و العقيق الأحمر و الأمازونيت.[49]و تميـــزت الـــصناعة الحجريـــة المنتمية للنيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية عموما بالأدوات التالية:

- وجود المطاحن و المدقات بكثرة و أدوات كروية و المصاقل و القاطعات.
- وجود رؤوس السهام وأدوات حصوية.
- قلة المحكات و القزميات الهندسية.
- غزارة الأدوات ذات الظهر حيث تمثل حوالي ربع (4/1) الصناعة.[50]

لقد كان صقل الحجارة واسع الإنتشار وكانت أدوات الحرب متعددة، وأدوات العزق والهرس المصقولة تحتل مكانة كبيرة بين معداتهم ، وأدوات ثقب رائعة تجمع بين الإزميل والإبر.[51]

حيثما أقام النيوليتيون ذوي التقاليد السودانية نجد خطاطيف القنص المصنوعة من العظـــم، والتي كانوا يقنصون بها طرائدهم المائية ، فقد إهتموا بصناعة العظم ثم إهتدوا الى صقله، كمـــا برعوا في تقطيعه بالمنشار وفي فصل المشاشة عن الجثـــة، ثم وصـــلوا الى تـــشظيته الى قطـــع ثم الى شظايا رقيقة حسب الغرض.[52]

وربما كانت بعض الخطاطيف العظمية و إبر الصنانير العاجية التي يعثر عليها أحيانا خاصـــة بعين قزام، هي الأدوات الصناعية الأولى التي عرفتها الصحراء الجزائرية، ومن خلال المقارنـــة وجد شبه كبير بينها وبين مثيلتها التي إكتشفها الباحث أركيل في شهيناب بالسودان.[53]

ومن خلال دراسة طبقات حفرية أمكني تبين غناهـــا بالـــصناعات العظميـــة، المختلفـــة، لكن ما لفت الإنتباه أكثر هو نوع من الخناجر العظمية إستخدموا في صناعتها عظام الكتـــف والأجناب، مما يدل على معرفة الصناع الجيدة ببناء العظم، له هيئة مصقل مسطح، بينما حوافه حادة رقيقة، تستعمل في نقش وتزيين الفخار قبل حرقه،[54] بالإضـــافة الى صـــنانير ومخـــارز ومصاقل وقطاعات تستخدم في صنع السلال وشبكات الصيد و تحـــضير الجلـــود، و صـــنع

الفخار و دبابيس ذات رؤوس مذنبة أحيانا و هي غالبا من العاج و من الخطأ الإعتقاد بأنهم صنعوا سم الخياط (خرم الإبرة)، إذ أنها في الحقيقة ، أشواك بعض الأسماك التي تنتهي بثقب طبيعي،[55] كذلك يمكننا تشبيه، عمل وتصنيع العظم بنظيره : العاج، سواء من فرس النهر أو الفيلة ويبدو أن مادة العاج كان يحتفظ بها في الغالب لإعداد الأساور. [56]

ب/ الفخـــــار

ليس من السهل الإقتناع بفكرة وجود مركز ظهر به الفخار ومنه إنتشر الى كل أصقاع العالم إذ أن الإبتكارات عديدة ومتنوعة وكذلك هي المحاولات والنتائج، في الشرق الأدنى وبأمريكا ما قبل الكولمبي أو بالصحراء الجزائرية ، التي عاصر فخارها نظيره ببلاد الرافدين.[57]

لقد وجدت الالآف من الكسر الفخارية منتشرة في الصحراء ولكن نادرا ما توجد الأواني الكاملة أو تلك التي يمكن إعادة تشكيلها مثل الجرار الكبيرة أو الكؤوس الصغيرة وغيرها من الوثائق الفخارية.[58]

النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية غني على العموم بالبقايا الفخارية[59](شكل رقم04) التي تؤكد أصالتها السودانية غالبا، خاصة في الأشكال و الزخارف[60]، و يمكننا دراسته من الجوانب التالية، العجينة، الزخرفة، الشكل.[61]

نعلم أن الحرق المباشر للعجينة الطينية يسبب لها شقوق ، بسبب إنقباض وتقلص المادة الطينية ولذلك عمدوا الى مزج عجينة الطين بمواد أخرى ملينة، مرنة من طبيعة أخرى مغايرة، حسب المناطق مثل مسحوق قطع الأواني الطينية المهشمة أو مسحوق أصداف بيض النعام أو يضطرون أحيانا أخرى الى زيادة سمك جدار الآنية.[62] أو يضيفون مسحوق حطام النباتات المهروسة بما فيها سيقان النباتات أو قصب المكانس أو روث البقر، أو مسحوق الكوارتز أحيانا أخرى.

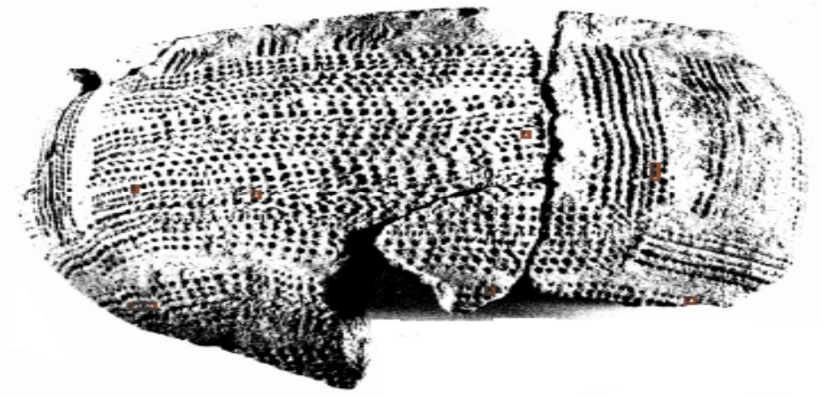

شكل رقم 04 : فخار أمكني.

المرجع :G.Camps, Les civilisation préhistoriques, ph 11.

و لقد كان هذا الفخار في البداية بشكل ثمرة الدباء (calebasse)[63] وبقي يتميز بهذا الشكل طيلة فترة إمتداده ،[64] فالأواني تتميز في الغالب بقعرها النصف دائري إذ تحصلوا عليها بقولبة الطين على جسم كروي[65] ثم بطريقة الحماميات[66] يتم تشكيل بقية الإناء.[67]

تشمل الزخرفة ثلاث مناطق من الآنية هي،تزيين الشفة،تزيين العنق، تزيين بطن الآنية[68] و من خلال النتائج المتوصل إليها أثبت أن الزخرفة الغالبة للفخار النيوليتي ذوالتقاليد السودانية، هي نتاج تنوع ما يعرف بزخرف (Dotted)[69] أي الخطوط المموجة النقطية (wavy line).[70]

ففي طوره القديم بالصحراء الجزائرية كان المشط يجر عاديا (بحيث تكون الخطوط مستقيمة) أو بجر المشط لولبيا، أو بجر جذور النبات مما ينجم عنه خطوط جميلة أخاذة، لاشك أن الخطوط المستقيمة كان السمة الغالبة، كما تطور عبر الزمن، عكس الآخيرتين اللتان بقيتا على حالهما[71] وأحيانا أخرى يكون التزيين بنقش حسكة السمك (Aretes de poisson)، ويتم هذا الرسم عادة بمساعدة بعض الأدوات مثل المشط أو المخرز أو ضلع ذو حافة ملساء.[72]

ج/ صناعة الحلي و الزينة

من خلال البقايا الأثرية لإنسان ما قبل التاريخ يبدو ظاهرا ولعه بالحلي و أدوات الزينة متمثلة في عقود و أساور تزيينها الرسوم و النقوش.[73]

و خلال العصر الحجري الحديث أقبل النيوليتيون أكثر على أدوات الزينة و الحلي رغم كونها من الكماليات فقد كانت دافعا أساسيا على تجارة المسافات البعيدة إذ حاولوا الحصول على المواد الثمينة لصناعة حليهم من عاج و عقيق و نحاس.[74]

كانوا خبراء في صناعة الحلي، خاصة الحجرية منها ، من العقيق الأحمر(وهو حجر صلب جدا) و الأمازونيت و الهيماتيت (حجر الدم) ، وحجر اليمان مما يدل على معرفتهم المتطورة في زمانها وخبرتهم في هذا المجال.[75]

فأدوات الزينة والحلي بموقع المنية كثيرة ومتنوعة مثل الشفاتير[76] من العظم، وحلقات نظم العقود من أصداف بيض النعام، واللؤلؤ من الأمازونيت، والخلاخل من الحجر والنياط من العظم ذات الثقبين.[77]

فمن خلال موقع أمكني تم العثور على بعض الحلي ممثلة في نياط مثقوبة أحدها عبارة عن عظمة سلامى لضأن و ناب لخنزير بري، وعظم لحيوان مجتر صغير شكله شبه منحرف واجهته الداخلية مصقولة بأكملها، والجوانب الثلاث الخارجية تحمل تحزيزات خفيفة منسقة، إضافة الى نظم العقود من قشور بيض النعام و من أصداف الميدية،[78]بالإضافة الى الأساور

والخلاخل التي عثر عليها بأمكني (دوائر حجرية نصف قطرها الداخلي من 3.5 الى 4.5 سم لتزيين الأيدي و الأرجل) و الخلاخل من العاج والحجارة.[79]

أما بموقع المنية فتم العثور على قطعة مجوهرات مصنوعة من الأمازونيت، والحقيقة قلما يعثر على مثلها بالصحراء الجزائرية ،لندرة وجود هذه المادة، بالإضافة الى 114 عقد من أصداف بيض النعام المقطعة الى قطع صغيرة منضدة، أما التزين بالألوان فيمكننا الإستشهاد بما عثر عليه بحفرية باقينا (5) ويتعلق الأمر بمغرة حمراء وأخرى شهباء مائلة الى الحمرة محفوظة بلوحة صغيرة مستديرة أو بجوف قضيب خشبي و تصنع عادة من أوكسيد المنغنيز مضافا إليه مسحوق طباشيري ، و هي تستخدم كصبغة تجميلية يخضب بها الوجه.[80]

كان ولع النيوليتون ذوي التقاليد السودانية واضحا بتزيين أجسامهم سواء بالحلي و أدوات الزينة على إختلاف أنواعها، من أساور وخلاخل وعقود و شفاتير أو نياط ، وقد تعدى ذلك الى تلوين أجسامهم و تخضيب وجوههم بالمغرة ذات الألوان المختلفة.

خامسا: الحياة الإجتماعية

لقد إنعكست بدورها الثورة الإنتاجية الشاملة التي عرفتها الشعوب النيوليتية عامة الى إحداث تغيرات على مستوى الحياة الإجتماعية، التي صاحبتها تغيرات أخرى تمخض عنها العيش في منازل أو أكواخ أو قرى مستقرة ، مما أدى أحيانا الى نشأة نظام أدق و سلطة أكبر.[81]

ففي مخيم أمكني مثلا كانت الأكواخ تنصب بين الكتل الحجرية ، النسوة تدق الذرة وتطحن بذور النباتات البرية حيث يطبخن الطعام في قدور نموذجية مصنوعة من الطين، الذي تم جمعه من حافة النهر بعضهن يحضرن جلود الظباء و الأبقار، يصنعن السلال الشبيهة بالشباك و التي تستخدم في القنص، بعد أن تعلق بها الخطاطيف العظمية، ويبقى هناك متسع من الوقت بعد ذلك للتسكع و الراحة و التسامر (شكل رقم 05).[82]

أما في المنية يمكن إعادة تشكيل الموقع الذي كان عامرا و آهلا بالسكان على النحو التالي:

كانت هناك بحيرة صغيرة محاطة بربى صخرية بها مخابيء وكهوف وكانت نشاطات الجماعة تدور حول الرعي،كانوا يستغلون سلسلة من الكهوف و المخابيء العديدة وفي أرضية الكهف المتكونة من الدوبال (تربة عضوية) ، يغطونها بالرماد لتكون مريحة وصحية أكثر،فقد كان كل مخبأ مأهول عبارة عن مقر وقريبا من هذه الكهوف كانت المشاهد العائلية للحياة المستقرة، حيث تمارس الصناعة الحجرية و الفخارية و غيرها.[83]

وهكذا نلاحظ أن أماكن السكن كانت دوما تقام على الأطلال والأماكن المرتفعة بجوار

النتوءات البارزة من الكتل الصخرية ، أو تشرف على أحد الأودية، أو مخطط مائي قديم، مثلما هو الحال في موقع أمكني أو موقع المنية ، و إختاروا مثل هذه الأماكن لإستقرارهم، حتى يسهل عليهم الدفاع عنها ، لصعوبة إقتحامها و دخولها من قبل الغرباء.[84]

شكل رقم 05 : حوار بين سيدتين.

المرجع : H.j.Hugot, le sahara avant le désert, p 136.

حسب حفريات المواقع المكتشفة فإن المساكن كانت عبارة عن كهوف ومخابىء صخرية متناثرة زودهم بها الطبيعة فإتخذوها كمنازل لفترات زمنية طويلة جدا ، إذ يثبت ذلك المزابل المتراكمة قبالتها لأكثر من مترين سمكا أحيانا،مما يدل على توفر شروط الحياة الجماعية وعلى ما تمتعوا به من خيرات.[85]

كما ينبغي الإقرار بأن غالبية أدوات الزينة الثمينة(خاصة المجوهرات المصنوعة من العقيق الأحمر، و النياط القلبية الشكل المصنوعة من نفس المادة) تخص رجال لهم مكانة مرموقة، هم في الحقيقة رؤساء التنظيم الإجتماعي القائم آنذاك و تدفن معهم بعد مماتهم، وشاعت هذه الظاهرة في تقاليد الرعاة البقارة ، فلهذا كانت غالبية قبورهم منهوبة المحتوى.[86]

و تصور بعض الرسوم الصخرية مجتمع الرعاة البقارة، إذ كانت الجماعة أو القبيلة تعمل على إزدياد قطعانها (مصدر الثروة) مما أدى الى المنافسة و الإقتتال فيما بينهم الأمر الذي إدى الى خلق تنظيمات شبه عسكرية مغلقة للحفاظ على رأس المال الذي مثلته هذه الثروة الحيوانية، ويبدو أن هذه المجتمعات هي التي تطورت في جزء منها الى مجتمعات التجار المحاربين لإستخدامهم رؤوس الماشية في تنشيط عملية المقايضة و المبادلات التجارية.[87]

و يبقى ما نعرفه عن تنظيمهم الإجتماعي قليل لا يتعدى بعض الرسوم القليلة التي صورت بعض مشاهد الحياة اليومية، و بهذا تبقى الصورة الإجتماعية لأناس النيوليتي ذو التقاليد السودانية بالصحراء الجزائرية الى حد ما غير جلية بوضوح.

سادسا : المعبودات و الطقوس الجنائزية

من خلال الحفريات التي كشفت عن بقايا عظمية إنسانية بالصحراء يمكننا الى حد ما إستقراء وضعيات الدفن التي تمت على الأقل عند الشعوب النيوليتية الصحراوية، والتي إستمرت حتى فجر و بداية التاريخ.[88]

فالأضرحة والقبور نقاط مهمة للغاية لأنها تشهد دون غموض أو إبهام عن الإيمان بعالم ما وراء الطبيعة، خاصة أن الكثير من الحلى كالريش و القلائد والقيقات اللماعة والتي يزخر بها الصدر تصحب أصحابها بعد الموت الى أضرحتهم، بعدما إستعملوها في حياتهم.[89]

ولقد بينت لنا حفرية أمكني بعض الممارسات الجنائزية، و يتعلق الأمر ببقايا عظمية إنسانية لطفلين س1 ، س2 ، و إمرأة بالغة س3 (شكل رقم 06)، و من خلال الملاحظات والإثباتات التي تم جمعها تمكن غ.كامبس من إعادة بناء الشكل الذي وضعت عليه الجثث أول مرة، إذ وضعت بطريقة تكون فيها اليد اليمنى أو اليسرى موضوعة على الوجه هذا الأخير مقابل للأرض بينما الساعد الأيسر تحت الظهر، وتم ضم النصف العلوي الى السفلي و أرجع الفخذ الأيسر الى الجمجمة، أما الوضعية فكانت من الشرق الى الغرب.[90]

الملاحظ أن عظمة الحوض اليسرى و القسم الأدنى منها المتعلق بالفخذ أنتزعت و وضعت خارج المنطقة المغطاة بالغطاء الغرانيتي، كما وضعت الى جانب الجثث، إسطوانات من قشور بيض النعام منظمة في عقد وموضوعة عند القفا ، و أخرى مثلها عند الركبة، و نوط من العاج طوله حوالي 12سم بأعلى الصدر، ومشبكين من الحلية، أيضا الى جوار الجثة، يتصل بالفك الأسفل لـ (س1) الى إناء فخاري كعطية ترمز الى مؤونة الغذاء ،بينما في (س2) الإناء متصل بالجمجمة.[91]

كذلك في حفرية تمنراست (2) كانت الجثث في الغالب تمدد على جانبها الأيمن، الأطراف العليا تطوى لتوضع تحت الوجه أو تحت الرأس أحيانا، بينما يوجه الوجه الى الأرض واليد تطوى في هذه الحالة الى القفا.[92]

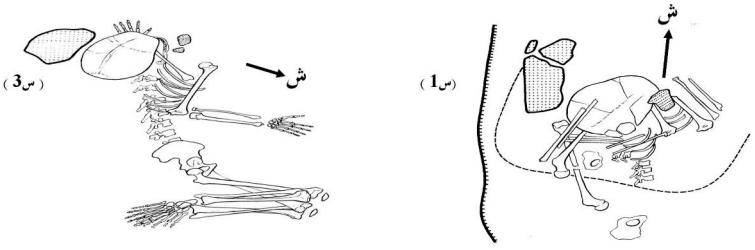

شكل رقم 06 : الوضعيات التي وجد عليها غ كامبس الهياكل العظمية لكل من (س1)و(س3) بموقع أمكني.

المرجع : G.Camps, Amekni, p157, 160

كما أن النياط التي تدلى من رقاب الغنم و الماعز لها علاقة بالخصوبة و عبادة الحيوان عندهم[93] إذ جسدت بعض الأحجار المصقولة ذلك مثل بقر سيلي وكبش تاجنتورت بالهقار و غزال إماكسن بالطاسيلي[94].

كما ساهمت الرسوم الصخرية في إظهار بعض الأشكال التي أعتبرت ضمن المعبودات، كالإله الكبير (صفار) و المريخ (جبارن) و السيدة البيضاء (غايا) ، و الإلهة القرناء (أوانغيت)،كما يمكن إعتبار صور النساء الحوامل و الرجال ذوي الأعضاء التناسيلية المضخمة رموزا لطقوس عبادة الخصوبة.[95]

فالإله الكبيرجسمت صورته على إحدى جداريات كهوف صفار، حيث بلغ طوله الثلاثة أمتار، له جيب كبير بين أفخاذه على شكل تنورة يظهر منها عضوه الذكري ذو مقياس ضخم جدا ، وبرأسه قرنان و إلى جانبه أنثى ظبي حمراء حامل،و إمرأة يظهر كذلك من بطنها المنتفخة بأنها الأخرى حامل، بينما على جانبه الآخر تقف الظباء البيضاء في وضع إستعراضي من اليسار الى اليمين.[96]

إن هذه الجدارية تلخص و بوضوح فكرة الخصوبة و العطاء و سرها الخفي في نفوسهم المنبعثة من روح الإله الكبير في صفار.[97]

كما عبدوا بعض القوى الخفية (Chamanisme) التي تجسد أحداثها أيضا إحدى الجداريات بصفار،حيث يمثل المشهد أشخاص لهم آذان ضخمة يصلون و يطوفون في وضع دائري حول تمثال معين ،شدت الى أذرعتهم سرر(جمع سرة)، بينما الأيدي مرفوعة في وضع توسل، الأطراف السفلية مثنية ، الأرداف ناتئة مغطاة بتنورة قصيرة ، و يتعلق الأمر برقصة إستحضار الأرواح مثلما تمارس لحد الآن عند شعب السان البدائي بصحراء كلاهاري ، حيث يمارس الطواف والرقص الى أن يقع الإندماج الكلي بين بعض الراقصين وبعض القوى الغيبية، فيسقطون أرضا وهم يرتعشون و يهذون الى درجة فقدان الوعي تماما.[98]

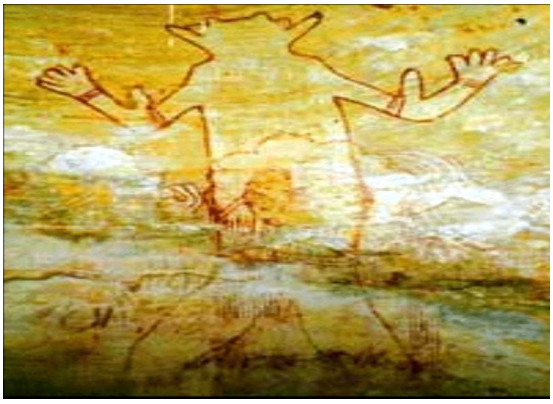

شكل رقم 07 : جدارية الإله الكبير (صفار)

المرجع : Sahara néolithique, période de tête rondes, Les grands dieux. [En ligne], http://ennedi.free.fr/, (30/12/2007).

بعد أن يستيقظ هؤلاء الرجال، يرون قصصا غريبة و طريفة وحوارات وقعت لهم عند خروجهم من حالة الوعي و إتصالهم بهذا العالم الغيبي عالم الأرواح حسب إعتقادهم.[99]

وتلقي إحدى جداريات تين تزاريفت الضوء على أحد جوانب ممارسة طقوس عبادة الأرواح حيث يظهر الدف (الطبل) الرقص حتى الإغماء و لقد أراد الرسام على مايبدو إظهار العالم الخفي الذي يراه المتعبدون الراقصون بعد الإغماء عليهم وسفرهم الى عالم الأرواح بعيدا عن الوعي (التجرد من الذات) ، ويظهر بالرسم أن هناك رجال مسلحون بالأقواس والسهام يرتدون أقنعة يحمون المغمى عليهم.[100]

شهدت بعض الآثار المادية و على رأسها الرسوم الصخرية أن النيوليتين ذو التقاليد السودانية قد مارسوا شعائر دينية مختلفة ومتنوعة يأتي على رأسها عبادة الشمس والإله الكبير بصفار، عبادة القوى الخفية عن طريق إستحضار أرواح الأسلاف، بالإضافة الى ممارسة طقوس دفن مميزة و ممنهجة تنم عن الإيمان بحياة أخرى بعد الممات.

سابعا: الفن.

تتركز الرسوم الصخرية بالصحراء الجزائرية بالهقار والطاسيلي حتى أنه لكثرتها إعتبرها البعض متحفا كبيرا في الهواء الطلق ، إذ تجاوزت رسومها الخمسة عشر ألف رسم.[101]

وكان للألماني هـ. بارت (H.Barth)[102] السبق في إكتشاف رسوم منطقة الطاسيلي سنة 1850، لتتوالى الإكتشافات بعد ذلك و المعاينة بطرق غير منظمة حتى سنة 1956، إذ تم تعيين الباحث الفرنسي هنري.لوت (H.Lhote) على رأس بعثة علمية للقيام بدراسة الرسوم الصخرية بالصحراء الوسطى الجزائرية.[103]

ومن المناطق التي حضيت بدراسة وافية على يده كانت منطقة وادي جرات و الطاسيلي ناجر، بالإضافة الى بعض المواقع الأخرى بمرتفعات الهقار .[104]

ففي الطاسيلي ناجر توجد محطات الرسوم الكبرى في أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جانت و نذكر منها صفار ، جبارن ، تامريت، تان زوميتان، بينما يعد مرتفع تفيديست بالهقار من أغنى الأماكن بالرسوم و النقوش بالإضافة الى مواقع أخرى بالقرب من مدينة تمنراست (الأشكال11 ،12).[105]

وحسب ج.ماتر (J.Maitre) فإن هذه الرسوم بالمرتفعات الجنوبية الشرقية، ترجع في قسمها الأول حسب الترتيب الكرونولوجي الى الفترة النيوليتية ذات التقاليد السودانية، وقسم منها الى الفترة التاريخية، حيث أن ظهورها الأول كان مع موجة النازحين الصيادين السودانيين الى المنطقة (الذين سكنوا جنوب غرب الهقار) حوالي ما بين الألف السابعة والخامسة قبل الميلاد.[106]

شكل رقم 08 : مشهد من الحياة اليومية (مرحلة الرعاة).

المرجع : A,ferrah, L'algerie civilisations anciennes du sahara, p200.

لا توجد رسوم صخرية بالصحراء سابقة للفترة النيوليتية على الأطلاق ، إذ يبدو أن أول هذه الرسوم ترجع بالتقريب الى الفترة ما بين 5000 و 4000 قبل الميلاد، إذ تم وضع أطرها الزمانية، عن طريق ربطها بتواريخ الصناعات الحجرية المتوضعة بقربها.[107]

أما المراحل التي تم بها فن الرسم الصخري فيمكن تقسيمها كالتالي[108]:

1 – مرحلة الحيرم، و تسمى بفترة عصر الصيادين، تميزت بنقوش جميلة و بأسلوبها الواقعي، أما أغلب الحيوانات التي مثلت فكانت من الفصيلة الأثيوبية ، على رأسها الحيرم والفيل، وحيد القرن، الزرافة، وحتى التمساح، أشكالها متناهية في الكبر والصغر، فزرافة من وادي جرات تزيد قامتها عن ستة أمتار ، أما وحيد القرن من تين أفلفين لايتجاوز سبعين سنتمترا.[109]

2 ــ مرحلة البقارة (الرعاة) ، ربما أدى الإكثار من رسم الثيران منفردة أو في قطعان الى إطلاق هذه التسمية عليها ، كذلك رسمت حيوانات أخرى هي في مجملها حيوانات إستوائية مثل وحيد القرن فرس النهر الزرافة الضباء الحمار الوحشي النعامة والأسماك، الى جانب هذا رسمت النساء رفقة أطفالهن وقدور الطبخ أمامهن ، ومشاهد الحوار العائلي بينهن وبين أزواجهن، هؤلاء الرعاة مسلحين في بعض الأحيان بالفؤوس ، يبدو أن أصولهم من أعالي النيل بناء على رسومات ذات تأثيرات مصرية[110].

ولقد شغلت المرحلة الأولى (الحيرم) الفترة الممتدة ما بين 5000 الى 4000 قبل الميلاد تقريبا ، بينما الثانية شغلت جوهر الفترة النيوليتية حوالي 4000 الى 1000 قبل الميلاد على أكثر تقدير .[111]

ما يمكن الجزم به أن الرسوم الصخرية كانت لهدف ما ، وأنها لم ترسم من باب العبث، إنها عمل بديع ترجمت إرادة لخلق رسوم دائمة تسجل أحداث تنطق عبر الزمن ،[112] لاشك أن هناك دوافع حفزت النيوليتين الصحراويين على رسم هذه الصور و النقوش الجميلة،

وللإجابة عن هذا السؤال لابد من الإقرار أنها ستكون من باب التخمين و الاستنتاج لا أكثر:

1 ــ كانت بقصد التمتع والتلذذ ، أي بمعنى الفن لأجل الفن .

2 ــ دوافع سحرية أو دينية.

3 ــ تخليد مشاهير الصيادين ، حيث يتلقون منهم مكافآت إضافية من اللحم .[113]

4 ــ الحاجة الى التواصل مع الآخرين أفرادا كانوا أو جماعات.[114]

ما يمكن إستنتاجه من هذه النقوش و إستخلاصه من هذه الرسوم يمكن إجماله فيما يلي:

– تبين مدى التقدم الحضاري الذي بلغه النيوليتين ، نظرا لتناسق الرسومات و قوتها التعبيرية و روحها الجمالية.

– كما تعتبر الرسومات دليلا ماديا واضحا على ما كانت تعج به الصحراء الجزائرية من حياة و سكان وحيوانات مختلفة الأنواع ، و تضيف لنا دليلا ماديا عن مراحل تقلب المناخ من الممطر الى شبه الجاف ،ثم الى الصحراوى القاحل.

– تصور جوانب من النشاطات الحياتية للنيوليتين الإجتماعية، و الإقتصادية ، و الثقافية.

الخاتمة

لقد مرت الصحراء الجزائرية مثل غيرها من مناطق العالم العديدة بفترة نيوليتية خلال مراحل تطورها الحضاري في عصور ما قبل التاريخ، إذ تفاعل الإنسان النيوليتي الصحراوي مع البيئة الصحراوية الشاسعة المحيطة به من خلال عدة نماذج يعتبر النيوليتي ذو التقاليد السودانية (الصحراوي– السوداني) أبرزها، و من خلال هذا البحث الوجيز تمكنت من الوصول الى الإستنتاجات التالية :

– تبقى الزراعة التابعة لهذا النيوليتي بالصحراء الجزائرية فرضية أكثر منها إثباتا تاريخيا علميا لغياب أدلة مادية واضحة على رأسها غياب حبوب غبار الطلع ، و بذور الحبوب المتكربنة، بسبب الطبيعة الحمضية للتربة الصحراوية التي عملت على إندثارها، أما إستئناس الحيوان فشواهده واضحة الى الحد الذي أصبح فيه نمطا معيشيا لأقوام بشرية كاملة، تجلى ذلك بوضوح أكثر في الحضارة الرعوية للبقارة.

– الصناعة الحجرية المنتمية للنيوليتي ذو التقاليد السودانية فقيرة بسبب رداءة المادة الأولية أما الصناعة العظمية و الفخارية و حتى أدوات الزينة فتميزت بغناها وتنوعها، إذ شملت تقريبا كافة الأدوات التي تتطلبها شؤون حياة الإنسان النيوليتي ذو التقاليد السودانية بالصحراء الجزائرية، الذي مد يده أيضا للعاج و الأحجار الكريمة و صنع الفخار و تفنن في إستخدامه.

دلت طرق الدفن وبعض الرسوم الصخرية على وجود معتقدات دينية (قرص الشمس، عبادة حيوانات نفعية) وربما إيمان بالعالم الآخر (وجود أواني بها الطعام على فم الميت)، أما الفن فهو ثابت بين عوادي الدهر تجسده الرسوم الصخرية فهو فن خليق بالإحترام وجدير بالتعظيم.

تبدو العلاقات الحضارية بين بلاد المغرب والشرق قائمة منذ عصور ما قبل التاريخ، وخير ما مثل ذلك التواصل إبان فترة العصر الحجري الحديث بالصحراء عموما النيوليتي الصحراوي ذو التقاليد السودانية، في إشارة للعلاقات الحضارية بين ما يعرف اليوم بالسودان و صحراء الجزائر، بينما الكثير من مشاهد الرسوم الصخرية خاصة الدينية منها جسمت التأثير و التأثر المصري.

الهوامش:

1 _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert, Editions des hespèrides, Paris , France , 1974 , p 87.

2 _ J.P.Maitre, Contribution a la préhistoire de l'ahaggare, (1)Téfedest centrale ,Mém, du c.r.a.p.e.17,France, 1971, p55.

3 _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques de l'Afrique du nord et du sahara ,éd doin , paris,1974,pp223, 224.

4 _ محمد سحنوني ، ما قبل التاريخ ، الجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ، 1999، ص 132.

5

6 _ J.P.Maitre, Op cit , p55.

_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques dans l'ahggar nord-occidental,Mém du c.r.a.p.e.1, paris,1963.p 185.

7 _ C.Brahimi, Initiation a la préhistoire de l'algerie , s.n.e.d. alger ,1978 , p 74.

8 _ ولقد تم العثور بحفرية تمنراست التي أجراها (J.P. Maitre)، سنة 1965 عن قبر مزدوج تحت كهف غرانيتي يضم جثتين ، صنفتهما M.C.Chamila بأنهما من النوع السوداني (الزنجي) ، أنظر: _ M.C.Chamla.Les Populations anciennes du sahara et des régions limitrophes, (étude des restes osseux humains néolithiques et protohistoriques), Mém du c.r.a.p.e.9,paris,1968. P 15.

9

10 _ G.Camps, Op cit , p 232.

11 _ J.P.Maitre,Op cit, p56.

12 _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, p 143.

13 _ G.Camps, Op cit, p 238.

_ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, Mém du c.r.a.p.e. 10, paris, 1969, p 207.

14 _ J.P.Maitre, Op cit, pp 56, 57.

15 _ هـ .ج.هوغو ، الصحراء فيما قبل التاريخ ، المجلدالأول ، (تاريخ إفريقيا العام) ، جين أفريك ، اليونسكو ،1980 ،ص 591.

16 _ محمد الطاهر العدواني ، الجزائر في التاريخ ، ج1، (الجزائر منذ نشأة التاريخ)، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984،ص 196.

17 _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 226.
18 _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 157.
19 _ 1 µ = أي واحد ميكرومتر ويساوي حاصل قسمة 1 متر على مليون.
20
21_ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, p188.
22 _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 226.
_ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 175.
23 _ إذ أن حضور الفحم بالسوية له علاقة بالإنسان لأنه هو الذي أنتجه.
24 _ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, p 184.
25 _ J.P.Maitre, Op cit, p 70.
26 _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 157.
27 _ يبقى رأي كامبس هذا حول زراعة سكان أمكني للذرة من باب التخمين ، لأنه لم يقدم أدلة مادية على ذلك.
28 _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 234.
29 _ رشيد الناضوري ، المغرب الكبير ، ج1 ، ص 125.
30 _ محمد الصغير غانم ، الملامح الباكرة لنشأة الزراعة و تطورها في بلاد المغرب القديم ، مجلة العلوم الإنسانية ، قسنطينة ، العدد 17، جوان 2002 ، ص ص 165- 166.
31 _ G.Camps, Op cit, p 226.
32 _ هـــ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 610.
33 _ H.j.Hugot , le sahara avant le désert.p 171.
34 _ التينيري : الحضارة النيوليتية بشمال النيجر.
35
36 _ G.Camps, Op cit, p 238.
37 _ J.P.Maitre,Op cit, p 70.
_ G.Camps, ,Op cit, p 225.
38 _ محمد الصغير غانم ،مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم ، عين مليلة ، دار الهدى، 2003،ص ص 180،179.
39
40 _ هـــ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 612.
_ محمد الطاهر العدواني ، الحروب و الأسلحة في عصر ما قبل التاريخ و فجر التاريخ الى 1000ق.م، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة والسياحة،1985. ص 24.
41 _ H.j.Hugot , Op cit, p 177.
42 _ وأصل هذه الحضارة من الطاسيلي ناجر بالصحراء الجزائرية ، وهناك إحتمال بأنها وردت من الشرق ، و لقد أطلق عليها تسمية البقارة (le bovédien) الباحث هنري لوت ، الذي قام بإجراء ربط بين رسوم الأبقار بالكهوف الصخرية ن وبقايا العظام المكتشفة ، ببعض المواقع العائدة لهذه الفترة.
43 _ J.P.Maitre, Op cit , p 57.
44 _ محمد الطاهر العدواني ، المرجع السابق، ص 24.
45
46 _ G.Camps, , Op cit, p 236.
47 _ J.P.Maitre, Op cit, p 59.
48 _ G.Camps, , Op cit, p 231.
49 _ H.j.Hugot , Op cit , p 146.
_ Ibid , p 147.
50 _ محمد سحنوني ، المرجع السابق ، ص 133.
51 _ هـــ .ج.هوغو ، المرجع السابق ، ص 605.
52
53_ H.j.Hugot , Op cit, pp 155,156.
54_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 120.
55_ G.Camps, , Op cit , p 232.
56_ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, p p 27-30.
_ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert, pp 157.

[57] _ G.Camps , Le néolithique méditerranéen (techniques et genres de vie), édisud. france , 1998, pp 25, 26.

[58] _ ليونال بالو ، الجزائر في ماقبل التاريخ ، ترجمة ، محمد الصغير غانم ، عين مليلة، دار الهدى ، 2005، ص144.

[59] _ محمد سحنوني ، المرجع السابق ، ص133.

[60] _ ك. إبراهيمي ، تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر، ترجمة ، محمد البشير شنيتي و رشيد بورية ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982 ،ص 119.

[61] [62] _ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 135.
_ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 162.

[63] _ ثمرة الدباء (calebasse) : و هي (القرع) تسمى أيضا كرنيب و هي نبات معترش من الفصيلة القرعية وثمره يصلح للتزيين ويستعمل كالقناني والأواني.

[64] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 225.

[65] _ قد تكون ثمرة الدباء أو بيض النعام ، أو قالب مصنوع من نسيج الحلفاء ،حيث يملط بعجينة الطين ، وبهذا تأخذ الآنية القالب الذي صنعت به بينما يرى آخرون أن القالب يؤخذ نصفي أي أن القالب على شكل نصف دائرة ، مما يمكن من خروج القالب بعد جفاف عجينة الطين، لذلك أنظر:
_ H.j.Hugot , Op cit,p 163.

[66] _ طريقة الحماميات : هي إحدى طرق صنع الفخارحيث يشكل الصانع إسطوانة رقيقة من الطين ، ثم يملطها ويعطي لها شكلا حلزونيا كي تكون جسم الإناء.

[67] [68] _ C.Brahimi,Op cit, p 73.
_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques, p 137.

[69] _ زخرفة Dotted : هي على شكل نقاط متتابعة متتالية ، و يرجع الفضل في تسميتها بهذا الإسم الى الباحث الكبير أركيل، خلال أبحاثه الأثرية بالخرطوم.

[70] _ H.C.Fabrer,Matière et art mobilier dans la préhistoire nord - africaine et saharienne, Mém du c.r.a.p.e.5 465. Matière et art mobilier ,Paris,1966,p 465.

[71] [72] _ J.P.Maitre, Op cit, p 59.
_ H.j.Hugot , Op cit,p 138.

[73] _ _ كميل أرامبور ، نشأة البشرية ، ترجمة خليل الجر ، سلسلة ماذا أعرف ، المنشورات العربية ، ص 28.

[74] _ ج.هاوكس و ل. وولى ، أضواء على العصر الحجري الحديث ،ترجمة ، يسري عبد القادر الجوهري ، بيروت ،مكتبة الجامعة العربية ،1967،ص ص 14، 15.

[75] _ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert.p 155.

[76] _ شفتورة : لولب أو إسطوانة مصنوعة من الخشب أو العاج إعتادت بعض الشعوب البدائية أن تعلقها في شفاهها العليا أو السفلى.

[77] _ G.Camps, Op cit, p 237.

[78] _ الميدية : (Moules) وتسمى أيضا بلح البحر وهي نوع من الأصداف ، تقطع أصدافها الى قطع صغيرة وتنظم ففي عقود كنوع من الحلي وجدت نماذج لها في أمكني وفي المنية، أنظر : سهيل أدريس ، المنهل قاموس فرنسي – عربي ،بيروت ،دار الآداب ، 2003 ، ص 803.

[79] [80] _ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, p p 151-153.
_ H.j.Hugot , Recherches préhistoriques,p120.

[81] _ ج.هاوكس و ل. وولى ، المرجع السابق ، ص 91.

[82] [83] _ G.Camps, Les civilisation préhistoriques, p 234.
_ H.j.Hugot ,le sahara avant le désert. P 169.

[84] [85] _ J.P.Maitre, Op cit, p 55.
_ H.j.Hugot , Op cit, P 168.

[86] _ Ibid , pp 160 – 161.

87 _ محمد الطاهر العدواني ، المرجع السابق، ص ص 25 ، 28.
88 _ M.C.Chamla.Les Populations anciennes du sahara et des régions limitrophes, (étude des restes osseux humains néolithiques et protohistoriques), Mém du c.r.a.p.e.9,paris,1968. P 15.
89 _ H.j.Hugot , Op cit, p158.
90 _ G.Camps, Amekni néolithique ancienne de hoggar, p157 - 159.
91 _ Ibid, p 160 -161.
92 _ M.C.Chamla. Op cit, p15.
93 _ H.j.Hugot , Op cit ,p161.
94 _ ليونال بالو ، المرجع السابق ،1ص ص 161 ، 163.
95 _ C.Brahimi, . Op cit, p80.
96 _ Sahara néolithique, période de tête rondes,Chamanisme.[En ligne], http://ennedi.free.fr/, (30/12/2007).
97 _ Ibid.
98 _ Sahara néolithique, période de tête rondes,Chamanisme.[En ligne], http://ennedi.free.fr/, (30/12/2007).
99 _ Ibid.
100 _ Ibid.
101 _ محمد الصغير غانم ، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم ، ص 156.
102 _ هنريخ بارت : رحالة وجغرافي الماني ولد في 16فيفري 1821 بمدينة همبورغ و توفي يوم 25نوفمبر1865ببرلين، أنظر:
wikipedia,Heinrich barth[En ligne], http://fr.wikipedia.org/wiki/Heinrich_Barth (23.07.2007).
103 _ محمد الصغير غانم ، الملامح الفكرية للعصر الحجري الحديث في بلاد المغرب القديم (من خلال الرسوم الصخرية) ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة قسنطينة ، العدد الثامن ، 1997،ص 119.
104 _ H.Lhote, Les gravures rupestres de l'oued djerat (tassili –n-ajjers) , Mém du c.r.a.p.e.25, alger, t1 (1975) et t 2 (1976).
105 _ ك.ابراهيمي ، المرجع السابق ،ص 124.
106 _ محمد الصالح بوعناقة ، فن الرسوم الصخرية في الجزائر بين الدافع ، التقنية، المراحل، رسالة ماجستير في التاريخ القديم ، إشراف عبد العزيز بن لحرش ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية ، جامعة قسنطينة ، 2001، ص 38.(لم تطبع بعد).
107 _ H.j.Hugot , Op cit, P 244.
108 _ قصدنا هنا المراحل التي تدخل ضمن الإطار الزماني لموضوع دراستنا إذ أنه توجد مراحل أخرى تدخل ضمن فترة فجر التاريخ مثل (مرحلة الحصان) و الفترة التاريخية مثل (مرحلة الجمل)، (الباحث).
109 _ عبد الصادوق صالح ، الفن الصخري في شمال إفريقيا ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص 15.
110 _ H.Lhote, A la découvert des fresques du tassili, Arthaut, Paris,1973 , pp 66 , 217, 218.
111 _ H.j.Hugot , Op cit, P 248.
112 _ SaharaNéolithique, L'art rupestre du sahara[En ligne]. http://ennedi.free.fr/, (30/12/07).
113 _ عبد اللطيف محمد البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي ، منشورات الجامعة الليبية، الطبعة الأولى 1971، ص 27 ،28 .
114 _ SaharaNéolithique, L'art rupestre du sahara[En ligne]. http://ennedi.free.fr/, (30/12/07).

ابن حزم الأندلسي والفتنة القرطبية

أ / حاج سعد سليم
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

تعتبر الفتنة القرطبية منعرجا هاما وخطيرا في التاريخ الأندلسي، وذلك بتأثيرها على جميع المجالات، حيث يمكن اعتبارها بداية النهاية للوجود الإسلامي في شبه الجزيرة، وقد اختلف المؤرخون في سرد أحداثها وتحديد المسؤوليات فيها، ومن بين الشخصيات التي عاصرت هذه الفتنة وشاركت فيها وتأثرت بها وأرخت لها: ابن حزم الأندلسي، فهو الذي كان مناصرا للفريق الأندلسي ضد خصومهم من البربر المغاربة وذلك ما أثر على طريقة كتابته لتاريخ الفتنة.

Résumé

La sédition de *Cordoue* est considérée comme un tournant décisif dans l'histoire de l'Andalousie, en raison de son impact sur tous les domaines; elle est alors comptée comme le commencement de la fin de la présence musulmane sur la péninsule Ibérique.

Les historiens ont été en désaccord dans le récit des événements de cette crise et dans la détermination des responsabilités. Parmi les dignitaires qui ont vécu cette sédition, *Ibn Hazm*, quoi a pris parti pour le camp des Andalous contre leurs adversaires du camp des *Berbères* maghrébins. C'est ce qui a en fait influencé sa vision sur l'écriture de cette histoire.

تميزت الأندلس الإسلامية في العصر الوسيط بكثرة الثورات والفتن على اختلاف توجهاتها وتنوع غاياتها وأسبابها، وهو ما أدى إلى تقويض البناء وتسريع السقوط أمام المد النصراني الشمالي، والذي استمر يقاوم ثمانية قرون حتى حقق مراده ومبتغاه في طرد المسلمين من هذه الأرض.

وحسب أغلب المؤرخين القدامى والمحدثين، فإن من أهم الفتن والثورات التي أثرت بعمق على مسار التاريخ الإسلامي الأندلسي، هو ما يسمى في المصادر التاريخية بالفتنة "البربرية" أو الفتنة القرطبية، وهي التي دارت رحاها في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وأهم ميادينها العاصمة قرطبة، وأهم أطرافها الأندلسيون من جهة والبربر المغاربة من جهة أخرى.

إن نتائج الفتنة القرطبية كانت كبيرة ووخيمة على وحدة المسلمين وقوتهم، وكذا مستقبل وجودهم في شبه الجزيرة، لذا جلبت أنظار المؤرخين الأندلسيين وغيرهم، فقد تناولتها المصادر

التاريخية بدرجات متباينة بين التحيز والموضوعية أو بين العمق والسطحية، ما بين مصادر أندلسية ومغربية وأخرى مشرقية.

ومن بين المؤرخين الذين اهتموا بهذه الفتنة: ابن حزم الظاهري، فمن هو هذا المؤرخ؟ وما هي الأحداث المميزة لهذه الفتنة؟ وما تأثيرها على شخصية ابن حزم؟ وإلى أي حد اهتم بها وأرخ لها؟ وما هي أبرز مواقفه منها؟

ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف ابن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشي، وجده يزيد هو أول من أسلم، وأصله من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه، وقد استوطنوا قرية "منت ليشم" من إقليم الزاوية من عمل أونبة من كورة لبلة[1] غربي الأندلس، ثم سكن أبوه قرطبة[2].

هذا هو المشهور من نسبه، وقد نقله أكثر المؤرخين عن القاضي صاعد بن أحمد الطليطلي وهو معاصر لابن حزم، وأحد تلاميذه، و لم يخالفه في ذلك أحد من معاصريه إلا ما شكك فيه مؤرخ الأندلس الشهير ابن حيان، والذي رجح أن يكون أصله من عجم لبلة، وأن جده الأدنى حديث عهد بالإسلام[3]، إلا أن هذا قد يعود سببه إلى ما اشتهر به ابن حيان من ثلب للأنساب، وطعن في الأحساب لأبسط خلاف مع المترجم له[4].

وقد ولد بقرطبة بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس من يوم الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان سنة 384 هـ الموافق لـ 07 جوان 994 م، وقد نشأ أبو محمد منعما في بيت سلطان وثراء[5]، حيث كان أبوه عالما جليلا ووزيرا من وزراء المنصور بن أبي عامر، وابنه من بعده عبدالملك المظفر 392 ـ 399 هـ / 1002 ـ 1008م[6]، و لم يخالط ابن حزم في صغره إلا النساء اللائي تلقى على أيديهن دروسه الأولى من مبادئ العلوم، فروين له الأشعار، وحفظنه القرآن[7]، ثم صحب في شبابه شيخه، أبي علي الحسين بن علي الفاسي، والذي كان على قول ابن حزم : "عاقلا، ممن تقدم في الصلاح والنسك"[8].

كما درس الحديث على يد أبي عمر بن محمد بن الجسور، وأبي عمر الطلمنكي، وأبي الوليد عبد الله بن الفرضي، والمنطق علي يد محمد بن الحسين المذحجي المعروف بالكتابي، والأدب على أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد الأزدي[9]، ودرس الفقه المالكي على يد الفقيه عبد الله بن دحون 431 هـ/ 1039م[10]، وأبي الوليد بن الصفار 429 هـ/ 1037م[11]، ودرس الفقه الظاهري علي يد مسعود بن سليمان بن مفلت أبي الخيار 426هـ / 1034م[12].

كان ابن حزم حامل فنون عديدة، متمكنا في علوم كثيرة، كالحديث والفقه والجدل والنسب والأدب، وحتى العلوم القديمة كالفلسفة والمنطق، وكان نصيبه من التاريخ كبيرا، فكانت له في نظره مكانة عالية، إلا أنه يصبح صغيرا إذا ما قارناه بالفقه[13]، وقد خلف لنا ابن حزم عددا هائلا من المؤلفات التي غطى بها العديد من الفنون وأهمها:

كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ،كتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد، كتاب الإمامة والسياسة،كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال،كتاب الإحكام في أصول الأحكام،كتاب المحلى والذي شرح فيه المذهب الظاهري في جميع أبواب الفقه، كتاب مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات،كتاب طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف، جمهرة أنساب العرب، ورسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء[14].

فقد قال ابنه الفضل أبو رافع: "اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة"[15]، وهذا اعتراف من ابنه على كثرة مؤلفات ابن حزم، إلا أنه وللأسف الشديد قد ضاعت مع مر الزمن.

كان ابن حزم من المعاصرين لأحداث الفتنة القرطبية ونتائجها على بلاد الأندلس، بل وكان من المشاركين في أحداثها، فهو ينتمي إلى من سماهم الدكتور محمود علي مكي بـ"جيل الفتنة البربرية" من أمثال ابن حيان وابن حزم وابن شهيد[16] وابن عبد البر[17]، والذين تميزوا على حد تعبيره بالحدة في أحكامهم والسخرية من قومهم، فكانوا بذلك نتاج فترة إحباط نفسي[18]، فهم الذين شهدوا في مقتبل شبابهم عظمة الدولة وقوتها، ثم رأوا انتكاستها المفاجئة المذهلة.

لقد شهد ابن حزم ما آلت إليه الخلافة الأموية في الأندلس من ضعف حين شعر الحكم المستنصر في أواخر عهده بالضعف والمرض، فأوصى لابنه هشام بولاية العهد من بعده وهو لم يبلغ التاسعة من عمره بعد، وقد أخذ له البيعة قبل وفاته، فلما انتقل إلى جوار ربه نفذت رغبته وأصبح ابنه الصغير خليفة للمسلمين في الأندلس[19].

إلا أن الخليفة المؤيد بالله ونظرا لصغر سنه، شكل مجلس للوصاية عليه، وهذا لتسيير شؤون الدولة، بما مهد الطريق لبروز شخصية قحطانية[20] قوية وفريدة من نوعها، لكن من خارج البيت الأموي، وهي شخصية محمد بن أبي عامر، الذي استطاع بدهائه السيطرة على أمور الحكم بعد أن قام بإقصاء كل المنافسين والمناوئين له، فتخلص في البداية من سيطرة الصقالبة، ثم من الحاجب بن عثمان المصحفي، وكذا من القائد غالب، وبعد ذلك أبعد السيدة صبح أم هشام المؤيد بالله[21]، فخلا له الجو بذلك للانفراد بالملك، فتغلب على الخليفة هشام المؤيد وحجره في قصره، لا تراه الخواص ولا العوام[22]، ثم تسمى بالحاجب المنصور سنة 371 هـ/ 981 م، كما أمر بالدعاء له على المنابر بعد الخليفة[23].

هذا الوضع، جعل السلطة الزمنية تخرج عن سيطرة الخليفة والأمويين بشكل عام، فلم تبق لهم إلا السلطة الروحية من الدعاء على المنابر وكتابة اسم الخليفة على السكة والطرز[24].

ورغم كل ذلك، فإن المنصور بن أبي عامر قام بأعمال جليلة لصالح المسلمين في الأندلس، حيث أنه نظم الدولة تنظيما دقيقا وأشاع العدل فيه[25]، كما قام بالجهاد ضد الممالك النصرانية الشمالية، وذلك بتنظيم الصوائف والشواتي كل سنة، حيث قام بنحو سبع وخمسين غزوة

قادها بنفسه، لم يذق فيها طعم الهزيمة أبدا[26]، فكانت نصرا وعزا لم تبلغه الأندلس إلا في عصره.

استمر الحاجب المنصور يحكم الأندلس ستة وعشرين عاما دون منازع، يحقق الانتصار تلو الآخر على النصارى حتى أعطوا ولائهم له، وقبل وفاته، عهد بمنصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بعد وفاة أبيه ليلة الاثنين 27 رمضان سنة 392 هـ / 11 أوت سنة 1002م بالمظفر بالله[27].

واصل عبد الملك المظفر حكم الأندلس باسم الخليفة هشام المؤيد بالله على سيرة أبيه المنصور، فاحتفظ بالسلطة الزمنية تاركا السلطة الروحية الاسمية للخليفة المحجور عليه[28]، إلا أن فترة حكمه لم تتعد السبع سنوات، وبعد وفاته سنة 399 هـ / 1009 م خلفه أخوه الملقب بشنجول وهو في الخامسة والعشرين من عمره[29]، هذا الأخير الذي لم يكن يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أبوه وأخوه من قبل، بل وأكثر من ذلك فقد وصف بـ "الطيش والخلاعة والمجانة"[30].

جرى عبد الرحمن بن المنصور على سنة أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله، و لم يمض طويلا على توليه الحجابة، حتى طلب من الخليفة أن يعطيه ألقابا سلطانية لم تكن لأبيه وأخيه من قبل، فما كان من الخليفة المغلوب على أمره إلا أن أعطاه لقب المأمون، ثم ناصر الدولة[31]، إلا أن عبد الرحمن لم يتوقف عند هذا الحد، بل وأكثر من ذلك ذهب إلى ما لم يذهب إليه أبوه ولا أخوه، ولا تجرأ عليه أحد من خارج البيت المرواني من قبل[32]، حيث أجبر الخليفة هشام أن يعطيه ولاية العهد من بعده، رغم أن خروج الخلافة من قريش كان متعارضا في ذلك الوقت مع المعتقد السني على الأقل[33]، فما كان من الخليفة إلا أن استجاب لطلبه[34] وجعله وليا لعهده.

لقد كان لهذه الحادثة التأثير البليغ على مجرى الأحداث في الأندلس، فأهل قرطبة اعتبروا ذلك أكبر محنة، إلى درجة أن عزوا بعضهم بعضا[35]، كما أن عبد الرحمن شنجول قام بتولية ابنه عبد العزيز خطة الحجابة ولقبه بسيف الدولة، فأصبح ذلك الطفل الصغير حاجبا للخليفة، فكانت هذه الحادثة مما زاد في تأليب أهل قرطبة ضد شنجول، ودفعهم إلى التآمر عليه[36].

ومن هنا بدأت فصول الفتنة القرطبية التي أسقطت العامريين وأبعدتهم عن الحكم، وأدخلت الأندلس في دوامة من الأحداث الدامية.

لقد كانت البداية عندما خرج عبد الرحمن بن المنصور إلى الثغور الشمالية غازيا في جمادى الأولى 399هـ جانفي 1009 م، وذلك رغم التحذيرات التي تلقاها من معاونيه بأن لا يغادر العاصمة قرطبة في مثل هذه الأوضاع[37].

عندما وصلت إلى قرطبة أخبار عبور عبد الرحمن شنجول وجيوشه أراضي العدو، وبدء حربه معهم[38]، قام رجل أموي يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار، تتبعه العامة في قرطبة،

بالثورة على الخليفة هشام المؤيد بالله فخلعوه، ونصب هذا الأخير خليفة بعد أن تلقب بالمهدي، وتم ذلك في جمادى الآخر سنة 399 هـ / 1009 م[39].

وفي هذه الأثناء وعندما علم عبد الرحمن بن المنصور بما حدث في قرطبة، رجع يطوي المسافات، إلا أن جنوده انفضوا من حوله شيئا فشيئا، وعندما اقترب من قرطبة أرسل إليه المهدي من قتله واحتز رأسه وحمله إليه، وكان ذلك في اليوم الثالث من رجب سنة 399 هـ / 3 مارس 1009م[40]، وبمقتل شنجول انتهت الدولة العامرية التي حكمت الأندلس أزيد عن ثلاثين سنة.

فرح القرطبيون كثيرا بهذه الثورة وما أحدثته من تغييرات، بل وساهموا في نهب القصور وسبي الجواري مع الثوار، وإلى هذا الحد كان الوضع سيستقر، لولا أن محمد بن هشام المهدي قام بإهانة البربر الذين انضموا إليه بعد أن انفضوا عن عبد الرحمن بن المنصور، ففضل عليهم العامة والغوغاء واللصوص والمساجين الذين أخرجهم من السجون فتمادوا في النهب والسبي إلى منازل البربر، فهتكوا حرماتهم واستباحوا أموالهم على أنهم المسئولون عن تغلب العامريين عليهم[41]، هذا الوضع أدى بالبربر إلى التكتل للدفاع عن أنفسهم، فالتفوا حول أحد الأمويين وهو هشام بن سليمان الذي لقبوه بالرشيد، وقاموا معه بثورة على الخليفة الجديد المهدي، الذي استطاع القضاء عيها وتمكن من قتل الرشيد[42].

عاد البربر مرة أخرى إلى التجمع، فالتفوا في شوال من سنة 399 هـ/ ماي سنة 1009م حول أموي آخر هو سليمان بن الحكم، والذي بايعوه بالخلافة ولقبوه المستعين بالله[43]، وللقيام بجولة جديدة مع المهدي، استعانوا هذه المرة بالملك القشتالي شانجه بن غرسية، والذي لم يتردد بدوره في مساعدتهم، وذلك انتقاما وتفرقة للمسلمين في الأندلس[44].

هكذا تواصلت أحداث الفتنة القرطبية بالصراع بين فريق البربر المغاربة من جهة، وفريق الأندلسيين من جهة أخرى، بالإضافة إلى تدخل الممالك النصرانية تارة يساعدون الأندلسيين وتارة البربر، وذلك بغية إضعاف الوجود الإسلامي. دامت أحداث الفتنة ثلاث وعشرون سنة، وكان آخر خلفائها هشام بن محمد بن عبد الملك المعتد.

حكم المعتد قرطبة سنتين بعد مجيئه إليها، لم تكن أفضل من حكم سابقيه، فكثرت الاضطرابات وخاصة بسبب تصرفات وزيره حكم بن سعيد الفراز، الذي استأثر بالسلطة وضيق على أهل قرطبة، فلم يصبروا عليه طويلا كما تعودوا، فقتلوه وطافوا برأسه في المدينة، يوم 12 من شهر ذي الحجة سنة 422هـ[45] / 30 نوفمبر 1031م، وكان ذلك بقيادة أمية ابن عبد الرحمن العراقي.

وعمت الفوضى العاصمة، ودخلت العامة قصر الخليفة الذي اضطر إلى الخروج منه مع ولده ونسائه ملتجئا إلى المسجد الجامع، وعند ذلك اجتمع رأي أهل قرطبة على خلع المعتد وإبطال رسم الخلافة نهائيا ، "ونودي في الأسواق والأرباض ألا يبقى أحد من بني أمية ولا يكتنفهم أحد..."[46]، فأعلن الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور[47] انتهاء رسم

الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها، وجعل الأمر شورى بين الناس، وحدث ذلك في الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة 422هـ[48] / 1 ديسمبر 1031م.

عانى أهل قرطبة وكذا ابن حزم وعائلته من أحداث هذه الفتنة، فمستهم نتائجها المباشرة، وانهالت عليهم النكبات تلو النكبات، من الاعتقال والتغريب والإغرام الفادح[49]، كما أضيف إلى هذه النوازل المجتمعة على ابن حزم، مصائب عائلية أخرى، فتوفي أخوه الوحيد أبو بكر بالطاعون الواقع بقرطبة، في شهر ذي القعدة 401 هـ / جوان سنة 1010م، ثم توفي والده الوزير محمد بن سعيد في ذي القعدة 402 هـ[50] / ماي سنة 1011م، وأضيف إلى كل تلك الأزمات وفاة زوجته الأولى[51]، والتي تأثر بوفاتها تأثرا شديدا، إلى درجة أنه وكما أخبرنا بنفسه لم يتجرد عن ثيابه سبعة أشهر حزنا عليها[52].

ففي هذه الأوضاع توالت النكبات عليهم، حيث أجلي مع أسرته عن منازلهم التي كانوا يسكنونها من قصور كبار قرطبة، فارتحل إلى المرية[53] سنة 404 هـ / 1013م التي مكث فيها مدة قاربت الثلاث سنوات، ثم عاد إلى قرطبة سنة 407 هـ / 1016م، وهناك اعتقله خيران العامري لموالاته للأمويين، إلا أنه ما لبث في سجنه طويلا حتى أخلي سبيله، فارتحل إلى بلنسية عند ظهور المرتضى داعيا فيها بالخلافة لنفسه، وبعد هزيمة هذا الأخير عاد ابن حزم سنة 409هـ /1018م إلى قرطبة التي بقي بها مدة طويلة إلى غاية ظهور آخر خلفاء عصر الفتنة القرطبية هشام المعتد، فأصبح ابن حزم وزيرا لديه، ولم يستمر في هذا المنصب طويلا حتى اعتزله، واعتزل السياسة نهائيا، وهنا قرر التفرغ للعلم والبحث في دروبه[54].

ورغم كل هذه الأحداث التي ألمت بابن حزم من جراء هذه الفتنة، لم يفرد لها كتابا أو فصلا من أحد كتبه، فنجده يتناول بعض أحداثها في ثنايا تلك الكتب، وضمن مواضع عديدة كالترجمات لشخصيات الفتنة في كتابه جمهرة أنساب العرب، أو ذكره للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لقرطبة أثناء الفتنة في كتاب طوق الحمامة، إلا أن الشيء الذي يهمنا في هذا المقام، هو إصدار ابن حزم لبعض الأحكام المتعلقة بموضوع الفتنة، وهي التي أصبحت فيما بعد أدلة يستند إليها ويتناقلها المؤرخون عبر الزمن.

فابن حزم المؤرخ، كان طرفا في الصراع الدائر بين الحزبين الرئيسين في هذه الفتنة، وهما البربر والأندلسيون[55]، وللدلالة على ذلك نجده يقول بنفسه : "... وتغلب جند البربر علينا ..."[56]، فكان في مواقفه مؤيدا للأندلسيين معارضا لخصومهم، إلى درجة أنه أرجع كل نتائج الفتنة مثلا على قرطبة إلى البربر[57]، إضافة إلى ذلك لم يعترف بخلافة غير خلافة الأمويين، فمثلا لم يصف مرة الحموديين بلقب أمير المؤمنين، مثلما كان يفعل مع الخلفاء الأمويين الذين حكموا عصر الفتنة، فيكتفي بوصفهم بـ "دولة الطالبية" لأنهم ينتسبون إلى علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب، فمثلا عند ذكره لعلي بن حمود يقول "... علي بن حمود الحسني المسمى بالناصر..."[58]، أما عند ذكر المرتضى يقول : "... عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبدالرحمن ابن محمد ..."[59]، بل وذهب ابن حزم إلى أكثر من ذلك حيث ربط بهاء الأندلس والدنيا كلها

بوجود الدولة الأموية، فيقول : "... وبهدمها [الدولة الأموية] إنهدمت الأندلس وذهب بهاء الدنيا بذهابها ..."[60]، كما يبين لنا ابن حزم شوقه وتأثره بذهاب حكم الأمويين فيقول: "وإن حنيني إلى كل عهد تقدم ليغصني بالطعام ويشرقني بالماء ..."[61].

فعلى العموم كان ابن حزم ضمن الحزب الأموي، حيث يقول مؤرخ الأندلس الشهير ابن حيان : " وكان مما يزيد في شنآنه تشيعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم بالمشرق والمغرب والأندلس، واعتقاده لصحة إمامتهم، وانحرافه عمن سواهم من قريش حتى نسب إلى النصب لغيرهم"[62].

ونلاحظ تأثر ابن حزم من الناحية النفسية بأحداث الفتنة ونتائجها الكارثية عليه وعلى الأندلس، بشكل واضح وجلي في مواضع عديدة من كتابه طوق الحمامة، فمثلا عندما غادر قرطبة في أحداث الفتنة وعاد إليها بعد مدة طويلة ، لاحظ وجوه النساء اللائي يعرفهن قد تغيرت بشكل كبير حتى كاد أن يخطئهن، فأرجع زوال بهائهن وحسنهن إلى أحداث الفتنة على قرطبة، فيقول في ذلك : " ... وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة ... ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة فنزلت على بعض نسائها هنالك وما كدت أميزها حتى قيل لي هذه فلانة وقد تغير أكثر محاسنها وذهبت نظارتها وفنيت تلك البهجة وغاض ذلك الماء ..."[63]

وقد اختلف المؤرخون في سبب ميوله وولائه للأمويين، فذهب بعضهم إلى تصنيفه ضمن مؤرخي البلاط الأموي، أي المؤرخين المقربين من السلطة والذين يخدمون أفكار الحكم الأموي[64]، وهناك من ذهب إلى اتهامه "بالنصبة" أي التعصب للأمويين ضد العلويين أو سواهم[65].

إلا أن الدارس لشخصية ابن حزم ومواقفه ونظرته للتاريخ بشكل خاص، يلاحظ بأنه كان ينظر للتاريخ من زاوية الفقيه والمصلح بالدرجة الأولى، فمجمل مواقفه وتصرفاته كانت مبنية على رأي فقهي يتبناه، فعندما يقف إلى جانب الأندلسيين ضد البربر، كان ذلك راجعا إلى اعتقاده بصحة إمامة الأمويين في الأندلس أو خارجها[66]، فقد كانت هناك تفرقة واضحة في فكره التاريخي، بين التمسك بالخلافة الأموية كأمل وحيد يمكن أن يجمع شتات الأندلس، وبين التعصب للأمويين على امتداد تاريخهم كعنصر عرقي، وللدلالة على عدم تعصبه، نجده يعتبر عملية قتل عبد الله بن الزبير إحدى مصائب الإسلام وخرومه[67]، كما نجده يستهجن أعمال وتصرفات بعض الحكام الأمويين في الأندلس، ومن بينهم الحكم بن هشام الربضي[68]، كما يذكر الأمير عبد الله بن محمد فيقول : "...كان قتالا لا تهون عليه الدماء..."[69]، وفي المقابل نجده في كتابه جمهرة أنساب العرب، يذكر أنساب البربر وقبائلهم دون أي تمييز أو تعصب مع الأنساب العربية، رغم أن عنوان الكتاب واضح.

وفي هذا السياق يذهب الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، إلى نفي تهمة التعصب عنه نفيا قاطعا، فيفسران مساندته للأمويين على أنها كانت رؤية سياسية جعلته يؤمن

بأن إنقاذ الأندلس لن يتم على يد البربر أو الطوائف المتصارعة على الحكم، وإنما يكون على يد الأسرة الأموية التي استطاعت قبل ذلك أن توحد الأندلس أكثر من قرنين[70].

وفي الأخير نستطيع أن نقول أن ابن حزم المؤرخ الفقيه كان من أنصار الحزب الأندلسي ضد الحزب المغربي في هذه الفتنة، بل وأكثر من ذلك اشترك في بعض أحداثها السياسية والعسكرية المهمة، فكان بذلك طرفا حقيقيا في هذا الصراع، كما مسته أحداث الفتنة ونتائجها المباشرة وغير المباشرة في نفسه وماله وأهله، وكل ذلك أثر على طريقة تأريخه لأحداثها، فكانت من وجهة نظر أندلسية معارضة للفريق المغربي في غالب الأحيان.

الهوامش :

1 لبلة مدينة تقع غرب الأندلس ، تعرف بالحمراء. أنظر: الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله: صفة جزيرة الأندلس ـ منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1937 ، ص 168 .

2 صاعد الأندلسي (أبو القاسم صاعد بن أحمد) : طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1985 ، ص 181 .

3 ابن بسام (أبو الحسن علي) : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1998، مج2 ، ص 103 .

4 المصدر نفسه ، مج 3، ص 104.

5 محمود إسماعيل : الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي، منشورات دار الزمن، الدر البيضاء، (د،ت) ، ص 86 .

6 صاعد الأندلسي: المصدر السابق، ص 184.

7 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد): طوق الحمامة في الألفة والألاف ، تحقيق محمد يوسف الشيخ محمد وغريد يوسف الشيخ محمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 2004 ، ص 87 .

8 المصدر نفسه : ص 86 .

9 آنجل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د،ت)، ص 213.

10 عبد الله بن دحون من كبار فقهاء قرطبة، مالكي المذهب وكان بصيرا بالأحكام ومشاورا فيها توفي سنة 431 هـ أنظر : ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك): كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ، 1966 ، ص 226 .

11 أبو الوليد بن الصفار هو قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها في عهد هشام المعتد بالله، توفي سنة 429 هـ ، أنظر : ابن بشكوال : المصدر السابق ، ص 526 - 527 .

12 مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار فقيه زاهد يميل إلى القول بالظاهر توفي سنة 426 هـ ، أنظر: المصدر نفسه، ص479.

13 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : رسائل ابن حزم الأندلسي ـ رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء ، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 1 ، 1981 ، ج 1 ، ص 7 ، 8 .

14 الحميدي (أبو عبد الله محمد): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1983 ، ج 2، ص 490 .

15 صاعد الأندلسي : المصدر السابق، ص 181 - 184، الحميدي :المصدر السابق، ص 490 ، الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد): سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنوط، مؤسسة الرسالة، (د،م)، ط1، 1984، ج 18، ص187.
16 ابن شهيد أحمد بن عبد الملك الأندلسي أديب وناقد مشهور ولد بقرطبة سنة 382 هـ وتوفي بها سنة 426 هـ ، له كتاب "التوابع والزوابع"، وكانت بينه وبين ابن حزم مكاتبات . أنظر : ابن بسام : المصدر السابق ، مج 1 ، ص 118 - 194. المقري (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت 1988.، ج 4 ، ص 230 - 234.
17 أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبو عمر بن عبد البر النمري من أهل الأدب البارع، والبلاغة الرائعة، والتقدم في العلم والذكاء، ولد سنة 368 هـ وتوفي سنة 458 هـ ابن بسام : المصدر السابق ، مج 3 ، ص 82 - 93 ، ابن بشكوال : المصدر السابق، ص 89 .
18 ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف): المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973 ، مقدمة المحقق ص 27 .
19 عبد العزيز فيلالي : العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1982 ، ص217.
20 الحميدي : المصدر السابق ،ج 1 ، ص 47 .
21 ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال، دار الثقافة ،ط 2، بيروت ،1980، ج 2، ص259 ، ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة، ط 4 ، 1977. ص 418 ، المقري : المصدر السابق ، ج1 ، ص 399.
22 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج2 ، ص 276 .
23 ابن سعيد المغربي (عبد الملك بن سعيد) : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط2 ، 1964 ، ج 2 ، ص20.
24 ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2، 1985 ،ج1 ، ص 269.
25 فراد محمد أرزقي : القوى المغربية في الأندلس ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1991 ، ص 46 .
26 ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، تحقيق سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1، 2003 ، القسم الثاني ، ص 68 .
27 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 301 .
28 المقري : المصدر السابق ، ج1 ، ص423 .
29 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 41 .
30 النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1980 ، ج23 ، ص407 ، ابن الخطيب : المصدر السابق ، القسم الثاني، ص 88.، ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد) : الكامل في التاريخ ، تحقيق نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، بيروت ط 2 ، 1967، ج7 ، ص 84.
31 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 40 ، ابن الخطيب : المصدر السابق ، القسم الثاني، ص 85 .
32 المراكشي (عبد الواحد بن علي) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1998 ، ص 37 .
33 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة ، تحقيق أحمد الزغبي ، دار الأرقم ، بيروت، (د ت)، ص 222 .
34 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص 92.
35 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 47.

36 الصوفي خالد : تاريخ العرب في أسبانيا ـ نهاية الخلافة الأموية في الأندلس، دار الشرق ، حلب ، ط 1 ، (د ت) ، ص 126. عبد القادر بوباية : البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي الوسيط ، إشراف الدكتور غازي جاسم الشمري ، وهران ، 2001 ـ 2002 ، ص 295 .
37 ابن الخطيب : المصدر السابق ، القسم الثاني، ص 90 .
38 عبد المجيد نعنعي : تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ،1986 ، ص 491.
39 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 61
40 ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر ، بيروت ، 2000 ، ج4 ، ص 192 ، ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج2 ، ج213.
41 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 82 .
42 النويري : الصدر السابق ، ج23 ، ص419.
43 ابن الخطيب : المصدر السابق ، القسم الثاني، ص107.
44 المقري : المصدر السابق ، ج1 ، ص 428 .
45 ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 146. ابن الأثير : الصدر السابق ، ج 7 ، ص 290.
46 المصدر نفسه :ج 3 ، ص 152.
47 هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور كان وزيرا زمن الدولة العامرية وبعد اشتعال الفتنة القرطبية ابتعد عن السياسة وشؤونها ، وعند انقضائها وزوال الخلافة الأموية سيطر على مقاليد الحكم في قرطبة فأمن خائفها وأشاع فيها الأمن والأمان ، حيث لم يبرح منزله إلى القصور وإنما كان متواضعا يعود المرضى ويمشي مع الجنائز على سيرة الصالحين ، ولد سنة 364 هـ ، وتوفي سنة 435 هـ. أنظر : ابن الأبار : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 30ـ 34 ، ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 185 ، ابن سعيد المغربي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 56 ، ابن خاقان(أبو نصر الفتح بن محمد) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس،تحقيق محمد علي شوابكة ، دار عمار، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1983 ، ط 1 ، ص 180 - 186.
48 المصدر نفسه : ج3 ، ص 146.
49 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، 1985، ج 1، ص 4.
50 ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 121.
51 عبد الحليم عويس : ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري ، ط 2 ، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1988، ص63.
52 ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 104 ، ناصر الدين سعيدوني : من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي ـ تراجم مؤرخين ورحالة وجغرافيين ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1، 1999 ، ص 26 .
53 المصدر نفسه ، ص 99 .
54 سيف الدين الكاتب : الإمام أبو محمد بن حزم، دار عز الدين، بيروت ، 1982، ص 22، ناصر الدين سعيدوني : المرجع السابق، ص27 .
55 نعني بالفريق البربري في هذه الفترة كل البربر الذين قدموا إلى العدوة الأندلسيين حديثا أي منذ حكم عبد الرحمن الناصر، أما الفريق الأندلسي فهم كل القاطنين في العدوة منذ زمن طويل ، وهذا الفريق عبارة عن خليط من الأجناس .
56 ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 123
57 المصدر نفسه ، ص 129.
58 المصدر نفسه، ص 129.
59 المصدر نفسه، ص 129.
60 ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق، ج 3، ص 232.
61 ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف، ص 27 .

62 ابن بسام : المصدر السابق : مج 1، ص 104 .
63 ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص 123.
64 علاوة عمارة :الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط ـ مجلة التاريخ العربي ،العدد الثاني والثلاثون ، (د،م) ، 2004 ، ص 341.
65 ابن بسام : المصدر السابق، مج 1، ص 104 ،ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج1 ، ص355 .
66 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : المحلى ، تحقيق محمد إبراهيم نصر ، دار الجيل ، بيروت، 1988،ج 1 ص 126 .
67 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق صلاح الدين القاسمي، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، مقدمة المحقق، ص 18.
68 ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص 95 - 96 .
69 ابن الخطيب : المصدر السابق ، ق 2 ، ص 26 ، ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج 2 ص 21 .
70 ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جوامع السيرة ، تحقيق إحسان عباس و ناصر الدين الأسد ، دار المعارف ، مصر (د ت) ، مقدمة المحققين ، ص 12 ، 13 .

ثورة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية ومواجهة التحدي الاستعماري الفرنسي (1842-1895)

أ / دحدي سعود
أستاذ مؤقت
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

تعتبر ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1842-1895) بالصحراء الجزائرية واحدة من بين أهم الثورات والمقاومات الشعبية التي واجهت الاستعمار الفرنسي للجزائر، فقد استطاع هذا الرجل انطلاقا من ورقلة أن يقود حركة المقاومة ويلحق الهزائم المتكررة بقوات الاحتلال في أكثر من موقعة سواء في الأغواط أو في توقرت أوفي غيرها من المناطق، الأمر الذي أقلق قوات الاستعمار وجعلها تضع الخطط لإخماد هذه المقاومة ،غير أن محاولاتها في كل مرة كانت تبوء بالفشل الذريع، خاصة وأن الشريف محمد بن عبد الله نجح في إقناع القبائل المختلفة بضرورة المقاومة ورفض الخضوع والخنوع للاستعمار تحت أي شكل من الأشكال، الأمر الذي ألهب حركة المقاومة وجعل الكثير من القادة يضمون جهودهم إلى جهود محمد بن عبد الله ويتعلق الأمر بالقائد بن ناصر بن شهرة وسي النعيمي قائد أولاد سيدي الشيخ وغيرهم. وظلت هذه المقاومة مستمرة و لم تنته إلا بوفاة البطل محمد بن عبد الله بالأراضي التونسية سنة 1895.

Résumé

La révolution de *chérif Mohammed ben Abdellah* (1842-1895) dans le Sahara algérien se considère parmi les révolutions les plus importantes et des résistances populaires qui ont fait face à la colonisation française de l'Algérie. Cet homme a pu, départant de Ouargla de mener le mouvement de la résistance et donner des fouets aux forces de l'occupation dans plus de sites soit à Laghouat ou à Touggourt aux bien à d'autres régions. Ce qui fait gêner les armés coloniales et l'obligeait à faire des plans pour haleter les feux de résistance, ses essais heureusement ont échoués. Surtout après que *chérif Mohammed ben Abdellah* a convaincu les différentes tribus de la nécessité de la résistance et refuser de se laisser au colonialisme. Ça a fait le mouvement de résistance brûle et a convaincu aussi beaucoup de leaders de lier leurs efforts avec celle de Mohammed ben Abdellah, surtout le Gaid *Bennaceur Ben Chohra* et *Si Naimi* le chef de *Sidi Chick* et bien d'autres. La résistance a continuée et ne s'arrêta qu'après le décès de *Mohammed ben Abdellah* dans le territoire tunisien en1895.

تمهيـــد

بعد أن أحكمت فرنسا قبضتها على المناطق الشمالية من البلاد وخاصة الإستراتيجية منها راحت تتطلع إلى احتلال المناطق الجنوبية، وأدرك ساستها وقادتها العسكريون أنه لا فائدة ترجى من احتلال الجزائر ما لم يمتد النفوذ الفرنسي نحو الصحراء الجزائرية باعتبارها الأمل الذي طالما حلم به الفرنسيون. ولعل اهتمامها بهذه المناطق يدخل ضمن نطاق تحقيق حلمها

التقليدي، المتمثل في تكوين إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف تمتد من البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وان احتلال الجزائر والتوسع نحو الجنوب سبيل إلى تحقيق هذا الهدف الذي يربط مستعمراتها الإفريقية غرب القارة ووسطها ثم شمالها، ولا يتأتى لها ذلك إلا إذا احتلت صحراء الجزائر ،التي تمثل حلقة ربط بين هذه المستعمرات كما أن فرنسا أدركت أن احتلال الجنوب هو ضمان لاحتلال الجزائر كلها باعتبار أن الثورات الشعبية التي كانت تندلع في المناطق الشمالية تجد متنفسا لها في الجنوب الذي يمثل القاعدة الخلفية التي يعتصم بها هؤلاء ومنها ينطلقون لمواجهة العدو مرات ومرات[1].

ثم إن احتلال الجنوب الجزائري سوف يجلب المنافع الكثيرة لفرنسا، خاصة وأن المنطقة تزخر بالمعادن الثمينة وخيرات زراعية (خاصة التمر) من شأنها أن تخدم الاقتصاد الفرنسي مستقبلا.ففي سنة 1842 كتب الجنرال "**بيجو**" (Bugeaud) إلى السلطات الفرنسية يقول: ((... **ستطلب الجزائر ولمدة طويلة المنتوجات الصناعية من فرنسا بينما تستطيع الجزائر تزويد فرنسا بكميات هائلة من المواد الأولية اللازمة للصناعة**))[2].

وعليه ففي سنة 1844 أصدر البرلمان الفر نسي قانونا يقضي بمد منطقة الاحتلال نحو الجنوب وذلك بإنشاء المراكز العسكرية في المدن التي تعتبر همزة وصل بين المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية مثل سبدو، سعيدة، تيارت، كما تم في هذه السنة احتلال مدينة بسكرة بوابة الصحراء من الجهة الشرقية. وبعد أن استكمل الاستعمار احتلال الهضاب العليا تطلع أكثر لاحتلال الجنوب فكان أن مد نفوذه نحو الصحراء الشمالية وذلك باحتلال الأغواط سنة 1852[3].

ومما يلاحظ في هذا الصدد أنه عندما قامت الجمهورية الفرنسية الثانية، أصدرت قرارا في شهر مارس 1848 نص على أن الجزائر جزء من التراب الفرنسي[4]. وعليه توجه اهتمام الاستعمار نحو احتلال المناطق الداخلية والصحراوية ، وظن الفرنسيون أن سكان الجنوب سوف يساعدونهم، لأنهم في اعتقادهم في أمس الحاجة إلى المواد الغذائية التي تأتيهم من الشمال، وهذه الضرورات ستجعلهم أكثر ترو واعتدال في تعاملهم مع فرنسا، وهم بذلك سيكونون أقل عداء لها من سكان المناطق الشمالية، لكنها اصطدمت بما لم تكن تتوقعه وخابت ظنونها، فقد هب سكان الجنوب عن بكرة أبيهم لمقاومة الاحتلال واستطاعوا أن يبرهنوا عن اعتزازهم بوطنهم واستعدادهم للتضحية من أجله والدفاع عنه مهما كان الثمن، وعليه ظهرت المقاومات والثورات الشعبية هنا وهناك وكانت امتدادا للمقاومات التي ظهرت في الشمال. ولعل من أهم هذه الثورات ثورة الشريف محمد بن عبد الله (1842-1895) التي شملت مناطق واسعة من الصحراء وفي مقدمتها ورقلة وتوقرت والأغواط وغيرهما. وهي الثورة يجهلها الكثيرون ويتجاهلها البعض. وعليه فقد أردنا من خلال هذا البحث المتواضع أن نعرف بهذه الثورة التي تضاف إلى سجل الثورات الشعبية وحركة المقاومة الجزائرية.

فمن هو الشريف محمد بن عبد الله؟ وما هي المناطق التي شملتها ثورته؟ وما هي أهم المراحل التي مرت بها هذه الثورة؟ وما هي أهم نتائجها؟ وقبل ذلك ما هي الوضعية التي كانت عليها منطقة ورقلة قبيل ظهور محمد بن عبد الله؟

1- التعريف بالثائر محمد بن عبد الله :

ينتمي الشريف محمد بن عبد الله[5] إلى أولاد سيدي أحمد بن يوسف فرع قبيلة أهل غسول قرب عين تيموشنت، توجه بعائلته إلى مدينة تلمسان واشتغل معلما للقران الكريم في زاوية أولاد سيدي يعقوب المنتمية إلى أولاد سيدي الشيخ,وعندما تزعم أغا غسول مولاي الشيخ- غيرة من خليفة الأمير بتلمسان البوحميدي التوهامي - المعارضة ضد الأمير عبد القادر استمال محمد بن عبد الله إلى صفه,وقدمه للناس على أنه رجل حرمة وقيمة قدم من المغرب الأقصى[6]، ويقول إسماعيل العربي: ((**لسنا ندري لماذا يقدم على أنه من المغرب الأقصى؟ وهذه ظاهرة عامة في عدد من الرجال الدينيين الذين تزعموا الثورة في الجزائر وقيل أنهم أشراف قدموا من السوس أو المغرب الأقصى**)) [7].

تذكر المصادر التاريخية أنه في يوم 1845/09/15 حصل لقاء بين الكولونيل الفرنسي "**تمبور**" (حاكم وهران) ومولاي الشيخ علي ومحمد بن عبد الله ومصطفى بن إسماعيل زعيم بني عامر والخصم اللدود للأمير عبد القادر، وذلك في بني عامر قرب عين تيموشنت، وعلى إثر هذا اللقاء منح الفرنسيون لمحمد بن عبد الله لقب خليفة (بعد أن تم الاتفاق على محاربة الأمير عبدالقادر) وعينوه خليفة على قبائل المنطقة الغربية فتحمس للعمل تحت سيطرتهم ضد الأمير عبد القادر[8]. والملفت للانتباه هو أن مصطفى بن إسماعيل زعيم بني عامر كان صاحب مركز كبير لدى الفرنسيين فكيف يحظى من دونه محمد بن عبد الله بلقب الخليفة[9].

وعندما قام الجنرال الفرنسي "**بيدو**" بالزحف على تلمسان في 1842/01/14 لافتكاكها من الأمير عبد القادر كان محمد بن عبد الله وأتباعه ضمن القوات الفرنسية، وطمع في أن يعينه الجنرال "**بيدو**" خليفة على تلمسان بصفة رسمية وقد كان له ما أراد.. غير أنه سرعان ما تعرض لمضايقات جعلته يدير ظهره لقوات الاستعمار، بل ويعقد العزم على العمل في سبيل تحرير الجزائر من المستعمرين الحاقدين. ومن بين المضايقات التي تعرض لها محمد بن عبد الله هو أن الجنرال "**بيدو**"حاكم تلمسان طلب منه أن يحلف على مصحف لتأكيد إخلاصه للفرنسيين – فقد كانوا يشكون في إخلاصه لهم – كما طلب منه أن يترحم على عدد من الموتى الفرنسيين الذين قتلوا خلال المعارك السابقة لاحتلال تلمسان، وذلك خلال حفل دفنهم ، الأمر الذي يمثل تحديا للشعور الإسلامي. ولذلك رفض محمد بن عبد الله الامتثال لهذا الطلب وقال للجنرال " **بيدو**": ((**إنني معكم إلى أن يحكم الله بافتراقنا**)) [10]. فازدادت شكوكهم ضده واتهموه بالتقصير والعجز، خاصة وأن محمد بن عبد الله قد لزم الاعتكاف وبدأ يجمع حوله الأنصار والأتباع، فقد استيقظ الفرنسيون في إحدى الأيام من عام 1844

ليجدوا مكتوبا على جدران المدينة بتلمسان: ((**محمد بن عبد الله ناصر الدين أبقاه الله وسلطه على رقاب الكافرين**)) [11].

أمام هذه التطورات والتحولات كان من الطبيعي أن يقوم الفرنسيون باعتقال محمد ابن عبد الله. وحتى لا يجعلوا منه خصما جديدا نصحوه بأن يتوجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج. وفهم محمد بن عبد الله أن هذه النصيحة ما هي إلا أمر لابد من تنفيذه أو أنها طرد مهذب، أو ربما نفي غير رسمي. فما كان عليه إلا الامتثال لهذا الإجراء. فغادر تلمسان غاضبا وحاقدا، وكان ذلك سنة 1845 واتجه إلى وهران وركب الباخرة من المرسى الكبير إلى الإسكندرية في مصر. ومنها إلى البقاع المقدسة حيث أدى فريضة الحج . وخلال تواجده بهذه البقاع كان له اتصال بعدد من الجزائريين المتواجدين هناك سواء كانوا منفيين أو مهاجرين أو مطرودين أو فارين من الإرهاب الفرنسي والذين كثيرا ما يصفهم الاستعمار بالمشوشين[12].

أثناء إقامته في مكة المكرمة التقى محمد بن عبد الله بعدد من الشخصيات المرموقة، وكان في مقدمتهم مؤسس الحركة السنوسية الشيخ **محمد بن علي السنوسي** الذي كان قد سبقه بالهجرة إلى بلاد الحجاز، فلازمه وتتلمذ عليه وأصبح من أهم أتباعه، وكان الشيخ السنوسي قد أسس سنة 1837 زاوية أبي قبيس في مكة المكرمة[13]. وأصبحت بمثابة ملجأ لكل الجزائريين المتواجدين هناك يلتقون بها لأداء واجباتهم الدينية ويتدارسون المشاكل السياسية التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، ولعل من أهمها وفي مقدمتها مشاكل الجزائر.

وعليه انطلاقا من مكة المكرمة (منطلق الوحي) أخذ كل من محمد علي السنوسي ومحمد ابن عبد الله يلتقيان ويخططان في سبيل إيجاد الوسائل الكفيلة بإخراج الجزائر وتحريرها من الاستعمار الذي طغى في البلاد فأكثر فيها الفساد. ولم يترددا في مراسلة رفقائهما وأصدقائهما في الجزائر وتونس وطرابلس وبالتالي تتبع أخبار الجزائر بصفة منتظمة، وكان أحيانا يرسلان مبعوثين خاصين عنهما لنشر مبادئ طريقتهما ظاهرا وبث أفكارهما السياسية الثورية باطنا وذلك بتحريض الناس على مقاومة السيطرة الاستعمارية الفرنسية [14].

ويظهر من خلال نشاط كل من ابن عبد الله وابن السنوسي أنهما كانا يفكران في العودة إلى الجزائر إذا ما أتيحت لهما الفرصة، خاصة وان أوضاع الجزائر خلال هذه الفترة كانت جد مناسبة للقيام بالثورة ضد المحتلين الغاصبين، فقد رحلت فرنسا عددا من قواتها إلى فرنسا في أعقاب ثورة 1848 التي كانت باريس مسرحا لها، وبقي أتباع أحمد باي-الذي استسلم في 1848- يواصلون نشاطهم الثوري في الجبال. وفي السنة نفسها قامت ثورة الزعاطشة بمنطقة الزيبان، وبدأ ظهور الثائر ابن ناصر بن شهرة. وعليه فقد كان التذمر عاما في كل مناطق البلاد وخاصة الوسطى والشرقية[15].

لم يكن هذا الوضع خافيا عن أعين الرجلين محمد بن علي السنوسي ومحمد بن عبد الله اللذين قررا استغلاله قدر الإمكان، فطلب الشيخ السنوسي من محمد بن عبد الله أن يسبقه

إلى الجزائر ويشرع في الإعداد للعمل الثوري، وعمل كل ما في وسعه لإقناعه بهذه المهمة والمسؤولية الهامة و الخطيرة في نفس الوقت ويؤكد له بأنه أهل لها، كما أكد له بأنه سيلحق به عندما تسعفه الظروف.

بقي محمد بن عبد الله مترددا في القيام بهذا العمل إلا أن تشجيعات وتحفيزات شيخه السنوسي جعلته يقطع حبل التردد ويسلك طريقه إلى الجزائر ،فكان أن خرج من بلاد الحجاز سنة 1849 في اتجاه طرابلس الغرب بمعية حاكمها التركي **عزت باشا** الذي كان يؤدي فريضة الحج. وكان وصولهما إليها في 20 أفريل 1850. ومن طرابلس الغرب اتجه محمد بن عبد الله إلى غدامس ومنها إلى ورقلة واستقر به المقام في زاوية الرويسات [16].

سبق القول أن محمد بن عبد الله التقى في بلاد الحجاز بالسيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية وأن هذا اللقاء كان فرصة لأن يتعرفا على بعضهما بعضا من جهة، وأن يفكران في عمل من شأنه أن يساهم في إنقاذ الجزائر من مخالب الاستعمار من جهة أخرى. وعلية فقد بدأ تأثير السنوسية واضحا على المسار التاريخي لحركة المقاومة التي قادها محمد بن عبد الله.

يذكر الأستاذ أبو القاسم سعد الله: ((**أن الحركة السنوسية كانت وراء عدد من الانتفاضات في جنوب الجزائر، وخاصة بالنسبة لثورة محمد بن عبد الله وثورة الشيخ أمود في بلاد التوارق، وقد نشطت السنوسية في الوقت الذي بدأ العياء يصيب الطرائق الأخرى كالقادرية و الرحمانية والدرقاوية. ونقصد هنا العياء المادي والفكري، أما العياء المادي فكان من أثر استيلاء الفرنسيين على مقدرات البلاد ومن بينها الأوقاف التي كانت المورد الرئيسي للدين والتعليم والأفعال الخيرية، وأما العياء الفكري فإن الطرائق لجأت إلى أسرارها وغموضها بعد الهزائم العسكرية التي منيت بها، وقد أدخلت أدعية وطقوسا ليست من الدين في شيء، بينما كانت السنوسية طريقة حديثة العهد متجددة التعاليم، سنية المنطلق والهدف**)) [17].

إن الروح الاستعمارية الصليبية الحاقدة التي تحلى بها الغزاة الفرنسيون في سبيل تنصير الجزائر وتمسيحها. هذه الروح كانت واحدة من بين أهم العوامل التي أدت إلى ظهور شخصيات تصدت لمحاربة العدو ومواجهته بنفس السلاح أي مجابهة المسيحية المستعمرة بالإسلام المحرر. ولعل من بين أهم هذه الشخصيات وعلى رأسها **محمد بن علي السنوسي** الذي قام بمجهودات كبيرة في سبيل مواجهة الاستعمار الفرنسي، و لم تكن جهوده مجرد أعمال وإصلاحات فردية ماتت بموت صاحبها، بل جاء عمله على شكل حركة منظمة ودعوة واضحة وطريقة متميزة، و لم تكن هذه الحركة ذات مفهوم إقليمي ضيق بل كانت حركة شاملة ذات بعد وحدوي، وجاءت كرد فعل للتحدي الضخم الذي واجه العالم الإسلامي باحتلال الجزائر في معركة غير متكافئة انتهت بسقوطها بين براثن الاحتلال الفرنسي [18].

كان الإمام السنوسي مقيما في الحجاز عندما احتلت فرنسا الجزائر، وكان عمره قد جاوز الأربعين، فهزه هذا الحادث هزا عنيفا ونظر وقتها إلى موجة من الحروب الصليبية قد بدأت بالجزائر وستمضي في طريقها دون توقف. وعليه راح يفكر في عمل جامع من أعمال المقاومة لهذا الاحتلال الغربي الزاحف[19].

يقول الرحالة الفرنسي "**هنري دوفرييه**" **(Henri Duveyrier)** قال: ((**إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في صحراء الجزائر سنة 1850- 1861 وثورة محمد بن تكوك في الظهرة سنة 1881**...))[20].

وعليه وانطلاقا مما تقدم فإن ثورة محمد بن عبد الله كانت واحدة من أهم الثورات التي قامت خلال القرن التاسع عشر ضد المستعمر الفرنسي بالجنوب الشرقي الجزائري، وهي الثورة التي قامت تحت الغطاء السياسي والديني للحركة السنوسية.

2- الوضع في ورقلة قبيل ظهور الشريف محمد بن عبد الله :

إن المتأمل في واقع منطقة ورقلة فيما بين (1830-1854) أي قبل خضوعها للاحتلال الفرنسي، يجد أنها كانت تعيش في وضع لا تحسد عليه في شتى مجالات الحياة وخاصة من الناحية السياسية، فقد تقلص نفوذ الأسرة الحاكمة بعد أن اشتد الصراع بين أفرادها وهي أسرة أعلاهم[21]. ذات الأصول الشريفية والتي حكمت نحو247 سنة (1602-1849). وحين خرج القرار من أيدي هذه الأسرة عم التناحر بين العشائر الثلاث: بني واقين في الحي الغربي، وبنو سيسين في الحي الشمالي، وبنو إبراهيم في الحي الشرقي، ويقطنون هؤلاء جميعا منطقة قصر ورقلة، والتي مازالت محتفظة بهذا الاسم إلى يومنا هذا. والى الشمال من قصر ورقلة كان يوجد قصر انقوصة التي تحكمها عائلة بن بابية. والملاحظ أن سكان القصرين يمثلون الحضر،وخارجهما يوجد البدو الرحل الذين عادة ما كانوا يضربون مضاربهم عند أسوار القصور أو قريبا منها، والملاحظ أن علاقاتهم بالسكان داخل الأسوار كانت وطيدة بفعل المصالح المتبادلة فقد كانوا خدما لبعضهم بعضا، وعليه فقد ارتبطت قبيلة سعيد عتبة بأسرة بني واقين وقبيلة المخادمة ببني سيبسين، وبدو بوروبة ببني إبراهيم [22].

وعليه فقد أصبحت ورقلة تشكل مستودعا ضخما وسوقا عامرة في قلب الصحراء تستقطب إليها القبائل الأخرى مثل الأرباع، أولاد يعقوب، بني علال، أولاد سيدي الشيخ، بنو ميزاب، شعامبة متليلي بالإضافة إلى الطوارق وتجار من غدامس. وهكذا واعتبارا مما لورقلة من هذه الأهمية وهذا الدور الاقتصادي فإن الصراع السياسي بين ورقلة ونقوسة اكتسى أهمية خاصة، وقد ارتبط هذا الصراع بظهور أسرة بن بابية في نقوسة، فخلال الفترة (1842-1851) كان يحكم نقوسة الشيخ الحاج أحمد بن بابية الذي كانت تربطه علاقة صداقة مع سلطان تقرت عبد الرحمن بن جلاب، فراحت فرنسا تعمل على استغلال هذه الصداقة وأوهمت ابن جلاب أنها ستمكنه من بسط نفوذه على كامل الجهة، وظن أنها ستكون وفية لهذا

الأمر،فخرج من تقرت على رأس قوة عسكرية مدعمة من طرف الفرنسيين، وبمساعدة أعراش السلمية، وأولاد مولات، وأولاد السايح، وحاول استظهار قواته على سلطان ورقلة مولاي الطيب غير أن هذه المحاولة كان مآلها الفشل الذريع [23].

بعد فشل فرنسا من خلال هذه الخطة في قهر سلطان ورقلة راحت تبحث عن خطة أخرى للاستيلاء على المدينة، وذلك عن طريق شيخ نقوصة الحاج أحمد بن بابية الذي كان يرغب في السيطرة على ورقلة لاسيما بعد الخور والضعف الذي أصاب أسرة أعلاهم إلى درجة أن أصبح عرش ورقلة شاغرا بعد تنحية السلطان مولاي أحمد سنة 1849 (آخر سلاطين أسرة أعلاهم) [24]. فاستغل الحاج أحمد بن بابية الفرصة وأرسل ابنه بوحفص رفقة عدة بن ساعد (شيخ قبيلة سعيد عتبة) محملين بالهدايا إلى القائد العسكري الفرنسي في تيارت، واظهرا له استعداد الشيخ أحمد بن بابية لمساعدة فرنسا في احتلال ورقلة وإخضاع القبائل المحيطة بها. وكانت النتيجة أن منحت السلطة الفرنسية للحاج أحمد بن بابية في 1849/11/20 لقب خليفة على كامل منطقة ورقلة وأرسلت إليه مائة فارس لإقرار سلطته على المنطقة [25].

رغم المساعدات التي تلقاها بن بابية من فرنسا إلا أن ورقلة ظلت رافضة لحكم الشيخ أحمد بن بابية الذي تحالف مع قوة أجنبية، وهذا ما جعل عرش سعيد عتبة يتخلى عنه وينضم أفراده إلى حركة المقاومة مع عرش الأرباع والحرزلية ضد التواجد الفرنسي الصليبي. وبعد وفاة الحاج أحمد بن بابية خلفه على الحكم ابنه بوحفص الذي ورث لقب الخليفة وحاول من جهته إخضاع ورقلة، غير أن الصراع الذي قام بينه وبين أخيه الطيب لم يسعفه في استكمال المهمة التي بدأها والده، في الوقت الذي كانت فيه ورقلة تستعد لتجاوز مرحلة الصراع الداخلي، ودخول مرحلة مقاومة الاستعمار الفرنسي بزعامة محمد بن عبد الله . وعليه فإن الصراع السياسي بين القبائل المحلية شغل الجميع عن الإعداد والاستعداد لمواجهة العدو الفرنسي، فضلا عن أن هذا الصراع مكن العدو من التدخل في القضايا الداخلية [26].

وفي المجال الاجتماعي أصبح السكان يعيشون حالة من البؤس والحرمان، فلم يكن لديهم سوى مخزون التمر وبعض البقول والحضر التي كانوا يتسابقون إلى جنيها قبل نضجها خوفا من السرقة [27].

في ظل هذه الظروف وصل إلى ورقلة في جويلية 1851 رجل منهك القوى رث الثياب، استقبلته قبيلة بني سيسين مع زوجته التي كانت ترافقه في رحلته، إنه الشريف محمد ابن عبد الله الذي كتب له أن يقود حركة المقاومة ضد التواجد الاستعماري الفرنسي في المنطقة. فمن هو محمد بن عبد الله؟ وكيف تمكن في ظرف وجيز من كسب ود الأهالي؟ وكيف نجح في تنظيم حركة المقاومة؟

3) الدوافع التي أدت إلى قيام ثورة محمد بن عبد الله:

إن المتتبع لحركة الشريف محمد بن عبد الله ليجد أن هذه الحركة الثورية لم تكن حركة عفوية ارتجالية، بل كانت حركة مقصودة ومهيأ لها وأن دوافعها تتمثل في:

أ- محاولته التكفير عن ذنبه عندما عمل في بداية الأمر لدى الفرنسيين الذين عينوه خليفة على تلمسان بصفة رسمية وقد كان له ما أراد فقد حظي بالمنصب المذكور[28].

ب- تعرضه لمضايقات جعلته يدير ظهره لقوات الاستعمار، بل ويعقد العزم على العمل في سبيل تحرير الجزائر من المستعمرين الحاقدين.

ج- التقائه في بلاد الحجاز بالسيد محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية الذي شجعه على ضرورة القيام بعمل ثوري ضد الغزاة الفرنسيين.

د- احتلال فرنسا لأجزاء معتبرة من البلاد ووصولها إلى شمال الصحراء، وارتكابها الأعمال الفظيعة في منطقة الزعاطشة (1849) و الأغواط(1852).

هـ -فشل مقاومة الأمير عبد القادر وكذلك مقاومة أحمد باي مما جعله يعقد العزم على إحياء حركة المقاومة في الصحراء.

و – مواجهة الأطماع الاستعمارية الفرنسية التي كانت تعتقد أن منطقة الصحراء لن تستعصي على قوات الاستعمار.

4- مراحل الثورة وتطوراتها(1842-1895) :

أ- الثورة في مرحلتها الأولى: (1842- 1853)

سبق وأن عرفنا بأن محمد بن عبد الله استقر به المقام في زاوية الرويسات[29] بورقلة، وبقي طوال عام (1850-1851) يراقب الأمور عن كثب ويدرس الأوضاع عن قرب. وفي شهر فيفري 1851 فكر جديا في القيام بأول تجربة ثورية في ميدان المقاومة. وكان رفيق دربه السيّد محمد بن علي السنوسي قد عاد من الحجاز واستقر به المقام في برقة بليبيا وأخذ يراسله من هناك من أجل إيجاد جبهة تؤازره وتؤيده في العمل الذي يعتزم القيام به، وكان من ضمن الذين راسلهم ابن السنوسي زعيم قبيلة المخادمة عبد الله بن خالد الذي طلب منه أن يقف إلى جانب محمد بن عبد الله ويعضده في عمله الثوري، وهكذا وبفضل جهود عبد الله بن خالد ورسائل السنوسي استجاب الناس للعمل وتجندوا تحت لواء محمد بن عبد الله الذي سرعان ما اتسع نفوذه وانتشرت سمعته، واتخذ من ورقلة مركزا ومقرا لنشاطه. وبذلت السيدة الفاضلة الصالحة الحاجة الزهرة دورا كبيرا في استمالة الناس إليه، بل إنها راحت تبلغهم بأنه مبعوث من الله ليكون سلطانا على البلاد ويحررها من الكافرين، وعلى أساس هذه الجهود بايعه الورقليون سلطانا عليهم في شهر أوت 1851[30].

كان أول محاولة قام بها الشريف محمد بن عبد الله لإظهار قواته هي أنه حاول إخضاع أبو حفص شيخ انقوسة لسلطنة ورقلة، غير أن هذا الأخير فر إلى تيارت محتميا بالقادة الفرنسية هناك. وخلال هذه الفترة التف حوله شعامبة متليلي، ثم أنه حاول الاستيلاء على توقرت

التي كان يحكمها- حسب رواية المجلة الإفريقية- سلمان بن جلاب[31]. وتذكر المجلة نفسها كيف أن الفرنسيين تفطنوا-عن طريق عيونهم في المنطقة - لحركة محمد بن عبد الله منذ الوهلة الأولى. وعليه فقد أبلغ العقيد "**كاري**" (**Kari**) قائد منطقة الأغواط السلطات العليا بوجود هذا المرابط في الجنوب [32].

وهكذا وبعد أن أصبح سلطانا على ورقلة، نادى محمد بن عبد الله بالجهاد المقدس ضد الفرنسيين وأتباعهم من القبائل الخائنة والعميلة ، فسارعت كل قبائل وأعراش ورقلة من شعامبة ومخادمة وبني ثور لتلبية هذا النداء والالتفاف حول القائد الجديد الذي استطاع في ظرف قياسي أن يكون جيشا تعداده 100فارس و300جندي من المشاة، وكان أول عمل عسكري قام به في 1851/09/21 عندما زحف نحو الشمال وهاجم قبيلة أولاد مولات بمنطقة سطيل (تبعد عن مدينة تقرت حوالي 120كم شمالا) على حين غفلة منهم باعتبار أنهم كانوا موالين لفرنسا، ووقع الاشتباك بين الطرفين انتهى بتأديب هذه القبيلة وقتل 11 فارسا منها وجرح 15 وسبي نحو 800 رأس من الإبل، ثم قفل راجعا إلى ورقلة فاتجه نحو منطقة العالية(حوالي 80كم شمال ورقلة) والتحق به أولاد سيدي سليمان وأكثر من نصف أولاد السايح. وفي طريقه إلى ورقلة هاجم قصر نقوصة [33] .

عاد الشريف محمد بن عبد الله إلى ورقلة واهمك في بناء قصره بالرويسات، وفي ذات الوقت راح يحض الناس ويدعوهم للالتحاق بصفوفه من أجل تقوية حركة المقاومة، كما أنه أرسل الوفود إلى مختلف الجهات لنفس الغرض. ومع بداية شهر أكتوبر 1851 توجه ابن عبد الله نحو تقرت على رأس جيش قوامه 100 فارس و9000 من المشاة غالبتهم من الشعامبة والمخادمة وبني ثور وسعيد عتبة [34] وتيماسين، وعند واحة تيماسين (حوالي10كم جنوب تقرت) تقابل عبد الرحمن الجلابي سلطان تقرت الذي كان على رأس 600 فارس و150 من المشاة بجيش محمد بن عبد الله، وتمكن الجلابي في الجولة الأولى من المواجهة من ترجيح الكفة لصالحه، والحق بجيش ابن عبد الله خسائر تقدر بـ30 قتيل و8جرحى ومع ذلك فقد اضطر للتراجع في الجولة الثانية بعد أن خسر 80رجلا و25 جوادا فضلا عن الخسائر المادية الأخرى. ومما يسجل في هذا الصدد أن أهل تيماسين سجلوا موقفا تاريخيا يبقى محفوظا لهم، حيث أنهم وقفوا إلى جانب الشريف محمد بن عبد الله وجعلوا من بساتينهم دروعا لحماية الثوار، بل إنهم رفضوا الانصياع والاستماع لشيخ الزاوية التيجانية محمد العيد التجاني الذي طلب منهم الوقوف على الحياد[35]. وعليه وبالإضافة إلى تأييد سكان تيماسين فقد كسب الشريف محمد بن عبد الله تأييد شعامبة متليلي أيضا.

بعد فشله في الاستيلاء على إمارة بن جلاب في تقرت أدرك الشريف محمد بن عبد الله أنه لا يمكن إحكام سيطرته على بلاد الصحراء دون الاعتماد على قبيلة عظمى وقوية، ويبدو أنه وجد ضالته في قبيلة الأرباع قرب الأغوا ط والتي كان يقودها الثائر ابن ناصر

ابن شهرة[36] الذي كان مهتما بمحاربة الباشاآغا الشريف بلحرش الذي عينته فرنسا على منطقة الجلفة وكذلك صهره أحمد بن سالم الذي نصبته خليفة على الأغواط.

من خلال استطلاع الأحداث يتبين أن الثائر ابن ناصر بن شهرة تحمس كثيرا لفكرة الانضمام لحركة محمد بن عبد الله، ولا أدل على ذلك من تلك الرسالة التي أرسلها إلى سي الشريف بلحرش يدعوه فيها إلى ضرورة التراجع عن موقفه من الاستعمار والانضمام إلى محمد بن عبد الله، حيث قال له : ((**إلى صاحبنا سيدي محمد الشريف، السلام عليكم من إخوانكم جماعة الأرباع وبخاصة الأغا ابن ناصر، سعد بن مبارك ... إلخ. نعلنكم أن جماعة سيدي محمد بن عبد الله قد وصلت ومعها جماعة المخادمة والشعامبة. ونحن قد تحالفنا معهم بكل الود لأنه لم يعد لنا ما نأمله من دولة الفرنسيين ونحن إنما نريد التقرب إلى الله، إننا نعتبركم إخوانا لنا وبضعا منا كما تعتبروننا بضعا منكم، ولهذا فمن غير المجدي توصيتكم والسلام**))[37].

لم يكترث الشريف بلحرش لمضمون هذه الرسالة وبقي مصرا على موقفه المعادي للحركات الثورية، في حين أن ابن ناصر بن شهرة وقع تحالفا مع الشريف محمد بن عبد الله، وعلى إثر هذا التحالف خرج محمد بن عبد الله من ورقلة في أواخر 1851 على رأس جيش متكون من قبائل سعيد عتبة وشعامبة بوروبة(ورقلة) وشعامبة المواضي الذين قدموا من المنيعة للالتحاق به، وكان وجهة الشريف ابن عبد الله نحو أولاد سعد بن سالم في أولاد نايل، واستطاع أن ينتصر عليهم وأخذ منهم 50 رأس من الإبل و400 رأس من البقر وأكثر من 400 رأس من الغنم، ثم أخذ يستعد لغزو مدينة بريان الميزابية، وكاتب بقية المدن الميزابية يطلب منهم الخضوع وتقديم فروض الولاء والطاعة لسلطته. غير أنهم رفضوا ذلك بل إنهم أعلنوا استعدادهم لمحاربته، وتحدوه قائلين له: ((**إذا أرادت القتال فاتجه للفرنسيين مباشرة أعداء البلاد**))[38].

خلال هذه الفترة كان الباشآغا سي الشريف بلحرش والخليفة أحمد بن سالم (خليفة الأغواط) وأغا جبل عمور بعد أن وحدوا جهودهم يتهيئون لمهاجمة الشريف محمد بن عبد الله، لكن الغيرة الوطنية والروح التحررية عند الأهالي – وخاصة الأرباع – جعلتهم يرفضون مقاتلة محمد بن عبد الله بعد أن عرفوا حقيقته وأدركوا مدى حرصه على توحيد كلمة السكان لمواجهة الاحتلال الفرنسي، وعليه فلم يواجهه سوى الشريف بلحرش خوفا على نفسه وأملاكه وحرصا منه لإبراز خضوعه وولائه لفرنسا. وعليه فقد كانت النتيجة أن تكبد بلحرش خسائر فادحة ،ولم يجد بدا سوى الفرار بنفسه[39].

وهكذا وأمام تطور الأحداث وتعاقبها وعصيان قبيلة الأرباع وشقها عصا الطاعة، وبالتالي انضمامها لصفوف الشريف محمد بن عبد الله بدأت السلطات الاستعمارية تتحرك لإعادة تنظيم سلطة الباشآغا الهارب سي الشريف بلحرش فأمرت اللواء "**لادميرول**" (Ladmirault) قائد مقاطعة المدية بمهاجمة أولاد سيدي الشيخ الذين ما فتئ حقدهم ينمو تجاه الفرنسيين

الذين أحسوا بأنهم أحيط بهم من كل جانب[40]، خاصة وأن الخليفة حمزة زعيم أولاد سيدي الشيخ قد انضم إلى ثورة الشريف محمد بن عبد الله منذ مارس 1852، وهو الشهر الذي غزا فيه الشريف محمد بن عبد الله الأغوا ، غير أن الحظ لم يسعفه في الدخول إليها فقفل راجعا إلى ورقلة ليتوجه مباشرة لغزو إمارة بن جلاب في منطقة تقرت مرة أخرى. وكان قد أعد جيشا قوامه 100 فارس و900 من المشاة لنصرة حليفه سلمان الجلابي ضد ابن عمه السلطان الطفل عبد القادر بن عبد الرحمن الجلابي الذي لم يكن عمره يتجاوز 8 سنوات وكان تحت وصاية أمه **لالا عيشوش** وحماية السلطة الفرنسية. وقد استطاع الشريف محمد بن عبد الله أن ينتصر على الجلابيين ويمكن لسلمان الجلابي من العودة إلى الحكم الذي يرى أنه أخذ منه غصبا. وأصبح بذلك سلطانا على تقرت. وهذا الانتصار يعتبر في حد ذاته انتصار للشريف محمد بن عبد الله [41].

بعد أن انتصر على الجلابيين في تقرت راح ابن عبد الله يعد نفسه للتوجه إلى منطقة الأغواط في محاولة منه لتخليصها من عملاء الفرنسيين وعلى رأسهم الخليفة أحمد ابن سالم. وقد أدرك الفرنسيون خطورة حركة محمد بن عبد الله ونيته المبيتة ضدهم وضد عملائهم فأخذوا يعملون وبشتى السبل والوسائل من أجل إحباط أي خطوة يقوم بها. وعليه فقد قام الجنرال "**راندون**"(RANDON) بتجنيد ثلاث فرق وجعلها في حالة استنفار قصوى لمواجهة محمد بن عبد الله، وجيء بهذه الفرق الثلاث من وهران ومعسكر والمدية، كانت الفرقة الأولى بقيادة الجنرال يوسف (**اللقيط يوسف كما يصفه أبوالقاسم سعد الله**)[42] تمركزت بالجلفة. وكانت الفرقة الثانية بقيادة الجنرال "**بليسييه**" (**Pélissier**) تمركزت بالبيض. وأما الفرقة الثالثة فكانت بقيادة **مكماهون** كلفت بحماية منطقة بسكرة والواحات الشرقية وقسنطينة [43].

في 1852/10/04 خاض الشريف محمد بن عبد الله وابن ناصر بن شهرة وأتبعهم معركة كبيرة في عين الرق قرب **غدير مزي** قريبا من الأغواط ضد الفرنسيين، الذين قتل منهم 200رجلا وغنم 20 ألف رأس غنم وألفي بعير، فكان أن فر ح سكان الأغواط فرحا عظيما واستقبلوا الشريف محمد بن عبد الله استقبال الفاتحين[44].

كان لهذه الهزيمة أثرها البالغ على نفوس الفرنسيين باعتبارها أول مواجهة مباشرة تحدث بينهم وبين الشريف محمد بن عبد الله، وكانت بمثابة النكسة التي لا تنسى. وعليه وسعيا نحو الانتقام من هذا الأخير استقدم الفرنسيون نجدات أخرى من البيض بقيادة "**بليسييه**" (Pélissier)، ووصلت إلى الأغواط في 1852/12/02، وقامت بشن حملة واسعة النطاق على المدينة يوم 1852/12/04 كانت في منتهى الوحشية[45]، فقد استعمل خلالها العدو المدافع وارتكب جنوده أعمالا فظيعة ضد السكان ،وجرح محمد بن عبد الله الذي اضطر إلى مغادرة الأغواط والعودة إلى ورقلة بعد أن تمكن من قتل ضابطين فرنسيين أحدهما برتبة جنرال يسمى "**بوسكران**" (Pouscaren)[46]. ومما يلفت الانتباه أن الفرنسيين عندما احتلوا

مدينة الأغواط ارتكبوا أعمالا في حق السكان يشيب من هولها الولدان، فاستحلوها لجنودهم ثلاثة أيام يقتلونهم بالجملة عشرة فعشرة، حتى حفيت السيوف، ومارس الجنود النهب والسلب بحلي النساء والاعتداء على شرفهن[47].

وهكذا وعلى الرغم من النتيجة السلبية التي أسفر عنها القتال في مدينة الأغواط، ونجاح فرنسا في كسب حياد بني ميزاب، فإن الشريف محمد بن عبد الله قد استمر في نشاطه الثوري و لم يعرف اليأس إلى طريقه سبيلا. فبعد أن عفي من جروحه خرج في مطلع 1853 على رأس قبائل الشعامبة والأرباع والحرزلية بالاستيلاء على مواشي قبائل السوامة ورحمان في جنوب الزيبان والخاضعة للقائد الحاج أحمد بن قانة المتعاون مع فرنسا، كما قام بهجمات برفقة سي النعيمي على المنطقة المحصورة بين الأغواط والبيض والاستيلاء على مواشي أولاد سعيد ابن سالم التابعة لأولاد نايل[48].

وفي 1853/09/14 اشترك محمد بن عبد الله مع سي النعيمي ولد سيدي الشيخ في محاولة لغزو الأغواط مرة أخرى وذلك في يوم عيد الأضحى، وفي طريقهما إلى الأغواط خاضا عدة معارك في متليلي وتاجرونة[49]. وهكذا وأمام عودة ابن عبد الله إلى المنطقة فإن الفرنسيين سارعوا إلى تجنيد قوة كبيرة أسندوا قيادتها إلى سي حمزة الذي كان قد تحالف مع الفرنسيين ضد أخيه سي النعيمي، فتوجه بها من البيض يوم 1853/11/03، وكان تعدادها حوالي ألفي رجل، وحصلت عدة اشتباكات بين الطرفين كانت نتيجتها أن أخضع سي حمزة قصر متليلي ومنطقة وادي ميزاب ثم دخلت قواته إلى ورقلة أين جرت معركة بوسروال[50] (جنوب الرويسات) التي انتهت بهزيمة محمد بن عبد الله وجرح ابن ناصر بن شهرة اللذين توجها إلى نفطة بتونس وبقيا بها عدة شهور.

ب– الثورة في مرحلتها الثانية:(1853–1864)

بدءا من 1854/01/27 أصبحت مدينة ورقلة تحت النفوذ الفرنسي، ففي هذا اليوم دخل الكولونيل "**دوريان** " (Durrien) إلى ورقلة وتسلمها من سي حمزة إيذانا بخضوعها للفرنسيين، وبعد دخوله مباشرة ألزم السكان بدفع ضريبة سنوية تقدر بـ2000فرنك. وكانت الخطة التي رسمها "**راندون**" (RANDON) تتمثل في الضغط باستمرار على الثوار، وإقناع القبائل الموالية لفرنسا بضرورة محاصرة القبائل الثائرة[51].

كان سقوط ورقلة في أيدي الفرنسيين مقدمة لسقوط تقرت هي الأخرى، إذ أنه لم يمض وقت كبير حتى أحكم الاحتلال قبضته عليها. وعليه فقد تمكن الفرنسيون من احتلال منطقة شمال الصحراء برمتها. وفي هذا الوقت كان الشريف محمد بن عبد الله المتواجد بالبلاد التونسية يعد نفسه من جديد لاستئناف العمل الثوري، بل إنه اتخذ من تونس منطلقا لضرب المصالح الاستعمارية، الأمر الذي جعل هذه الأخيرة تتضايق منه وتكاتب باي تونس تطلب منه أن يعمل على وقف نشاط هذا المتمرد أو المشوش كما اعتاد المستعمرون تسمية كل من يحمل السلاح ضد فرنسا ويحرض الشعب على مواجهتها. وعليه وأمام هذه الضغوط

الفرنسية فإن **أحمد باشا** باي تونس أرسل إلى قنصل فرنسا بتونس، يقول له: ((**أنه يعلم بأمر الرجل الذي قدم من المغرب، وأنه أعطى الأمر بطرده وعدم قبوله في عمالة تونس**))[52].

وفي رسالة أخرى إلى نفس القنصل قال له باي تونس: ((...**أما بعد فإن رجلا من تلمسان اسمه الشريف محمد ابن عبد الله قدم إلى أطراف بلادنا من ناحية الجريد وأمرنا بطرده وعدم قبوله وابلغه بعد ذلك بأنه عازم على استعمال القوة لطرده من إيالته حتى ولو لم يصدر منه شي ء...**)) [53].

أمام المضايقات التي تعرض لها الشريف محمد بن عبد الله من قبل باي تونس – وبعد عدة شهور قضاها في تونس – عاد إلى الجزائر في سبتمبر 1854، فاتجه نحو ورقلة بعد أن اصطحب معه سلمان بن جلاب، غير أن حاكم ورقلة سي الزبير ولد سيدي الشيخ قاومهما وأرغمهما على الانسحاب، فاتجه ابن عبد الله وسلمان بن جلاب شمالا نحو وادي ريغ، إلا أن القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل "**ديفو**" الذي قدم من بوسعادة – اعترضتهما في منطقة المقارين (شمال تقرت) يوم 1854/11/29 والملاحظ أن الشريف محمد بن عبد الله وسلمان بن جلاب هما اللذان بادرا بالهجوم على القوات الفرنسية في المقارين وحصلت بين الطرفين معركة كبيرة، واعتبارا للتفوق في العدة والعتاد فقد نجح الفرنسيون في ترجيح الكافة لصالحهم. وعلى إثر هذه الهزيمة انسحب ابن عبد الله وصاحبه بن جلاب إلى تقرت، وحتى لا يقعا تحت الحصار الفرنسي ومخافة الاعتقال غادرا تقرت إلى منطقة وادي سوف ومنها إلى الجريد بالجنوب التونسي مرة أخرى. وعليه فقد تمكن القائد"**ديفو**" من الدخول إلى مدينة تقرت واحتلالها في 1854/12/05[54].

بعد احتلالهم للأغواط وورقلة وتقرت راح الفرنسيون يعملون على توسيع نفوذهم في بقية المناطق الصحراوية ولا سيما في الواديين (وادي ريغ، وادي سوف)، أما ابن عبد الله فقد بقي في تونس إلى غاية 1858 ثم عاد مرة أخرى إلى الجزائر[55].

بعد عودته من تونس إلى الجزائر(1858) اتجه الشريف محمد بن عبد الله إلى منطقة توات (قرب أدرار) وبقي بها مدة ثم اتجه نحو الأغواط في محاولة لتحريرها من الفرنسيين، وكان جل اهتمامه منصبا على الباشآغا سي بوبكر بن سي حمزة الذي كان الفرنسيون قد عينوه حاكما على الأغواط، غير أن هذا الأخير وبدعم من الفرنسيين أخذ يطارد ابن عبد الله حتى تمكن من محاصرته في العرق الغربي بين بوسروال وقرن الحاج (غير بعيد من ورقلة)، وانتهى الأمر باعتقال الشريف محمد بن عبد الله في أواخر 1861، وتم تسليمه للفرنسيين الذين نفوه إلى فرنسا وفرضوا عليه الإقامة الجبرية في سجن عسكري بساحة "**دوبيرقون**" (**De pourigon**) في جزيرة كورسيكا [56].

بعد مدة زمنية تقدر بنحو سنتين قضاها الشريف محمد بن عبد الله تحت الإقامة الجبرية في جزيرة كورسيكا الفرنسية بالبحر المتوسط، عاد إلى الجزائر، غير أن الأستاذ يحي بوعزيز يطرح عدة تساؤلات بقوله: ((**لا ندري كم بقي محمد بن عبد الله في السجن أو الإقامة**

الجبرية في فرنسا؟ كما لا ندري متى وكيف أطلق سراحه؟ ولا أين ذهب بعد ذلك؟))[57]
إلا أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله يزيل هذا الغموض ويجيب عن هذه الاستفهامات بقوله: **((...ثم نقل منها إلى سجن عنابة بعد أن داهمه المرض، ونحن نعرف أنه قد حل بعنابة سنة 1863 شبه ميت))**[58].

وعليه ومهما يكن من أمر فقد ظهر الشريف محمد بن عبد الله من جديد على مسرح الأحداث بعد اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864[59]، وهي الثورة التي قادها **سي سليمان** أحد أبناء سي حمزة. وظل ابن عبد الله بعض الوقت يقاتل مع الثائرين.

ج- **الثورة في مرحلتها الثالثة : (1864-1895)**

وفي 1864/09/10 اشترك محمد بن عبد الله مع أولاد خليفة في مهاجمة واحة ليشانة بالزاب الشرقي، ومن هناك عبروا جميعا الحدود إلى نفطة حيث التقى هناك بثوار أولاد **سيدي عبيد**، وقادهم يوم 1864/09/20 إلى نفرين واستطاعوا أن يقتحموها. وفي أواخر سبتمبر من نفس السنة هاجم محمد بن عبد الله سكان العلاونة الذين كانوا يعترضون حركته وأرغمهم على الالتجاء إلى جبل الجرف. وخلال هذه الفترة وفي نفس المنطقة خاض الشريف محمد بن عبد الله **(معركة الركيز)** ضد قوات فرنسية وهزمها وقضى على معظم جنودها ماعدا أفراد قلائل الذين نجوا بعد وصول نجدات من بلدة الشريعة[60].

بعد هذه المعركة التي استرجع من خلالها الشريف محمد بن عبد الله بعض أنفاسه اتجه نحو **بئر العليق** أين حظي بأتباع زاوية سيدي عبيد الذين دعموا حركته وبايعوه وهنئوه على الانتصار الذي حققه على الفرنسيين في منطقة الجرف، ثم أنه راح يتقدم نحو **جبل دايي** وهناك وجد تأييدا من **أولاد رشاش**، وكان أكبر من انضم إليه خلال هذه الفترة **عمر ابن مسعود الكوماتي** الذي كان قد أعلن حركة ثورية في جبل **مستيوة** بالأوراس عام 1867[61]. وعلى إثر اندلاع ثورة المقراني(1871) راح محمد بن عبد الله يضم جهوده إلى جهود المقرانيين، كما أنه كثف اتصالاته بأصحابه ورفقاء دربه فاتصل بابن ناصر بن شهرة في تقرت كما اتصل بالشريف بوشوشة في ورقلة، ثم أنه اتصل بمحي الدين ابن الأمير عبد القادر الذي قدم متخفيا من طرابلس إلى نفطة ونفزاوة ومنها إلى تبسة ليتزعم الثورة هناك[62].

لم يمض وقت طويل حتى غادر الشريف محمد بن عبد الله المنطقة يوم 1871/10/12 واتجه إلى منطقة الكاف في تونس[63]. وكانت حادثة العربي المملوك سببا كافيا لجعل بآي تونس يعتقله ويضعه في السجن بضع سنين. فما المقصود بهذه الحادثة؟ وكيف كان أثرها على الشريف محمد بن عبد الله؟

كان **العربي المملوك** أحد رجال الصبايحية الذين صنعتهم فرنسا إذ عينته قائدا على منطقة **وادي سوف**،فكان أن عمل على تنفيذ السياسة الاستعمارية القائمة على تطويع السكان وإرهابهم، وكان يسلك سياسة القسوة والغطرسة في معاملته لهم مما جعلهم يفكرون في كيفية التخلص منه. فحدث في سنة 1873 أن كان العربي المملوك في إجازة، فاتجه مع أفراد عائلته

لزيارة بعض أصدقائه فاعترض طريقه مجموعة من الأشخاص – وفي مقدمتهم **حميد الطـــرودي السوفي** – فقتلوه هو وزوجته وابقوا على حياة ابنيه الصغيرين. ثم إنهم أخذوا أمتعته واتجهـــوا مسرعين إلى داخل الحدود التونسية [64].

عندما وقعت هذه الحادثة كان الشريف محمد بن عبد الله مقيما في **قرية العوينة** في منطقـــة **دوري** في **نفزاوة بالمرازيق** بالجنوب التونسي، فاتجه إليه هؤلاء الأشخاص الذين قتلوا **العـــربي المملوك** فاستقبلهم أحسن استقبال واستضافهم، واعتبر عملهم هذا امتدادا للنـــشاط الثـــوري الذي كان يقوم به. وكان ابن عبد الله يدرك أن استقباله لهؤلاء من شأنه أن يسبب له مشاكل ويتهم بالتحريض والمشاركة في عملية الاغتيال. وعليه فإن السلطات الفرنسية بعـــد علمهـــا بمقتل **العربي المملوك** احتجت بشدة لدى باي تونس وحكومته، وطلبت منـــهم أن يقبـــضوا على القتلة ويسلموهم إليها.فما كان من الحكومة التونسية – وتحـــت الـــضغط الفرنـــسي – إلا أن بذلت كل ما في وسعها من أجل تلبية هذا الطلب، فأرسلت إلى حاكم المرازيق أحمـــد ابن حمادي تطلب منه القيام بمهمة البحث عنهم وعن الأمتعة التي بحوزتهم، وظلـــت الأجهـــزة الأمنية ولمدة ثلاث سنوات تبحث عنهم حتى تم اكتشاف أمرهم والعثور عليهم وهـــم تحـــت كفالة الشريف محمد بن عبد الله، فقام رجال الأمن بمهاجمة بيته – وكان غائبـــا – ووجـــدوا الأمتعة فأخذوها وقاموا في نفس الوقت بنهب الحلي والأصواف وغيرها[65].

عندما علم ابن عبد الله – وكان في منطقة بوفليحة يقضي فصل الربيع مع عائلته وأغنامه – بالخبر أدرك أنهم سيعملون على اعتقاله، فرحل إلى **أولاد باب** قرب الحدود الطرابلسية. ولما علم حاكم **نفزاوة** بمكان وجوده اتجه إليه واستعمل معه الحيلة للقبض عليه، فقد ادعى الحاكم بأنـــه يريد منه أن يتوسط له لإزالة الخلاف القائم بينه وبين أولاد باب الذين يقيم عندهم، فانطلـــت الحيلة عليه وذهب معه، غير أنه في الطريق قيده وأسرع به إلى **نفزاوة** وتم وضعه رهن الاعتقال لمدة عدة شهور، إلى أن توسط له عامل إقليم **نفات** علي بن خليفة لدى باي تـــونس فـــأطلق سراحه ووضع تحت كفالة هذا الأخير شريطة أن لا يقوم بأي عمل سياسي. غير أنه لم يمـــض وقت كبير حتى رفعت عنه الإقامة الجبرية في **نفات**، وعاد إلى مترله في قرية العوينـــة بنفـــزاوة ليعيش عيشة متواضعة بعيدا عن الحرب وأدواتها والسياسة وإغراءاتها.

5- نتائج الثورة :

من خلال المراحل السالفة الذكر يمكن القول أن حركة المقاومة الثورية التي قادها الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الجزائرية قد تركت بصماتها وأثارها ليس على مستوى المنطقـــة فحسب، بل على مناطق كثيرة من البلاد، ويمكن أن نلخص هذه النتائج والبصمات في :

أ – التفاف الشعب حول حركة المقاومة، فما من منطقة كان يحل بها بن عبد الله إلا ويجد تأييدا شعبيا كبيرا.

ب- إنهاك القوات الاستعمارية الفرنسية التي كانت تعتقد في كـــل مـــرة أنهـــا قـــضت على حركة بن عبد الله فإذا بها تتفاجأ أن هذه الحركة قد نبعت في منطقة أخرى.

ج- طول أمد حركة المقاومة مما يدل دلالة واضحة على قوتها واستمراريتها في سبيل تحقيق أهدافها و لم تنته إلا بنهاية قائدها وزعيمها.

6- نهاية الشريف محمد بن عبد الله :

في منتصف 1881 تمكنت فرنسا من احتلال تونس. وعلى أثر هذه التحولات أدرك محمد ابن عبد الله أن السلطات الاستعمارية سوف لن ترحم شيخوخته إذا ما تمكنت منه فاتجه إلى **قرية العوينة** نحو الحدود التونسية الطرابلسية وبقي هناك مدة ثم عاد إلى الجنوب التونسي إلا أن الظروف لم تسمح له بالعودة إلى العوينة ،فبقي يتنقل بين منطقة بوفليجة والجفارة بالصحراء التونسية إلى أن أدركته المنية عام 1895[66]. وعلى اثر وفاته تم نقل جثمانه إلى قرية **دوز** بتونس(بو**لاية قبلي حاليا**) ودفن هناك. وبذلك انتهت حياة هذا الرجل البطل، وهي حياة قضاها في مقاومة الظلم والظالمين ورد كيد المعتدين، وكانت كلها جهادا متواصلا دام نصف القرن، وشمل الجزائر وتونس وطرابلس، فكان بذلك أحد رواد المقاومة في منطقة المغرب العربي، كيف لا وقد صنعته الحركة السنوسية على عينها وغذته بأفكارها ومبادئها.

الخاتمة

من خلال العرض المتقدم يمكن القول أن الحركة الثورية التي قادها الشريف محمد بن عبد الله في الجنوب الشرقي من الصحراء الجزائرية، وخاصة في منطقة ورقلة وما جاورها قد تركت أثارها الواضحة ونتائجها البينة التي يمكن أن نلاحظها فيما يلي:

فشل محاولة فرنسا استمالة الشريف محمد بن عبد الله إلى صفها رغم المحاولات والإغراءات، وأن انضمامه إليها في بداية الأمر كان خطأ تاريخيا سرعان ما استدركه.

تأثير الحركة السنوسية ممثلة في شخص مؤسسها محمد بن علي السنوسي في حركة محمد ابن عبد الله ودفعه لرفع لواء حركة المقاومة في الصحراء الجزائرية.

ج- شمولية حركة المقاومة التي قادها الشريف محمد بن عبد الله حيث أنها شملت مناطق مختلفة من الصحراء الجزائرية بل وامتدت حتى الحدود التونسية.

د- الالتفاف الشعبي حول حركة المقاومة مما يدل دلالة واضحة على أصالة الشعب الجزائري ورفضه للاستعمار، وبالتالي مساندته للحركات الثورية.

هـ - البعد المغاربي لهذه الحركة الثورية فقد كان بن عبد الله في أكثر من مرة يتجه إلى تونس ويتخذ منها منطلقا لتجديد حركته الثورية، بل إنه أنهى حياته بتونس.

الهوامش :

(1) إبراهيم مياسي ، توسع الاستعمار في الجنوب الغربي الجزائري(1881-1912) ،الجزائر منشورات المتحف الوطني الوطني للمجاهد ، 1996 ص 86 .
(2) نفســــــــه ، ص 80 .
(3)جمال قنان ،قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ،الجزائر ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994، ص 140 .
(4) Charles André julien-histoire de l'Algérie contemporaine (1827-1871). 2éme Edition, Paris , 1979, pp.342-351.
(5) يرى الأستاذ أبو القاسم سعد الله أن اسمه الحقيقي إبراهيم بن أبي فارس ،وبعد مبايعته سلطانا على ورقلة أصبح يعرف باسم الشريف محمد بن عبد الله إخفاء لاسمه الحقيقي لدى السلطات الفرنسية، وإضفاء للطابع الديني على حركته كوسيلة لتجنيد العامة ،وقد يساعده ذلك كونه عائدا لتوه من بلاد الحجاز أرض الإسلام الأول ، وكان ابن عبد الله يضيف كلمة المدني لتوقيعه الرسمي ، ولعل ذلك إشارة إلى المدينة المنورة التي كان قد أقام بها فترة من الزمن. أنظر :أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج1، القسم الأول، الطبعة الأولى ، الجزائر 1992، ، ص ص355-357.
(6) يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، منشورات المتحف الوطني المجاهد ، الجزائر ، 1996،ص 150 .
(7) إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ، 1983، ص 113
(8) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص150 .
(9) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 114 .
(10) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 151 .
(11) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 115 .
(12) نفســــــــه ، ص 115 .
(13) يذكر المؤرخ يحي بوعزيز أن محمد بن عبد الله اشترك مع الشيخ السنوسي في تأسيس هذه الزاوية، وهذا يبدو غير صحيح لأن الزاوية المذكورة تأسست سنة 1837. وفي هذه السنة لم يكن محمد بن عبد الله معروفا أصلا حتى في تلمسان أنظر: يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص152 .
(14) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ،ص 116 .
(15) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 153 .
(16) نفســــــــه .154
(17) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص ص 173-174 .
(18) محمد بن معمر، ((علاقة السنوسية بثورة الشريف محمد بن عبد الله)) ، أشغال ملتقى مقاومة الشريف محمد بن عبد الله
بورقلة (1842-1895) جمعية الانتفاضة الشعبية 27 فبراير ، ورقلة ، فيفري 1998 ص 61 .
(19) نفســــــــه .ص61 .
(20) علي محمد محمد الصلابي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا ، دار التوزيع والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005 ، ص 45 .
(21) كان مولاي أعلاهم أول سلطان من سلاطين فاس نصب على ورقلة عام 1602 ، وكان الصراع بين الأسر الثلاث في ورقلة(بني سيسين ، بني إبراهيم ، بني واقين) السبب الرئيس في استقدام مولاي أعلاهم بعد أن دفعوا وزنه ذهبا ، أنظر: عبد الحميد زوزو ، محطات في تاريخ الجزائر ، بوزريعة ، دار هومة للطباعة والنشر ،الجزائر، 2004، ص61.
(22) نفســــــــه ، ص 87 .

(23) عبد الحميد نجاح ، منطقة ورقلة وتقرت وضواحيهما من مقاومة الاحتلال حتى الاستقلال، منشورات جمعية الوفاء للشهيد تقرت، ورقلة ، الآمال للطباعة ،2003 ،ص 26 .
(24) نفســــــــه ، ص 27 .
(25) عبد الحميد زوزو ،المرجع السابق ، ص 94 .
(26) نفســــــــه ص 95.
(27) Charles Féraud, ((Les Ben-djellab, Sultans de Touggourt, Notes historiques sur les Provence de Constantine)) in Revue Africaine, n°30 (1886) pp.433-434.
(28) الأمير محمد ، المرجع السابق ، ص ص 263-267 .
(29) تقع الرويسات جنوب ورقلة ، وهي عبارة عن تجمع سكاني وسط غابة من النخيل وإلى الشمال منها يوجد جبل كريمة (تعرف بقارة كريمة) وبسفح هذا الجبل توجد من النخيل وهي ملك لبني سيسين . أنظر: ابن يوسف تلمساني، دراسة وصفية اجتماعية لواحة ورقلة من خلال تقرير فرنسي ،مدونة أشغال ملتقى مقاومة الشريف ابن عبد الله ، جمعية 27 فبراير، ورقلة 1998 ، ص 111 .
(30) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 118 .
(31) وهذا يبدو غير صحيح لأن سلمان الجلابي في هذه الفترة كان قد عزله الفرنسيون وعينوا ابن عمه عبد الرحمان الجلابي ، وانضم سليمان إلى صفوف محمد بن عبد الله . أنظر : يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 154 .
(32) E.Mangin. ((Notes Sur L'histoire De Laghouat)), in Revue Africaine, n°38 (1894), p275
(33) عبد الحميد نجاح ، المرجع السابق ، ص29 .
(34) نلاحظ كيف انقلبت سعيد عتبة ضد بني بابية والفرنسيين معا وأيدت حركة محمد بن عبد الله وذالك لارتباطها بقبائل الحرازلية والأرباع المؤيدة للحركة ، أنظر: إسماعيل العربي ، المرجع السابق، ص 98 .
(35) عبد الحميد نجاح ، المرجع السابق ، ص 29 .
(36) ولد سنة1804 قرب ورقلة ، وكان قادريا ، أعلن الثورة ضد الفرنسيين واعتقل سنة 1851 ، وشارك في ثورة الشريف ابن عبد الله وكذالك في ثورة أولاد سيدي الشيخ عام 1864 ،وثورة المقراني 1871، اضطر أن يتجه إلى تونس ومن هناك راح يناوش الفرنسيين ، فنفاه باي تونس،فاتجه إلى دمشق والتحق بالأمير عبد القادر . توفي بدمشق سنة 1884. أنظر : أحمد بن أبي زيد قصيبة . ((ابن ناصر بن شهرة ، أحد أبطال ثورة 1871))، مجلة الأصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر، 1972 العدد 6 ، ص ص 56- 57 .
(37) E.Mangin ((Notes Sur L'histoire De Laghouat)), in Revue Africaine, n°38 (1894), p27
(38) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 118 .
(39) عبد الحميد نجاح ، المرجع السابق ، ص 30 .
(40) نفســــــه ، ص30.
(41) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 358 .
(42) نفســــــه، ص 359 .
(43) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 155 .
(44) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ،ص ص 119- 120 .
(45) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص156 .
(46) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 35
(47) Charles André Julien .op-cit,pp 390-393.
(48) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق ، ص ص 99- 100 .
(49) كان سي حمزة متعاطفا مع حركة محمد بن عبد الله لكنه أخلص للفرنسيين فيما بعد . أنظر :
E.Mangin, ((Notes Sur L'histoire De Laghouat)), in Revue Africaine, n°38 (1895) p32.
(50) عبد الحميد زوزو، المرجع السابق ، ص 101.

(51) نفســــــه ، ص ص 100-101.
(52) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 121 .
(53) نفســــــه ، ص 122.
(54) عبد المجيد بن نعمية ، مواقف شيوخ بني جلاب من الاحتلال الفرنسي ، الملتقى التاريخي الثالث ، حكم بني جلاب لمنطقة وادي ريغ ، جمعية الوفاء للشهيد ، ص 127 .
(55) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 158 .
(56) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 122.
(57) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 158 .
(58 أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 362 .
(59) سعيد بورنان ، ا شخصيات بارزة في كفاح الجزائر ، ،الجزء الأول، الطبعة الثانية ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، تيزي وزو، الجزائر ، 2004 ، ص 161.
(60) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 159 .
(61) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 124 .
(62) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 362 .
(63) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 160 .
(64) إ سماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص125.
(65) محمد المرزوقي، صراع مع الحماية، تونس، دار الكتاب الشرقية، 1973، ص ص 234-244 .
(66) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 128.

دور وادي سوف في معركة المقارين (1854) وآثارها على المقاومة المسلحة في المنطقة الجنوبية الشرقية

د / غنابزية علي
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

هذا المقال يبرز مكانة وادي سوف التاريخية، ودورها في مقاومة المستعمر الفرنسي في الجنوب الشرقي الجزائري، انطلاقا من معركة المقارين سنة 1854، واستمر القتال بعدها لمدة عقدين، قبيل الاستقرار النهائي للإدارة الفرنسية بوادي سوف سنة 1882، وهذا بوأ المنطقة لاحتضان المقاومة المسلحة التي كانت جزء أساسيا من التاريخ الوطني.

Résumé

Le présent article notifie l'importance de *Ouedi Souf* auprès de la résistance contre la colonisation française au sud-est algérien. Une importance issue du rôle qu'a joué cette région à partir de la bataille de *Meggarin* en 1854 et pendant presque deux décennies de lutte, jusqu'à l'établissement définitif de l'administration coloniale aux *Souf* en 1882. Et c'est cette longue résistance qui a révélée les potentialités et l'intérêt de la région pour la lutte armée contre la colonisation et pour l'histoire nationale.

مقدمة

رغم احتلال فرنسا للجزائر في سنة 1830 فإن توغلها في بقية المدن والقرى تطلب منها وقتا طويلا ـــ استغرق نحو عقدين من الزمن ـــ وصلت فيه القوات الفرنسية إلى أطراف الصحراء في الجنوب الشرقي، لأن القابلية العلنية للاستعمار كانت مرفوضة من عامة الشعب، وحينئذ أخذت المقاومة الوطنية أشكالا متعددة لمواجهة الهجمة الشرسة، وتصدت بأقصى ما تملك من إمكانيات، وما تستطيع بذله من جهد، أملته عليها الوطنية الصادقة، والواجب الشرعي، والمروءة الإنسانية.

وتعتبر منطقة وادي سوف؛ إحدى مدن الجنوب الشرقي للجزائر، التي كانت خارج نطاق الغزو ـــ أثناء الهجمة الفرنسية على الجزائرـــ وتأخرت جحافل القوات الفرنسية عنها مؤقتا، ريثما تتوفر الظروف المناسبة لغزوها، ولكنها حافظت على سلوكها الثوري في دعم المقاومة والمشاركة فيها بشتى الطرق، واستغلت موروثها القديم في إيواء المظلومين، وتضامنت مع أصحاب القضايا السياسية، ووفرت لهم اللجوء السياسي، وأضحت المأوى الآمن، والملجأ الحصين الذي يحمي الوافدين ـــ الذين اندمجوا بعفوية في المجتمع ـــ وصارت من عناصره الأساسية، ومثلت قسما من قبائله التي ساهمت في صنع تاريخه، وحملت لواء المقاومة والجهاد،

ووقفت كالطود الأشم في وجع الاستعمار الزاحف نحو الجنوب، وقدمت الدعم المادي والبشري لقوى المقاومة الشعبية منذ الأمير عبد القادر وخلفائه في منطقة الزيبان، واستمر نشاطها بعد احتلال بسكرة سنة 1844، وحينها أدركت وادي سوف، وجارتها وادي ريغ ـــ أن الدائرة قريبا تكون قريبا من حماهم الآمن، وأدركوا مسعى السلطات الفرنسية في مقاطعة قسنطينة، والجهود المكثفة لاستكمال الاحتلال لبقية الفضاء الصحراوي ـــ ولاسيما المناطق المجاورة ـــ فاحتلت الأغواط 1852، وأبرمت اتفاقا مع أهل مزاب 1853، وتمكنت من احتلال ورقلة في أواخر 1853، وذلك طوق ـــ منطقتي وادي ريغ ومن ورائها وادي سوف ـــ من جهاتها الشمالية والغربية، ويومئذ أعدت الخطة الفرنسية بدقة، وحددت أهدافها بإحكام شديد، وكانت أهم ملامحها:

ـــ تجميع الجيوش الفرنسية من المناطق المحتلة والانقضاض بقوة على إمارة بني جلاب،[1] والتوغل نحو وادي سوف المتاخمة للبلاد التونسية، وبلاد غدامس الليبية.

ـــ وضع حد للمقاومة الشعبية التي أزعجت القوات الفرنسية ما بين 1852-1853، بمشاركة ورقلة ووادي ريغ، ومؤازرة سكان وادي سوف، وقيادة الشريف محمد بن عبد الله، وبن ناصر بن شهرة، وسلطان تقرت سلمان الجلابي.

ـــ التصميم على غزو وادي ريغ واحتلالها مع وادي سوف، ورفع العلم الفرنسي على أراضيها، ووضعها تحت تصرف الإدارة الفرنسية، وإنهاء الأسطورة المخيفة التي أرقت الفرنسيين وأثبتت عجزهم في عملية التوغل وغزو بقية الجزائر .

وعندما شرعت القيادة الفرنسية في تجميع قواتها الموزعة في الحاميات، لتنفيذ مخططها السابق، حددت موقع القتال، وجعلت مقصدها مدينة تقرت التي تحتضن مركز الإمارة، ولعل حالة الاستنفار الوطنية التي أعلنها السلطان سلمان، وطلب النجدة من وادي سوف، وحالة التحفز من المقاومة، كانت عوامل مفزعة للفرنسيين، الذين راهنوا على إبعاد تلك العناصر عن حلبة الصراع، من اجل الانفراد بوادي ريغ لتكون لقمة سائغة، يسهل الالتفاف حولها، ولكن وادي سوف أصرت على الدفاع، والتأم الشمل في ضواحي الإمارة، وأضحت بلدة المقارين[2] مجالا للمعركة التاريخية في أواخر نوفمبر 1854، وكانت المقاومة من سكان وادي سوف ذات دلالات متعددة الجوانب، واختلطت دماء الشهداء من مقاومي الصحراء، وروت سهل المقارين معلنة عن وحدة أبنائها في البذل والعطاء، والمقاومة والجهاد، وأداء الواجب الوطني، والوقوف في وجه الغزاة المعتدين، وكان لجيش النجدة ـــ القادم من وادي سوف ـــ حجمه في موازين القوى قبل المعركة، ووضع تحت النظر الفرنسي، وعجل بحسم المعركة ودفع عجلتها بسرعة، ولا شك أن المعركة خلفت آثارها المأساوية، وتأثرت المقاومة من تداعياتها خلال عقدين ونصف، ولكنها جسدت معاني البطولة والصمود، ولم تستسلم للغزاة، بل سطرت في صفحات التاريخ صورا للمقاومة التي خلفت على مر الزمن دروسا في الوطنية الصادقة.

1) علاقة وادي سوف بسلطنة بني جلاب ما بين 1830 ــ 1854:

عندما تم الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830، كانت منطقة وادي سوف خاضعة لسلطة بني جلاب، وتدفع إليها الضرائب بانتظام، وعند تأخرها تؤخذ منهم عنوة بعد قتال مرير، وهجوم كاسح يتولاه السلطان الجلابي بنفسه، كما تعتبر سوف متعاونة مع السلطة الجلابية في إرسال الدعم البشري أثناء صراع الصفوف الجلابية على السلطة، ولاسيما بين تقرت وتماسين وهذا جعل المنطقة في حرج من أمرها، فانقسمت قراها في الولاء والمناصرة، وهذا عرضها للعقوبات المختلفة بعد انتهاء المعارك بين تلك الصفوف المتصارعة على حكم وادي ريغ، مثلما وقع في عهد " علي بن محمد " الذي يعرف بـــ " علي الكبير" الذي اختار الشيخ سياسة المهادنة والتعاون مع الفرنسيين، ويعتبر بذلك أول حاكم جلابي يتصل بهم عارضا عليهم التعاون، وانتهت المعارك بانتصار جلابي تماسين والزاوية التيجانية المدعمة لهم على سلطنة تقرت.[3] وإثر هذه المعارك توجه الشيخ على الكبير إلى سوف وأثخن فيها قتلا، انتقاما من أهلها لأنهم يأوون خصوم الإمارة الجلابية من جهة،[4] ويؤازرون تماسين عليهم، ولكن الموت عاجله في نفس السنة 1833، عندما وضعت له ــ السم ــ أرملة أخيه عمر "لّلة عيشوش" الجلابية، وحينئذ مكنت ولدها الشيخ عبد الرحمان بن عمر ليكون سلطانا على تقرت، عوضا عن الشيخ سلمان بن علي الذي فر إلى تماسين ناجيا بنفسه من "**لالة عيشوش**". ولم يكن ابنها عبد الرحمان[5] المدعو "بوليفة" أهلا للحكم، إذ لم يتجاوز عمره ثماني سنوات فتولت الوصاية عليه أمه "عيشوش" فصارت الحاكم الفعلي للبلاد لمدة سبع سنوات إلى غاية عام 1840، ويومئذ تولى ابنها عبد الرحمان الحكم بصفة رسمية؛ ولما احتلت فرنسا بسكرة 1844 اتصل بالفرنسيين معترفا بسيادتهم على المنطقة المحتلة وبدأ يدفع لهم ضرائب سنوية بقيمة 20000 فرنك.[6]

وعندما وقعت الأزمة بين تماسين وتقرت في 2 ديسمبر1847، اقترحت سوف الوساطة لفض النزاع، ولكن الشيخ عبد الرحمان أعلن الحرب على تماسين وبعث ممثليه إلى سوف طالبا منهم العون، فأحرج أهل سوف وتخلوا عن تماسين من أجل المحافظة على السلم حسب تقديرهم للأمر، وأرسلوا 650 جنديا لمساعدة تقرت في نزالها الذي دام من 12 إلى 21 فيفـــري 1848، وانتهى بهزيمة تماسين، ودخل الجيش الجلابي إلى تقـــرت، ولكن السلطان صرف رجال سوف بدون مراعاة للجهود التي بذلوها من أجله.[7]

والجدير بالذكر أن الفرنسيين رفضوا تقديم المساعدة للشيخ عبد الرحمان لما عزم على مهاجمة سوف بعد ذلك، خوفا من اتساع نفوذه وقوته فيصبح خطرا يعرقل توسعهم، ومع ذلك زار الشيخ عبد الرحمان مدينة بسكرة في مارس 1848 واستقبل من قبل الملازم الأول ديبوسكات " Debosquet" وذلك كان ثمن الولاء الجلابي للسلطة الفرنسية.[8]

وبدأ في شهر فيفري 1851 ظهور الثائر الشريف محمد بن عبد الله [9] الذي عسكر بالقرب من تقرت وأعلن نفسه سلطانا على ورقلة في أوت 1851 وبدأ يفكر في السيطرة على تقرت

فاتجه إليها وانضم إليه سلمان بن جلاب المعارض لأبن عمه عبد الرحمان، فهاجما تقرت وقتلا 85 رجلا وأرغما السلطان على الاعتصام بقصره.[10] لكن فرنسا وقفت إلى جانبه وأدركته بالمساعدة من بسكرة، وخاض معركة حاسمة قرب تماسين في 5سبتمبر1851 انتهت بانتصاره. وفي 25 جانفي 1852 توفي الشيخ عبد الرحمان بن جلاب بعد مرض مفاجئ و لم يترك وراءه سوى أطفال صغار، أكبرهم عبد القادر، الذي لم يتجاوز سبع سنوات،[11] فتولت جدته "لالة عيشوش" الوصاية عليه،[12] وتخوفت فرنسا يومئذ من زحف الشيخ سلمان ابن جلاب على تقرت، والاستحواذ على عرشها، فسارعت إلى الاعتراف بالصبي عبد القادر سلطانا على وادي ريغ وسوف، وعينت أحمد بن الحاج بن قانة وصيا عليه إلى حين بلوغه سن الرشد.[13] لكن الموت عاجله، وذلك فتح الطريق أمام سلمان بن محمد بن جلاب فاستولى على الحكم سنة 1853،[14] بمساعدة أولاد أسعود من أهل سوف المتواجدين في قرى كوينين وتاغزوت، وبمساعدتهم تمكن من الانتصار والتحكم في زمام الأمور في البلاد.[15]

وقد عرضت السلطات الفرنسية على الشيخ سلمان بن محمد بن جلاب التعاون معها مقابل تثبيته على حكم تقرت وسوف، لكنه رفض ذلك العرض لأنه قد نذر نفسه رفقة مجموعة من المقاومين بالتصدي لجحافل هذا الغزو الاستعماري، ولأن العرض يحمل في ثناياه صفة الاحتلال للمنطقة.[16]

وقد وصل في شهر مارس 1853 طابور فرنسي إلى مدينة بسكرة تحت قيادة العقيد ديفو قائد مقاطعة باتنة، وتوجه صوب تقرت من أجل غزوها،[17] واكتفت تلك القوات بإجراء مناورات بضواحي المدينة محاولة إثارة الفزع في حياة سكان، وفيها تحذير لسلمان من مغبة إصراره وتعنته ورفضه موالاة الفرنسيين.[18] ومن جهته قام سلمان بتحصين مدينته، واستنفر سكان تقرت، وقرى وادي ريغ وأهل سوف، وراسل شريف ورقلة محمد بن عبد الله، [19] وذهب إلى أبعد من ذلك حيث طلب المساعدة والمدد من الباي التونسي، الذي لم يستجب لطلبه، واكتفى بإهدائه ست بنادق.[20]

وبعد انسحاب القوات الفرنسية عن تقرت بدأت قوات المقاومة الشعبية تتجمع فيها وحينئذ ازداد الإصرار الفرنسي لاحتلال منطقتي تقرت وسوف والذي تم الإعداد له بكل قوة وصرامة.[21]

2) دور وادي سوف في مقاومة الاستعمار الفرنسي 1832 ــ 1854:

كان احتلال مدينة الجزائر واستسلامها في 5 جويلية 1830 قد ترك هلعا واضطرابا كبيرا في نفوس سكان وادي ريغ ووادي سوف على حد سواء، وعاشت المنطقة بأكملها في حروب واضطرابات دامت ثلاث سنوات، إذا تغلبت لغة الصراع على السلطة على الأوضاع السائدة يومئذ، ودب الخلاف والتنافس في نفوس رؤساء القبائل وأبناء البيت الجلابي بتقرت.[22]

وشرعت فرنسا مباشرة في عملية " **الاستيطان الحر**"، إذ قام المستثمرون الأثرياء بابتياع

المقاطعات وهاجر الفلاحون من اسبانيا إلى الغرب الجزائري ، ومن مالطا وإيطاليا وكورسيكا إلى الشرق الجزائري، لأن الجزائر صارت من الممتلكات الفرنسية كما أعلن الملك لويس فيليب سنة 1834. وتقرر في عام 1840 احتلال البلاد كلها، وعيّن الجنرال بيجو حاكما عاما (1841) فاستهل حكمه بتطبيق الاستيطان الرسمي في مختلف أنحاء البلاد بما فيها الجنوب، وبدأ هذا الاستيطان يتضخم بسرعة بين عامي 1848-1852.[23]

وبدأ زحف القوات الفرنسية في مختلف الاتجاهات، ولكنها اصطدمت بمقاومة شعبية قوية، أخرت قواتها عن الوصول إلى الجنوب الشرقي في مدة تجاوزت عشرين سنة، وكانت وادي سوف طرفا مساعدا في المقاومة، وجسدت مشاركتها ماديا وبشريا ومعنويا، وأبرز أشكالها:

أ) إيواء رجال المقاومة الشعبية:

لقد ساعد الموقع الجغرافي لوادي سوف والامتداد الرملي الشاسع والمناخ القاسي الذي تميزت به، على عزل أرضها مؤقتا، وصارت الملاذ الآمن الذي يأوي إليه المقاومون الشعبيون بعد انتهاء معاركهم، فيستقرون من أجل استرجاع الأنفاس وتجديد روح المقاومة، والإعداد للمعركة الجديدة.[24]

وأخذت المنطقة هذه الصفة منذ القدم، وقد أشار إلى ذلك العدواني في تاريخه خلال القرن السابع عشر، في قصة العش عندما عزم على الهروب من تونس إلى سوف قال لأبنائه: "**عليكم بسوف فهي أم الهارب**".[25]

وقد التجأ إليها في القرن التاسع عشر الحاج أحمد باي قسنطينة خلال شهر ديسمبر 1837 أثناء صراعه مع فرحات بن سعيد،[26] وانسحب هذا الأخير مرة أخرى إلى سوف بعد هزيمته في معركة ضارية مع الحاج أحمد باي عام 1838.[27] أما خليفة الأمير عبد القادر محمد الصغير بن عبد الرحمان الذي أبدى مقاومة باسلة في مواجهة الفرنسيين فإنه اضطر إلى الانسحاب نحو سوف بعد احتلال الفرنسيين لبسكرة سنة 1844،[28] وبعد الاحتلال الفرنسي للأغواط وورقلة سنة 1853، التجأ الثائر ابن ناصر بن شهرة إلى الجريد التونسي عبر سوف.[29] وظل شاهما على هذا المضمار إلى يوم الاستقرار الفرنسي بسوف سنة 1882.

ب) الدعم المستمر للمقاومة الشعبية:

ساهمت " وادي سوف " مساهمة فعالة في دعم المقاومين بشتى أنواع الدعم المادية والبشرية، وساعدها في ذلك، مجاورتها لأسواق السلاح القريبة منها في تونس وغدامس.[30] وقد نشط المقاومون في عملية جلب الأسلحة والذخائر من هذه الأسواق، الأمر الذي أزعج المستعمر، ولاسيما الدعم البشري والذي برز جليا في مقاومة الأمير عبد القادر عندما استنفر المجتمع للجهاد ــ بعد مبايعته ــ بتوجيه نداء بتاريخ 22 نوفمبر 1832 للقبائل والأعراش طالبا منهم مؤازرته في الكفاح المسلح ضد الفرنسيين ومما ورد في البيان : " ... ولذلك ندعوكم في أن تشاركوا في هذا العهد أو العقد، بيننا وبينكم، سارعوا إذن، لإعلان ولائكم وطاعتكم، والله يجازيكم في الدنيا والآخرة، إن هدفي الأساسي هو الإصلاح وفعل الخير ما دمت حيا،

إن ثقتي في الله، ومنه هو وحده أرجو الجزاء والنجاح ".[31] كما وجه دعوة للاجتماع في مدينة معسكر في ربيع 1833، وقد رحب بالدعوة عدد كبير من القبائل الهامة في التل والصحراء .[32] فأتاه من جملتهم في الحين جماعة من تقرت وسوف.[33] ورغم أن الأمير لم يبسط نفوذه على منطقتي تقرت وسوف،[34] وفقدانه منطقة الزيبان بعد احتلالها سنة 1844، ولجوء خليفته على الزيبان محمد الصغير بن عبد الرحمان إلى سوف والذي لم يتوقف عن المقاومة تحت لواء الأمير حتى بعد استسلام هذا الأخير عام 1847، حيث كان بالحاج يجوب المناطق المتاخمة للزيبان، وهي سوف والجريد التونسي. وعندما وقعت أحداث واحة الزعاطشة أواخر عام 1849،[35] وصلت أصداؤها إلى وادي سوف والجريد،[36] وحينئذ غادرت سوف مجموعة من المقاومين لنجدة إخوانهم المحاصرين،[37] ولا يستبعد التنسيق بين السوافة وبين محمد الصغير بن عبد الرحمان الذي كان يومها في نفطة التونسية، وقدم لنجدة الشيخ بوزيان شيخ واحة الزعاطشة، والذي كان تابعا فيما سبق لسلطة الأمير عبد القادر.[38]

وكانت أصداء وادي سوف مسموعة عند الفرنسيين، الذين يترقبون الفرصة السانحة، ووضع حد لأعمال السكان، وإنهاء عمليات الإيواء والدعم الذي قدمته وادي سوف للمقاومة الشعبية، وانتهى الأمر بإحكام قبضتهم على منطقة الزيبان مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومواصلة توغلها نحو الجنوب وتأديب منطقتي وادي ريغ ووادي سوف، والتي احتضنت حركة المقاومة إلى آخر نفس في معركتي المقارين وتقرت في أواخر سنة 1854.

3) مشاركة سكان وادي سوف في معركة المقارين:

كانت وادي سوف سباقة للنجدة، مستجيبة على جناح السرعة لنداء الواجب كلما ظهرت الضرورة الملحة، وخصوصا عند محاربة الكافر المعتدي على الأرض، والعدو الظالم المستبيح للمال والعرض، وهذا جعلهم ينظمون أنفسهم في قوات كبيرة، أبرزها "**جيش النجدة**" الذي شارك بقوة في موقعة المقارين، وكانت الظروف المحيطة متشابكة قبيل القتال، وإثناء النزال والمواجهة، وبعد انكسار جيش المقاومة وانسحابه، وتمثل ذلك كله في السياق الموالي:

أ)الظروف العامة في المنطقة قبيل المعركة:

كانت موازين القوى مختلفة بين أطراف الصراع قبيل معركة المقارين بين جيش المقاومة من جهة والقوات الغازية في الطرف الثاني، واختلفت الظروف في مجال تجميع العناصر، وتنظيم الحركة بين مواقع متعددة الأطراف، بداية من وادي سوف، ومرورا بالطيبات، والمغير، ووصولا إلى المقارين، وختامها بمدينة تقرت العريقة، وكانت قلعة حصينة تختفي وراءها وادي سوف، وتتمل في " **إمارة بني جلاب**" التي وضع الفرنسيون أمامها كل ثقلهم العسكري،

واستنفرت الإمارة كل السكان لنجدة البلاد وحمايتها من الاحتلال، وكان سير الأحداث على النسق التالي:

ـــ أما منطقة وادي سوف:

كانت وادي سوف خلال سنة 1854 محلا لرجال المقاومة، فقصدها **سلمان** ومعه 80 فرسا[39]، وكانت مهمته ربط العلاقات مع أهلها وتدعيمه بالسلاح والرجال في وقت الحاجة، وبعد رجوعه إلى تقرت، وتأكده من عزم الفرنسيين على غزو بلاده، فبعث برسالة الاستنفار العام إلى سكان الوادي، ومما ورد فيها:

(الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله:

حفظ الله أولادنا وقبايلنا(كذا) كافة أهل الواد وأهل قمار والبهيمة والدبيلة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فإن كنتم منا فاقدموا بفرودكم [40] (كذا) إلينا دون تراخ وكثروا من البارود والثقيل فإن الجهاد قد قـــرب وحان وقته اقدموا فكوا بلادكم واضربوا على دين نبيكم فقال تعالى يا أيها النبي حرض المومنين على القتال الآية [41] وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله وقال جل من قايل(كذا) قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله [42] وقال عليه الصلاة والسلام روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها [43] ورباط يوم وليلة أفضل من عبادة سبعين سنة [44] وإن أولاد الشيخ عبد الرحمان عظم الله أجركم فيهم وما بقا (كذا) إلا طريق الإسلام وطريق الكفر فمن أحب الإسلام يقدم إلينا ومن أحب طريق الكفر الله يحشره معهم ولا بد تامروا تجاركم يقدموا إلينا بالبارود والثقيل والمكاحل للبيع فإن ما ذكرناه في غاية البيع فيا سعادة من قتل على دينه ويا خسارة من يبدل دينه بدين الخزيان ولا بد تبعثوا إلى كل من فيه شعرة الإسلام يقدم إلينا والسلام. من سلمان بن علي وفقه الله ءامين.) [45]

ـــ الشريف محمد بن عبد الله كان يجول بين وادي ريغ وسوف[46] وكان قبيل المعركة في مدينة الوادي مركز سوف يستنهض الهمم للذهاب كلية إلى نصرة تقرت، ويوم 27 نوفمبر كان الشريف بالطيبات ومعه مجموعات من مقاتلي سوف، وحاولت قوات الضابط مارميي التوغل في الطيبات، تستهدف إرجاع مقاتلي سوف إلى بلدهم، ولكنه اخفق وما عليه إلا الرجوع إلى المقارين، وفي المقابل وصل الشريف بعد ظهيرة اليوم الموالي إلى تقرت بمعية أكثر من 2000 جندي و 400 فارس.[47]

ـــ الفرنسيون: كان استعدادهم لغزو الجنوب الشرقي وفق المعطيات والأخبار التي تزودهم بها أجهزة استخباراتهم، والتقارير التي يكتبها الرحالة، ولما قرب موعد الغزو في أواخر سنة 1854 أرسلوا من بسكرة الملازم روز(Rose) لاستطلاع الوضع، وسلك الطريق من الفيض إلى قمار، واستقبل بحفاوة، وتمت بعثته بدون حوادث. كما أرسل العربي المملوك يوم 2 نوفمبر 1854 للاستطلاع بمعية 150 من الفرسان إلى نواحي سوف وتقرت، ووقع الصدام بينهم وبين بعض أعراب الصحراء، وحينئذ تأكدوا من خطورة الوضع في طريق تقرت، وعلموا أن سلمان يتوعد

أهل المغير بالعقوبات الصارمة لأنهم يوالون المستعمر، وهذا دفع الفرنسيين إلى التفكير بجد في حماية القبائل القريبة من المغير ولاسيما السلمية والرحمان و أولاد مولات، ومساعدتهم على توفير الأمن لهم لجني تمورهم حتى لا تكون ضمن سطو سلمان وجنوده، وتم الأمر بإرسال قواتهم المكونة من القوم والصبايحية والقناصة إلى منطقة المقارين حتى تكون في مواجهة قوات المقاومة المدارة من سلمان والشريف، وحينئذ يتم حماية غلة البدو الموالين لفرنسا.[48]

ب)الوضع القتالي أثناء المعركة:

أما الوضع القتالي من مختلف الأطراف، والمبادرات من طرفي الصراع فتمثلت فيما يلي:

ـــ الفرنسيون:

تجمعت القوات الفرنسية من كل حدب وصوب، وألقت بثقلها العسكري في وادي ريغ، واستنفرت مختلف القوى الرسمية ولاسيما أعوان الاستعمار من الأهالي المجندين ضمن فرق الصبايحية والقوم، وبلغت نحو 2650 مقاتل وكانت تشكيلة القوات كما يلي:

أ) القائد العام للحملة هو العقيد ديفو(Desveaux) وهو حاكم مقاطعة باتنة.

ب) قيادة الأركان وبها مجموعة من الضباط هم:

ـــ المقدم مارميي(Marmier) قائد الصبايحية للفرقة الثالثة، وحاكم المكتب العربي بباتنة.

ـــ النقيب سيروكا(Seroka) رئيس المكتب العربي ببسكرة.

ـــ الملازم روز(Rose) كاتب رئيس المكتب العرب بسكرة. [49]

ج) وأما القوات الفرنسية المشاركة:

1ـــ فرقة الصبايحية الاستطلاعية بقيادة العربي المملوك، وعددهم 150 فرسا، قاموا بمراقبة الطرق في حواف سوف وتقرت يوم 2 نوفمبر 1854.

2ـــ قوات العقيد ديفو المتمركزة في المغير وقوامها 500 بندقية عيار68، وثـــلاث ســـرايا من القناصة، ومدفعين حجم 12.

3ـــ القوات المتقدمة إلى ميدان المقارين بقيادة مارميي تتكون من حـــوالي 800 فـــارس من القوم، 1300 من المشاة وسريتين من الصبايحية وفرقة قناصة. [50]

ـــ المقاومون:

تجمعت القوات الشعبية من وادي سوف، وقوات الثائر الشريف محمد بن عبد الله، وقوات تقرت بقيادة سلمان، وبلغ عددها ما بين 2400 [51] أو 2800 ألفين من المشاة والبقية من الخيالة الذين يمتطون صهوة جياد الحرب. [52]

وكان جيش النجدة القادم من وادي سوف محل مراهنة واهتمام الجميع، فقد علق عليه سلمان أسباب الدعم[53]، وقد رافقهم الشريف وشد من أزرهم وحفزهم للقتال، وكانوا محل قلق من الفرنسيين، وحاول مارميي أن يحول بينهم وبين تقرت، ولكنهم افلتوا من الطيبات بمعية الشريف،[54] وكان عددهم نحو 1500 مقاتل[55] يتقدون حماسة، وكلهم شغف في المقاومة، ويتسمون بالجرأة والشجاعة المفرطة.

ـــ مراحل المعركة:

ـــ وصول القوات الفرنسية لموقع المعركة: منذ يوم 22 نوفمبر بدأ القائد مارمي في التقدم بجيشه الصغير نحو المقارين، ولم تسجل مناوشات، بل بعض المفاوضات مع سكان القرى المتواجدة في طريقه وهي وغلانة، وسيدي راشد، وسيدي يحي، وغمرة، وكان يسعى لإقناعهم بان الحرب لا تخصهم، وإنما هي عقوبة وتأديب لسلمان المستبد، وقاتل أولاد الشيخ عبد الرحمان، وهدف الجيش الفرنسي هو تخليص الشعب المقهور من ظلمه الصارخ، ووصلت القوات الفرنسية إلى المقارين يوم 28 نوفمبر، وعسكرت في المرتفع الذي يعاين البلدة، فعن يمينه الواحة وفي يساره اتجاه طريق الطيبات الذي يجلب المقاومين من وادي سوف.(56)

ـــ الخطة المعدة من الطرفين ، كانت الخطة عند سلمان والشريف غير مضبوطة، ففي يوم المعركة (29 نوفمبر 1854) تأهب جيش المقاومة لمهاجمة معسكر الفرنسيين، والتفكير في الغنائم التي يحصلون عليها بحركتهم المباغتة، وجذبتهم أعداد الجمال والأحمرة والأمتعة المختلفة، وكان اعتقادهم أنها معركة مضمونة النتائج، وحينئذ تحركوا بفرسانهم في السهول المكشوفة نحو الشرق، وجعلهم يلفتون الانتباه، وينم سلوكهم على ثقة مفرطة، وينقصهم حسن التقدير والحساب لإمكانيات العدو المستعد والذي رسم خطته المحكمة،(57) ولعل الذي أجج القوم بعض المتحمسين ولاسيما من أهل سوف، وعلى رأسهم المدعو كربلاع كما أشار العوامر، مبرزا وجهة النظر الوطنية، (58) وكانت أوامر القائد مارميي لجنوده ومساعديه، هي التخندق والاندساس في المنخفضات، والسير في حواف شريط النخيل الطويل الممتد نحو المقارين، ومهاجمة البلدة بقوة، ثم التراجع بسرعة نحو المعسكر، والحرص الكبير على حماية المعسكر والدفاع عنه، والعمل على تطويق الواحة القريبة.(59)

ـــ بـــدء القتـــال: كان أول ظهور للمقاومين في صباح يوم 29 نوفمبر أمام المعسكر الفرنسي، عندما صوبوا طلقاتهم نحوه، وكان القائد مارمي قد قدم تعليماته لفرقة احمد بلحاج من القوم أن تواجههم بالساحة، ولكنهم أرغموا على التراجع، وحينئذ توالت الفرق العسكرية الفرنسية في التقدم ومنهم جنود الصبايحية بقيادة الملازم الأول عمار الذي قاتل بحماسة واندفاع من جهة اليسار لصد قوات المقاومة، وفي الوقت نفسه اندفعت قناصة النقيب فندريواس(Vendrios) بجسارة نحو قبة المرابط سي علي بن كانون في الجهة التي تواجه البلدة، والتي يسعى الثوار إلى احتلالها، وفي تلك الأثناء كانت جثث المقاومين تتساقط في حواف الخنادق المنتشرة بالمقارين، وكان جنود المقاومة يحملون أعلامهم إلى الأمام فتقدمت نحوهم سرية النقيب كورتيفران (Courtivroin) الذي وصل إلى وسط جموع المقاومين الذين انهالت عليهم ضربات جنود القناصة وطوقتهم فرسان الميدان، وأثخنوا فيهم قتلا وتحولت الموقعة إلى مجزرة خلفت نحو 500 ما بين شهيد وجريح حسب شهادة الفرنسيين، ولم يسقط من جنودهم سوى 11 قتيلا و 46 جريحا،(60) وكانت نتائج اليوم الأول مأساوية، أظهرت

ضعف جيش المقاومة، وهشاشة بنيته التحتية، وخضوع نشاطه للارتجالية المفرطة، وهذا جعل القوات تفر من الميدان نحو تقرت، معلنة عن انهزامها المحقق.

ج)انتهاء القتال وآثـــاره القريبة: افتتح الضابط المنتصر مارميي يومه الموالي(30 نوفمبر) بعقد دورة استطلاعية تتكون من مأتي فارس، أخذت تجوب على طول واحة تقرت، لتتأكد من التراجع الحقيقي للثوار، لأن الشريف استسلم ومعه أهل الطيبات وعدد كبير من مقاومي وادي سوف، وكانت أوامر سلمان أن تتجمع تلك القوات الوطنية خارج المدينة بنوع من التحدي الذي وافق عليه الشريف الذي اخذ الدرس من مقاومته في الاغواط، واخذ العهد على نفسه أن لا يتروي في بلدة تكون مهاجمة من طرف الفرنسيين، وحينئذ بدأت فكرة الانسحاب النهائي من تقرت تراود رجال المقاومة، وخصوصا على وقع أصوات الطوابير العسكرة التي قدمت من كل حدب وصوب، وكلها عزم وتصميم على الفتك بالمقاومة واحتلال تقرت كلية. (61)

4) نتائج معركة المقارين وأثرها على منطقة وادي سوف:

خلفت معركة المقارين نتائج خطيرة، وخسائر فادحة، وهزائم متوالية، وتمثلت حصيلتها الثقيلة فيما يلي:

أ) إحتلال تقرت: توجهت القوات الفرنسية الضخمة آتية من بوسعادة بقيادة الرائد بان "Pein" (62) والقائد جيري "Géry" قادما بقواته من الأغواط،(63) كما تعززت القوات الفرنسية بكتائب وطوابير عسكرية أحدها بقيادة دي باراي "Du Barail" والعقيد ديفو الذي كان يراقب الموقف في المغير، تحرك نحو عاصمة وادي ريغ، وكان في مقدمة الجميع المقدم مارمي "Marmier" وكانت تلك التحركات متزامنة مع إخفاق المقاومة في المقارين، وانسحاب جيشها نحو تقرت، وحينئذ وبعد ثلاثة أيام فقط، اقتنع ـــ سلمان والشريف ومقاومي وادي سوف ـــ باستحالة الصمود دفاعا عن المدينة الأسيرة، وانسحبوا ليلة 2 ديسمبر 1854 بسلاحهم ومتاعهم الخفيف، وعهد سلمان بنسائه وأبنائه إلى زاوية تماسين، وفي الصباح دخل القائد مارمي إلى تقرت بهدوء، وهذا ما أكده القائد سيروكا ـــ الذي كان شاهد عيان ـــ منوها بالصرامة والتدابير المحكمة التي اتخذتها السلطات الفرنسية من اجل تفادي الفوضى، وعملت على طمأنة السكان، وهذا حقق السلم المنتظر، وشجع العناصر المنحازة إلى تماسين بالدخول إلى بيوتهم بداية من اليوم الموالي(3 ديسمبر) (64)، بينما تؤكد الكتابات الوطنية أنهم طبقوا أساليب العنف ضد السكان ـــ كعادتهم كلما تغلبوا على قرية أو مدينة ـــ(65) وفي يوم 5 ديسمبر 1854، لما دخلها العقيد ديفو بمعيه جنود الطوابير العسكرية التي جلبت من لغواط، وبوسعادة، وباتنة، لتلتحم مع القوات التي سبقها، ويومها أعلن عن سقوط "**مشيخة بني جلاب**" التي حكمت تقرت أكثر من أربعة قرون، وبسقوطها سهُل على الفرنسيين مواصلة زحفهم نحو" وادي سوف".(66)

ب) ملاحقة فلول المقاومة المنسحبة: ومما كتبه سيروكا عن سعي السلطات الفرنسية تجاه قادة القاومة، ولاسيما الشريف وسلمان الذين احتموا بالوادي، وبدأ في مطاردتهم، والسعي لمعاقبة أهل الوادي، [67] وحينئذ ترك العقيد "ديفو" بعض قواته بالمدينة للمحافظة على الأمن،[68] وقاد بقية القوات، وأتجه نحو وادي سوف،[69] في 10 ديسمبر 1854 وكان مضطرا لسلوك طريق رملي صعب المراس، كثير المنحدرات، ومتعدد المسالك، ورغم أن المسافة لا تتجاوز 85 كلم تقريبا، فإن القوات الفرنسية استغرقت رحلتها ثلاثة أيام، متخذة طريق الطيبات القبلية،[70] وكان هدفهم إلقاء القبض على قادة المقاومة ولاسيما سلمان الذي اصطحب معه نحو 30 مقاتلا من سكان تقرت قدروا انه لا يمكنهم البقاء في أمان، و الشريف محمد بن عبد الله الذي كانت معه نحو 450 خيمة تضم زمالته المتنقلة،[71] والتضييق على بقية المقاومين، وتصفيتهم ليكونوا عبرة لغيرهم، ويعتبر انسحاب القادة نحو مدينة الوادي، والاستقرار ببلاد الجريد التونسية من الترتيبات المحكمة لحماية أنفسهم، ومواصلة الكفاح في المرحلة الموالية، وتفويت الفرصة على الاستعمار، وإبقاء جذوة المقاومة تتقد حيوية ونشاطا، لمواجهة الغزاة المحتلين في جولة مستقبلية.

ج) غزو وادي سوف واحتلاله: واصلت الطوابير الفرنسية طريقها حتى وصلت إلى مشارف أول بلدة من قرى سوف تدعى تاغزوت، وتوقفت، ودخل ديفو في مفاوضات شديدة أمام الطابور العسكري مع وجهاء المنطقة، وانتهت المفاوضات بالاتفاق على عدة أمور، حينئذ دخلت القوات الفرنسية إلى تاغزوت في 13 ديسمبر 1854 وتم استقبالهم من طرف الأهالي باطمئنان ورضا،[72] وهذا ما صرحت به الكتابات الفرنسية مشيرة بذلك إلى استسلام سكان المنطقة بسهولـــة للقوات الغازية والرضاء بشروطهم بيسر،[73] ولكن الرأي الوطني المحلي له وجهة نظر أخرى تفيد أن الصدام كان عنيفا بين الطرفين، فقد استمات سكان سوف وبذلوا أقصى ما عندهم من جهد، ووقع قتال بين الطرفين أياما عديدة في النخيل والسيوف،[74] وتغلب الفرنسيون." [75] وحسب المصادر الفرنسية، فإن العقيد ديفو قضى مدة سبعة أيام بسوف.[76] قضاها في الصراع مع المقاومين، لكن الجدير بالتنويه في هذا المجال هو عدم تكافؤ القوة بين الطرفين، فالقوات الفرنسية امتازت بضخامتها وقوة تنظيمها، وقد ضمت قوات هائلة قدمت من باتنة، والاغواط، وبوسعادة، إضافة إلى وحدة صفوفها وحنكة قيادتها وامتلاكها أسلحة متطورة وكافية، مع إتقانها أساليب الحرب الحديثة. وفي مقابل ذلك كان المجتمع السوفي يعيش حياة قبلية بدوية، وهذا ما جعل جهوده مبعثرة في القرى والبوادي من جهة، والافتقار لقائد يجمع أطراف البلاد ويقودها في الحرب والسلم، فضلا عن قلة الأسلحة وفقدان خطة عسكرية محكمة لمواجهة عدو عنيد، ومن جهة أخرى فإن الانكسار والهزيمة التي لقيها الجند السوفي مع إخوانهم أهل وادي ريغ في موقعة المقارين، وانسحابهم نحو منطقتهم، جعلت عملية الدفاع التي قاموا بها مجرد استجابة للواجب، ودفاعا عن الشرف والعرض، وإرضاء للضمير ولو بأضعف مظاهر القوة التي يملكونها. [77]

ولما عجزت القوات الأهلية في رد الزحف الفرنسي استجابت للمفاوضات التي مكنت هذه القوات من التقدم نحو بلـــدة " كوينين " [78] وبنت معسكرها بجوارها يوم 15 ديسمبر، ومنها انتقلت إلى عاصمة سوف ـــ **مدينة الوادي** ـــ في 16 ديسمبر 1854، وبني المعسكر في مواجهة المدينة التي استعصت عليهم، وكان بها نحو 1700 مقاوم، وقد بذلوا كل ما لديهم لمنع القوات الفرنسية من دخول المدينة، وكانوا يعتقدون قدرة البلدة على المقاومة المستمرة بسبب صعوبة الموقع الذي تتربع عليه، وكثرة الرمال، والعدد المعتبر من المقاومين، ولكن القوات الفرنسية استطاعت بعد يومين من الصراع المرير أن تفتك المدينة، وأخضعتها لنفوذها، وأدبت عناصر المقاومة، وانسحب ديفو في يوم 18 ديسمبر نحو كوينين، وبعد راحة خفيفة، واصل طابوره التقدم نحو تقرت بداية من يوم 19 والتي وصلها يوم 22 ديسمبر 1854.[79] لتقوم بتنظيم الإقليم، وضبط شؤونه الإدارية بالاشتراك مع منطقة وادي سوف، فبادر العقيد ديفو بتعيين "علي باي" بن فرحات ابن سعيد "قايد" على تقرت وسوف باسم فرنسا منذ 26 ديسمبر 1854.[80]

د) معاقبة المقاومين: أثناء مطاردة رجال المقاومة في تقرت ووادي سوف فرضت السلطات العسكرية عقوبات على السكان ولاسيما المقاومين، وتمثلت في فرض عقوبات مالية، وغرامات معتبرة، دفعها 75 مقاوما من سكان كوينين، ومبلغ 60 ألف فرنكا دفها أهل الوادي، وهذا الإخضاع لسكان سوف، اعتبروه أعظم نتيجة في طريق السلم لوادي ريغ بأكملها، لأن سوف عندهم كانت تتبجح بقوتها وعنادها، وتعتقد أنها محمية من ضربات الفرنسيين، ببعد أرضها، وكثرة رمالها التي تعيق سير الجيوش الفرنسية، ولكن ذلك تبدد بقدرة الجيش الفرنسي الذي أخضعها، ثم أمر ديفو بنزع سلاح مدينة تقرت، والنزلة، وتبسبست، والزاوية، وترك بعض السلاح في أيدي المتعاونين مع الفرنسيين الذين شكلوا نواة الميليس،[81] وإمعانا منه في الضغط والتضييق، تم اختيار عدد من الأفراد المتنفذين من مختلف القرى، واخذوا إلى بسكرة لاستعمالهم كرهائن، والضغط بهم على المقاومة الشعبية التي تتحفز على النهوض والمواجهة في كل حين، وهم يتحسسون باستمرار أخبار سلمان والشريف في تونس، واجتماعهم بعدو الفرنسيين احمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر، وهذا دفع العقيد ديفو إلى إطالة مكوثه في تقرت إلى يوم 24 جانفي 1855 لتنظيم شؤونها، والقيام بأعمال إستراتيجية لتأمين حاميتها الفرنسية، ومحاولة النهوض بالواحة[82] لتوفير سبل الراحة للفرنسيين واستغلال ذلك لذر الرماد في العيون، وإشغال السكان برغبتهم في البناء الحضاري الذي يزعمون دوما أنهم رعاته في البلاد.

وعند رجوع القوات الفرنسية لم تترك في سوف أي اثر لها من القوات العسكرية لتحافظ على احتلالها، وذلك جعل منطقتي وادي سوف وريغ (تقرت) محل صراع مرير ومقاومة متواصلة دامت قرابة 30 سنة، ولم تتمكن السلطات الفرنسية من الاستقرار النهائي بسوف إلا في منتصف الثمانينات عندما طوقت تلك المقاومات، وقضت على زعمائها. [83]

الخاتمـــة

انتهت معركة المقارين في يومها، وتفرق المقاومون في مختلف الأنحاء والاتجاهات، ولكن عطاءها برز في عمق التاريخ، لأنها تكشف عن الحقائق الغائبة، والبطولات الخفية، والأخطاء العابرة، والمزالق التي لا تغتفر، والصعوبات التي تقتضي التبرير والعفو. ويمكن تحديد بعض النتائج التي تبدت من خلال المعركة:

ـــ تحول الأهداف القتالية عند السلطات الجلابية بمدينة تقرت، وارتقائها من الصراع على السلطة الداخلية إلى الدفاع عن البلاد والتوجه إلى العدو المشترك الذي يتربص بالجميع، ولا يميز بين تقرت ولا تماسين، وهدفه النهائي يكمن في إخضاع البلاد للفرنسيين.

ـــ تحول مقاصد النجدة عند أهل سوف، والتي كانت قديما تلبية لأحد الأطراف بدافع الولاء أو المصالح المادية المشتركة، فضلا عن الخوف والرهبة من العقوبات المترتبة عن الرفض، وصارت منذ معركة المقارين، بدافع الواجب الوطني، وتلبية للنداء الرباني، والوفاء والمروءة.

ـــ التعاون بين مناطق الجنوب، وتلبية النداء في حينه بدون تردد، وبذل الإمكانيات المتوفرة بسخاء منقطع النظير، والدفاع إلى آخر جهد ظاهر.

ـــ كانت المعركة درسا للمقاومة الشعبية التي كانت مفعمة بالشجاعة والإقدام، وينقصها التخطيط والإعداد، بينما كان العدو أكثر تنظيما ويمتلك مخططا مدروسا، وكان النجاح حليفه بتلك الإمكانيات المركزة في نطاقها المناسب، وهذا يجسد المعنى الحضاري في شقه المادي.

والجدير بالذكر أن معركة المقارين فتحت الطريق أمام القوات الغازية، وتمكنت في وقت محدود من الدخول لتقرت، والمسارعة نحو وادي سوف لمعاقبتها على دورها في نجدة تقرت، وتأديبها، ولكنها انتظرت نصف شهر لتتوغل في الصحراء، وعدة أيام لتقف مضطرة أمام عاصمة سوف التي سقطت نهائيا في أيديهم يوم 16 ديسمبر بعد مقاومة شديدة.

ورغم إتمام عملية الغزو بنجاح، وتنصيب قيادة محلية تتحكم في وادي ريغ وتتبعها وادي سوف، إلا أن المقاومة بقيت متواصلة لمدة تجاوزت ربع قرن، واستمر لهيبها مشتعلا إلى بداية الثمانينيات ـــ ولم تتوقف عن حركتها ـــ وحينها فكرت فرنسا في الاستقرار النهائي الذي تم عشية احتلال تونس، ويومها بدأت تحط رحالها في وادي سوف في1882.

الهوامش :

1) **دولة بني جلاب:** ينتسبون إلى بني مرين، ومؤسس السلطنة هو الشيخ الحاج سليمان بن رجب المريني الجلابي، الذي قدم من فاس المغربية، وكان ثريا، ولما أصابت الناس ذائقة مالية، وخاف الشيخ محمد ابن يحي على استغلال السكان من طرف اليهود، فتشاور مع الصالحين والعلماء، ثم عرض على سليمان ابن رجب أن يتنازل عن الديون المترتبة على السكان، مقابل توليته على حكم الإقليم، خلفا لبني يوسف الدواودة، فقبل العرض، وحينئذ نشأت إمارة (سلطنه) بني جلاب التي دامت ما بين 1414-1854، وهذه الرواية القريبة إلى الحقيقة، ويرى الطاهر بن دومة، أن تأسيس السلطنة تم في 837هـ/1531م من طرف احمد الجلابي الذي سلمه المدينة الرجل الصالح سيدي محمد بن يحي، وحينئذ قسم السلطة بين ولديه، فجعل

محمد في تقرت، وإبراهيم في تماسين.المراجع: الشيخ محمد الطاهر بن دومة: **نبذة تاريخية عن سكان وادي ريغ** – مخطوط, ص 9. عبد الحميد إبراهيم قادري: التعريف بوادي ريغ، منشورات جمعية الوفاء للشهد بتقرت، ط1، دار الآمال للطباعة، الوادي، 1999، ص14- 15. عبد القادر بوباية: **" قيام حكم بني جلاب بوادي ريغ"** ، ضمن مدونة الملتقى التاريخي الثالث المنعقد بمقر متحف المجاهد بتقرت من طرف الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت، أفريل 1998، ص ص 32-36.معاذ عمراني، المرجع السابق، ص ص 26-27.

2) **المقارين:** قرية تقع شمال تقرت وتبعد عنها بنحو 12 كلم.

3) André Voisin – Le Souf Manographie – EL-WALID, EL-OUED, 2004, p.72 الطاهر بن دومة ،المرجع السابق.

4) إبراهيم العوامر: **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الدار التونسية للنشر، 1977، ص 238.

5) الحاج محمد الصغير دبابي – **"حقائق من تاريخ بني جلاب بوادي ريغ"** – مدونة الملتقى التاريخي الثالث لفترة حكم بني جلاب بوادي ريغ. 1998، ص 42.

6) د. بن نعمية عبد المجيد **" مواقف شيوخ بني جلاب في تقرت من الاحتلال الفرنسي 1830 – 1854 "** مدونة الملتقى التاريخي الثالث لفترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ. المرجع السابق. (1998). ص ص 120 –122.

7) André Voisin,op-cit ,p72.

8) بن نعمية عبد المجيد – المرجع السابق – ص 123.

9) أصله من قبيلة روسل قرب عين تموشنت، انتقل إلى تلمسان واشتغل معلما للقرآن، واعتكف في ضريح أبي مدين وبدأ يجمع الأنصار، فأمرته السلطات الفرنسية بالتوجه إلى الحج للتخلص من مشاغباته فالتقى بمحمد علي السنوسي وأسّسا معا زاوية دينية اتخذاها مركزا لتجميع الجزائريين المضطهدين. وعاد إلى الجزائر عام 1850 واستقر بورقلة ومنها انطلق كفاحه.

10) يحي بوعزيز_ **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين** – دار البعث. ط 1. قسنطينة. 1980. ص125.

11) بن نعمية عبد المجيد – المرجع السابق – ص123-124.

12) محمد الطاهر عبد الجواد – **عاصمة وادي ريغ (تقرت) أيام بني جلاب** – مدونة الملتقى التاريخي الثالث في فترة حكم بني جلاب في منطقة وادي ريغ 1898. الجمعية التاريخية الوفاء للشهيد بتقرت. الآمال للطباعة الوادي. 1999. ص 50-51.

13) الحاج محمد الصغير دبابي ، المرجع السابق، ص 43.

14) محمد الطاهر عبد الجواد، **المرجع السابق**، ص 51.

15) Souad Selami – **Touggourt Esquisse Historique** –Les imprimeries du sud Ouargla. 1998. P 65.

16) الحاج محمد الصغير دبابي ، المرجع السابق، ص 43.

17) Souad Selami ,op-cit ,p65.

18) الحاج محمد الصغير دبابي ، المرجع السابق، ص 43.

19) Souad Selami ,op-cit ,p65.

20) الحاج محمد الصغير دبابي ، المرجع السابق، ص 43.

21) علي غنابزية: **مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن الثالث عشر(هـ) التاسع عشر(م)**، رسالة ماجستير مخطوطة، قدمت بجامعة الجزائر تحت إشراف الدكتور عمر بن خروف، 2001، **ص 34.**

22) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 229.

23) جوا ن غليسبي : **الجزائر الثائرة** ، دار الطليعة. ط 1. بيروت. 1961، ص 15.

24) علي غنابزية، المرجع السابق، ص 47.

25) محمد العدواني : **تاريخ العدواني**، تح أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت، 1996، ص 117.

26) يحي بوعزيز : **" معارك الحاج أحمد باي في جبال أولاد سلطان من خلال ثلاث وثائق جزائرية "** في مجلة الثقافة،الجزائر، نوفمبر/ديسمبر 1985، العدد90، ص ص 127- 129.
27) يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر ، ص 46.
28) ابراهيم العوامر ، المرجع السابق، ص 247.
29) يحي بوعزيز ، ثورات الجزائر- ص 178.
30) يحي بوعزيز **" تهريب الأسلحة عبر الحدود للمقاومة الجزائرية لمحاربة جيش الاحتلال"** محاضرة مخطوطة، قدمت في الملتقى الوطني الأول حول قوافل التسليح لثورة اول نوفمبر1954 بالوادي من 19 – 20 مارس 1999.
31) شارل هنري تشرشل : **حياة الأمير عبد القادر الجزائري** ، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور ابوالقاسم سعد الله. الدار التونسية للنشر. تونس. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر. ماي 1974، ص 60.
32) نفسه، ص 62.
33) ابراهيم العوامر – المرجع السابق- ص 230.
34) يؤكد الأمير في مذكراته أن سلطته لم تبسط على المناطق التالية: " وليس في الصحراء سوى أربعة مراكز لم تصلها بعد سلطتي، وهي ميزاب، وورقلة، وتقرت، ووادي سوف..." أنظر: شارل هنري تشرتشل ، المرجع السابق، ص 136.
35) يحي بو عزيز **: كفاح الجزائر من خلال الوثائق** ، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. 1986. ص56.
36) أبو القاسم سعد الله : **الحركة الوطنية الجزائرية1830-1900**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، ج 1. ص357.
37) إبراهيم مياسي : **من قضايا تاريخ الجزائر المعاصر** ، ديوان المطبوعات الجامعية. لجزائر 1999. ص 85.
38) يحي بوعزيز ، كفاح الجزائر، ص 56.
39) Voir: A.O.M. 8H49-50. Col.Seroka,**Histoire de Biskra**,4 Fascules, Fas N°04,p06.
40) **الفرود:** جمع فرد، وهو القطعة الواحدة، تعني في الثقافة الشعبية السلاح الخفيف، ويتمثل في البنادق الصغيرة.
41) سورة الأنفال آية 65.
42) سورة آل عمرن آية 31.
43) إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: **" ...والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها"** رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم.
44) إشارة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: **" ...رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه "** رواه ومسلم والترمذي وغيرهم.
45) معاذ عمراني: **أسرة بني جلاب في منطقة وادي ريغ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ميلاديين دراسة سياسية واجتماعية** ، رسالة ماجستير مخطوطة، قدمت بجامعة قسنطينة تحت إشراف الدكتورة فاطمة الزهراء قشي ، 2003، ص108 .
46) Voir: Seroka,Op-Cit,p07.
47) Ibid,pp 9-11.
48) Ibid,pp 6-8.
49) رضوان شافو: **مقاومة منطقة تقرت وجوارها للاستعمار الفرنسي(1852-1875)** رسالة ماجستير مخطوطة، قدمت بجامعة الجزائر تحت إشراف الدكتور أبو القاسم سعد الله ، 2007، ص ص 80- 85 .
50) Voir: Seroka,Op-Cit,p07-08.
51) Ibid,p 11.
52) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق ، ص 361.
53) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 247.

54) كانت دائرة تبسة تستعد لإرسال جيش من النمامشة لنصرة سلمان في موقعة المقارين، ولكن السلطات الفرنسية منعت كل حركة لهم، ووقفت لهم بالمرصاد. أنظر: إبراهيم مياسي: **لمحات من جهاد الشعب الجزائري**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 143. .Seroka,Op-Cit,p11
55) معاذ عمراني: المرجع السابق، ص69 .
56) Voir: Seroka,Op-Cit,p8-11.
57) Ibid, p 11-12.
58) إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص ص 247-248 .
59) Ibid, pp 11-12.
60) Ibid, pp 12-13.
61) Ibid, pp 13-14.
62) رضوان شافو، المرجع السابق، ص 85 .
63) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، ص 128 .
64) Voir: Seroka,Op-Cit,p14.
65) يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، ص 128 .
66) أنظر: علي غنابزية، المرجع السابق، ص 39 . شافو رضوان، المرجع السابق، ص 84.
67) Voir: Seroka,Op-Cit,p15.
68) ترك ديفو بمدينة تقرت حامية عسكرية تتكون من 500 جندي تحت إمرة العقيد ليبير(Liébert) والذي كلف بتنظيم المدينة ومباشرة الأشغال داخل القصبة وتهيئتها لتكون مناسبة لإقامة الفرنسيين. Ibid, p 15
69) André Voisin – op . cit . p74.
70) Commandant Couvet – **Notes sur le souf et les souafa** – Bulletin de la société de géographie d'Alger. 1934. P49.
71) Voir: Seroka,Op-Cit,p15.
72) André Voisin – op . cit . p74.
73) لما وصل الطابور الفرنسي إلى بلدة تاغزوت التي تبعد عن الوادي في شمالها بحوالي 14كلم، توجه ميعاد الوادي المشكل من الأعيان والوجهاء، وقصدوا المعسكر، وطلبوا أن يعاملوا بالرحمة، ووعدوا بتطبيق كل الشروط الفرنسية، بينما قابل سكان تاغزوت الجيش الفرنسي بترحاب وإخلاص، لان غالبيتهم معادون لسلمان الجلابي، ولم يرسلوا أفرادهم إلى تقرت ، ولم يشاركوا في المقاومة. Voir: Seroka,Op-Cit,p15
74) **السيوف:** هي الكثبان الرملية.
75) إبراهيم العوامر ، المرجع السابق، ص24.
76) Commandant Couvet – op . cit . p50.
78) أنظر: علي غنابزية، المرجع السابق، ص 40 .
79) **كوينين:** قرية تقع شمال الوادي وتبعد عنه بحوالي 6 كلم.
80) Voir: Seroka,Op-Cit,p15-16.
81) André Voisin – op . cit . p74.
82) **الميليس:** (**Milice**) هو الحرس البلدي.
83) Voir: Seroka,Op-Cit,p17.
84) أنظر: علي غنابزية، المرجع السابق

علي الحمامي الجزائري ونضاله التحرري في العالم العربي و الإسلامي (1902–1949)

د / قاصري محمد السعيد
جامعة المسيـــلة

ملخص

يندرج هذا المقال ضمن المساهمة في كتابة تاريخ السير والتراجم الذين تزخر بهم الجزائر وضمن عملية إحياء التراث الجاري العمل بها على المستوى الوطني، وغايتنا هو نفض غبـــار الغفلـــة والنـــسيان عـــن الشخصيات والرموز الوطنية التي لا تزال مغمـــورة وفي طي النسيان. وما علـــي الحمـــامي إلا نمـــوذج من الوطنيين المخلصين الذين بذلوا كل ما في وسعهم في سبيل تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي، ورغم ذلك فإنه لم يحظ بالبحث والدراسة على غرار بعض الشخصيات التي لم ترتق في نضالها التحرري إلى مرتبة الحمامي، وعليه فإننا سنحاول في هذا المقال التعريف به ومحاولة إبراز نشاطه ونضاله التحرري عبر العـــالم العربي والإسلامي.

Résumé

Cet article s'inscrit dans le but d'écrire l'histoire autobiographique des personnalités algériennes, afin de revaloriser le patrimoine au niveau national. Notre objectif est de ressusciter et de faire connaître des personnalités symbole du nationalisme qui vivent encore dans un oubli profond, tel Ali el Hamami symbole d'un nationaliste et du fidèle qui à contribué avec tous ce qui en sa possession pour la liberté d'Algérie du colonisation française. Mais, malgré tout cela aucune recherche ou étude n'a était faite, dans ce contexte nous voulons dans ce thème jeter sur cette personnalité héroïque un peu de lumières sur ses activités et son combat libérateur à travers le monde arabo-musulman.

مقدمـــة

سأفتتح هذا المقال بما كتبه صديقه ورفيقه في النِّضال التحرري محـــي الـــدين القليـــــبي[1] في جريدة البصائر بقوله: «لا يمكن أن نُحصي في هذه العجالة ما قام بـــه لفائـــدة المغـــرب الإسلامي ولا ما بذله في الدفاع عنه من وقت وجُهد ومـــال ومـــا لاقـــاه في ســـبيل ذلـــك من الأهوال، فقد عاش طيلة ثُلث قرن مُشرَّدا عن وطنه وأهله بدون مقر يأمن فيـــه مطـــاردة البوليس الاستعماري ولا عائلة يأوي زمن المرض والحاجة إليها، ولا أُمة تَعرف قيمته وتُقـــدِّر مواهبه فتستفيد منها، بقي كاللّغز والسِّر المكتوم لا يعرفه إلا القليل ممّـــن لهـــم درايـــة بقـــيم الرجال»[2]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى وأنا بصدد كتابة هذا الموضوع اطلعت في جريـــدة الـــشروق اليـــومي على مقال للأستاذ محمد الهادي الحسني عن الحمامي تحت عنوان "مفخرة مجهولـــة.. وثـــروة

ضائعة"[3]، حيث حاول فيه ملامسة بعض الجوانب المتعلقة بالحمامي مُعتمدا في ذلك على جريدة البصائر التي تطرقت في بعض أعدادها إلى هذا الكتر المدفون، وهو ما زادنا إصرارا وعزما على تثمين هذه الالتفاتة الطيبة بمقال تاريخي اعتمدنا فيه على جملة من المصادر كجريدة البصائر الناطقة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وجريدة العلم المغربية لسان حال حزب الاستقلال، وكتاب المناضل المغربي الطيب بنونة الموسوم بـ "**نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة**" الذي سمحت لنا ظروف البحث بالعثور عليه في خزانة الكتب المغربية أثناء زيارتنا للمغرب خلال شهر جويلية2006. وهو مصدر نادر أعتقد أنه سيزيل الغموض بشكل كبير عن هذه الشخصية الجزائرية المغمورة، كونه اشتمل على عدة رسائل تطرقت العديد منها إلى وضعية الحمامي في الفترة الممتدة من سنة 1931-1934.

وبناء على هذه الافتتاحية سنحاول من خلال هذا المقال الإجابة عن جملة من التساؤلات العالقة حول هذه الشخصية: من هو علي الحمامي؟ وما هي مختلف النشاطات التي قام بها في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي خصوصا والاستعمار الأوربي عموما؟؛ وإلى أي مدى نجح الحمامي في الوقت الذي فشل فيه البعض في الصمود أمام الاضطهاد والنفي والمطاردة الاستعمارية التي ظلت لصيقة به حتى وفاته بعيدا عن أرض الوطن؟ وما هو الجديد الذي أضافته هذه الشخصية في طريق التحرر والاستقلال؟ وإلى أي مدى يمكن لشبابنا الاستفادة من تجربة الحمامي في سبيل الدفاع عن هذا الوطن العزيز؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدنا خطة عمل منهجية تتكون من العناصر التالية:

1- مولده ونشأته:

حسب رواية علال الفاسي (1907-1974)[4] يكون الحمامي قد ولد بمدينة تيارت في سنة 1320هـ/ 1902م من أب ريفي من جبل الحمام وأم سوسية، ثم هاجر مع والده إلى المشرق وهو صغير حيث أقام بالإسكندرية وتعلم في مدارس الفرنسيين ولما بلغ سن الشباب عاد إلى الوطن[5]؛ غير أن محي الدين القليبي يرى أن الحمامي نشأ وتعلم بمسقط رأسه؛ ثم هاجرت عائلته إلى الإسكندرية فأقام بها ردحا من الزمن، ثم رجع إلى الجزائر وواصل تعليمه حتى نبغ فيما تعاطاه من صنوف المعرفة[6]. ويقدم لنا الدكتور أبو عمران الشيخ[7] من جهته رواية مغايرة تماما لهاتين الروايتين والتي مفادها: «إنه عاش بمدينة تيارت وعندما بلغ عمره 20 سنة قررت عائلته التوجه لأداء فريضة الحج فرافقها إلى الحجاز؛ لكنه لم يعد إلى الجزائر بعد هذا التاريخ كونه كان من الرافضين لسياسة الاستعمار الفرنسي الذي يسيطر على وطنه. فأخذ يتجول عبر العالم مشتغلا في باخرة تجارية، وفي هذه الفترة من حياته نمّى ثقافته بصفة عامة واطلع على آثار ابن خلدون بصفة خاصة»[8].

وما يمكن ملاحظته حول هذه الروايات هو أنها اتفقت على مكان وتاريخ ميلاده غير أنها اختلفت حول نشأته وتعلمه وتاريخ مغادرته لمدينة تيارت باتجاه المشرق، ولكن بالنظر

إلى تاريخ ميلاده سنة 1902 ومشاركته فيما بعد إلى جانب كل من الأمير عبد المالك الجزائري (استشهد سنة 1924)[9] أثناء ثورته بالمغرب لمناهضة الاستعمار الفرنسي، وعبد الكريم الخطابي (ت1382هـ-1963)[10] في حرب الريف يكون عمر الحمامي آنذاك حوالي 22 سنة؛ وهو ما يجعلنا نستبعد رواية أبو عمران الشيخ الذي يرى أن انتقال عائلة الحمامي إلى المشرق بعدما بلغ ابنها 20 سنة وهو ما يوافق سنة 1922، وعليه فإننا سنأخذ برواية كل من علال الفاسي ومحي الدين القليبي مع الإقرار بصعوبة تحديد تاريخ هجرة عائلته نحو المشرق ومكان تعلمه ونبوغه هل تم بالمشرق أم بالجزائر؟ أم بهما معا؟. وهذا ما سيطرح لنا إشكال آخر: هل الحمامي عاد إلى الجزائر بعد رحلته إلى المشرق حسب محي الدين القليبي أم لم يعد إليها إطلاقا حسب أبو عمران الشيخ؟ وهذا الإشكال سنجيب عنه في وقت لاحق.

وفي ظل هذا التّضارب في المعلومات الذي نتمنى أن تُفصح عنه الوثائق التاريخية في المستقبل؛ يكون الحمامي قد توفرت لديه معلومات كافية على أحوال العالم العربي والإسلامي؛ سواء كان ذلك من خلال جولته عبر العالم ضمن الباخرة التي كان يشتغل بها حسب أبو عمران الشيخ أو من خلال معايشته للمستعمر الفرنسي بالجزائر بعد عودته من الإسكندرية حسب ما ذهب إليه كل من القليبي والفاسي؛ وعليه ففي هذه الأثناء تكون قد تولّدت لديه رغبة كبيرة في العمل الثوري الوطني؛ فما إن وصلته أخبار ثورة الأمير عبدالمالك الجزائري بالمغرب الأقصى حتى التحق به وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي:

2- التحاقه بثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب الأقصى:

لم نقف على تاريخ التحاق الحمامي بالأمير عبد المالك أثناء ثورته بالمغرب؛ غير أنه بالرجوع إلى الفارق الزمني بين تاريخ ميلاده سنة 1902 وتاريخ استشهاد الأمير عبد المالك سنة 1924 يكون الحمامي قد بلغ من العمر 22 سنة، وما نستخلصه من هذا السِّن هو أن التحاق الحمامي بعبد المالك من غير المستبعد أن يكون في وقت متأخر جدا قد يكون في حدود سنة 1922، أي بسنتين قبل استشهاد عبد المالك؛ وعليه فما هو موقِع أو دور الحمامي كشاب في مقتبل العمر في هذه الثورة؟ خاصة إذا كنا نعلم أن الحمامي قد تبنى أفكار بعض السياسيين في الجزائر كعمر راسم[11] والأمير خالد[12].

وبناء على التكوين الذي يكون قد تلقّاه الحمامي بالمشرق في المدارس الفرنسية حسب علال الفاسي أو بالجزائر حسب محي الدين القليبي يجعلنا لا نستبعد استفادة عبد المالك من الحمامي استفادة فكرية وأدبية، فبحكم إتقان الحمامي للغة الفرنسية واللغة الإسبانية -لا ندري متى تعلم الإسبانية بالضبط- يكون قد وظّفه في عملية التواصل الجارية بينه وبين الأطراف الأجنبية آنذاك كفرنسا واسبانيا من خلال قراءة مراسلات هاتين الدولتين وترجمتها أو كتابة تقارير أو ردود فعل حولها ثم رفعها لعبد المالك الذي سيرد بدوره عليها؛ مع ملاحظة أن الأمير عبد المالك كان يُتقن هو الآخر اللغة الفرنسية، أو ربما يكون قد جنّده في صفوف الجيش الذي كان تحت تصرفه؛ وهذا الاحتمال الأخير اهتدينا إليه من ما ذكره القليبي بشأن

الحمامي: «ويجيد الرماية بالسِّلاح...شارك في ثورة ابن عبد المالك في المغرب وحارب في صفوف مجاهديها»[13]، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى ونظرا لمساهمة الحمامي في العمل الصحفي الذي بدأه مع "فكتور سبيلمان Victor Spielmann"[14] الذي يقول عنه الحمامي: «هو ذلك الرجل الذي أخلص في الدفاع عن الجزائر إلى حد تجاوز فيه ما وقف عنده أدعياء الصداقة وحماة الإنسانية»[15]. فنحن لا نستبعد أن يكون الحمامي -بخبرته الصحفية- قد استفاد منه عبد المالك إعلاميا في الحرب الدائرة رحاها بينه وبين الفرنسيين في المغرب.

وفي ظل هذه الحرب التحريرية ضد الاستعمار الأوربي في المغرب بقيادة عبد المالك والخطابي، ونظرا لسياسة "فرق تسد" التي استخدمتها فرنسا بين هاذين البطلين: عبد المالك ضد فرنسا والخطابي ضد اسبانيا؛ وذلك للحيلولة دون أي تعاون أو اتحاد فيما بينهما، الأمر الذي دفع بالحمامي دون شك إلى القيام بمحاولة لرأب هذا الصدع والخلاف غير أن محاولته باءت بالفشل، وفي خضم هذه الأثناء انتقل الحمامي للعمل في صف عبد الكريم الخطابي ويبرر لنا علال الفاسي هذا السلوك بوقوف الحمامي على عدم إخلاص عبد المالك الذي كان على اتصال مع الإسبان[16]. وهذا التبرير يحتاج في نظرنا إلى كثير من التعليق؛ وعليه فرغم إقرارنا بمكانة الفاسي كمناضل سياسي قارع الاستعمار الفرنسي ردحا من الزمن فإننا لا نستبعد وضعه ضمن خانة البعض الذين حاولوا سواء عن قصد أو عن غير قصد تشويه رموز الكفاح الجزائري كالأمير عبد القادر الذي قيل عنه ما قيل والشيخ بوعمامة الذي اتهم بالوقوف إلى جانب ثورة الروكي بوحمارة، والأمير عبد المالك الذي وصفوه تارة بالعميل للألمان وتارة أخرى بالمغامر..الخ.

إلا أن الحمامي لم يمكث وقتا طويلا عند الخطابي[17]، فهل يمكن القول أيضا أنه وقف على عدم إخلاص الخطابي الذي كان على اتصال مع الفرنسيين؟!. هذا ما نستبعده ونستبعد تبرير الفاسي حول التحاق الحمامي بالخطابي؛ وفي ظل سكوت المصادر والوثائق التاريخية حول هذه المسألة فإننا نفضل تفاديها وعدم الخوض فيها. وعلى أية حال فإن الحمامي غادر المغرب الأقصى باتجاه العاصمة الفرنسية باريس؛ وقبل الحديث عن هذه النقطة أود الإشارة إلى أن صلة الحمامي بـ"فكتور سبيلمان" المعمر الفرنسي المقيم آنذاك بالجزائر من خلال النشاط الصحفي الذي يعترف فيه الحمامي بأنه بدأه مع"سبيلمان" يجعلنا نقر بعودة الحمامي في وقت مبكر من المشرق بعد هجرة عائلته نحو الحجاز، وتعليمه وفترة شبابه قضاهما بالجزائر وليس بالمشرق.

3- انتقاله إلى فرنسا ومساهمته في تأسيس نجم شمال إفريقيا سنة 1926:

على اثر انتقاله إلى فرنسا يكون الحمامي قد اتصل بالأمير خالد (ت 1355هـ/ 1963م)[18]. وشارك معه في الحركة التي كان يترأسها[19]، وحسب عبد الحميد زوزو فإن الحمامي كان من بين المستمعين لمحاضرات الأمير خالد التي كان يلقيها بفرنسا أثناء إشرافه على تأسيس لجنة من أبناء شمال إفريقيا[20]. وينفرد علال الفاسي هنا بأن الحمامي أسّس

مع الأمير خالد ومع السيد مصالي الحاج جمعية النجم الإفريقي، ويشاطر هذا الطرح الدكتور احميده عميراوي الذي يقول عن الحمامي بعد ما أشار إلى نضاله في المغرب إلى جانب كل من عبد المالك وعبد الكريم الخطابي: «ومن غير المستبعد أنه شارك مع مصالي الحاج في تنشيط النضال المغاربي في فرنسا»[21]. وهذا ما لم تشر إليه بقية المصادر أو المراجع التي عدنا إليها.

وأثناء تصفحنا لكتاب المناضل والمجاهد عبد الرحمان العقون[22] وجدناه يتطرق إلى الحمامي ويحدد لنا موقعه في النجم؛ وهذا ما نلمسه من خلال النص الآتي: «والحقيقة التي هي مأخوذة من مصادر محققة هي كما يلي: كان ميلاد حركة ((نجم الشمال الإفريقي)) بمدينة باريس –فرنسا– يوم 2 مارس 1926 في جلسة تحضيرية، وفي جلستين تاليتين: في 20 جوان و2جويلية 1926 استكمل التأسيس وتولى رئاسته الفعلية أولا حاج علي عبد القادر، وأعطيت الرئاسة الشرفية للأمير خالد، والكتابة العامة لمصالي أحمد، وعضوية: رابح موساوي، و**علي الحمامي**، وعلي عيمش، والرزقي كحال، وأحمد بلغول، ومحمد جفال، ومحمد طالب»[23].

وبعد هذا الموقع الذي حدده لنا عبد الرحمان بن العقون بخصوص الحمامي لم نكد نعثر على أي تفاصيل أخرى بخصوص نشاطه بفرنسا أو بنجم شمال إفريقيا، غير أن علال الفاسي وجدناه ينفرد بمعلومات أخرى مفادها: «وبعد ذلك انخرط –الحمامي–في الحزب الشيوعي الفرنسي، فكان يكتب في "الإنسانية" فصولا عن شمال إفريقيا وتغلغل في العمل النقابي حتى صار من العاملين في هيأة س. ج. ط [وهي الكنفدرالية العامة للعمال التي يرمز لها بالأحرف الأولى C.G.T. – Confédération générale des Travailleurs- هي عبارة عن تكتل نقابي فرنسي تأسس سنة 1895 لكنه انقسم على نفسه سنة 1921 ونتج عن هذا الانقسام ظهور الكونفدرالية العامة للعمل الموحد، التي يرمز إليها بـ C.G.T.U]. ثم حدث له خصام مع زعيم الحزب الشيوعي "طوريس" أدى بهذا الأخير إلى شتمه فرماه الحمامي بدواة جرح بها وجهه، وتدخلت موسكو في الأمر فانتقل الحمامي موظفا بعاصمة السوفيات بإدارة تتعلق بتنسيق أعمال الفلاحين في العالم»[24].

4– انتقاله إلى موسكو:

لا ندري متى انتقل الحمامي إلى العاصمة السوفيتية موسكو، ولكن من غير المستبعد أن يكون انتقاله إليها في حدود سنة 1928 أين تم توظيفه بإدارة تتعلق بتنسيق أعمال الفلاحين في العالم؛ وقد مكث الأستاذ الحمامي في موسكو مدة ثلاثة أعوام درس فيها الحالة في روسيا؛ وأداه ذوقه وإدراكه إلى النظام الروسي ليس هو المثل الأعلى الذي كان ينشده فخرج إلى جنيف حيث قضى أمدا يتعاون مع الأمير شكيب أرسلان[25].

ورغم التحاق الحمامي بعاصمة السوفيات فإن هذا لم يجعل منه شيوعيا لا في فكره ولا في معتقده؛ بل تكون قد ربطته بالشيوعيين علاقة مصالح آنية لا غير؛ وهي علاقة في نظرنا لا ضير فيها ولا حرج خاصة إذا كنا نقر بدور الحركة الشيوعية في تأسيس نجم شمال إفريقيا، وكان من بين الأعضاء البارزين في الإتحاد الشيوعي عبد القادر الحاج، وأحمد بورحلة فيما بعد

وعبد العزيز منور أحد خريجي الجامعات الروسية، كما أن مصالي الحاج نفسه يكون قد انخرط في الحزب الشيوعي سنة 1925..الخ، و لم يجعل من هؤلاء شيوعيين بل اضطرهم الظروف للعمل تحت راية هذا الحزب، وعلى أية حال فلو أن الحمامي كان شيوعيا لما تقدم الإبراهيمي وغيره من الوطنيين لتأبينه والإشادة بخصاله الإسلامية أثناء مراسيم تشييع جثمانه بمقبرة سيدي محمد سنة 1950.

5- انتقاله إلى جنيف وبعض العواصم الأوربية:

على اثر عودته من موسكو يكون الحمامي قد تنقل بين عدة عواصم أوربية؛ حيث التقى بعدد هائل من الشخصيات العربية والإسلامية التي كانت تناضل في سبيل تحرير شعوبها من قبضة الاستعمار الأوربي، وبخصوص نشاط الحمامي وتنقله عبر هذه العواصم لا تكاد المصادر والمراجع التي عدنا إليها تتحدث عن هذه الفترة؛ إلا أن المصدر الوحيد في حدود علمنا الذي تتبع تحركات الحمامي بين هذه العواصم هو ما كتبه المناضل المغربي الطيب بنونة في كتابه السالف الذكر.

لقد اشتمل هذا الكتاب على عدة رسائل تم تبادلها في معظمها بين كل من أمير البيان شكيب أرسلان (ت 1946)[26] والحاج عبد السلام بنونة[27]؛ وأثناء قراءتنا لهذه الرسائل وقفنا على ستة منها تم التطرق فيها إلى علي الحمامي؛ ومن خلالها تمكّنا من تحديد موقعه بشكل جيد بعد عودته من موسكو وحصر نشاطه خلال الفترة الممتدة من1931/02/19 إلى20 /1935/03؛ وهو تاريخ تحرير هذه الرسائل. والجميل فيها هو تتبعها الدقيق للحمامي منذ التحاقه بجنيف والانشغال الذي أبداه كل من شكيب أرسلان وبنونة حوله؛ وهذا يدل على مدى الارتباط الوثيق الذي جمع بينهم. وعليه يمكننا معالجة هذه الرسائل حسب تاريخ تحريرها على النحو الموالي:

- **الرسالة الأولى:** [للعلم أن جل هذه الرسائل كتبت من طرف الأمير شكيب أرسلان من مدينة جينيف بسويسرا إلى الحاج عبد السلام بنونة بالمغرب]

مؤرخة بمدينة لوزان بسويسرا في 3شوال 1349هـ/ 19 فيفري 1931. ومما جاء فيها بخصوص الحمامي الذي أشارت إليه على انه مكافح مغربي مهاجر: «تعرفت في برلين بشاب أصله من المغرب الأقصى وأقام أبوه بتاهرت من عمل وهران وهو ذكي مطلع يحسن الإنشاء بالافرنسية وكان في حرب عبد الكريم وقبلها مع عبد المالك، واسم هذا الشاب الحمامي وقد كان يكاتبني ثم جاءني وواجهني ولقيته في حفلة عملها لي الطلبة السوريون والعراقيون وقد شكا لي منكم ففي الحال قلت له: يا أخي يلزم أن تنصفوا أن الحاج عبد السلام بنونة هو ركن المغرب و لم أجد أشد منه حمية على الإسلام لكن ماذا يصنع؟ بلده لا تقدر على مقاومة الأسبان وفيها 50 ألف مسلم إذا لم يدافع عنهم فإنهم يضمحلون تماما، وهل يقدر الحاج عبد السلام أن يرفع الأضرار عن مسلمي تطاون (كذا) [والصواب هو تطوان] إن لم يحسن السياسة مع الإسبانيول؟ قلت له: إن المتزلّفين إلى الأجانب حبا بأنفسهم لكم الحق

أن تقولوا فيهم ما شئتم فأما الذين هم مضطرون لمحاسنة الأجانب أمـــلا بتخفيـــف الـــشرور عن قومهم مع التهاب قلوبهم بالحمية على ملتهم فهؤلاء أنا أعذرهم بل أشكرهم. فما زلت به حتى أقنعته وقال: إن الحاج عبد السلام بنونة هو أذكى رجل بالمغرب»[28]. ومن بين النقـــاط التي عالجتها هذه الرسالة:

1. محاولة نسب الحمامي إلى أصول مغربية رغم أنه من أصول جزائرية.؟!
2. مشاركة الحمامي إلى جانب كل من الأمير عبد المالك والأمـــير عبـــد الكـــريم الخطـــابي في المغرب الأقصى.
3. معاتبة الحمامي لعبد السلام بنونة في تقصيره في مقاومة الأسبان ومهادنتهم.

– الرسالة الثانية:

مؤرخة في 20 نوفمبر 1932 وهي رسالة طويلة جدا حيث تضمنت الحديث عـــن حالـــة الحمامي واضطهاده وأزمته المالية وطلب العون له لإنقاذه؛ ومما جاء فيهـــا بهـــذا الخـــصوص: «يا أخي إن علي الحمامي الذي قابلتموه في برلين كان قد جاءه مكتوب من نظارة الخارجيـــة في الحجاز بالسفر إلى مكة لأجل أن يعطوه عملا فيها لكنهم لم يرسلوا إليـــه بنفقـــة الـــسفر وفي ذلك الوقت أخرج الألمان الغرباء الذين بدون عمل من بلادهم وأخرجـــوه مـــن الجملـــة فجاءنا إلى جنيف خاوي الوفاض بادي الانفاض يطلب أن نسفره إلى جـــدة وأقـــام بجنيـــف على نفقتنا مدة بحيث وجدنا الأحسن لنا وله أن نسفره إلى جدة بالدرجة الثالثة ودفع كل منا ومن أخي عادل ومن أخي الجابري 100 فرنك سويسري وســـفرناه عـــن طريـــق ايطاليـــا إلى بورسعيد ليأخذ منها أو من السويس وابورا [مركب بحري] يوصله إلى جدة ولمـــا كـــان النحس مرافقا هذا الرجل رفضت الحكومة المصرية في بورسعيد أن تدعه يترل بحجة انه شيوعي وعندها اسمه في قائمة الشيوعيين واضطر أن يرجع في الوابور إلى ايطاليا ووصـــل إلى تريـــستا [مدينة تقع على السواحل الشمالية للبحر الإدرياتيكي] وأرسل من هناك يستغيث بنا ويلتمس مني ومن أخي الجابري أن نرسل إليه نفقة سفره مرة أخرى حتى يذهب إلى مـــصوع [مدينـــة ساحلية تقع بالبحر الأحمر من أراضي إريتريا] ومنها يأتي إلى جدة».

ثم تنتقل الرسالة إلى الحديث عن طلب الحمامي القاضي بجمع التبرعات له من أعيان مدينة تطوان بالمغرب قصد إعالته على محنته؛ ومما جاء في ذلك: «وكان في المرة الأولى قد رغب إلينا أن نكتب إليكم وإلى أعيان تطوان في أمر مساعدته بما يوصله إلى الحجاز لكننا نحـــن لم نجـــد المسالة تستحق تصديعكم وتعاونا أنا وأخي عادل وأخي الجابري وأخذنا من الحسن بوعيـــاد 50فرنكا سويسريا حتى لا يزيد كلفتنا عليه في مجيئه إلى جنيف ولكنه أرسل يستغيث مرة ثانية قائلا: سفروني وإلا هلكت جوعا، وهو يلتمس منا مرة ثانية أن نراجـــع تطـــوان في قـــضيته فلم يكن لنا بد من ذلك».

ثم سرعان ما تسترسل في شرح تفاصيل مساعدته بمبالغ مالية وكيفيـــة اســـتفادته منـــها: «إن هذا الرجل لما كان في برلين ساعدته على ثلاث دفعات بمائتين وعشرين فرنكا سويـــسريا

–أي نحو 650 بسيطة– هذا عدا ما تغرمنا عليه هذه المرة والآن برغم الضيق الحالي أنا راض بان أتغرم عليه 100 فرنكا سويسريا أيضا حتى اخلص من همه ولكنه من حيث انه مغربي ومولود بتطوان وكان في بلادكم مدة طويلة وهو ما برح يستغيث بكم فإننا أنا وزميلي الجابري نرجو منكم أن تجمعوا له من كيسكم وكيس ذوي الحمية ولو 300 بسيطة وترسلوها إليه إلى تريستا رأسا بحسب العنوان الذي بذيله وان تعجلوا بذلك حتى لا يصرف مساعدتنا ومساعدتكم في طول إقامته بترستا والله يجازيكم جميعا أفضل الجزاء ونرجو الجواب عن طريق السنيور رفولس والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» . عنوانه:

A. El Hammamy / Albergo Abbasia Via della geppa.

20 Triesta / Italia.

ومن بين النقاط التي اشتملت عليها هذه الرسالة:

1. مراسلته من طرف نظارة الشؤون الخارجية بالحجاز بالسفر إلى مكة المكرمة قصد إيجاد عملا له هناك.
2. طرده من برلين كغيره من الأجانب الذين لا يتوفرون على عمل بها.
3. توجهه إلى العاصمة السويسرية جنيف.
4. رحلته من جنيف إلى ايطاليا ثم إلى بورسعيد بمصر ورفض السلطات المصرية نزوله بحجة أنه كان من الشيوعيين، وأعتقد أن ذريعة السلطات المصرية واهية لأن الحمامي لم يكن شيوعي رغم تعامله مع الشيوعيين وانخراطه في الحزب الشيوعي وسفره إلى موسكو، فهذا ليس معناه بالضرورة أن يكون شيوعي، وللعلم أن هذه التهمة وجدنا عدا الفاسي الذي ينفرد بها في روايته. وهذه التهم عادة ما تستهدف العظماء قصد تشويه سمعتهم على غرار ما قيل عن الأمير عبد القادر بانتمائه للمحفل الماسوني، وهو بريء تماما من هذه التهمة الواهية.
5. عودته من جديد إلى ايطاليا وطلبه بجمع التبرعات له من جديد حتى يسافر مرة أخرى نحو مصوع التي سينتقل منها نحو جدة.
6. عودة الرسالة إلى الحديث على أن الحمامي مغربي مولود بتطوان؛ وهذا خطأ غايتنا التنبيه إليه.

– الرسالة الثالثة:

مؤرخة بجنيف في 1شعبان 1351هـ/ 30 نوفمبر 1932 وموضوع هذه الرسالة مثل سابقتها كله عن حالة علي الحمامي وطرده من مصر أولا ومن ايطاليا وما يعانيه من بؤس ووجوب مساعدته ماديا من تطوان كما ساعده الأمير ورفقائه، ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «سيدي الخ قبلا كتبت لكم بشان علي الحمامي وتسفيرنا إياه إلى جدة وإعادة الحكومة المصرية إياه من بورسعيد بحيث ذهب ما أديناه عنه من المصاريف سدى ولما ارجع إلى تريستى أرسل يستغيث بنا ثاني مرة وكتبنا إليكم أملا بان تعاونوه بشيء من تطوان وفي هذه الثناء أنذرته الحكومة الإيطالية بالخروج وضاقت عليه الأرض بما رحبت و لم يكن في يده شيء فبعث إلينا يستعجل البر حتى يركب باخرة ايطالية إلى مصوع ومنها يأتي إلى جدة فاضطررنا

أنا والأخ الجابري حتى لا يهلك هذا الرجل جوعا أن نرسل إليه 300 فرنك سويسري وساعد الحسن بوعياد منها بثلاثين فرنكا وأرسلناها إليه أمس، فالمقصود إن كنتم أرسلتم إليه معاونة رأسا بعنوانه في تريستي فأفيدونا؛ وإن كنتم لم ترسلوا إليه بعد ومرادكم إرسال شيء فأرسلوه إلينا لأننا عدا كوننا تكلفنا على هذا الرجل أولا وثانيا وثالثا نحو من 900 فرنك سويسري لا نأمن أن تكون هذه آخر مرة يستصرخنا بها فإنه كيفما ذهب يجد الباب مسدودا ولا ملجأ له فلا يجد أمامه غيرنا ونحن تأبى مروءتنا أن ينادينا أخ مسلم في أقصى درجات البؤس فلا نجيبه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[29].

– الرسالة الرابعة:

مؤرخة بجنيف في 12 شعبان 1351هـ/ 11 ديسمبر 1932م وهي رسالة مطولة ومن بين ما تناولته شكر بنونة على مساعدته المادية للحمامي، ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «أشكرك جدا على رفدك للحمامي المسكين الذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت، دفع الله عنك وعن أولادك كل بلاء، أظنه سافر إلى مصوع ومنها يأتي إلى جدة وهناك يعيش كيفما كان»[30].

– الرسالة الخامسة:

مؤرخة بجنيف في 22 شعبان 1351هـ/ 21 ديسمبر 1932م، رسالة تضمنت عدة مواضيع كان من بينها الإعلام باستلام الحمامي لمعونة مالية من بنونة؛ ومما جاء فيها بهذا الخصوص بعد التهنئة بقدوم شهر رمضان: «كنت كتبت لك بان الحمامي كتب إلينا بأن رفدك 10 ليرات وشيئا وصله لا عدم الإسلام سندا مثلك ودفع البلاء عنك وعن أولادك»[31].

– الرسالة السادسة:

مؤرخة بجنيف 24 ذي الحجة 1353هـ/ 20 مارس 1935، وهي رسالة مطولة وتناولت مواضيع شتى كان من بينها علي الحمامي ومساعدة بنونة له ماديا؛ ومما جاء فيها بهذا الخصوص: «ومرة جاءنا علي الحمامي شاب مغربي منفي من كل المغرب مقيم ببرلين ضاقت به سبل العيش فالتجأ إلينا طالبا منا تسفيره إلى الحجاز لأنه لا يقدر أن يدخل إلى المغرب ولا إلى مصر ولا إلى سورية، ولم يجد ملجأ سوانا فلزم أن نعاونه وتكلفنا نفقات تسفيره فلما وصل إلى بورت سعيد (كذا) [الصواب هو بورسعيد] لم يتركوه يذهب إلى الحجاز فردوه إلى تريستا فبعث يستصرخنا ثاني مرة ونحن كنا تكلفنا مبلغا أنا وزميلي الجابري وأخي عادل في سفرته الأولى فالتزمنا أن نبعث إليه مبلغا ثانيا إلى تريستا، ومن الجملة أخذنا من الحاج حسن أبي عياد خمسين فرنكا سويسريا وقلنا له هذا من بلادك وان كان في الحقيقة كل بلاد الإسلام سواء في نظر المسلم ثم كتبت إلى المرحوم بخبر الحمامي وأعطيته عنوانه في تريست فما مضت جمعتان حتى جاءني من الحمامي يقول أن الحاج عبد السلام أرسل إليه عشرة جنيهات»[32].

6- انتقاله إلى بغداد واستقراره بها:

بناء على ما ورد في الرسالة الثالثة من احتمال انتقال الحمامي إلى مصوع ثم إلى مدينة جدة بالمملكة السعودية؛ يكون قد انتقل من هذه الأخيرة باتجاه مدينة بغداد. ورغم عدم توفرنا على التاريخ الرسمي لوصول الحمامي إلى بغداد؛ فإنه من غير المستبعد أن يكون في حدود 1934. ومن بين النشاطات التي قام بها أثناء استقراره ببغداد لمدة 14 سنة حسب رواية صديقه محي الدين القليبي التي سنتطرق لها فيما بعد.

1. تم تعيينه كأستاذ لمادة التاريخ والجغرافيا لمدة تزيد عن 12 سنة، وطيلة فترة استقراره ببغداد كان منشغلا بالكتابة؛ وهذا ما جاء على لسان رفيقه في النضال عبد المجيد بن جلون: «فكان في العراق يكتب بنفسه لنفسه ليرضي هذه النزعة الكبيرة التي يختلج بها قلبه الكبير»[33].

2. تعرفه على الزعيمين الكبيرين عبد العزيز الثعالبي (الجزائري الأصل)، مؤسس الحزب الدستوري التونسي، وسليمان باشا الباروني (الليبي) مؤسس جمهورية طرابلس[34].

3. قام بنشاط صحفي وإعلامي كبير جدا في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي لبلدان المغرب العربي، والتعريف بقضية بلاده وما تعانيه من ويلات تحت وطأة هذا الاستعمار، ولا شك أن تعرفه على الزعيمين السابقين كان له دور كبير في تنسيق جهودهم نحو طرق ووسائل تحرر شعوب المغرب العربي.

4. ألّف قصته المشهورة باسم "إدريس"[35] باللغة الفرنسية في الفترة الممتدة من شهر ديسمبر1941 إلى شهر جويلية 1942؛ وهي قصة استوحاها من تجربته النضالية والتحررية بمنطقة الريف المغربية أثناء مشاركته في الكفاح المسلح إلى جانب كل من الزعيمين عبد المالك الجزائري وعبد الكريم الخطابي؛ وبعد انتقاله إلى القاهرة يكون عبد الكريم الخطابي قد كتب مقدمة لهذا الكتاب مؤرخة في 23 جمادى الأولى 1367هـ/ 3أفريل 1948م. وهو ما يجعلنا نستبعد رواية الهادي الحسني القائلة بتأليف القصة بالقاهرة عندما يقول: وقد أثمرت صلته بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي عملا أدبيا هو رواية "ادريس"، كما يجعلنا نستبعد نشر هذه القصة في شكل كتاب قبل تاريخ 03 أفريل 1948؛ تاريخ تقديم الخطابي لهذا الكتاب؛ وسنعود لهذه القصة أثناء الحديث عن آثار الحمامي.

7- عودته إلى القاهرة وانضمامه إلى مكتب المغرب العربي:

انتقل الحمامي إلى القاهرة سنة 1947 على اثر عملية فرار عبد الكريم الخطابي من السفينة الفرنسية التي كانت تقله من جزيرة "ريونيون" إلى فرنسا واستقراره بالقاهرة بعد نجاح هذه العملية، فهذا يعد في نظر محمد الهادي الحسني سببا في انتقال الحمامي إلى القاهرة[36]. وذلك نظرا للعلاقات الحسنة التي سبق وأن ربطته بالخطابي في المغرب أثناء حرب الريف. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فنحن لا نستبعد سبب انتقال الحمامي نحو القاهرة إلى ذلك الدور والنشاط التحرري الدءوب الذي كان يقوم به ثلة من الوطنيين الأحرار المنخرطين والمؤسسين سواء لجبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية أو لمكتب المغرب العربي بالقاهرة، وبحكم

فعالية الحمامي وحبه للنضال التحرري عبر العالم العربي والإسلامي يكون قد التحق بالقاهرة بعدما وصلته أخبار تفيد بوجود هذه النخبة المغاربية التحررية في القاهرة. وما يؤكد هذا الطرح هو ما جاء على لسان رفيق دربه محي الدين القليبي بعدما أشاد بتنقلاته المارطونية: «طاف شمال إفريقيا بأكمله والشرق حتى أقصاه وأوربا غربيها وشرقيها حتى روسيا أقام فيها سنوات ثم استقر في العراق 14 سنة، وجاء إلى مصر أخيرا لما علم بأن رجالا هناك يجاهدون لتحرير المغرب فانظم إليهم وعمل في صفوفهم تحت راية صديقه القديم الأمير عبد الكريم؛ وقد كان قبل ذلك (كذا) في جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا يراسلها ويرفع صوتها حيث كان»[37].

وبحكم تجربة الحمامي وثقافته الواسعة وإتقانه للغات عالمية شتى كالفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية والتركية –يكتب ويخطب بجميعها–يكون قد ساهم بشكل كبير جدا في تفعيل مكتب المغرب العربي بالقاهرة–بعدما أصبح عضوا فيه– على مستوى عالمي؛ خصوصا مع الوفود العربية والإسلامية التي كانت تحل بالقاهرة بين الحين والآخر؛ وإلى جانب هذا يكون قد ساهم بعمل صحفي كبير جدا عبر أعمدة كثير من الجرائد والصحف المصرية وعلى رأسها مجلة الأساطير؛ كما يكون قد اشترك مع الخطابي في ترجمة مذكراته عن الحرب الريفية[38]. ويذكر عبد المجيد بن جلون بخصوص نشاط الحمامي بالقاهرة: «كان يزورنا في مكتب المغرب العربي كل يوم تقريبا وكان يطمئن إلينا ويسهب في الحديث عن مختلف شؤون الحياة»[39].

ولعل هذه المكانة المرموقة للحمامي هي التي جعلت مكتب المغرب العربي بالقاهرة يعينه ممثل عن الجزائر في مؤتمر كراتشي الاقتصادي المناهض للاستعمار بباكستان؛ وهذا ما سنعرفه في العنصر الموالي.

8– مشاركته في المؤتمر الإسلامي بباكستان 1949 واستشهاده في حادث تحطم الطائرة:

يذكر لنا أبو محمد أنه تم إيفاد ثلاثة من أبطال الكفاح والنضال ومن المجاهدين الصادقين في سبيل الله والعروبة والوطن؛ وهم كل من: الدكتور الحبيب ثامر التونسي والدكتور علي الحمامي الجزائري والأستاذ محمد عبود المراكشي؛ من مكتب المغرب العربي بالقاهرة لتمثيل بلدان المغرب العربي في مؤتمر كراتشي الاقتصادي بباكستان[40]؛ وهو مؤتمر مناهض للاستعمار بمختلف أشكاله وخاصة الهيمنة الغربية على اقتصاد الدول الفقيرة والضعيفة. ثم يواصل القول بشأنهم: «مثّلوا قُطرنا المغرب العربي بأقسامه الثلاثة في مؤتمر كراتشي الاقتصادي فأحسنوا تمثيله، وهنالك بين أمم العالم سطع نجمهم وتألق نور محبتهم ورفعوا بجهودهم وبسيرهم وبأخلاقهم الرفيعة رأس وطنهم عاليا فخورا، واغتنموا هنالك فرصة لنشر قضية البلاد والتشهير بآفات الاستعمار والتبشير بآمال الأمة وبحيويتها واستعدادها للبروز قوية متينة إلى عالم الحياة الحرة المستقلة»[41].

ومن دلائل نجاح هذه الوفادة المغاربية حسب أبو محمد هو احتجاج حكومتي فرنسا وبريطانيا لدى باكستان على قبولهم بين أعضاء هيئة هذا المؤتمر؛ وعليه فمشاركتهم تكون

قد حققت نجاحا معتبرا وأصابت الاستعمار في الصميم. وبعد انتهاء أشغال المؤتمر قفل هؤلاء عائدين إلى القاهرة موقع جهادهم إلى جانب الجامعة العربية؛ غير أن المنية استعجلتهم في حادث تحطم الطائرة التي كانت تقلهم يوم 12 ديسمبر 1949 عندما اصطدمت بقمة جبل في منطقة اسلامستان[42]. وهكذا يتم إسدال الستار عن حياة هذا المناضل الجزائري الذي فاقت شهرته كل الآفاق.

وعلى اثر هذا المصاب الجلل ونظرا لمكانة الحمامي عند زعماء الحركة الإصلاحية بالجزائر خصوصا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين راح كثير من أصدقائه ومحبِّيه يُقدمون التعازي وينشرون مناقبه؛ ومن دلائل ذلك ما جادت به جريدة البصائر التي عالجت هذه النكبة بشكل موسع في الأعداد التالية: 99-100-102-107.

ومما جاء في مقال أبو محمد الموسوم بالفاجعة: «إذا ما نحن جزعنا فهذا موطن الجزع، وإذا ما التعنا فهذا هو ميدان اللوعة والأسى، وإذا ما نحن لبسنا أثواب الحداد، فعلى مثلهم يرتدى السواد...ثلاثة[43] من أبطال الكفاح والنضال، ومن المجاهدين الصادقين في سبيل الله والعروبة والوطن خروا شهداء في ميدان الواجب والشرف، لم يدنس لهم عرض، و لم تنكس لهم رأس، و لم تثلم لهم كرامة، لقد عاشوا أحرارا وماتوا أبرارا، كانوا خلال حياتهم العامرة الثرية بجلائل الأعمال مثال الشهامة والتضحيات والثبات ونكران الذات في سبيل المثل الأعلى، وكانت النار، نار الغيرة والإحساس والوطنية الحقة تتأجج في قلوبهم الطاهرة النقية، فكتب الله لهم أن تأكل تلك النار أجسامهم بعد القلوب وان يختموا صفحة الجهاد بالاستشهاد»[44].

9- تشييع جثمانه بمقبرة سيدي محمد بالعاصمة وتأبينه من طرف زعماء الحركة الوطنية:

لقد انفردت جريدة البصائر بتتبع مسار نقل جثمان الحمامي من باكستان إلى غاية مواراته التراب بمقبرة سيدي محمد بالجزائر العاصمة؛ فبعدما تم نقل جثمانه الطاهر إلى جانب جثة رفيقه محمد عبود المراكشي من باكستان إلى القاهرة يكون مكتب المغرب العربي بالقاهرة قد أبرق إلى مركز حزب البيان الجزائري بالجزائر بترقب وصول جثمان الفقيد إلى مطار الدار البيضاء" ميزون بلانش" يوم الجمعة ، غير أن سوء الأحوال الجوية ساهم في تأجيل هذه الرحلة إلى اليوم الموالي؛ حيث حطّت الطائرة القادمة من القاهرة بمطار الجزائر العاصمة أين قامت إدارة المطار بتسليم جثة المرحوم إلى نفر من رجال البيان وكتائب من شبابه؛ ثم واصلت رحلتها نحو المغرب كونها كانت تنقل جثمان المرحوم محمد بن عبود[45].

وعلى اثر ذلك تم نقل جثمان المرحوم إلى مركز البيان بالعاصمة أين تم وضع نعشه المسجى بالعلم الجزائري -حسب ما جاء ما ذكره باعزيز بن عمر بجريدة البصائر،ع.102، ص. 103- وعليه باقة من الزهور تحمل اسم مكتب المغرب العربي بالقاهرة واسم دولة باكستان؛ ثم سرعان ما تولت إدارة المركز إجراء عملية مراسيم التشييع التي تم تحديدها يوم الأحد 1جانفي 1950 بعد صلاة الظهر بمقبرة سيدي محمد بالعاصمة، وفي اليوم الموالي اجتمعت جموع غفيرة من الشعب الجزائري بمختلف شرائحه خاصة كونها تزامنت مع ذكرى إحياء

المولد النبوي الشريف، فانطلق الموكب من مقر الحزب باتجاه المقبرة يتقدمه ممثلوا الهيئات والأحزاب والشخصيات البارزة في العاصمة مثل: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، العربي التبسي، العباس بن الحسين، أحمد بوشمال أحد أعضاء وفد قسنطينة، فرحات عباس الكاتب العام للبيان الجزائري..الخ[46].

ورغم الجو الممطر والبارد فإن هذا لم يؤثر على السير الحسن ونظام الموكب الذي وصل المقبرة، ثم تولى الصلاة عليه الشيخ العباس بن الحسين أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ ثم تقدم الشيخ البشير الإبراهيمي لإلقاء كلمة تأبينية مطولة نقتبس منها ما يلي: «أيها الإخوان...أيها الشبان: إن هذا التابوت الموضوع بين أيديكم لا يحمل جثمان شخص، وإنما يحمل قطعة من الوطن الجزائري فصلت عنه ثم ردت إليه...قطعة من الوطن فصلها عنه ظلم البشر ثم ردها إليه عدل الله»[47]. وبعد أن عدد خصاله ختم كلمته بتوجيه الشكر والامتنان باسم الجزائر إلى دولة باكستان ودولة مصر، ورئيس المكتب العربي بالقاهرة الأمير عبد الكريم الخطابي، وسعادة الأمين العام للجامعة العربية على المساعي المبذولة من الجميع لنقل جثث ضحايا الكارثة إلى أوطانهم التي تكلموا باسمها في المؤتمر[48].

وبعد كلمة الشيخ الإبراهيمي تقدم فرحات عباس الأمين العام لحزب الإتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري لإلقاء كلمة أحاط فيها الحضور بنضال الحمامي الذي غامر في سبيل القضية الجزائرية؛ وطاف بذلك أطراف العالم شرقه وغربه في جهاد متواصل دون كلل ولا ملل؛ وما تلبيته لدعوة تمثيل الجزائر في مؤتمر كراتشي الاقتصادي إلا دليلا على ذلك، ثم ختم كلمته بالثناء على مساعي دولة باكستان والملك فاروق وعزام باشا والأمير عبد الكريم في تسهيل نقل جثماني الفقيدين؛ وزاد في الذكر أن شخصيات كثيرة بمصر كان في مقدمتها الأميرة سعيدة التمست أن توضع باقات زهور بأسمائها على قبر الحمامي؛ ثم عرج على ذكر برقية التعزية الواردة من المناضل والزعيم التونسي محي الدين القليبي مدير اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري الحر التونسي؛ وختم تأبينه بتوجيه كلمة أخيرة إلى الفقيد جاء فيها: «لننتزعن حريتنا من الاستعمار البغيض أو نموت مثلك في ساحة النضال من أجلها»[49].

ثم تقدم الأستاذ توفيق المدني وألقى خطابا ضمّنه تعازيه الحارة إلى الشعب الجزائري باسم اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي وتكلم عن حياة الفقيد وجهاده الميمون في سبيل استقلال بلدان المغرب العربي، وأقسم أن التفريق لن يجد بعد اليوم سبيلا إلى توهين صفوف هذا الإتحاد الوطني المقدس[50]. وبعد هذه الكلمة وري جثمانه الطاهر التراب.

10- آثاره:

لم تسمح الظروف المادية والمعنوية التي عاشها الحمامي في السماح له بالتأليف والنشر، ولا حتى بكتابة مذكراته وهذا هو شأن كثير من العظماء كالأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان وابن باديس والإبراهيمي وغيرهم؛ ويبقى في نظرنا أن المؤلف الوحيد الذي تمكن الحمامي من تأليفه هو قصته التاريخية المشهورة باسم "إدريس" قصة اقتصد لها ما قيمته

40 جنيه؛ وهو أكبر مبلغ جمعه في حياته حسب رواية صديقه القليبي. ونظرا لقيمة هذه القصة وما تكتسيه من طابع سياسي وتحرري رأيت من الضرورة بما كان الوقوف عندها بشيء من التفصيل.

استوحى الحمامي قصته واستقاها من تجربته النضالية بالمغرب أثناء تواجده في قلب المعركة إلى جانب كل من الأمير عبد المالك والأمير عبد الكريم الخطابي؛ كتبت هذه القصة باللغة الفرنسية بالعراق ثم نشرت فيما بعد بالقاهرة في شكل كتاب؛ مع تقديم للأمير عبد الكريم الخطابي باللغة العربية، مؤرخ في 23 جمادى الأولى 1367هـ/3 أفريل 1948م[51].

ومن أهم ما جاء في هذا التقديم: «وكتاب الأخ المجاهد الأستاذ علي الحمامي المغربي يكشف عن الكثير من أباطيل فرنسا الطائشة في المغرب...كما أن الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال، والتي كانت من البواعث الأكيدة على سقوطه في قبضة الاستعمار»[52]. وتكمن أهمية هذه القصة في المواضيع التي تطرق إليها الحمامي؛ والتي يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1- انتقد في العنصر الأول السياسة الاستعمارية القائمة على الاستغلال والسلب والنهب للأراضي والممتلكات، وطمس معالم الثقافة والهوية الوطنية للشعوب؛ كما استنكر سياسة الاندماج والإستيلاب الثقافي الذي كانت ترمي من ورائه فرنسا إلى جعل المغاربة أحفادا للغال. هذا إلى جانب اضطهاد الصحافة الوطنية، ومحاربة اللغة العربية، وتنمية الخلافات الإقليمية والعرقية بين السكان؛ خصوصا العرب والبربر[53].

2- دراسة وتحليل المجتمع المغربي والوقوف على أسباب انحطاطه وتخلفه، ويشير هنا بالخصوص إلى واقع التعليم الأهلي المتدهور في جميع مراحله، ناهيك عن عدة عوامل أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية؛ كما وجّه انتقاداته للطرق الصوفية التي رآها قد مهّدت بطريقة غير مباشرة لسياسة الاحتلال ودعمته[54].

3- قدّم مجموعة من الشروط التي يراها كفيلة بنهضة الشعوب العربية والإسلامية؛ والتي من أهمها نشر العلم وتجديد الفكر الإسلامي والمؤسسات السياسية، مستشهدا بآراء كبار المصلحين كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، والإمام عبد الحميد بن باديس. وبناء على ذلك يمكن اعتبار الحمامي كغيره من المصلحين الذين عرفهم العالم العربي والإسلامي آنذاك، ونلمس ذلك من خلال الوَقْع الذي أحدثه في نفوس معاصريه بعد حادث سقوط الطائرة التي تعرض لها سنة 1949، أثناء توجهه إلى الباكستان لحضور فعاليات المؤتمر الاقتصادي الكبير؛ وما الكلمات التأبينية التي خصّه بها زعماء الحركة الوطنية المغاربية[55] عموما وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين خصوصا إلا دليلا على ذلك[56].

4- وفي الأخير يدعو إلى ضرورة تحقيق وحدة المغرب العربي، والحركات التحررية في سبيل الحصول على استقلالها؛ كما نجده يشيد بالحركة الوطنية في المغرب العربي وبالمقاومة المسلحة، ويطرح عدة شروط يراها كفيلة بتحقيق النصر على الأعداء، وهي الأخذ بالعلوم

والتكنولوجيا الأوربية الحديثة، مستشهدا في ذلك بنهضة مصر الحديثة[57]. ولقد نوّه بهذه الشخصية ودورها النضالي والتحرري كثير من المفكرين المعاصرين كمالك بن نبي وعبدالكريم الخطابي ومحي الدين القليبي وغيرهم؛ غير أن نقص المصادر حول هذه النقطة، وتقيدنا بشروط النشر عبر هذه المجلة الموقرة جعلنا لا نخوض في هذه المسألة.

خاتمة

وفي ختام هذا المقال أود تقديم جملة من المعطيات التاريخية التي توصلنا إليها حول في فكر الحمامي من خلال ما جاء في أقوال معاصريه ومرافقيه؛ قصد أخذ العبرة من نضاله المستميت في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي والأوربي البغيض. وذلك وفق العناصر الآتية:

1- قوة الإرادة والعزيمة:

فمن خلال تتبعنا لمسيرة حياة هذا المناضل الجزائري وجدناها مليئة بالأخطار والمهالك ومطاردة البوليس الاستعماري له منذ فترة شبابه إلى غاية استشهاده عبر خط زمني وجغرافي طويل وبعيد في الزمان والمكان: الجزائر-القاهرة-العودة إلى الجزائر-المغرب-فرنسا-روسيا-سوسرا-برلين-روما-الإسكندرية-روما-جدة-بغداد-القاهرة-باكستان حيث وافته المنية بها في حادث تحطم الطائرة-وأخيرا العودة الأخيرة إلى الجزائر ليدفن في ترابها الزكي مكلل بالنصر والشهادة في سبيل الوطن، كل هذا المسار قضاه في سبيل مناهضة الاستعمار الأوربي بمختلف أشكاله عموما والاستعمار الفرنسي بالخصوص؛ حيث لم يكل و لم يمل و لم يتخل عن واجبه في الدفاع عن هذا الوطن العزيز؛ وما أحوجنا اليوم إلى رجال وطنيين ومخلصين على شاكلة الحمامي يتحملون كل الصعوبات والأخطار في سبيل هذا الوطن.

2- ثقافته الواسعة:

لا شك أن تجربة الحمامي وتنقلاته الواسعة في الشرق والغرب قد أكسبته ثقافة واسعة جدا؛ ولسانا فصيحا حيث كان يكتب ويخطب في العديد من المنابر السياسية التحررية وبلغات عالمية شتى: الفرنسية، الإسبانية، الإيطالية، الروسية، الألمانية، التركية..الخ، وما أحوج شباب اليوم وخصوصا الجيل المثقف إلى تعلم اللغات الأجنبية والانفتاح على الحضارات الأخرى والثقافات العالمية المتعددة مصداقا لقوله (ص): من تعلم لغة قوم آمن شرهم. ومما جاء في شهادة عبد المجيد بن جلون حول ثقافة الحمامي الذي وصفه بالفيلسوف: «كان على اطلاع واسع ودراسة وافية فكان أشبه بأساتذة الغرب العظام الذين تتمثل فيهم وفي عقولهم دوائر معارف...كان فيلسوفا من فلاسفة المغرب العربي ثم فيلسوفا من فلاسفة الحياة، وقد هيأت له الحياة القاسية التي عاشها في بقاع مختلفة من أنحاء العالم بالإضافة إلى انكبابه على الدراسة المستمرة والمنظمة الواسعة النطاق؛ وبذلك تمثلت مأساته الحقيقية في أنه سبق عصره»[58].

3- تواضعه الكبير:

لم يكن الحمامي يجري وراء الشهرة ولا وراء عدسات الكاميرا ولا حتى ذكر اسمه في الأعمال التي كان يقوم بها؛ ويبدو ذلك من خلال شهادة صديقه القليبي التي جاء فيها: كان يكره الشهرة ويأبى أن يذكر اسمه تحت مقاله أو تنشر صورته حذو تصريح أو ينعت بمجاهد أو زعيم، وكان يقول: يكفيني عن كل هذا أنني أتغنى بنشيد الحرية فيحييني، أني لم أعش طرفة عين و لم أحفل بها مرة ولو صدر مني ذلك لكنت أنانيا ممقوتا في نظر نفسي قبل نظر الناس، إنما عشت لوطني وقومي وملتي ولفكرتي ولمثلي الأعلى الذي أهيم به وهام به قبلي كثيرون حتى أفنوا نفوسهم به، و لم يكسب ثروة في حياته إلا مرة اقتصد فيها 40 جنيه وطبع بها كتاب إدريس. وأعتقد أن هذا التواضع لا يحتاج إلى أي تعليق.

4- فكرته وسعة أفق تفكيره في بناء اتحاد مغاربي متين:

بهذا الخصوص يقول عنه صديقه محي الدين القليبي الذي وصفه بالرجل العظيم ما يلي: أما الأستاذ علي الحمامي فوطنه فكرته وعقيدته وضحايا الطغيان الاستعماري المشردون في أنحاء الأرض هم حزبه وجماعته، وعائلته هم الذين ألفهم وألفوه وعرفهم حق المعرفة وعرفوه، واطلعوا على ماضي أعماق نفسه فقدروه؛ فأنا أبكي من لا أحد يبكيه وأرثي من لا يجد من يرثيه وفاء لحق الصداقة والأخوة وتقديرا لمزايا وخلال هذا الرجل العظيم الذي فقده المغرب الإسلامي في هذا الظرف الحرج الدقيق...ثم سرعان ما نجد الحمامي يقول على لسان صديقه في تصوره لإتحاد المغرب العربي: فالحمامي كان يؤمن بوحدة المغرب العربي من حدود مصر الغربية إلى شاطئ المحيط الأطلسي، وبهذا الخصوص يقول على لسان صديقه: "إن هذه القطعة قد اجتمع لسكانها من مقومات الوحدة ما لم يجتمع لغيرهم من الأقوام الذين نريد جمعهم بعد تكتلهم كتلا عظيمة تحت راية الإسلام"، يؤمن بهذه الفكرة ويعمل لها لا عمل الهزل ويدافع عنها أمام معارضيها حتى يحتد.

الهوامش :

1 محمد محي الدين القليبي: ولد بتونس سنة 1899، يعد من رموز الحركة الوطنية والنضال الإعلامي في المغرب العربي،كان يكتب في العديد من الجرائد والمجلات التونسية باسم مستعار هو عصام، وفي سنة 1923 خلف الثعالبي في إدارة الحزب الدستوري الحر أثناء رحيله إلى المشرق؛ زار الجزائر في فترة الثلاثينيات، وكان على صلة وثيقة بأحمد توفيق المدني، وعلى اثر الأزمة التي عرفتها تونس سنة 1934 اعتقلته السلطات الاستعمارية، غير أنه ما لبث أن هاجر إلى المشرق ومكث هناك إلى غاية وفاته بدمشق سنة 1954. معلومات أفادنا بها الأستاذ خليفي عبد القادر من قسم التاريخ بجامعة المسيلة؛ وهو مشكورا على ذلك.

2 محي الدين، القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، السنة 3 من السلسلة الثانية، يوم الاثنين 7ربيع الأول 1369هـ/ 26 ديسمبر 1849، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1427هـ/ 2006م، ص. 87.

3 محمد الهادي، الحسني: ((مفخرة مجهولة..وثروة ضائعة))، الشروق اليومي، ع. 2834، يوم الخميس 12 صفر 1431هـ/ 28 جانفي 2010م، مؤسسة الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، ص. 21.

4 علال الفاسي: ولد بمدينة فاس، وتعلم بجامع القرويين، شارك في إنشاء مدرسة تخرج بها بعض طلائع اليقظة المغربية الأولى، عارض سلطات الحماية الفرنسية بشكل صريح وقوي خصوصا أثناء صدور الظهير البربري سنة 1930، مما حدا بها إلى نفيه نحو تازة، لكنه سرعان عاد من جديد إلى فاس، غير أن سلطات الحماية منعته من التدريس؛ ساهم في تأسيس أول نقابة للعمال بالمغرب، كما عمل في إنشاء كتلة العمل الوطني السرية. ونظرا لنشاطاته المعادية للاستعمار تم إبعاده إلى الغابون حيث ضاق مرارة المنفى من سنة 1937-1946..الخ، أنشأ حزب الاستقلال المغربي، سافر إلى فرنسا ومنها انتقل إلى القاهرة كما زار بعض الدول الأخرى، وفي سنة 1949 عاد من جديد إلى المغرب فمنعته سلطات الحماية من دخوله الشيء الذي حدا به إلى الدعوة للإعلان عن الثورة خصوصا بعد نفي الملك محمد الخامس، ترأس حزب الاستقلال بعد استقلال بلاده كما تقلب في عدة مناصب ووظائف، إلى أن وافته المنية سنة 1394هـ/ 1974م. يراجع: خير الدين الزركلي: الأعلام، مج. 4، ط. 14، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1999، ص-ص. 246-247.

5 علال، الفاسي: (نبذة عن حياة علي الحمامي)، العلم، لسان حال حزب الاستقلال، ع. 1024، [لم نتأكد من رقم الصفحة] الصادر في 21ديسمبر 1949م.

6 محي الدين القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 87.

7 أبو عمران الشيخ: أستاذ شرفي بجامعة الجزائر، له إنتاج علمي معتبر: قضايا في الثقافة والتاريخ، معجم مشاهير المغاربة..الخ، تولى عدة وظائف ومناصب عليا في جهاز الدولة من أهمها: رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وهو لا يزال على قيد الحياة.

8 أبو عمران الشيخ وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1995، الجزائر، ص. 167.

9 عبد المالك الجزائري: ولد بدمشق سنة 1285هـ/ 1868م، وبها نشأ وتعلم، أشرف على دراسته وتهذيبه جمع غفير من العلماء من بينهم: الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد الرزاق البيطار، واصل دراسته في المدرسة المالكية بالآستانة، وهو ما أهله فيما بعد للالتحاق بالمدرسة الحربية في استانبول، ونظرا لنجابته وحيويته لفت انتباه السلطان العثماني عبد الحميد الثاني فقربه إليه في الوقت الذي كان عبد المالك يكن له احترام كبير تزوج قبل أن يتخرج من الكلية العسكرية بالسيدة كريمة الشريف عبد اللطيف العجلاني، أنجب منها 4 أبناء. ثم انتقل بعد تخرجه إلى مسقط رأسه بعدما ترك زوجته وأولاده باستانبول؛ ومنذ ذلك الحين شد رحاله برا نحو المغرب مرور بمصر وليبيا، ثم سرعان ما نجده يظهر بعد ذلك بمدينة فاس التي انطلق منها في إعلان ثورته ضد الفرنسيين. يراجع: أبو القاسم، سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، القسم الأول، ط. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص. 117، بديعة، الحسني: أصحاب الميمنة إن شاء الله، دار سلام للترجمة والنشر، دمشق، 1997، ص-ص. 406-429، أبو القاسم، سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 5، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص. 527، 563، عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر، ط. 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1980م، ص. 104، سهيل، الخالدي: الإشعاع المغربي في المشرق، ط. 1، شركة دار الأمة، الجزائر، 1417هـ/ 1997، ص. 261.

10 هو محمد بن عبد الكريم الخطابي، ولد في بلدة أجدير قرب الحسيمة من الريف سنة 1299هـ/ 1882م، ينحدر من قبيلة وريا غل؛ حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه، زاول تعليمه بالقرويين، ثم عاد إلى مسقط رأسه، وأقام بمدينة مليلة، التي تولى بها منصب القضاء، وعندما زحف الإسبان على مدينة شفشاون أظهر والده معارضته لهم، فقاموا بعزل ابنه من منصب القضاء واعتقاله، وبعد محاولته الفاشلة في الهروب من السجن، تكون السلطات الإسبانية قد أطلقت سراحه بعد ذلك، لكنه سرعان ما أصبح من المقاومين لهم، حيث قاد ضدهم عدة معارك بمنطقة الريف، لكنه استسلم في نهاية المطاف للفرنسيين في 12 ذي القعدة 1344هـ/ 25 ماي 1926م، الذين قاموا بنفيه إلى جزيرة رينيون في بحر الهند التي مكث بها حوالي 20 سنة، وعندما أرادت السلطات الفرنسية نقلهم إلى باريس سنة 1366هـ/ 1947م، عبر قناة السويس، يكون قد استقر به المقام بالقاهرة، ترأس مكتب المغرب العربي بالقاهرة سنة 1948، وظل بمصر إلى أن وافته

المنية بها سنة 1382هـ/ 1963م. يراجع: خير الدين، الزركلي: الأعلام، مج. 6، المرجع السابق، ص-ص. 216-217.

Centre d'études Arabes: le Maroc sous domination coloniale 1912-1945, Ambassade de France, Rabat, sans date P. 23

11 احميده، عميراوي: مواقف نضالية وإصلاحية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009، ص. 88.

12 احميده، عميراوي: الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1930)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، ص. 85.

13 محي الدين القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 88.

14 فيكتور سبيلمان: هو أحد أبناء المعمرين الفرنسيين الذين انتقلوا إلى مدينة برج بوعريريج سنة 1877 وعمره 11 سنة؛ - لقد حصر لنا عبد الحميد زوزو تاريخ ميلاد سبيلمان ووفاته فيما بين (1877-1935)، غير أن ما أفادنا به الأستاذ بيرم كمال المتخصص في تاريخ الحضنة هو خلاف ذلك أي بين (1866-1938)- وبعد وفاة والده سنة 1897 صادرت الإدارة الاستعمارية أملاكه بعد إفلاسه؛ فكان هذا بداية لثورة سبيلمان على النظام الاستعماري والدفاع عن الأهالي . ويعد سبيلمان الصحفي والكاتب من رواد الحركة الشيوعية الفرنسية خلال بداية القرن 20، فمع مطلع سنة 1902 يكون قد اهتم بشؤون منطقة الحضنة والبرج وشكل لذلك عدة صحف محلية مثل صحيفة صدى عين تاغروت l'echo d'Ain Zagrout" وصرخة الهضاب العليا "le cri des haut Plateaux" ثم مستقبل برج بوعريريج. وفي سنة 1906 تعاون مع الاشتراكي الإنساني "فوليار Vulpillieres" في صحيفة الهلال "le croissant" وحارب قانون الأهالي، وفي سنة 1910 تعاون سبيلمان مع الجزائريين كالصادق دندان في جريدة الإسلام التي تمثل النخبة الجزائرية؛ وأصبح بين سنتي 1912-1914 مراسل الغرب القسنطيني لجريدة صرخة الجزائر. كما يعد من أصدقاء الأمير خالد ومعاونه السياسي، ثم أصبح الواسطة بين الجزائريين والفرنسيين مما دعى به الحال إلى إنشاء صحيفة همزة الوصل "Trait d'union" واهتم كثيرا بنفي الأمير خالد في مقالاته بين سنوات 1919-1924؛ له عدة مؤلفات ومقالات من أهمها:

1-M'sila-Hodna 1900. /2-la colonisation et la question Indigène 1923. /3-les grands Domaines Nord-africains 1927. / 4-l'Expropriation des Ouled Dieb 1930. / 5-La Tribu des Hachemi 1931. / 6-La colonisation Algérienne 1933. / 7-Les grands problèmes algériennes 1934.

ويمكن مراجعة بهذا الخصوص كل من: أحمد الخطيب: حزب الشعب الجزائري، ج. 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 77. عبد الحميد زوزو: الهجرة الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، ط. 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 111. Mahfoud Kaddache: histoire du Nationalisme Algérien 1919-1951, tom.1. Société Nationale d'Edition et Diffusion, Alger, 1980, P. 103.

15 محي الدين القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 88.

16 علال، الفاسي: ((نبذة عن حياة علي الحمامي))، العلم، لسان حال حزب الاستقلال، ع. 1024، المصدر السابق، [لم نتأكد من رقم الصفحة].

17 نفسه.

18 الأمير خالد: هو خالد ابن الأمير الهاشمي بن الأمير عبد القادر، ولد في سنة 1292هـ/ 1875م، بدمشق وبها نشأ وتعلم، عاد برفقة والده إلى الجزائر، زاول تعليمه بثانوية "لوي لوجران" بباريس، ثم التحق بمدرسة سان سير العسكرية فتخرج برتبة ملازم؛ وبعد تخرجه جندته فرنسا في فرقة الصبايحية بالجزائر من سنة 1897-1904؛ أدى واجب الخدمة العسكرية بالمغرب الأقصى، ثم عاد إلى الجزائر فترقى إلى رتبة نقيب سنة 1908؛ استقال من الجيش الفرنسي سنة 1910؛ غير أنه لم يلبث أن عاد إليه؛ شارك في ح. ع. 1 برتبة قبطان سبائحي-الصبايحية-، وبعد نهايتها انخرط في الحياة السياسية الوطنية الجزائرية؛ فأسس جريدة الإقدام سنة 1920، ونظرا لنشاطه المعادي لفرنسا قررت نفيه في حدود سنة 1923 نحو فرنسا، غير أنه لم يتوقف عن مزاولة نشاطه السياسي، ومن هناك نوجه نحو مصر أين ألقي عليه القبض من طرف السلطات المصرية بحجة أنه يحمل جواز سفر مزور، فحكمت عليه المحكمة القنصلية الفرنسية

في الإسكندرية في شهر أوت 1925 بخمس شهور، وبعد استئناف الحكم أطلق سراحه فتوجه إلى مسقط رأسه، وظل بقية حياته هناك حتى توفي بها. يراجع: عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص-ص. 99-100، احميده، عميراوي: الأمير خالد وخطاب الحركة الوطنية الجزائرية، المرجع السابق، ص-ص. 113-114

19 أبو عمران الشيخ وآخرون: : معجم مشاهير المغاربة، المرجع السابق، ص. 167.

20 عبد الحميد، زوزو: الهجرة الجزائرية ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين (1919-1939)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص. 53. ومن بين المستمعين للأمير خالد فضلا عن الحمامي: الحاج عبد القادر والحاج مصالي وعبد العزيز المنور وأحمد بهلول وبانون آكلي.

21 احميده، عميراوي: مواقف نضالية وإصلاحية، المرجع السابق، ص. 129.

22 عبد الرحمان العقون: انخرط منذ نعومة أظافره في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية، ثم سرعان ما انخرط في صفوف الثورة التحريرية، ونظرا لنضاله المتميز لم يسلم من مراقبة البوليس الفرنسي حيث القي عليه القبض وزج به في السجن، لكن إرادته الفولاذية أبت عليه أن يظل قابعا في السجن فتمكن من الفرار منه سنة 1956، فكلفته حينها جبهة التحرير الوطني بتمثيلها في المشرق العربي حيث فاستقر به المقام في الأردن كسفير للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أثناء حرب التحرير وبعد الاستقلال، لكنه أبى أن يعود إلى سلك التربية التعليم التي جبلت عليها نفسه، فواصل حياته كأستاذ للغة والأدب العربي، ثم تولى عدة مناصب ومهام في إطار التكوين والتوجيه الإسلامي مع ثلة من إخوانه في المجلس الإسلامي الأعلى. يراجع: عبد الرحمان العقون: الكفاح القومي والسياسي، 3 أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، عثرنا على هذه المعلومات على صفحة الغلاف الخارجي.

23 عبد الرحمان، العقون: الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر الفترة الأولى 1920-1936، ج. 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص. 123.

24 علال، الفاسي: (نبذة عن حياة علي الحمامي)، العلم، لسان حال حزب الاستقلال، ع. 1024، المصدر السابق، [لم نتأكد من رقم الصفحة]

25 نفسه.

26 الأمير شكيب أرسلان: (1286-1366هـ/ 1869-1946م) هو شكيب بن محمود بن حسن بن يونس أرسلان، من مواليد قرية الشويفات بلبنان، تلقى تعليمه بمدرسة دار الحكمة ببيروت، ثم عُيّن مديرا للشويفات لمدة سنتين؛ ثم قائم مقام في الشويفات لثلاث سنوات، أقام مدة بمصر، كما سكن بدمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم انتقل بعدها إلى برلين وبعدها إنتقل إلى مدينة جنيف بويسرا أين استقر به المقام لمدة 25 سنة، ثم رجع بعده إلى بيروت حيث وافته المنية بها؛ يعتبر أديب ومناضل سياسي متميِّز، قضى جزء كبير من حياته في سبيل مناهضة الاستعمار الفرنسي إلى جانب ثلة من الوطنيين الأحرار سواء في المغرب أو المشرق وفي كثير من العواصم الأوربية، يعد من أعلام النهضة العربية الحديثة، له مؤلفات عديدة: لماذا تاخر المسلمون وتقدم غيرهم؟، حاضر العالم الإسلامي، الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية..الخ. يراجع: خير الدين الزركلي: الأعلام، مج. 3، ط. 14، المرجع السابق، ص-ص. 146-147.

27 عبد السلام بنونة: هو ابن الحاج العربي بن المهدي بن العربي بن محمد بن الحاج أمحمد بن الفقيه الحاج محمد بن عبد الواحد بنونة الفاسي الأصل؛ وللعلم أن هناك اختلاف بين المؤرخين في نسب وأصل عائلة آل بنونة فهناك من يرى بأنها من أصول أندلسية ثم هاجرت إلى الجزائر أثناء سقوط مدينة غرناطة سنة 1492 واستقرت بمدينة تلمسان حيث توجد حاليا مقبرة قديمة لآل بنونة بجوار ضريح الولي الصالح سيدي أبي مدين الغوث وبها كتابات على الرخام عن شخصيات هذه العائلة، ولقد كان لهذه العائلة موقف متذبذب من مقاومة الأمير عبد القادر بقيادة زعيمها محمد بنونة في تلمسان؛ وهناك من يرى أنها من أصول مغربية فاسية؛ حيث تذكر بعض المصادر المغربية أن عائلة بنونة المقيمة حاليا في تطوان والتي تعود في نسبها للجد والفقيه المحدث الحاج محمد بن عبد الواحد قد انتقلت من فاس في أوائل القرن 12هـ. يراجع كل من : الطيب، بنونة: نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة، ص 164.

Ougest,Cour :(L'occupation marocaine de Tlemcen, septembre, 1830 – janvier 1836) R.A. N° 52, année 1908, O.P.U. Alger.

28 الطيب، بنونة: نضالنا القومي في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السام بنونة، ط. 1، مطبعة دار أمل، طنجة، 1400هـ/ 1980م، ص-ص. 168-169.

29 نفسه، ص-ص. 303-304.

30 نفسه، ص. 313.

31 نفسه، ص. 314.

32 نفسه، ص-ص. 350-351.

33 عبد المجيد، بن جلون: ((الثلاثة الذين استشهدوا-الجزء الأول-))، البصائر، ع. 106، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 17ربيع الأول 1369هـ/ 06 فيفري 1950م، ص. 137. (ص 3 في العدد)

34 محي الدين القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 87.

35 أبو عمران، الشيخ: ((علي الحمامي وقصة إدريس))، الثقافة، ع، 42، السنة السابعة، ش. و. ن. ت، ذو الحجة- محرم 1398هـ/ ديسمبر- جانفي 1978، الجزائر، ص-ص. 76-78.

36 محمد الهادي الحسني: ((مفخرة مجهولة..وثروة ضائعة))، الشروق اليومي، ع. 2834، المرجع السابق، ص. 21.

37 محي الدين القليبي: ((الأستاذ علي الحمامي))، البصائر، ع. 100، المصدر السابق، ص. 87.

38 نفسه، ص. 88.

39 عبد المجيد، بن جلون: ((الثلاثة الذين استشهدوا-الجزء الثاني-))، المصدر السابق، ع. 107، ص. 144.

40 أبو محمد: ((الفاجعة))، البصائر، ع. 99، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 29 صفر 1369هـ/ 19 ديسمبر 1949م، ص. 83 (ص. 3 من العدد).

41 نفسه، ص. 81.

42 عبد المجيد، بن جلون: ((الثلاثة الذين استشهدوا-الجزء الأول-))، المصدر السابق، ص. 137

43 يشير هنا إلى كل من الدكتور الحبيب ثامر التونسي والدكتور علي الحمامي الجزائري والأستاذ محمد عبود المراكشي.

44 أبو محمد: ((الفاجعة))، البصائر، ع. 99، المصدر السابق، ص. 81.

45 باعزيز بن عمر: ((تشييع جثمان الفقيد الكبير علي الحمامي))، البصائر، ع. 102، السنة 3، السلسلة 2، يوم الاثنين 19 ربيع الأول 1369هـ/ 1950/01/09م. ص. 103. وللعلم هنا أن جثة المرحوم الحبيب ثامر التونسي احترقت تماما حتى صارت ترابا الشيء الذي حال دون نقلها مع الجثمانين الطاهرين.

46 نفسه، ص. 103.

47 نفسه، ص. 103.

48 نفسه، ص. 103.

49 نفسه، ص. 104.

50 نفسه، ص. 104.

51 يستفاد من الانتهاء من تأليف الكتاب المؤرخ بمدينة بغداد في ديسمبر 1941-جويلية 1942، وصدور هذا الكتاب بمصر سنة 1942، كما أشار إلى ذلك أبو عمران الشيخ، من أن هناك تناقض كبير بين تاريخ صدور الكتاب والتقديم الذي وضعه له عبد الكريم الخطابي المؤرخ في القاهرة في 23 جمادى الأولى 1367هـ/ 3 أفريل 1948. وعليه فتاريخ صدور الكتاب يحتاج في نظرنا إلى إعادة نظر؛ بمعنى صدوره بمصر لم يكن سنة 1942 بل كان بعد تقديم الخطابي له أي سنة 1948.

52 Aly, El Hammamy: Idris, enterprise nationale du livre, 2em édition, Alger, 1988, P. 6.

وللعلم أن هذه القصة تم نشرها في الجزائر باللغة الفرنسية في سنة 1976، في شكل كتاب يتكون من 396 ص، ضمن إصدارات المؤسسة الوطنية للكتاب، كتابا تضمن تقديما لأبي عمران الشيخ باللغة الفرنسية هو الآخر، وأعادت المؤسسة طبعه للمرة الثانية في سنة 1988، بنفس التقديم الأول المؤرخ في شهر سبتمبر

1976. وكم كنا نتشوف إلى ترجمة هذه القصة في المستقبل إلى اللغة العربية، غير أن فضل السبق في هذا الإنجاز قد سبقنا إليه المترجم محمد يحياتن بمناسبة الجزائر عاصمة للثقافة العربية، 2007.

53 أبو عمران، الشيخ: قضايا في الثقافة والتاريخ – علي الحمامي وقصة إدريس التاريخية-، منشورات تالة بالأبيار، الجزائر، 2003، ص-ص. 263-264.

54 نفسه، ص. 264.

55 مثل الزعيم التونسي محيي الدين القليبي، وعلال الفاسي من المغرب، وفرحات عباس، والبشير الإبراهيمي وغيرهم من الجزائر.

56 مجموعة من المؤلفين: آثار محمد البشير الإبراهيمي- الأستاذ علي الحمامي-، ط. 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1402هـ/ 1981م، ص-ص. 215-216.

57 أبو عمران، الشيخ: قضايا في الثقافة والتاريخ، المرجع السابق، ص. 265.

58 عبد المجيد، بن جلون: ((الثلاثة الذين استشهدوا-الجزء الثاني-))، البصائر، المصدر السابق، ع.107، ص، 144.

مصطلحات ومفاهيم في الحركة الوطنية الجزائرية

أ.د / حباسي شاوش
جامعة الجزائر

ملخص

نحاول في هذا المقال أن نقدّم شرحا اصطلاحيا وبيانا تأصيليا لمصطلحات ومفاهيم متعلقة بالحركة الوطنية الجزائرية و مرجعياتها الفكرية والإيديولوجية في التصوّر والتنظيم.

Résumé

Nous proposons dans cet article une approche explicative et référentielle de quelques termes et concepts relatifs au Mouvement National Algérien, ainsi que ses sources d'inspiration intellectuelles, idéologiques et modes d'organisation.

تمهيـــد

نهتم في هذا المقال بتوضيح بعض المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بالحركة الوطنية الجزائرية، أوّلها مفهوم مصطلح الحركة الوطنية نفسه الذي أصبح محل خلاف عند كثير ممن أرخوا لها. والخلاف مرده في تقديرنا إلى أمرين، أولهما عدم التقديم لهذه البحوث بالتعريف الاصطلاحي للحركة الوطنية فغابت المرجعية المعيارية التي يتحاكم إليها الباحثون ومنه اختلفت آراؤهم واتجاهاتهم بهذا الشأن دون تأصيل نظري مقنع.

وثانيهما عدم الاهتمام بمناهج العمل السياسي والإصلاحي ومآلاتها المنبثقة من اتجاهات الحركة الوطنية المختلفة، حيث وضع كل اتجاه[1] منهاج عمله بما يوافق برنامجه في العمل السياسي أو الإصلاحي، وهذا القصور في تقدير مآلات العمل السياسي أو الإصلاحي أوجد رأيا غاية في السطحية وهو أن الاتجاه الذي لا يطالب صراحة وعلنا في برنامجه التأسيسي بالاستقلال لا يدرج في الحركة الوطنية! بل ذهب بعض الكتبة أبعد من ذلك بتأكيدهم على أن الاتجاه الذي لا يعتمد التنظيم الحزبي لا يمكن أن يوصل الأمة إلى الاستقلال لأن عمله في تقديرهم سينحصر في الإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي ولا يهتم بالعمل السياسي الذي هو أساس وأداة التحرر من الاستعمار. وهكذا حصر هؤلاء التحرر في الحركة السياسية المطلبية الدؤوبة المعبئة للمناضلين، وغفلوا عن أمر جوهري وهو التأثير العميق الايجابي البنّاء للإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي في الأمة ابتداء، ثم توجيه الإصلاح لمواقف العاملين عليه والمستفيدين منه، وبعبارات أوضح نقول: لا يمكن لمن أشرب التصور الإسلامي أن يسالم

الاستعمار لأن هذا الأخير نقيض ما يؤمن به، ولا يمكن للنقيضين أن يبقيا مجتمعين طال الزمن أم قصر، ولا أن يتنكر لمبادئ الأمة بعد التحرر. وقد أثبتت الأيام هذا الأمر إذ توارت الأسماء والمسميات في المواقف العصيبة التي مرت بها الجزائر و عندما انطلقت الحرب التحريرية وأمدتها الحركة الإصلاحية ـــ التي لا تهتم بالسياسة! ـــ بأقوى المدد.

انتقلنا بعد ذلك إلى تقديم تصور عن كيفية مقاربة دراسة الحركة الوطنية الجزائرية، فهل تدرس من منظور تحرري فقط، وهذا الشائع في الدراسات الجزائرية، أم تدرس من منظور أنها حركة تحررية وبنائية لأسس الدولة الجزائرية بعد الاستقلال؟

وتباعا أثرنا طبيعة التنظيم البنيوي لاتجاهات الحركة الوطنية، وتحديدا التنظيم الحزبي، والغرض من هذه الوقفة تبيان مزايا أو محدودية هذا التنظيم في التحرر والبناء، حتى لا تكون معارفنا و مواقفنا انسياقية، أي: معتمدة للأنماط التنظيمية بالإتباع التلقائي بل علمية مؤصلة. ونحسب أنه فتح لنقاش علمي عريض في هذا الشأن لأنه يوصل ولو نظريا إلى ممايزة التنظيمات المعتمدة ونقدها على ضوء مخرجاتها.

وأخيرا ألمحنا إلى علاقة البيئة الثقافية بالحركة الوطنية، وهو جانب هام من عدة أوجه، أبرزها مدى تواصل فعاليات الحركة الوطنية بالشعب ومدى استيعابه للمشروع التحرري والبنائي على السواء في عهد استعماري طغت فيه الأمية، ومدى تأثير هذا الشعب على قادته سلبا وإيجابا.

معنى مصطلح الحركة الوطنية ومن يندرج تحتها

إن مصطلح الحركة الوطنية مركب من مفردتين اثنتين هما: الحركة والوطنية. فالحركة تعني العمل العلني أو السري المنظم الواسع الحامل لبرنامج سياسي أو إصلاحي. وتختلف في المفهوم عن التيار الذي قد ينحصر في أفراد أو مجموعات دون أن يحمل برنامجا دقيقا وتنظيما عمليا وتجنيدا واسعا.

أما الوطنية فمعناها في وضع استعماري لا يمكن إلا أن يكون سياسيا وهو العمل على استرداد حقوق الأمة المغتصبة تدريجيا حتى تسترجع استقلالها أو مغالبة بالسلاح. ويجب أن يكون مطلب الاستقلال واردا صريحا أو ضمنيا عاجلا أو آجلا في برنامج الحركة لتدرج ضمن مصطلح الحركة الوطنية وتنطبق مع هذا التعريف.

وإذا اتّضح مفهوم الحركة الوطنية فلا يصح معرفيا ولا اصطلاحيا أن ندرج في دراسته كل الأحزاب والهيئات التي نشطت في الجزائر في العهد الاستعماري في القرن العشرين، لأن الغرض من دراسة الحركة الوطنية ليس الإلمام المعلوماتي عن كل من نشط على أرض الجزائر من الجزائريين أو من المختلطين من الأوروبيين والجزائريين كما في الحزب الشيوعي، وإنما من عمل لتستقل الجزائر عن فرنسا. ومن هذا المنطلق لنعجب عندما نقرأ دراسات تدرج

الحزب الشيوعي في الجزائر ضمن الحركة الوطنية الجزائرية وهو لم يؤمن يوما باستقلال الجزائر عن فرنسا!

إن الحزب الشيوعي نفى وجود الأمة الجزائرية على لسان الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي موريس طوريز عام 1939 والذي ادعى أن سكان الجزائر خليط من واحد وعشرين عرق لمّا يشكل بعد أمة، واعتبرها بالتالي أمة في طور التكوين. وقد ظل الحزب الشيوعي في الجزائر تابعا له تنظيميا إلى غاية 1947. و لم تتغير عقيدة هذا الحزب في الواقع إلى غاية حله عام 1956[2]. فلا يعقل لحزب ينفي وجود الأمة الجزائرية أصلا ويدرج الشعب الجزائري المسلم في خليط من واحد وعشرين عرق أن يعمل لاستقلال أمة لا يؤمن بوجودها!

وقد اضطرب الشيوعيون بعد الاستقلال في نفي هذا الموقف، وقد كتب أبرز مؤرخيهم من الجزائريين أن الحزب الشيوعي في الجزائر قد طالب باستقلال الجزائر بوضوح على لسان العربي بوهالي في مؤتمر الحزب الخامس المنعقد من 26 إلى 29 مايو 1949، على النحو التالي: "في بلدنا بكل سكانه دون تمييز عرقي أو ديني، نحن الشيوعيون نريد بناء جمهورية ديمقراطية جزائرية لها دستورها وبرلمانها وحكومتها. إن هذا هو الهدف الأساسي الذي حدّدته اللجنة المركزية (للحزب الشيوعي في الجزائر) في يوليو 1946"[3].

وجاء بهذا الصدد في نداء المكتب السياسي للحزب الشيوعي في الجزائر الصادر عقب اجتماعه الموسع يومي 20 و21 يوليو 1946 – الذي قال نفس الكاتب إنه "حدّد الأسس ومضمون الخط الوطني الوحدوي للحزب الشيوعي الجزائري"–[4] دعوة الشيوعيين إلى إقامة مجلس وحكومة جزائريين تسّيران جميع شؤون الجزائر وكذا إلغاء منصب الحاكم العام وإدارته، "وستتعاون الحكومة والمجلس (الجزائريان) مع ممثل الجمهورية الفرنسية في قضايا الشؤون الخارجية وشؤون الدفاع وأن تتكوّن القوات المسلحة المقيمة في الجزائر من جزائريين. إن المجلس الجزائري سوف ينتخب بالاقتراع العام المباشر، وبصفة مؤقتة من تمثيل متساو، نصفه من الجزائريين من أصل أوربي والنصف الآخر من جزائريين مسلمين. أما الحكومة الجزائرية فسوف تكون منتخبة من المجلس الجزائري ومسئولة أمامه. وسوف تكوّن بصفة مؤقتة، منصّفة بين الجزائريين المسلمين والجزائريين من أصل أوربي.(...) وأن تكون هذه الجمهورية متّحدة بروابط فيدرالية مختارة بحرية مع الشعب الفرنسي والشعوب الأخرى في إطار الاتحاد الفرنسي". (يقصد الشعوب الخاضعة للاستعمار الفرنسي)[5].

إن الحزب الشيوعي لم يدع إلى الاستقلال بل إلى حكم فيدرالي مع فرنسا وهذا واضح في آخر النص المقتطف من نداء اللجنة المركزية، وإن حاول إغراق هذا المعنى بالحديث الأجوف سياسيا وواقعيا عن حرية هذا الاختيار مع الشعب الفرنسي وشعوب المستعمرات الفرنسية، وشتان بين الاستقلال وبين الحكم الفيدرالي.

ثم إن الحكم الفيدرالي بالطرح الشيوعي مغشوش في الأساس وإن دعا النداء إلى مناصفة جزائرية أوربية في تشكيل المجلس والحكومة الجزائريين. ألم يعان الجزائريون المنتمون إلى الحزب

الشيوعي في الجزائر نفسه التمييز والدونية والحجب عن المساهمة الفعلية في صناعة القرار داخل الهيئات القيادية للحزب! فكيف يكون لهذه المحاصصة معنى و لم يلتزم الحزب الشيوعي بها داخل تنظيماته؟ وإن أهم سبب في استقالة عمار أوزقان من اللجنة المركزية لهذا الحزب هو الاستخفاف بالجزائري.

والنتيجة المنطقية للطرح الشيوعي تفضي حتما إلى استبدال استعمار **أوربي** يمينيّ باستعمار **أوربي** يساريّ وهذه في الحقيقة الجمهورية التي بشّر بها الحزب الشيوعي!. وهذا جوهر الخلاف في تقديرنا بين الشيوعيين والبيانيّين لأن البيانيّين طالبوا بحكومة وبرلمان جزائريين في إطار حكم فيدرالي مع فرنسا يكون فيه للجزائريين مع الأوربيين رأيا وقرارا لا وجودا شكليا تظليليا.

إننا نقصد بما كتبنا أعلاه الحزب الشيوعي لا شيوعيين جزائريين فرادى من الذين انتموا إليه ثم تخلوا عنه، خاصة عندما قامت الثورة وتبيّن لهم حقيقة عقيدته السياسية وموقفه من الثورة.

كذلك شاع في كتابات من أرخوا للحركة الوطنية الجزائرية الفصل بالتسمية بين مرحلتين زمنيتين، الأولى تنطلق إرهاصاتها من بداية القرن العشرين إلى غاية قيام الثورة عام 1954، وتسمى الحركة الوطنية، والثانية تبدأ من هذا التاريخ الأخير وتنتهي عام 1962 وتسمى الثورة الجزائرية. فإن كان هذا الفصل للتمييز بين مرحلتين من الحركة الوطنية اختلفتا في الوسائل المستعملة للتحرّر فلا ضير في ذلك، بل هذا تقسيم يعين على الفهم ويميّز بين المرحلتين المتمثلتين في مرحلة المطالبة السلمية الطويلة ثم مرحلة الثورة التي دامت قرابة سبع سنوات. لكن إذا كان المنطوق والمفهوم يدلان على انقطاع بين المرحلة السابقة ومرحلة الثورة، وكأن الثورة ليست من الحركة الوطنية، فهذا فهم غير صائب لأن الحركة الوطنية في الأساس عمل سياسي بالوسائل السلمية، والثورة كذلك عمل سياسي ولكن بالسلاح، أي: التحقيق بالسلاح ما عجزت عن تحقيقه الوسائل السلمية. فالقاسم المشترك بين المرحلتين الاشتراك في الهدف وهو العمل للاستقلال والمرحلية التراكمية وهو الرصيد الذي قامت عليه الثورة لأنها من نتاج المرحلة السابقة من الحركة الوطنية. فهكذا تكون الثورة مرحلة من مرحلتين في الحركة الوطنية الجزائرية اشتركتا في الهدف واختلفتا في الوسائل المستعملة.

الاتجاهات والمناهج في الحركة الوطنية الجزائرية

برزت في الحركة الوطنية الجزائرية ، وفقا للتعريف الذي اعتمدناه وأوضحناه سالفا، ثلاثة اتجاهات وثلاثة مناهج في العمل. الاتجاه الاستقلالي الذي مثّله نجم شمال إفريقيا عندما انفصل عن تأثير الحزب الشيوعي الفرنسي في شخص أحمد مصالي الحاج ابتداء عام 1928، ثم إعلان ذلك واضحا في برنامج النجم الذي أصبح حزبا سياسيا عام 1933 بعد مؤتمر نانتير بباريس، بعد أن كان قد نشأ عام 1926 منظمة عمّالية مغاربية.

وهذا الاتجاه يدعى الاتجاه الاستقلالي لأنه جهر بالمطالبة بالاستقلال السياسي للجزائر عن فرنسا واعتمد من الوسائل التنظيمية التنظيم الحزبي ومنهج المغالبة بالجماهير للسلطة الاستعمارية القائمة.

أما الاتجاه الثاني- وهو في الواقع أسبق من النجم في الظهور والعمل المنظم في الجزائر- فهو الاتجاه الإصلاحي وقد مثّلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسست عام 1931.

وهذا الاتجاه في ظاهره ديني ثقافي لأن قانونه الأساسي ذكر بصراحة ابتعاد الجمعية عن الخوض في السياسة و الشؤون السياسية. لكن الواقع كان غير ذلك لسببين رئيسيين: أولهما اعتقادي لأن ما هو "ديني" عند الجمعية يشمل مناحي الحياة كلها استنادا إلى طبيعة الدين الإسلامي نفسه الذي يجمع في تصوره الشامل كل ما يعني المسلم من عقيدة وعبادات ومعاملات وسياسة واقتصاد وثقافة وتربية، وهذا خلافا للتصور النصراني الذي يفصل الشؤون السالفة الذكر عن الدين ويجعل منه قناعة شخصية وشأن ذاتي لا تعدو ذلك. وسجال معارك الجمعية مع الاستعمار بسبب اختلاف مفهوم الدين عند الجانبين طويل عريض، وكثيرا ما كتب رجال الجمعية أن ما يرونه دينا كان الاستعمار يراه سياسة[6].

وثانيهما واقعي، نشأ عن التصور الشامل للإسلام السالف الذكر الذي أقحم الجمعية في صراع شامل مع الاستعمار الذي كانت كذلك سياسته شاملة لا تغادر منحى من مناحي حياة الجزائريين. فقد كانت تفضي سريعا مسألة اعتقا دية في الولاء والبراء إزاء الكافر، وهو المستعمر، مثلا إلى تجسيد موقف سياسي معاد و رافض للسيادة الفرنسية على الجزائر استنادا إلى نصوص دينية شرعية. كما كانت الجمعية تعارض الممارسات الفرنسية في الجزائر السياسية منها والاقتصادية والثقافية من منطلق ديني لكنها في لب السياسة، بل أعمق تأثيرا لأنها سياسة مؤيدة بالدين.

وإجمالا واختصارا فبعد تتبع عمل الجمعية يلاحظ الدارس أن منهاجها التدريجي بما تضمنه من مبادئ ومفاهيم يؤدي حتما إلى تمايز واضح بين الجزائري المسلم والأوربي النصراني، يقلّل هذا التمايز خطوط التقاطع بين المجتمعين المنغلقين على بعضيهما، وينشئ في الجيل الذي تربى على مبادئ الجمعية ثورة نفسية دائمة وتطلع إلى التحرّر، وكثيرا ما وجدنا شيوخ الجمعية وأساتذتها وطلبتها في الصفوف الأمامية عندما يتعلق الأمر باسترجاع السيادة الوطنية كاملة أو بعضها في مجال أو مجالات أو على الأقل ما كان يتراءى لهم أنه طريق لاسترجاعها، مثل المشاركة في المؤتمر الإسلامي عام 1936 والمشاركة في أحباب البيان والحرية 1944-1945، والتعرض لاضطهاد المستعمر في مايو 1945، ودعوة الأحزاب الجزائرية للتوحّد منذ 1947، والمشاركة في الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها عام 1951..

وتجدر ملاحظة أن المبادئ والقيم التي كانت تربي الجمعية عليها منتسبيها خاصة منهم الشباب كانت تجد طريق تجسيدها في الواقع بالمغالبة مع الاستعمار عن طريق حزب الشعب،

رغم تضارب منهجي عمل الجمعية وحزب الشعب وتنفير قادة كل جهة لأتباعهم من استلاب الآخر.

وقد اعتمدت الجمعية التنظيم الجمعوي الذي يلاءم ما تصدت لتحقيقه من إصلاح ديني وتربية وتعليم، فتكون هذه الجوانب أكثر محلّ اهتمامها لأنها تحتاج إلى تفرغ وانقطاع ومتابعة حتى يشربها الجيل المربى فتؤتي ثمارها، حتى بالغ الشيخ البشير الإبراهيمي في تقديرها فجعلها اللباب الذي يبنى عليه الأمة وغيرها القشور. ودونها نضال مباعدة للمستعمر لحماية المنجزات في السبل المذكورة وشراكة مع حزب الشعب والنواب خاصة في المواقف الوطنية الحاسمة عندما تفرض نفسها.

وأما الاتجاه الثالث فهو الاتجاه النخبوي الإدماجي الذي مثّله النواب الجزائريون في المجالس الرسمية الفرنسية، والإدماج عند هذه الفئة التي لم يكن أتباعها يضاهون أتباع حزب الشعب ولا جمعية العلماء سياسي وليس حضاريا شاملا كما يظهر من أدبياتهم خاصة تلك التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية. فقد طالبوا أساسا بالمشاركة الفعلية في حكم وطنهم من خلال المجالس والهيئات الحكومية المختلفة في إطار فيدرالي مع فرنسا. لذلك اخترنا وصفهم بالإدماجيين وليس بالاندماجيين، لأن المصطلح الثاني نستعمله للدلالة على الاندماج الشامل السياسي والحضاري في المستعمر.

ويدرجهم بعض الكتاب في الاتجاه الإصلاحي السياسي، للدلالة على منهجهم المتدرج والسلمي في المطالبة بإصلاح أوضاع الجزائريين، وهو وصف ينسجم كذلك مع الممارسات في الواقع.

إن هذا ما ميّز اتجاههم في الغالب، غير أنهم تجاوزوا مع حزب الشعب والجمعية في ظروف الحرب العالمية الثانية الخاصة المطالب التدرّجية إلى المطالبة بتقرير المصير، أي: المطالبة بالاستقلال عن فرنسا. وهذا الوضوح في الهدف في هذه الظروف دليل قاطع على أن هذا الاتجاه بزعامة فرحات عباس كان هدفه غير المعلن العمل على إيصال الجزائريين على مراحل إلى حكم أنفسهم بأنفسهم.

وقد اعتمد هذا الاتجاه التنظيم الحزبي مثله مثل حزب الشعب ،لكنهما اختلفا في المنهج المتبع لتحقيق الأهداف فحزب الشعب اعتمد المغالبة منهجا كما بيّنا من قبل بينما اعتمد النواب المطالبة السلمية انطلاقا من وضعيتهم النيّابية –وليس مركزهم النيابي لأنهم لم يكن لهم في الواقع ثقل مؤثر فيها–، وقد يكون لقلة أتباعهم من الجزائريين أثر مباشر على حصر مطالبهم في الغالب داخل المجالس الرسمية وأعمدة الصحف.

الحركة الوطنية حركة تحرّرية وبنائية

كثيرا ما اقتصر المهتمون بالتأريخ للحركة الوطنية على صراعها مع الاستعمار في كل مرحلة من مراحل تطورها المختلفة بداية من إرهاصاتها إلى غاية انتهاء الحرب التحريرية

عام 1962 دون الاهتمام بالجانب الآخر الملازم وهو الحركة البنائية للقيادة التي تسلمت حكم الجزائر بعد الاستقلال، وقد تشكلت تدريجيا و أفضت في النهاية إلى تشكيل "القيادة الثورية" ثم "السلطة" التي باشرت حكم الجزائر عام 1962.

إن الدراسة الشاملة للوجهين معا كفيلة في تقديرنا للوصول إلى تصور غير منقوص لا يقف عند دراسة حركة التحرر في معزل عن الحركة البنائية فيحجب الدارس عن نتائج هذه الحركة لأن العبرة بالنتائج، وهذه الأخيرة مرتبطة ارتباطا سببيّا ببنية الحركة الوطنية تنظيميا وقياديا في مسارها التحرري.

إن دراسة طبيعة تنظيم الحركة الوطنية واختلاف مشارب روادها ثقافيا وأنماط تنظيماتها وسلوكيات قياديها وطرق توزيع السلط داخلها وتصورها للحكم وعلاقاتها الشركاتية مع الشعب وتقدير مكانته في مشروعها ومدى الاستعداد للتنازل له عن حقه في السلطة الفعلية عن طريق مؤسسات الحكم المختلفة .. كل هذه الجوانب وما ارتبط بها إذا درست بعمق أفضت حتما إلى تشكيل الصورة الكاملة للوجهين معا.

إن دولة الاستقلال مرتبطة بنيويا بمجموع التصورات السالفة الذكر، فإن كانت هذه التصورات والممارسات العملية في التحرر والبناء على السواء سليمة أنجزت استقلالا نوعيا من جميع الوجوه وسوف يثمر بنهضة، وأما إذا وقع انحراف أو سوء تقدير أو هيمنة جناح منها، فإن ذلك يفضي إلى تسلط يهتم بالحفاظ على السلطة التي انتهت إليه أكثر من الاهتمام بالشراكة الفعلية مع الفعاليات الأخرى ومع الشعب.

و قد نعود إذا وقع هذا إلى الدورة الحضارية الفارغة التي لم نبرحها منذ قرون وهي القابلية للاستعمار التي تجلبها النظم الوطنية العاجزة عن جمع شروط النهضة ثم المرحلة الاستعمارية التي تحل بالبلد وفق نظرية الهيمنة في العلاقات الدولية التي أثبتها التاريخ، ثم حركة التحرر من الاستعمار التي تكلّف الأمة كثيرا وتهدر طاقاتها وتلغي وجودها من الدورة الحضارية، وتعيدها بعد تضحيات جسيمة إلى نقطة الصفر في الدورة..

ومن هذا التصور تبرز أهمية الاعتناء بوجهي العملة التحرري والبنائي حتى لا يتحوّل التاريخ إلى أحداث لا علاقة لها بالواقع المعاش من حيث التأصيل والمعيارية وكذلك مدى الإلزام بكل مخرجات الحركات الوطنية بعد الاستقلال. وتفيدنا مثل هذه المقاربات إلى التطور للأحسن لا الإقرار العاطفي أو الحزبي أو النفعي بما مضى دون دراسة وتمحيص.

التنظيم الحزبي أم الرابطي؟

من المعروف المسلّم به أن التنظيم الحزبي الذي اعتمده النجم وامتداداته تنظيم غربي بامتياز وضع أساسا لإيصال "عصبية" -بلغة ابن خلدون- إلى الحكم في سياق تنافس مع "عصبيات" أخرى تسعى إلى نفس الغرض.

ومن هذا المنطلق فإن تأسيس الأحزاب السياسية في الغرب إنما جاء أساسا لتلبية هذا المقصد من تصور فلسفي للكون والحياة والدين اصطلح على تسميته في فرنسا وغيرها من الدول الغربية "بالنظام الجمهوري". إن نقل التنظيم الحزبي إلى البلاد الإسلامية في ظروف استعمارية وظروف هيمنة النموذج الغربي المنظم للعمل السياسي كان استغلالا واقعيا من بعض الفعاليات الوطنية في البلاد المستعمرة في مجابهة الاستعمار والمطالبة بالحقوق انسجاما مع القانون الاستعماري نفسه في هذا الشأن.

لكن هل هذا النوع من التنظيمات كفيل في وضع استعماري –وحتى عادي– من ضمان تحقيق الوجهين المتلازمين: التحرر والبناء اللذين سبق تعريفهما؟

من البديهي معرفيا أن الغايات مرتبطة بالوسائل إذ يستحيل لوسيلة قاصرة أن تحقّق الغاية المنشودة. وقد بيّنا أعلاه أن وسيلة التنظيم الحزبي بالصورة التي ظهرت في الغرب إنما جاءت من تصوّر نصراني–يهودي شامل، فهل تحقّق المقاصد في البلاد الإسلامية التي تختلف عنها جذريا في التصور؟ هذا من الناحية المبدئية، ويحتاج إلى مقابلة دقيقة بين التصورين الإسلامي والنصراني–اليهودي يرجع إليه مبسوطا في الدراسات المتخصّصة لضيق المجال في هذا المقال.

أما من الناحية الواقعية فإن التنظيم الحزبي الذي ينطلق دائما بمثابة الوسيلة يتحوّل تدريجيا إلى غاية في حدّ ذاته وينغلق على نفسه ولا يقيس الناس إلا بمقياس الانتماء والولاء أو المعارضة والخصومة. ثم تسري داخله نزعة العصب فيتمزّق بذرائع شتى وتتفرّق القيادة والتوجيه ويتوزّع الأتباع تباعا كل فريق يمدح فصيله ويذم غيره، وينتج عن هذا كله أمر خطير للغاية وهو الممارسة الحزبية الصرفة التي تجمع الأنصار والأتباع على الأساس النضالي وفق تصوّرها دون مراعاة فعلية للكفاءة والسلوك البنائي والثقافة الأصيلة وإن كان الهدف المعلن هو الوطنية والاستقلال.

قد يقول قائل لم يكن هناك سبيل تنظيمي آخر لحشد الجماهير ومصارعة السلطة الاستعمارية القائمة وقتها، وقد أثبتت هذه الوسيلة نجاعتها لأن الجماهير الشعبية قد التّفت حولها وكان أنصارها ومناضلوها الأكثر على الساحة.

إن هذا التصوير كان واقعا جزائريا بالفعل، لكن لا بدّ من التنبيه إلى أن الشعب كان يناصر قضية التحرّر تمثّلها حزب الشعب خاصة و لم يكن أغلبه يفقه في طبيعة التنظيمات ولا كنهها. فالتنظيم الحزبي الذي تبنّى القضية ناصره الشعب ليس لكونه تنظيما حزبيا بل لأنه انسجم مع تطلعاته في التحرّر والاستقلال. ألم تكن نفس الجماهير تتبع وتتألّف بل وتنضّم جماهير أخرى شتّتها التنافس الحزبي و الجمعوي في الحركة الوطنية لو اعتمدت هذه الأخيرة غير التنظيم الحزبي و الجمعوي؟

ومن المعلوم كذلك أن الجماهير تابعة ومنساقة دائما إلى الأفكار البسيطة والشعارات الجذابة مثل الوطنية والإسلام والقومية وغيرها، وهي غير قادرة على تصوّر التنظيمات والمضامين التفصيلية لما تدعى إليه خاصة في البيئة الثقافية في الفترة الاستعمارية التي تغلب عليها

الأميّة. لذا يجب على من يتصدى لقيادة الأمة أن يحسن اختيار الوسيلة التنظيمية لإدارة الصراع مع المستعمر من جهة وضمان تحقيق المشروع النهضوي بعد الاستقلال. ولا أظن هذا يتحقّق إلاّ بالتنظيم الرابطي. فالرابطة التي تجمع كل اتجاهات الحركة الوطنية هي الكفيلة وحدها لتحقيق الانجازين السالفي الذكر، بل تتجاوز ذلك إلى منع الانزلاقات وتجنيب التنازع المفشل والتعالي غير المبرر وحظوظ النفس الطاغية والاستبداد والمحافظة على الثوابت والقيم.

ولم تحقق جبهة التحرير الوطني أثناء الثورة هذا المقصد، لأنه عند الدراسة يتّضح أنها جمعت في الأطراف واستبدت الحزبية بالمركز إذ استأثر إطارات حزب الشعب وحدهم بالمراكز القيادية الهامة أو السيادية بلغة القانون الإداري.

البيئة الثقافية والحركة الوطنية

إن الوضع الفكري العام في الجزائر في الفترة الاستعمارية ظل منغمسا في عالم الأشياء لا عالم الأفكار، كما شخص ذلك بعمق الأستاذ مالك بن نبي[7]، ومردّ ذلك إلى تفشي الأمية وسطحية المعارف المتداولة إلا لدى قلة من المثقفين باللغة العربية أو الأجنبية أو مزدوجي اللغة. وهذه البيئة الثقافية تنشئ بالضرورة تابعي زعامات لا منقادين إلى أفكار حيّة مؤصلة. فالجماهير لا تناضل من أجل برامج واضحة المبادئ والمضامين وآليات التنظيم ومآلات التطبيق، بل تتبع شعارات مبدئية على عمومها وفضفاضيتها.

وقد يستغلّ بعض الزعماء الوطنيين هذه السطحية الثقافية السائدة لتمرير المبادئ والنظم المستوردة تحت غطاء التحرّر والثورية تارة والتقدمية تارة أخرى، و أتاتورك في تركيا من هؤلاء، وعندنا من يدعي أن بيان أول نوفمبر 1954 لم يدع إلى دولة دينية! وكأن في تراثنا الإسلامي السني دولة دينية ومدنية!، والقصد واضح وهو خلط المرجعيات الثقافية الإسلامية في السياسة بالمرجعيات الغربية لتبرير العلمانية...

إن البيئة الثقافية لأمة ما هي التي تحدّد توجهاتها واختياراتها واستماتتها في الدفاع عن مقدساتها واختيارها من تسند إليهم تمثيلها وتزعّمها. فإن سرت فيها الثقافة الإسلامية الأصيلة الشاملة وأشربتها كانت فاعلة وموجهة بل ملزمة لفعالياتها على التوحّد والعمل الرابطي والقيادة الجماعية الحقيقية لا الوهمية، وإذا انحطّ مستواها الثقافي وزاغت في سلوكها الاجتماعي كانت وقودا لتثبيت الزعامات الفردية الإقصائية وكماّ مهملا يوجّه في أي اتجاه ...

الخاتمة

لا يصلح منهجيا أن نقدم ملخصا موجزا لمقالنا في هذه الخاتمة لأن ما طارحناه في مباحثه المختلفة كان كذلك، بل نلفت القارئ إلى ضرورة الانتباه إلى الربط السببي والعلاقة العضوية للتصور المتكامل الذي يجب أن يخرج به بعد قراءة المقال عندما تذكر الحركة الوطنية. إن المقاربة المعيارية والتأصيلية في هذا المجال هي التي تنشئ فكرا قادرا علي التمييز وبالتالي

إما الاعتماد على علم أو التجديد على علم. إن دراسة الحركة الوطنية لا يمكن أن تبسّط وتختصر في المستوى الجامعي على كرونولجيات ودراسة وصفية بل يجب أن توصل إلى تصورات علمية عميقة ابتداء للظاهرة الاستعمارية في أسبابها الداخلية قبل الخارجية حتى تتجنّب الأمة الوقوع فيها مجدّدا، ثم إلى تفاعل الأمة مع الظاهرة عندما تستقر بالبلد، أي: دراسة مبنى الحركة الوطنية إيديولوجيا ومشروعا تحرريا وبنائيا في بيئة ثقافية معينة في ظروف خاصة استعمارية. ومنه تطرح إشكالية الإلزام بالماضي كما كان أو دراسة التجربة بتثمين جوانبها المشرقة القوية و مراجعة ما خالف الصواب في التجربة التحررية والبنائية على السواء. نحسب أن المراجعات العلمية المؤصلة كفيلة بإثراء تجربة الحركة الوطنية وسبيل إلى تحسين مخرجاتها في المستقبل لأننا في الواقع نعيش على كثير منها. كذلك فإن ما يمكننا تسميته نقدا ذاتيا لكفيل بإثراء التجربة وتصحيح مسارها لأن طبيعة الحياة التجديد وصلاح الأمور ودوامها موافقتها الصواب.

الهوامش :

1 مصطلح الاتجاه ومنه الاتجاهات في الجمع يفيد الوجهة والهدف، وهو الأصلح في وصف وتصنيف فعاليات الحركة الوطنية الجزائرية.

2 Serge KASTELL: Le maquis rouge, L'aspirant Maillot et la guerre d'Algérie 1956, l'Harmattan, Paris, 1997, p.85

ويذكر نفس الكاتب في نفس الصفحة السابقة – وهو واسع الاطلاع في الموضوع الذي درسه ويظهر أنه هو نفسه ينتمي إلى التيار الشيوعي- أن الأمين العام للحزب الشيوعي في الجزائر أندري موان قد ندّد بالمواقف الوطنية للمؤيدين للعمل المسلح عند بداية الثورة وكانوا جزائريين (حاج علي، عكاش، هجرس والعربي بوهالي) ، وأن خلفه كاميل لاريبير قد اعتبر " الانتفاضة ، ثمرة مجموعة غير مسئولة (يقصد جبهة التحرير الوطني) دخلت في لعبة المستعمر ، وأن الانتفاضة لا تستجب لا للشروط الموضوعية ولا غير الموضوعية الكفيلة بنجاحها". والأمثلة كثيرة يرجع إليها في مصادرها.

ويذكر كاتب آخر-الذي قال إنه كان أحد المسئولين عن الطلبة الشيوعيين في الجزائر عند قيام الثورة- أنه حضر اجتماعا لأطر الحزب الشيوعي نهاية 1955 وفيه فهم من كلام أندري موان الأمين العام للحزب الشيوعي في الجزائر أن الأمريكيين كانوا من وراء الثورة (سمّاها الانتفاضة) وعليه يجب الحذر الشديد. وأضاف نفس الكاتب: " لقد اعتبر نفس الأمين العام للحزب الشيوعي التحاق مقاومين شيوعيين هما عمراني و رافيني بجبل الأوراس (يقصد بجيش التحرير الوطني) أمرا غريبا جدّا، بينما كان شيوعيو شعبة الأوراس في الواقع قد مزّقوا بطاقات انخراطهم في هذا الحزب والتحقوا بجبل الأوراس ".

Daniel Timsit: Algérie récit anachronique, Editions Bouchène, Alger, 1998, pp.24 et 29.

و يلاحظ القارئ أننا تعمّدنا الرجوع إلى المصادر الشيوعية أو القريبة من هذا التيار حتى نتجنّب الذاتية التي تفسد التأريخ الموضوعي.

3 Hafid KHATIB : 1ER JUILLET 1956 : L'ACCORD FLN- PCA et l'intégration des Combattants de la libération dans l'Armée de Libération Nationale en Algérie, OPU, Alger, s.d.é, pp.13-14.

4 Id. p.11

5 CLAUDE COLLOT – JEAN ROBERT HENRY : LE MOUVEMENT NATIONAL ALGERIEN, TEXTES 1912-1954, 2eéd .OPU, Alger, 1981, pp. 228-229

6 يطالع في هذا الموضوع عيون البصائر، خاصة مقالات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بعد الحرب العالمية الثانية.

7 Malek BENNABI : Le problème des idées dans le monde musulman, 1ER éd., El Bay'yinate, Alger, 1990, pp.70-84

الحزب الشيوعي الجزائري وموقفه من حوادث 8 ماي 1945

أ / بن زروال جمعة
جامعة العقيد الحاج لخضر / باتنة

تعتبر حوادث 8 ماي 1945 من أهم المحطات التاريخية الحاسمة في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية، فبفضل هذه الحوادث تحدد المسار التاريخي للتيارات السياسية الموجودة في الجزائر والمتمثلة في الاتجاه الوطني والاتجاه الإدماجي، ومن بين هذه التيارات السياسية التي تجسدت أفكارها وظهر اتجاهها وموقفها الحزب الشيوعي الجزائري

فما موقف الحزب الشيوعي الجزائري من حوادث 8 ماي 1945؟

وما رد فعل الشيوعيين الجزائريين من مجازر 8 ماي 1945؟

وما أسباب تضارب آراء الشيوعيين من هذه المجازر؟

وللإجابة على هذه التساؤلات إرتأينا أن نقسم آراء ومواقف الحزب الشيوعي الجزائري إلى ثلاث مواقف:

أ. **الموقف الأول:** موقف الحزب الشيوعي الفرنسي P.C.F باعتباره حزبا يسيطر على قرارات الحزب الشيوعي الجزائري الذي يعتبر جزء منه ووصي عليه.

ب. **الموقف الثاني:** موقف الحزب الشيوعي الجزائري والمتمثل في موقف المستوطنين الشيوعيين الأوروبيين في الجزائر

جـ. **الموقف الثالث:** موقف الحزب الشيوعي الجزائري والمتمثل في موقف الشيوعيين العرب المسلمين.

قبل دراسة موقف الحزب الشيوعي الجزائري من حوادث 8 ماي 1945 علينا أولا أن نعرف الحزب الشيوعي الجزائري وندرس الجذور التاريخية للحزب.

تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري:

ظهرت أول نواة تمثيل منظم للشيوعيين الجزائريين والذين أغلبهم من المستوطنين الفرنسيين في الجزائر في الوفد الذي شارك في المؤتمر الذي عقده الحزب الشيوعي الفرنسي في مدينة تور سنة 1920[1] والتي دعت إليه النخب الشيوعية في المستعمرات الفرنسية إذ تزعم الوفد الجزائري شارل أندري جوليان*.

إذ أكدت قرارات المؤتمر على إنشاء فروع شيوعية في المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا من بينها الجزائر عرفت بإسم الفيدراليات الشيوعية[2].

وفي سنة 1924 تأسس الإتحاد الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي 1924 باسم الفيدرالية الشيوعية الجزائرية والتي بدأت تنشط وتؤسس فروع لها في عدة مدن جزائرية أغلب أعضائها من المستوطنين الأوروبيين في الجزائر البليدة- وهران- سيدي بلعباس- قسنطينة[3].

وبعد نضال سياسي طويل استطاع الشيوعيين الجزائريين أن يؤسسوا فرعا للشيوعيين الأوربيين والجزائريين في الجزائر سنة1924 وكان هذا الفرع تحت سيطرة الحزب الشيوعي الفرنسي وبعد مؤتمر فيليربان الذي أقر باستقلال الشيوعيين الجزائيين سنة1935 استقل الشيوعيين الجزائريين وأسسوا رسميا الحزب الشيوعي الجزائريP.C.A. [4]

بدأ الحزب الشيوعي الجزائري يمارس نشاطه السياسي عن طريق مطالبه السياسية التي تتمثل في استقلال الجزائر مع تأسيس حكومة وطنية شعبية ذات حكم جمهوري شعبي جزائري موحد مع فرنسا الحرة وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية1939 قامت فرنسا بحل الحزب الشيوعي الجزائري من 39-43 بسبب آرائه السياسية ثم أعيد إلى نشاطه السياسي في سنة 1944 إلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية. [5]

أ.موقف الحزب الشيوعي الفرنسي P.C.F من حوادث 8 ماي 1945

اعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي أن حوادث 8 ماي 1945 هي بمثابة حوادث استفزازية قام بها أعوان هتلر من حزب الشعب والأعوان الآخرون المنتشرين في منظمات تدعي أنها ديمقراطية [6] اتهم الحزب الشيوعي الفرنسي الوطنيين وبإعلان هذه الانتفاضة أكد الحزب الشيوعي الفرنسي في جريدته l'humanité الصادرة في يوم 16ماي و 31 ماي 1945 على معاقبة قادة الحركة الوطنية الذين جندوا وغرروا المسلمين للمشاركة في هذه الانتفاضة مثل زعماء أحباب البيان والحرية ورحب الحزب الشيوعي الفرنسي باعتقال

فرحات عباس* ود/ سعدان باعتبارهم [7] مسؤولين عن الحوادث المأساوية التي وقعت في مدينة سطيف وفي اليوم الموالي لحوادث 8 ماي 1945 حاول الحزب الشيوعي الفرنسي تبرير هذه المظاهرات كما يلي :" إن الشعب الجائع كان مدفوعا إلى العنف من طرف أشخاص جد معروفين لدى الإدارة وينبغي فورا معاقبة منظمي الانتفاضة الذين قادو حركة الشعب معاقبة شديدة وسريعة..." ولم يكتفي الحزب الشيوعي الفرنسي بالتنديدات بل شارك الشيوعيين في توجيه وفد إلى الحكومة العامة في الجزائر يمثل الحزب الشيوعي الفرنسي والجزائري يضم كل من Joann وNeuveu وعمار أوزقان* Caballers استقبلوا يوم 10ماي من طرف السيد Aldhuy رئيس ديوان الشؤون السياسية والدبلوماسية لدى الحاكم العام

وتحدث الوفد عن " ... استفزازات أعوان هتلر من حزب الشعب وأن الحزب المجرم يحاول إشعال ثورة الجوع ونجح في إراقة الدماء والحث على الحرب الأهلية وأكدا على ضرورة معاقبة المحرضين لهذه الانتفاضة..." (8)

أصدر الحزب الشيوعي الفرنسي نداء إلى سكان شمال إفريقيا يطلب منهم الحذر من اتحاد الطابور الخامس* والامبريالية الفاشية لصيانة التنظيم الديمقراطي إذ قال في ندائه" .... كان في حوزة المتظاهرين أسلحة أوتوماتيكية فمن موهم بها؟ ولماذا لم تحجز هذه الأسلحة؟.... إن الإدارة المجرمة هم زعماء حزب الشعب الجزائري أمثال مصالي الحاج والواشون المنتشرون في ثنايا التنظيمات... فعندما كانت فرنسا تحت سيطرة الفاشية لم تحرك تلك التنظيمات ساكنا وها هي الآن تطالب بالاستقلال في وقت كانت فيه فرنسا تحارب لتتحرر من قبضة القوات الفاشستية..." (9)

ونصح الحزب الشيوعي الفرنسي الحاكم العام بالجزائر لكي يسكت ويهدئ هذه الانتفاضة عليه أن يعود إلى الإصلاحات التي طالب بها المجلس الوطني للمقاومة وحكومة فرنسا الحرة ولسلامة وأمن فرنسا في الجزائر عليها أن تقوم بالإجراءات التالية:

-فصل أعوان الإدارة والشرطة والجيش الذين ثبتوا عجزهم أو كانوا متواطئين.

-إصدار العفو عن كل العناصر النزيهة التي غرر بهم الخونة

-تموين سكان الأرياف والقضاء على التفاوت بين الأوروبيين والمسلمين(10)

وندد أعضاء وممثلي الحزب الشيوعي الفرنسي في البرلمان حوادث 8 ماي 1945 إذ قال Etienne Fajon في 11 جويلية 1945 " ... إن مجازر قالمة وسطيف دبرت من طرف أحباب البيان وبالتعاون من الفاشية التي وجدت رجال غرر بهم من الوطنيين..."(11)

ولم يكتفي الحزب الشيوعي الفرنسي بالتنديدات والنداءات والشجب ضد حوادث 8 ماي 1945 إذ شارك العديد من مناضليه في هذه المجازر بقتل العديد من الجزائريين في هذه المظاهرات في عدة مناطق من البلاد.

ففي مدينة قالمة وريفها ومدينة سطيف وضواحيها وسكيكدة وقراها تعرضت العديد من هذه المناطق بالضرب بالطائرات والقنابل وبأمر وإشراف من وزير الطيران العضو في الحزب الشيوعي الفرنسي Titon تيتون إذ كانت هذه الطائرات تنطلق من مطاري قالمة وعنابة(12) لضرب القرى والمداشر من نوع بـ B =26

واتهم الحزب الشيوعي الفرنسي بعض الشخصيات العربية مثل شكيب أرسلان بأنه كان واقعا تحت النفوذ الألماني وعن طريقه كان الألمان يبثون دعايتهم إلى شمال إفريقيا والجزائر خاصة. (13)

وفي الأخير نستنتج أن الحزب الشيوعي الفرنسي كان موقفه معارضا ومنددا لحوادث 8 ماي 1945 وأرجع أسبابها إلى النقاط التالية

-اعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي أن حوادث 8 ماي 1945 سببها الجوع والفقر الذي عرفه الشعب الجزائري أثناء الحرب ع II و لم يتعرض إلى دور الحرب العالمية II في تبلور ونمو الوعي الوطني داخل الحركة الوطنية الجزائرية والذي أدى إلى ظهور هذه الحوادث.

-اتهم الحزب الشيوعي الفرنسي زعماء الحركة الوطنية من حزب الشعب وأحباب البيان واعتبر زعماء الحزب مثل: مصالي الحاج وفرحات عباس ود/ سعدان... هم المسؤولين عن هذه الحوادث وطالب الحزب الشيوعي الفرنسي بمعاقبة وسجن زعماء الحركة الوطنية وبسرعة قبل أن تتوسع حركة الانتفاضة إلى المدن الجزائرية.

-ساهم بعض عناصر الحزب الشيوعي الفرنسي في قمع مظاهرات 8ماي1945 مثل مساهمة وزير الطيران الفرنسي Titon بإعطائه الأوامر لضرب القرى والمداشر في منطقة قالمة وسطيف...

-أيد الحزب الشيوعي الفرنسي الحكومة الفرنسية في قمع مظاهرات 8 ماي عن طريق الاجتماعات واللقاءات ما بين الحزب الشيوعي الفرنسي والبرلمان والحكومة الفرنسية وطالبا بإصلاحات داخلية في الجزائر بالعودة لإصلاحات حكومة فرنسا الحرة وإسكات الشعب الجزائري وبهذا نستنتج أن الحزب الشيوعي الفرنسي كان متواطئ مع فرنسا وجيشها في قمع مظاهرات 8 ماي 1945 في الجزائر فهذا كان موقف الشيوعيين الفرنسيين في فرنسا فما هو موقف الشيوعيين الفرنسيين والأوروبيين في الجزائر من حوادث 8 ماي !!!؟ وللإجابة عن هذا السؤال سوف نتطرق إليه في الموقف التالي:

الموقف الثاني: موقف المستوطنين الشيوعيين الأوروبيين في الجزائر من حوادث 8 ماي 1945:

أثناء الحرب العالمية الثانية 1945/1939 كان نسبة المستوطنين الأوروبيين في الحزب الشيوعي الجزائري أكثر عددا من نسبة الجزائريين مما أدى إلى سيطرة المستوطنين على قرارات الحزب الشيوعي الجزائري والدليل على ذلك موقف المستوطنين الشيوعيين من حوادث 8 ماي 1945 والتي كانت مساندة للسلطة الفرنسية فقد صرح مندوب الحزب الشيوعي الجزائري في مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي العاشر المنعقد في 7 جوان 1945 إذ قال : " إن الذين يطالبون باستقلال الجزائر عن وعي أو دون وعي هم عملاء لدولة استعمارية أخرى، والحزب الشيوعي الجزائري يعمل لتقوية أواصر الوحدة بين الشعبين الجزائري والفرنسي" (14)

وشهر بنشاط المهرجين وعارض كل عمل يرمي إلى فصل الجزائر عن فرنسا ولقد ندد المستوطنين الأوروبيين في الحزب الشيوعي الجزائري للاعتداء الذي تعرض له "ألبير دونيه"Albert Denier سكرتير الفرع الشيوعي بسطيف من طرف مجهولين عرب وقطعوا يديه، كما تعرض رئيس المندوبين الخاصة الذي يتولى منصب رئيس البلدية الاشتراكي الموالي للعرب للاغتيال وحسب عامل العمالة "ليستارد كاربونال" le Strade carbonel فقد بلغ عدد الضحايا الأوروبيين من عمالة قسنطينة مائتين وثلاثة وعشرون 223 من بينهم مئة وثلاثة 103 موتى في صفوف الكولون وعائلاتهم تمت مهاجمتهم في مزارعهم.[15]

اتهم الشيوعيون الأوروبيين المستوطنين في الجزائر الوطنيين من حزب الشعب بأنهم هم سبب حوادث 8ماي1945 حيث كتبت جريدة Liberté الناطق الرسمي للحزب الشيوعي الجزائري "... عن المؤامرة الفاشية شارك فيها الخونة من كل الأجناس والديانات... إن حزب الشعب وأحباب البيان هم خدام الفاشية العالمية..."[16]

وقد اتهم الشيوعيين الفرنسيين في الجزائر حزب الشعب بأنه كان وراء حادثة 8ماي وحملته مسؤوليتها فهو الحزب الذي نظم مظاهرات في الأسبوع الأول من هذا الشهر للمطالبة بتحرير مصالي والإعلان عن وجود فرق مسلحة تقف عند الجسور والعمارات العامة والضيعات"[17].

وبعد حوادث 8 ماي 1945 صرح الحزب الشيوعي الجزائري في بيان له تحت عنوان" لا توجد ثورة عربية، إنها مؤامرة فاشية، وهذه هي الحقيقة"... إنها مجزرة منظمة في مدينة سطيف ومظاهرات شعبية يوم 8 ماي ظهرت مجموعة مندسة من المقاتلين المسلحين من عناصر حزب الشعب الجزائري الذين قاموا بالتقتيل بطريقة هتلرية..."[18]

ففي الجزائر خرجت شرذمة الاستفزازيين وهم من المهربين النشطين في السوق السوداء المعتمدين لدى بورجو " Bourgeaud" وسردا " Serda" وبن قانة* ولقد استفزوا الأطفال والبؤساء لتنظيم مظاهرات مضادة لـ 50.000 عامل مسلم وأوروبي متكتلين وراء الكونفدرالية العامة للشغل C.G.T إن هذا الاستفزاز من فعل حزب الشعب الذي يتلقى الأوامر من عند هتلر ذلك الذي يعذب الجنود الفرنسيين دون تمييز بين الأوروبيين والمسلمين إن هذه المظاهرات التي نظمها حزب الشعب الجزائري لدليل على السياسة التقليدية الساعية إلى تفرقة الصفوف، تلك ممارسات هتلرية لقد رفعت في الأقاليم الثلاثة شعارات تنادي باستقلال الجزائر، وتحث على الاستعداد لتنظيم المقاومة في الجبال الجزائرية وزرع الكراهية بين الجزائريين وتنظيم الاضطرابات، هذا الحزب يُنفذ في الجزائر الأوامر الهتلرية "أيها الجزائريون أيها الجزائريات:...

لا تنسوا أن السعي لشق الصفوف هو السلاح المفضل لدى أنصار هتلر فالاتحاد واجب لأنه يمكننا من إسقاط الأقنعة عن الذين يضرون بمصالح الشعب الجزائري والشعب الفرنسي ويمكننا من استئصال العنصرية والفاشية أينما وجدت أيها المسلمون إن الدعاية التي ينشرها حزب الشعب الجزائري هي الدعاية نفسها التي ينشرها العدو." (19)

وفي الأخير نستنتج أن الشيوعيين الأوروبيين في الجزائر كان موقفهم سلبي من حوادث 8 ماي 1945 وهذا بتنديداتهم لهذه الأحداث واتهامهم لحزب الشعب وأحباب البيان والحرية ويعود سبب ذلك إلى ما يلي:

-كان موقف الشيوعيين الأوروبيين في الجزائر ضد حوادث 8 ماي وضد الحركة الوطنية الجزائرية إذ اعتبرت هذه المجازر من تنظيم حزب الشعب وأحباب البيان وهذا بسبب سيطرة الحزب الشيوعي الفرنسي على قرارات وآراء الحزب الشيوعي الجزائري والذي يعتبر ليس حزبا جزائريا مثل الأحزاب الأخرى وإنما هو زائدة فطرية للحزب الشيوعي الفرنسي(20)

-سيطرة الأغلبية الأوروبية على الحزب الشيوعي الجزائري مما أدى إلى ميل المستوطنين الشيوعيين وتعاطفهم مع المعمرين الفرنسيين الذين تعرضوا للقتل أو لحرق أراضيهم بعد حوادث 8 ماي 1945.

-تعرض مناضلي الحزب الشيوعي الجزائري في حوادث 8 ماي 1945 إلى القتل والاعتداء مما أثر سلبا على موقف الحزب من هذه الحوادث.

-وفي الأخير نستنتج أن موقف المستوطنين الشيوعيين من حوادث 8 ماي كان موقفا معارضا ومنددا واعتبر أن زعماء الحركة الوطنية هم السبب في هذه الثورة الشعبية بتشجيع من الفاشية والنازية.

الموقف الثالث: موقف الشيوعيين العرب المسلمين من حوادث 8ماي 1945

كان الحزب الشيوعي الجزائري أثناء الحرب العالمية الثانية ينقسم إلى فئتين، فئة أوروبية يهودية وهي التي تمثل الأغلبية من الحزب أغلبهم من المستوطنين وفئة أقلية تمثل الجزائريين المسلمين وأغلبهم من الطبقة النصف مثقفة والطبقة العاملة والمثقفة بالثقافة الفرنسية.

ومن بين أهم الشخصيات الجزائرية التي كانت بارزة في الحزب الشيوعي الجزائري "عمار اوزقان" الذي كان السكرتير والأمين العام للحزب في سنة 1945؟ وقد كان موقف أغلبية الجزائريين الأعضاء في الحزب الشيوعي الجزائري معارضا لحوادث 8 ماي وتمثل ذلك في كتابات وخطابات السكرتير العام السيد "عمار أوزقان" الذي كتب في جريدة Liberté يتهم فيها الوطنيين من حزب الشعب بأنهم هم المتسببين الرئيسين في مظاهرات 8 ماي 1945 وحدد بعض الأسماء الرئيسية مثل: مفدي زكريا،

الشاذلي المكي، سي الجيلاني وبودالي سفير... واتهم الحزب الشيوعي الجزائري حزب الشعب بأنه حزب إرهابي وفاشي[21]

وندد " عمار أوزقان" في مقال أخر في جريدة Liberté تحت عنوان: " مؤامرة سطيف واغتيال لعجالي" يقول فيها ما يلي: ".... بعد المؤامرة الفاشية في مدينة سطيف وقالمة قامت السلطة العليا الفاشية في الحكومة العامة الكولونيالية بتدبير مؤامرة جديدة ضد الحزب الشيوعي الجزائري

باختيار ضحية جديدة من الحزب الشيوعي المتمثل في صديقنا "لعجال محمد السعيد* "السكرتير الفرعي للحزب الشيوعي الجزائري لمنطقة القصبة الذي اغتيل في الجزائر العاصمة ما بين ليليتي 17 و 18 ماي 1945 في ظروف سيئة إذ قتل من طرف الشرطة الفرنسية بثلاثة رصاصات قاتلة وكان الهدف من هذه الجريمة هو تدمير الحزب الشيوعي الجزائري[22]...".

وقد كتب تقرير سري من طرف الشرطة الفرنسية مؤرخا في 26 ماي 1945 حول قضية اغتيال المناضل الشيوعي لعجالي محمد السعيد الذي كان مطاردا من طرف الشرطة الفرنسية وعند القبض عليه وجدت لديه بطاقتي للهوية الأولى بإسمه الحقيقي أما البطاقة الثانية فكانت باسم بوصوف محمد، وكان عمر لعجالي 25 سنة ويعمل كطوبوغرافي في مكتبة Heintz وقد تم اغتيال لعجالي سكرتير خلية الحزب الشيوعي الجزائري لمنطقة القصبة في ليلة 17-18 ماي 1945 في ظروف غامضة من طرف الشرطة الفرنسية بعد مطاردته وإطلاق النار عليه بثلاث رصاصات[23].

واتهم الحزب الشيوعي الجزائري على لسان " عمار أوزقان" مناضل حزب الشعب بتدبير الأحداث ونعتهم" بخدام الفاشية" و " الوطنيين المزيفين" وهلل بإيقاف فرحات عباس مؤكدا بمقولة الأمة قيد التكوين وقال " ...إن المواطنة الجزائرية لا تطرح الآن بسبب وجود عناصر مختلفة أوروبية مسلمة- يهودية- تحاول أن تنصهر لتشكل كلا يؤدي في الأخير إلى ميلاد شعب جديد..." [24]

اهتم الحزب الشيوعي الجزائري بمجازر قالمة وسطيف وتوفي العديد من المسلمين، إذ اعتبر الحزب الشيوعي الجزائري أن حوادث 08 ماي 1945 ما هي إلا مظاهرات شعبية نظمت من طرف أحباب البيان والحرية وحزب الشعب الجزائري ثم تحولت إلى اشتباكات ومجازر واغتيالات ، كان أحباب البيان وحزب الشعب المتهم الرئيسي في هذه الأحداث[25].

بالإضافة إلى موقف السكرتير العام للحزب الشيوعي الجزائري "عمار أوزقان"هناك مواقف مماثلة للعديد من الجزائريين الأعضاء في الحزب الشيوعي من بينها موقف ممثل الحزب الشيوعي بقالمة وممثل الحزب في لجنة فرنسا المكافحة "عيسى نعينع" الذي أيد أعمال أشياري نائب عمالة قالمة "السوبر بفي" قائلا "...نائب عامل العمالة السوبر بفي

Achiary أشياري لقد أنقذنا، ولو كنت مكانه لتصرفت بنفس تصرفه حيث كانت له الشجاعة والقوة والقدرة اللازمة "إلا أن اتهامات الحزب الشيوعي الجزائري وموقفه السليم من حوادث 8 ماي 1945 بدأت تتراجع لدى بعض أعضاء الحزب من الجزائريين إذ قدم السيد " محمد شوادرية" عضو الحزب الشيوعي الجزائري ونائب منطقة سوق أهراس في المجلس التشريعي الفرنسي تقريرا في يوم 28 فيفري 1946 عن أحداث 8 ماي 1945 بمنطقة قالمة خاصة بمنطقة واد الشحم Villars[26] سابقا يقول فيه " ... لما ذا هذا الحقد وهذه الكراهية لقتل الأهالي الجزائريين الأبرياء بدون تحقيق وبدون حكم قضائي وأية محكمة كانت مخولة من الوجهة القضائية بإدانة هؤلاء الضحايا..." [27]

-وبهذا نستنتج ان موقف الشيوعيين المسلمين أغلبهم خاصة القادة كان موقفهم ضد مظاهرات وحوادث 8 ماي 1945 باعتبارها مظاهرات استفزازية.

-اتهم أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري حزب الشعب وطالب بردعه وتقليص نفوذه وعزله عن غيره من التشكيلات بتحميله مسؤولية المجازر[28]

-كان من ضحايا مظاهرات حوادث 8 ماي 1945 بعض مناضلي الحزب الشيوعي الجزائري مثل: مقتل لعجالي محمد السعيد.

-بعد مظاهرات 8 ماي تراجعت بعض مواقف الشيوعيين الجزائريين وبدأوا ينددون بهذه المجازر وهذا بسبب موقف الرأي العام الجزائري والرأي العام العربي مما أدى ببعض الشيوعيين الجزائريين إلى شجب هذه المجازر واعتبراها مجازر لقتل الأبرياء.

-بسبب موقف الحزب الشيوعي الجزائري السلبي من حوادث 8ماي1945 خرج العديد من الجزائريين المناضلين في الحزب الشيوعي الجزائري من الحزب وانضموا إلى حزب الشعب والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري.

-وفي الأخير نستنتج أن الحزب الشيوعي الجزائري وباختلاف عناصره وفئاته الفرنسية الأوروبية واليهودية والجزائرية المسلمة" أن الحزب الشيوعي الجزائري أيد مجازر 8 ماي 1945 وأيد القمع الفرنسي في هذه المظاهرات مما جعله حزبا يخدم مصالح الفرنسيين والمستوطنين في الجزائر وأثر سلبا على مساره السياسي في المستقبل.

نتائج حوادث 08 ماي 1945 على الحزب الشيوعي الجزائري:

ساهمت حوادث 08 ماي 1945 بدور كبير في تغيير المسار السياسي للحزب الشيوعي الجزائري بسبب موقفه المعارض من هذه الحوادث إذ وجد معارضة كبيرة من طرف الوطنيين مما أدى بأعضائه إلى إعادة النظر في برنامجه السياسي الذي تغير جذريا سنة 1946[29]، والدليل على ذلك هذه النتائج المستخلصة من حوادث 8 ماي 1945.

– بعد حوادث 8ماي1945 قام أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري بتغيير وتجديد هيكلة الحزب إذ تم طرد عمار أوزقان من الحزب بسبب موقفه المعارض من حوادث 8ماي1945 وتعيين العربي بوهالي* كأمين عام للحزب الشيوعي الجزائري سنة 1947[30].

– تغيير مسار الحزب الشيوعي الجزائري إذ حاول تصحيح مساره السياسي لصالح الحركة الوطنية الجزائرية وتأسيس جبهة وطنية دبمقراطية جزائرية في 21 جويلية 1946 داعيا إليه مختلف الاتجاهات السياسية في الجزائر[31].

– بعد حوادث 8 ماي 1945 ركز الحزب الشيوعي الجزائري نشاطه السياسي على الفئة العمالية بهدف استقطاب هذه الفئة الشغيلة بالمطالبة بحقوق العمال والتركيز على النشاط النقابي والجماهيري بتأسيس النقابة العامة للعمال C.G.T واتحاد الشبيبة الجزائرية U.J.D.A واتحاد النساء الجزائريات U.F.A.[32]

– خروج العديد من الجزائريين من الحزب الشيوعي الجزائرية بعد حوادث 8 ماي بسبب موقفه المعارض خاصة أعضاء اللجنة المركزية للحزب مثل محمد معروف وبسبب سيطرة المستوطنين الأوربيين على قرارات الحزب الشيوعي الجزائري على حساب مواقف الجزائريين مما أدى إلى الخروج العديد منهم نحو الأحزاب الوطنية الأخرى.

خاتمـــة

وفي الأخير نستنتج أن الحزب الشيوعي الجزائري كـــان موقفـــه ســـلبي مـــن حـــوادث 8 ماي 1945 بـــسبب ســـيطرة الـــشيوعيين الأوربـــيين وضـــغط الحـــزب الـــشيوعي الفرنسي على أفكاره ومواقفه السياسية تجاه القضية الوطنية الجزائرية.

إذ اعتبر تابعا للحزب الشيوعي في مختلـــف المواقـــف الـــسياسية كمـــا وصـــفه محمـــد حربي أن الحزب الشيوعي الجزائري هو بمثابة زائدة دوديـــة للحـــزب الـــشيوعي الفرنـــسي مما أثر سلبا على المسار التاريخي للحزب.

الهوامش:

(1) Les archives d'outre-mer. Aix-en Provence .Marseille, France, boit N° 81F758, P.C.A.

* شارل **أندري جوليان:** من مواليد فرنسا انتقل إلى الجزائر سنة 1906 واستقر في وهران، مارس النشاط السياسي عبر الكتابة في المجلة الأسبوعية الكفاح الاجتماعي بعد انضمامه إلى الحزب الاشتراكي وهو في 18 عشر، وبعد الحرب العالمية الأولى شارك في الانتخابات وأصبح عضو في المجلس العام ثم أصبح عضوا في المجلس الاشتراكي سنة 1920 وفي نفس السنة عين كممثل للدعاية بشمال إفريقيا، شارك في مؤتمر تور بين التيارين الاشتراكي والشيوعي فانضم إلى الحزب الشيوعي رسميا وكان جوليان ضمن الوفد الشيوعي الفرنسي في مؤتمر الأممية الشيوعية الثالثة في 22 جوان إلى 12 جويلية 1921 وأصبح الناطق الرسمي للشيوعيين بالجزائر وساهم في تأسيس فيدرالية الشيوعيين الجزائريين 1924.

(2) منطلقات وأسس الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945، سلسلة مشاريع البحث ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة 1 نوفمبر ، مطبعة البساتين ، بئر مراد رايس، الجزائر، ص276.

(3) عبد الكريم بوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، 1931-1945، منشورات المتحف الوطني للمجاهد الجزائر، 1996، ص 291-292.

(4) Les archives d'outre-mer. Aix-en Provence .Marseille .boite N°81F 765 sur le parti communiste Algérien .

(5) Les archives d'outre-mer. Aix-en Provence .Marseille .boite N°G.G.A 40G/68 sur P.C.A fillaie duP.C.F.

(6) أحمد محساس، الحركة الثورية في الجزائر من الحرب العالمية الأولى إلى الثورة المسلحة، دار القصبة للنشر 2003، ص 247.

* فرحات عباس: ولد بالطاهير سنة 1899 ولاية جيجل، تلقى تعليمه بجيجل وقسنطينة والجزائر ثم استقر كصيدلي بمدينة سطيف، وفي سنة 1920 بدأ حياته السياسية في فدرالية النخبة، وفي سنة 1938 أسس الاتحاد الشعبي الجزائري، شارك إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية حيث عمل كصيدلي وحرر بيان الجزائر سنة 1943، ثم أسس حزب أحباب البيان والحرية سنة 1943 وبعد الحرب العالمية الثانية تغيرت مواقفه السياسية تجاه الحركة الوطنية، بعد اندلاع الثورة انضم إليها سنة 1956 ثم عين في 1958 كرئيس للحكومة المؤقتة إلى غاية 1961، توفي في الجزائر 24 ديسمبر 1985.

(7) Mahfoud Kaddache- histoire du nationalisme- tome II,Alger E.N.A.L,p723.

* من مواليد 07 مارس 1910 بالجزائر، زاول تعليمه بالمدرسة القرآنية ثم التحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية، اشتغل في السن 13 عشر بالبريد والمواصلات، انخرط في صفوف الشباب الشيوعي سنة 1930 وأصبح في سنة 1945 أول ناب جزائري مسلم في البرلمان الفرنسي، وأصبح الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري في سنة 1948، وفي سنة 1949 تم طرده من الحزب الشيوعي بحجة انحرافه عن الخط الشيوعي لفائدة التوجه الوطني.

وبعد اندلاع الثورة المسلحة، إلتحق بصفوفها ويعتبر أحد محرري وثيقة الصومام 1956، تم القبض عليه من طرف فرنسا بسبب نشاطه السياسي وسجن في السجون الفرنسية لغاية الإستقلال، أطلق سراحه، تقلد عدة مناصب وزارية بعد الاستقلال ليعتزل النشاط السياسي بعد 19 جوان 1965، توفي في 05 مارس 1981.

(8) أحمد محساس، مصدر سابق، ص 247.

* الطابور الخامس: يقصد به حزب الشعب وأحباب البيان.

(9) Ben youcef khedda- les origines du 1er novembre-Alger éditions Dahlab 1989, p112.

(10) أحمد محساس- مصدر سابق، ص 248.

(11) Ben youcef khedda, op, cit, p293.

(12) إسماعيل سامعي- انتفاضة 8 ماي 1945بقالمة ومناطقها مديرية النشر الجامعية لقالمة 2004، ص 81.

(13) أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية ج3، الجزائر، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع 1983، ص 240.

(14) إسماعيل سامعي- انتفاضة 8 ماي 1945- مرجع سابق، ص 142-143.

(15) هنري علاق- مذكرات جزائرية، دار القصبة، الجزائر 2007، ص 143.

(16) Mahfoud kaddache- histoire de nationalisme tome II, op, cit, p 724-725.

(17) أبو القاسم سعد الله- الحركة الوطنية الجزائرية- جIII ، مرجع سابق، ص 247.

(18) عبد الحميد زوزو- محطات في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية والثورة التحريرية – دار هومة للنشر – الجزائر- 2005، ص 238.

* من قانة: احد الإقطاعيين الأثرياء من منطقة بسكرة وأحد عملاء فرنسا في منطقة الزيبان أثناء الحرب ع II إذ كرمته فرنسا بالعديد من النياشين لأنه يخدم مصالحها.

(19) أحمد محساس- الحركة الثورية- مصدر سابق، ص 245-246.

(20) محمد حربي- حياة تحد وصمود- مذكرات سياسية- 1945-4962 ترجمة- عبد العزيز بوباكير- علي قياسية- دار القصبة للنشر- 2004، ص 88.

(21) Mahfoud Kaddache- histoire nationalisme- op, cit, p724.

* لعجالي محمد السعيد: أحد أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري والممثل العربي للحزب لمنطقة القصبة بالجزائر.

(22) عبد الحميد زوزو: محطات في تاريخ الجزائر والحركة الوطنية- مرجع سابق، ص 242.

(23) Archive d'Aix en Provence- boite N° 81 F 56 sur affaire l'adjali mohamed said

(24) حميد عبد القادر: فرحات عباس رجل الجمهورية- دار المعرفة- الجزائر- 2001، ص 105.

(25) Les archives D'Atre-mer o.p. cit, boite N° G.G.A 40G/68. Sur les évènements du Mai 1945.

(26) إسماعيل سامعي- مرجع سابق، ص 143.

(27) سامعي- المرجع نفسه- ص 143.

(28) أحمد محساس- الحركة الثورية في الجزائر- مصدر سابق، ص 249.

(29) مصلحة أرشيف ولاية وهران: D.A.W.O علبة رقم: B p 028 مقال بعنوان:
Le Mouvement nationaliste et la situation de l'Algérie , p7

* العربي بوهالي: السكرتير العام للحزب الشيوعي الجزائري 1947-1962، ولد في 1912 بالقنطرة بالأوراس من أسرة فلاحية، أحد أعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي، عضو في مجلس السكرتارية للحزب 1939-1943 ثم أصبح السكرتير العام للجنة المركزية 1944 ثم الأمين العام للحزب 1947، وبعد اندلاع الثورة تعرض للتضييق ومارس العمل السري من 1955-1956 وفي 1956 انتقل إلى أوربا الشرقية ومثل الوفد الخارجي للحزب الشيوعي إلى غاية 1962، وبعد الاستقلال تخلى عن النشاط السياسي.

(30) A.O.M , boit N° 81F758, op, cit.

(31) Hafid Khatib : 1 er juillet 1956, l'accord F.L.N, P.C.A office des publications universitaires , Alger, p115.

(32) A.O.M , boite N° 81F/760, union femme de l'Algérie

الشيخ الهاشمي حسني (1320-1410هـ/ 1902-1989م) و دوره في الحركة الإصلاحية والوطنية

د / قمعون عاشوري
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

إن الشيخ الهاشمي علم من أعلام المنطقة بـــوادي سوف، فهو من الرجال الأفذاذ الذين تفتخـــر بهـــم الجزائر أيما افتخار. فقد تربى وترعرع بمسقط رأســـه بحي أولاد أحمد بالوادي، وساهم في تشييد مجتمـــع نظيف، وفي تكوين جيل حيوي ومثقف.

Résumé

Le Cheikh El -Hachemi est né, et vécut son enfance à El-Oued, où il y a fait ses études primaires, coraniques et religieuses. Il a participé à l'édification d'une société propre, et à la formation d'une génération vigilante et cultivée.

مقدمـــة

هو الشيخ الهاشمي بن الحاج أحمد بن الحاج عبد الله بن حميدة حسني. اشتهر باسم سي الهاشمي بن حميدة. لعب دورا كبيرا في نهضة مجتمعه والسير به نحو الرقي والسؤدد، ورغم نضاله الدؤوب في ميدان التربية والتعليم، كما في الميدان الإصلاحي والسياسي الوطني والقومي فإنه – مع ذلك– لم يلتفت إليه مجتمعه الذي تنكر لماضيه و لم يعره اهتماما. فمن هو الشيخ الهاشمي هذا ؟ وما مدى مساهمته في بناء جيل الاستقلال، وتكوين مجتمع أصيل يؤمن بوطنيته ويقدس عروبته؟

تلقى تعليمه الأول على يد كوكبة من علماء سوف، غرسوا في نفسه حب الوطن وتقديس العلم واحترام الآخرين. تزوج وأنجب أولادا، هم من خيرة أبناء المنطقة، إذ فيهم الطبيب والمهندس في ميدان النفط والأستاذ والمربي. انتشروا في ربوع البلاد، يقدمون خدماتهم كل في مجال اختصاصه.

1– ولادته ودراسته:

أصل عائلته من نفطة التونسية، حيث وفد جد أبيه حميدة من هناك، وهو ينتمي إلى الأشراف، من نسل الحسين بن علي. و لم يسبق لي أن سمعت منه يوما هذا الانتساب،

لإيمانه العميق بقول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

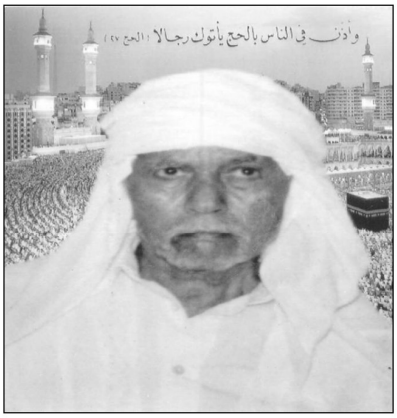

صورة الشيخ الهاشمي

غرفة الاستقبال التي يجتمع فيها بأصدقائه

ولد بمدينة الوادي بحي أولاد أحمد خلال عام 1902م.[1] وعاش في البيت الكبير الذي يملكه جده عبد الله. وكان جده تاجرا كبيرا بسوق الوادي، يتاجر بالتمور والملابس، ومتزوجا بثلاث نساء.

كان والده من حفظة القرآن الكريم، يعيش في كنف أبيه عبد الله، واستوطن تبسة لتدريس الصبيان كتاب الله. وتزوج من هناك مباركة بنت مصباح بوزرعة، من جبال تروبية[2]، بنواحي بئر مقدم، فأنجبت الهاشمي الذي تركه والده يتيما، فتزوجت أمه الحاج مسعود غندير وأنجبت منه ولدا، سمي عبد الرحمن، ثم تزوجت أحمد قريرح، الذي كان يملك مقهى بسوق الوادي، فولدت له فاطمة والهادي. عاش الشيخ الهاشمي في كنف جده عبد الله، وكان يساعده في تسجيل الحسابات المالية بدكانه بالسوق، غير أن جده طرده من بيته لاتهامه بسرقته عرجونين من التمر وبيعهما في السوق، ورغم براءته فإن جده لم يسمح له بالعودة إلى منزله إلا بعد حين، فلاذ بزاوية سيدي الإمام بالرباح، عند عمة أبيه المسماة (أُمَّا نَوَّهْ)، أخت جده الحاج عبد الله، وأم الحاج محمد الأمين[3] بن الشيخ محمد الإمام. ورغم ذلك، كان يأتي من الرباح لمتابعة دروس الشيخ إبراهيم بن عامر.

دخل الكتاب كسائر لداته، في مدرسة محمد القروي القرآنية بالأعشاش، والتي تأسست عام 1890م. ثم واصل تعليمه في جامع النخلة بأولاد أحمد، على يد الشيخ إبراهيم ابن القائد[4]، فحفظ عليه القرآن الكريم عن ظهر قلب، وأتقن حفظه وتلاوته، وعمره

لم يتجاوز 14 عاما. وفي العام الموالي، أَمَّ الجماعة في صلاة التراويح بجامع النخلة. ثم تعلم مبادئ العلوم اللغوية والفقهية[5] على يد الشيخين: محمد بن الجديدي[6] وإبراهيم بن عامر[7].

ومن المؤكد أنه لازم الشيخ إبراهيم بن عامر مدة طويلة، هذا الشيخ الذي طبقت شهرته الآفاق، وهو أشهر من نار على علم. كان يحترم تلميذه أيما احترام، وذلك لتقارب المشارب وتشابه المآرب. وكان يساعد شيخه في تلقين الطلاب مبادئ القواعد النحوية والفقهية، وعندما مرض شيخه، أنابه عنه في التدريس، ومن جملة الطلاب الذين درسهم: الشيخ الأزهاري الحرزولي[8]، وأبوبكر بن موسى[9]، وحمزة بوكوشة[10].

وكان لشيخه إبراهيم تآليف شتى تجل عن الحصر، وفي مختلف الميادين اللغوية والفقهية والأدبية والتاريخية. وكان الشيخ الهاشمي قد تأثر بشيخه كثيرا، وطالما ذكره واستشهد بأقواله ومواقفه في أحايين كثيرة.[11]

يبدو أن الشيخ الهاشمي كان على خلاف مع صهريه الشيخين الطاهر[12] وأحمد[13]، كما كان هذان الأخيران على خلاف أيضا مع الشيخ إبراهيم بن عامر، رغم الجوار في المسكن، والزمالة في الدراسة. ولعل ذلك راجع إلى اختلاف الرأي في موقفهما من الاتجاه الإصلاحي. إذ كان الشيخ الهاشمي إصلاحيا صرفا، ذا فكر ديني اجتهادي، في حين نرى الشيخين المذكورين، يتمسكان بآراء العلماء المحافظين، بدون اجتهاد في المسائل الفكرية والعقائدية، إضافة إلى انتمائهما إلى الطريقة الرحمانية.[14]

كما تابع الشيخ دراسته الابتدائية بالمدرسة الأهلية الفرنسية بالوادي، واسمها الحالي مدرسة ميهي محمد بالحاج، وذلك عام 1910م، حتى حصل على الشهادة الابتدائية سنة 1914م. درس مع زميله الشيخ الحسين زبيدي بن بالقاسم(1903-1993 م)[15]. وكان الشيخ الهاشمي يتقن اللغة الفرنسية إتقانا عجيبا، ويستعملها عند الضرورة بشكل جيد. وكان يفيدنا كثيرا في كيفية التعامل بها. وتوظيفه للغة الفرنسية، جعله يتبوأ الصدارة بين أقرانه. بل أضحى مختلفا في اتجاهه التعليمي عن بقية العلماء المعروفين وقتئذ، وربما أثر هذا عن مكانته الاجتماعية، وفي فتاواه التي تتميز بالسهولة والتبسيط، حتى اتهمه خصومه بالرقة في الدين، ولعل لسان حاله يتطابق مع قوله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.[16]

وعندما أتم الشيخ إبراهيم بن عامر تأليف كتابه الموسوم بـــ(المسائل العامرية على مختصر الرحبية) وهو كتاب هام جدا، يتعلق بعلم الفرائض، قرظه الشيخ الهاشمي الذي وصفه شيخه بالأديب، ببعض الأبيات هذا نصها:

من كان يرغب في ذا العلم يلزمـــه ... حفظ لنظم جليـــل رائق المثـــــل

جادت به همة المولى الشريف الرضا ... نجل ابن عامر من قد شاع في الدول

أطـــال ربي بقـــاه للأنـــام هـــدى ... وللمساكين غيثا دائـــم الهطـــل[17]

2- عمله بتونس والجزائر:

عاش الشيخ الهاشمي يتيما، تركه أبوه يافعا، فكان عليه - بعد أن أكمل دراسته - أن يشد الرحال نحو أي اتجاه، بحثا عن العمل، لسد رمق الجوع، بعد الحصول على لقمة العيش، في وقت ضنك، يتميز بالبطالة والإملاق. هذه الظروف أجبرت أمثاله على مغادرة أوطانهم، مثل شباب سوف الذين اتجهوا زرافات ووحدانا نحو البلاد التونسية، للعمل في مناجم الفوسفات والحديد بالمتلوي وقفصة والرديف وأم العرائس، حيث اكتشفت أولى المناجم المعدنية[18] عام 1885م بجبال قفصة وتمغزة، في عهد الاستعمار الفرنسي. وشرع في استغلالها حوالي عام 1897م. وقد ذهب الشيخ إلى المتلوي، لأن الاستعمار جعل من الصحراء قفارا، وممرا لقوافله العسكرية والتبشيرية في إفريقيا، من أجل التوسع والهيمنة. وقد قسمت الصحراء إلى أقاليم عسكرية، ونصب على رأس كل إقليم، ضابط برتبة عقيد Colonel يساعده في إدارته العسكرية ضابط برتبة نقيب Capitaine ويعاونهما عدد من القادة والقياد والشيوخ. هذا هو النظام الإداري في أبسط مظاهره. و لم يستثمر الاستعمار الصحراء، وعليه فإن الشباب لم يكن لهم أمل في إيجاد عمل إلا الهجرة. وهكذا توجه الشيخ إلى المتلوي في حدود عام 1918م، وانخرط في العمل في مناجم الفوسفات، واشتغل في المخبر لمدة عام وشهرين. وكان يرسل من هناك إلى جده حمولة جمل من زيت الزيتون والغاز والكربون لإيقاد المصابيح، وبعض المواد النادرة. ثم نكص على عقبيه، وقرر العودة إلى الوادي لسماعه بنبإ وفاة جده المزعومة.[19]

أعطاه جده مترلا في أولاد أحمد جعله مدرسة يعلم فيها الصبيان القرآن الكريم، من عام 1920 حتى عام 1930م. وكان يسهر ليلا مع الشيخ إبراهيم بن عامر، يتلقى عليه العلم مع ثلة من الأعيان.[20]

وقد كلف الشيخ إبراهيم تلميذه الهاشمي بمكاتبة الحاكم العسكري بتقرت وهو برتبة عقيد، عندما طلب من القاضي إبراهيم بن العربي عيساوي بأن ينصف بنات ابن الملوح في الدية المالية التي حصلن عليها من الدولة الإيطالية بسبب مقتل أزواجهن خطأ، والإغارة على إبلهن في حدود صحراء طرابلس، اعتقادا من إيطاليا بأن هؤلاء الرجال هم من الثائرين عليها، وتآمرت السلطات العسكرية في الاستئثار بنصيب كبير من هذه الدية. فكشف الشيخ خيانتهم للأمانة، وكاتب سلطات تقرت التي تدخلت إلى جانب المسؤولين العسكريين بالوادي، وكانت النتيجة هي نقل الشيخ إبراهيم إلى بلدة أولاد جلال يوم 31-12-1927م، وتنزيل رتبته إلى مرتبة عدل.[21]

هاجر الشيخ الهاشمي إلى الجزائر العاصمة عام 1930م بحثا عن العمل، وتيسر له ذلك في شركة النقل الحضري المعروفة باسم الترامواي، Tramway وهي وسيلة نقل جماعية تعمل بالكهرباء، حيث كان يشتغل قابضا، ثم صار مراقبا. وكان يقيم في مترل يقع في شارع العقيد بوقرة، القريب من الأبيار، وفي وقت الفراغ، كان يقدم دروسا في اللغة العربية، في مدرسة

الشبيبة بحي صالومبي (المدنية حاليا) Clos Salembier وفي المنازل. وكانت معظم دروسه مركزة على قراءة القرآن الكريم واللغة العربية من نحو وصرف، وعلى أصول الدين.(22)

وصادف الإعلانَ عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نادي الترقي، يوم 1931/5/5م، فانخرط فيها، واستفاد وأفاد، وشارك في الحركة التعليمية في نشأتها الأولى، عندما أخذت هذه الجمعية على عاتقها التكفل بإعادة الاعتبار للغة العربية، والحضارة العربية الإسلامية، المصادرة من قبل الاستعمار، منذ وطئت رجله أرض الوطن. فجاء على يدها بوادر ثورة ثقافية واعدة، عاشتها الجزائر في تلك الحقبة، التي امتدت من الحرب العالمية الثانية حتى اندلاع الكفاح المسلح، في الفاتح من نوفمبر عام 1954م.(23)

لقد استفاد الشيخ الهاشمي من احتكاكه بالعلماء كثيرا، وارتبط بصداقة متميزة مع الشيخ محمد العيد آل خليفة، أمير شعراء المغرب العربي بدون منازع. وعندما قام هذا الأخير بزيارة إلى مدينة الوادي عام 1967م، حيث مكث ثلاثة أيام لدى بنت أخته، المقيمة بحي القارة، راسله الشيخ، يلومه على عدم إخباره بهذه الزيارة، فأجابه الشيخ محمد العيد، بأنه كان مريضا، و لم يطل مكثه بالوادي، واعتذر له في رسالته التي أطلعني عليها.(24)

كما ارتبط بعلماء آخرين، كانوا أعضاء في الجمعية، مثل الشيخ حمزة بوكوشة، زميله القديم في الدراسة، والشيوخ: ابن باديس والإبراهيمي والطيب العقبي ومحمد الأمين العمودي. واكتملت بذلك ثقافته السياسية، التي ورثها مبكرا عن شيخه إبراهيم بن عامر، الذي كان يجمع بعد كل صلاة عشاء تلاميذه، فيدخلهم منزلا خاصا بندواته، ليلقي عليهم مسامرات حول السياسة، وأخبار المجاهدين في الحرب الليبية الإيطالية (1911-1912م)، أو الحرب البلقانية مع الدولة العثمانية عام(1912-1913م)، أو غير ذلك، وقد تتواصل هذه الندوات إلى منتصف الليل، مع شرب الشاي يوميا، وما يتبعه من كرمه الحاتمي، وكأنهم دائما في أعياد.(25)

كان ذلك بمثابة النبراس الذي أنار الطريق أمام الشيخ الهاشمي، والذي كان شبيها بشيخه إلى أبعد الحدود، ومن شابه أباه فما كذب.

كانت نظرتهما متقاربة في علاقتهما بالآخرين. وكان الشيخ الهاشمي ينتقد رجال الطرق، انتقادا لاذعا، بالرغم من أنه كان يتردد على زاوية سيدي سالم الرحمانية وشيوخها، شأنه شأن شيخه إبراهيم الذي كان ملازما للشيخ محمد الصالح.(26)

قدم خدمات جليلة في صفوف الجمعية والحركة الوطنية، وخاصة في دعم الملتقيات وتنشيط المحاضرات.

3- عودته إلى الوادي ودوره فيها:

عندما رجع الشيخ إلى الوادي عام 1938م، تزوج بابنة عمه سكينة بنت محمد بن الحاج عبد الله بن حميدة، وكان عمرها 14 سنة، فولدت له ولدا اسمه رشيد عام 1939م.

وعاد بصفة نهائية عام 1946 بتكليف من الجمعية حتى يقوم بالدور المنوط به في مسقط رأسه، وتقاعد متحايلا بتقديم شهادة طبية، تؤكد ضعف بصره، سلمت له من طرف طبيبة فرنسية. وبذلك فتح مدرسة قرآنية في حي أولاد أحمد سماها " مدرسة أولاد أحمد للقرآن"، وجعلها امتدادا لمدارس جمعية العلماء، فأضحت تستقطب إليها أفواجا من أبناء الوادي وغيره، يتعلمون فيها القرآن الكريم والتفسير ومبادئ اللغة العربية من نحو وصرف وتاريخ وجغرافية وحساب. يقدم هذه الدروس بأسلوب شيق جذاب. وقد تخرج على يده كوكبة كبيرة من التلاميذ،(27) تبوأوا مكانة مرموقة، فصاروا إطارات المستقبل للجزائر المستقلة، وكان هؤلاء متأثرين بشيخهم الذي ورثوا عنه نزعته الوطنية والإصلاحية.

إن الشيخ عمل جاهدا على إرساء دعائم النهضة العربية الإسلامية بالوادي، وكان دوما يقول: " كانت الثورات السابقة وطنية وحماسية، غير أن أثرها كان محدودا، لم يتحقق الهدف المرجو منها، وذلك لانعدام الدرع الواقي والمساعد من الشعب، كما تفتقر هذه الثورات إلى التموين المستمر، ولهذا يجب توعية الشعب والالتصاق به، لأنه العامل الأساسي لإنجاح الثورة، ومواصلة النضال، حتى يتمكن من الانتقال فيما بعد إلى العمل المسلح.

وهكذا يجب تعليم الشعب لغته ودينه وتوعيته، حتى تكون مساهمته منسجمة وفعالة. كما يجب التعامل مع العدو بحذر، وأن نتكيف مع المستعمر وفق ما تقتضيه الظروف حتى نحقق الهدف المنشود" وكان باب مدرسته بابا متواضعا بسيطا ورديئا، وعندما طلب منه تعويضه قال: إذا عوضته بباب جيد سيلفت النظر.

وهكذا طبق الشيخ الهاشمي منهجه في توعية الجيل الجديد تدريجيا، وتمكن من ترسيخ قواعد الإسلام في نفسه. ومن منا لا يعرف الشيخ، أو لا يسمع به، وبأسلوبه المتميز، ودروسه المتفوقة والمحببة. لقد علم بإخلاص وحماس منقطع النظير، وبأسلوب ذكي، وصريح وواضح، وبفكر وفهم متطورين ومتفتحين. وهذا ما أضحى يقلق السلطات الاستعمارية، فتعرض إلى صدمات وتهديدات، ونفي إلى الزاوية الكحلة الواقعة غرب غدامس حوالي عام 1947م، رفقة الهاشمي بن الحاج محمود ونيسي(28). وفي يوم الخميس01-4-1948خطب أمام جمهور من الناس شرق زاوية سيدي سالم بسوق الوادي، وقال للحاضرين: تقول العامة، عيشوا تحت جناح الذبانة ولا رقاد الجبانة، أي عيشوا تحت ذل الاستعمار الفرنسي. وقد كلفته هذه الحملة الانتخابية السجن مرتين، أي خلال عام 1948، فألقي عليه القبض وحوكم في باتنة بتهمة المس بالسيادة الفرنسية في الجزائر، ومكث في سجن لامبيز Lambèse أربعة أشهر.(29) وعند اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر عام 1954م، كان تلاميذه يخافون من كلمة الفلاقة، فقال لهم الشيخ: أنتم المعنيون بكلمة الفلاقة (أي الإخوة الثوار). وفي عام 1956م ألقي عليه القبض مرة ثانية، وقضى أربعة أشهر أخرى بسجن الوادي، رفقة الشيخ مصباح سالمي(1912-1997م) وبالقاسم بن مصطفى شكشاكة (عسيلة)(1922-1957م). وأضحى مسخرا للعمل في الجنان مع رفقائه.(30) وكان يحمل له تلميذه محمد بوقطاية

إلى السجن كسرة المطبقة التي تصنعها له زوجته سكينة، وعند خروجه من السجن، سأله تلميذه: هل تحب كسرة المطبقة كثيرا ؟ فقال له الشيخ: لا، فقال له تلميذه: كنت أحملها لك باستمرار حينما كنت مسجونا، فأجابه الشيخ: حقا، ولكن زوجتي كانت تدس في المطبقة رسائل تخبرني فيها بكل المستجدات حتى لا يتفطن العدو.(31) كما أخبرني عندما كان يدرسني في مدرسة الوسط، أنه كان يكتب الرسائل إلى المساجين بواسطة الأرقام التي ترمز إلى الحروف، ويجعل من هذه الرسائل مغلاقا لزجاجة حليب تقدم للسجين بواسطة الحارس. وهكذا يقع الاتصال بين الإخوة داخل وخارج السجن.(32) وقد كان يطلق سراح التلاميذ على الساعة الثانية إلا ربعا من كل يوم أحد، يبعثهم للملعب البلدي المجاور لمدرسته لمناصرة إخوانهم على الكفار كما يقول.(33) وقد التقى به العيد محمدي في رواق السجن في أواخر أكتوبر عام 1956م، وقال له: قيل بأن الرئيس جمال عبد الناصر(1918-1970) سيلقي خطابا هاما، فماذا ترى؟ فقال له: أمهلني حتى أفكر في الموضوع، وعند رجوعه من العمل في الجنان، أجاب الشيخ الهاشمي العيد محمدي بقوله: ليس هناك شيء أهم من تأميم القناة في مثل هذه الظروف. وفعلا تحقق تنبؤه بإعلان الرئيس جمال عن تأميم القناة.(34) وفي حواره مع بطايون Pierre Bataillon المسؤول السياسي تحت سلطة المتصرف الإداري شالومون، Chalumeau قال له بطايون: أحذرك بأن تشتغل بأولادك وبشؤونك الخاصة، فأجابه الشيخ الهاشمي: هل وجدت عندنا سلاحا؟ فرد عليه: أخشى من تحريضك الذي هو أخطر من السلاح. أما شكشاكة، فقال لبطايون: لماذا تحاسبنا وأنت أجنبي وافد من باريس؟ فأجابه: بالنسبة إلي، أعتبر نفسي هنا في أرض فرنسا.(35)

وكان الشيخ الهاشمي يوصف بالعصريوني، أي خارج عن المألوف، وهذا من قبل ذوي الأفكار المتحجرة والجامدة، الذين لا يقبلون المناقشة، ولا يواكبون المستجدات الحديثة. فهو عند خصومه يعتبر صاحب جرأة في إصدار الفتاوى. وقد حدث أن كان يتردد ليلا على منزل صديقه الشيخ مصباح سالمي ليدرس جماعة من الطلاب اللغة الفرنسية، ومن هؤلاء: الشيخ الصادق قديري، وعلي بن العزوزي بن موسى، ومصطفى سالمي. وأثار الشيخ الهاشمي مسألة تراءى من خلالها أنه يستخف بالإمام البخاري وبعض الأئمة الكبار، فطلب الشيخ العزوزي من ابنه الصادق قديري أن ينقطع عن الدراسة بعد مضي حوالي شهر. وفي إحدى المرات طلب الشيخ الهاشمي من الصادق قديري أن يلتمس الإفتاء من السلطة، فقال الصادق في نفسه إن هذا يسخر مني.(36) كما اتهم بأنه لعب دورا كبيرا في إثارة الشقاق بين أولاد العبيدي والشيخ إبراهيم بن عامر. والحق أقول أن الشيخ الهاشمي كنت لاحظته لا يسلم ولا يكلم الشيخ أحمد عندما يكون عائدا من المدرسة، مارا بمنزله، غير أني لم أسمع منه قط نقدا أو انتقادا أو انتقاصا من الشيخين الطاهر وأحمد بالرغم من طول المعاشرة التي دامت بيني وبينه، واستمرت أكثر من عقدين. وربما يعود هذا الهجران إلى الجفوة التي حصلت بينهما، بسبب طلاق الشيخ أحمد لعمته جمعة.(37)

كان يتصف بخفة الروح والمزاح الخفيف، كما كانت فيه دعابة، ومنها أنه قال لنا في إحدى الحصص الدراسية من باب التنكيت أن التارزي بن موسى الذي كان ضخم الجثة وأكول، لو قلنا له إن حاسي مسعود فيها بترول لقال لنا: هل البترول يؤكل؟(38)

4- علاقته مع الشعب:

كانت له علاقة مباشرة ومتينة مع الشعب، وخاصة مع المستضعفين منهم. فكان لهم الكاتب، والناصح، والواعظ، والإمام، والمعلم، والأب، والأخ، والصاحب، والمعاون. وهذا كله بدون مقابل مادي محدد.

كما لا تعوزه الشجاعة في التجمعات الشعبية، وفي ملإ من الناس بالقرب من قبة سيدي الحاج أحمد، بجوار الملعب البلدي، تكلم الشيخ عن دينه ووطنه بصراحة ووضوح، وكان يستدل دائما بالآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج...»، إلى آخر سورة الحج. الآية 76. ومثل قوله: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض. ونوري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». سورة القصص، الآية:5.(39)

5- علاقته بالزوايا:

كانت تربط الشيخ علاقة متينة مع الشيخ محمد الهاشمي الشريف(40) وأبنائه، وأبناء أخيه محمد الإمام(41)، الذي كان متزوجا بعمة والده. وكانت الزاوية القادرية بالنسبة إليه أهلا ومأوى في صغره. وكان يقول لنا أنه ينتمي إلى الطريقة القادرية، ويكشف لنا عن سبحته عندما يحتدم النقاش بينه وبين تلاميذه الطرقيين، وهذا لعمري يعد نوعا من التقية، تجعله في منأى عن الخصام والترهات.

أما علاقته بالزاوية الرحمانية(زاوية سيدي سالم) فحدث عنها ولا حرج، إذ كانت ممتازة جدا، وخاصة علاقته مع شيخ الزاوية محمد العزوزي بن محمد الصالح سالمي(1308-1392م) والشيخ مصباح، هذا الأخير الذي دخل معه السجن عام 1956م، بسبب وطنيته وتضامنه مع القضية الجزائرية.

كان يدعم الأعمال الدينية والخيرية للزوايا، غير أنه لم يكن - والحق يقال- مريدا، بل كان يجاهر بصوت عالٍ بمعارضته لكل ما يخدش مبادئ الإسلام، وخاصة ما يتعلق بالأفكار الخرافية، واعتقادات الأتباع المشعوذين، وكل ما يتعارض وروح العصر.

6- موقفه من قضايا العالم الإسلامي:

صار همه الوحيد هو تحرير شعوب البلدان العربية والإسلامية من الاستعمار، وهذا في كل من الاتحاد السوفياتي وآسيا وأندونيسيا وإفريقيا السوداء. وكان معجبا بأفكار شخصيات النهضة الإسلامية، كجمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، ومحمد رشيد رضا،

وعبدالحميد بن باديس. هؤلاء الرجال الأفذاذ، الذين عملوا على تحرير الفكر والنهوض بالأمة من كبوتها، وتعدت أفكارهم المجال الإقليمي الضيق إلى المجال العالمي الرحب.(42)

وبالتوازي لعمله اليومي في المدرسة، كان يستقبل المواطنين في بيته، سواء للاستشارة في شؤونهم الخاصة، أو لطلب تحرير الرسائل والعرائض. إذ كان يكتب العرائض العدلية والقضائية، باللغتين العربية والفرنسية على حد سواء، وهذا لفائدة المواطنين، دون اعتبار لما يدفع له من مقابل مادي. وكان همه الوحيد، هو وضع معلوماته وتجاربه وكفاءته العلمية في خدمة مآرب الأمة.

كما كان يرافع لدى المحكمة في قضايا المواطنين الذين كانوا يقصدونه زرافات ووحدانا، وكان يستقبلهم بصدر رحب، دون تمييز بينهم.

7- علاقته مع الإدارة الاستعمارية:

عاش الشيخ الهاشمي منذ عودته إلى الوادي مشاكل عديدة أثناء وقبل الثورة، وذلك بالنظر إلى مواقفه الحاسمة تجاه الاستعمار، الذي كان يرغب في التقرب ممن هو على شاكلته، حتى يجعل منه عينه الساهرة على كل ما هب ودب، ويزوده بالمعلومات حول الحركة الوطنية، والقبض على رجالها، والزج بهم في السجون وتعذيبهم. غير أن الشيخ لم يكن من هذا الصنف المأجور الرديء، حيث أن تربيته وفطنته ونزاهته ووطنيته لا تسمح له أن يكون بيدقا لدى الإدارة الفرنسية، وهذا ما سبب له المتاعب، وجلب له المصاعب، فصار تحت أعين الرقابة العسكرية، ثم ألقي عليه القبض وسجن مرتين، قبل وأثناء الثورة، غير أن إرادة الله حاضرة، تكتنفه برعايتها، فتتدخل لصالحه، فينجو بأعجوبة، ويفك قيده، مع إبقائه دائما تحت رصد المخابرات . ولولا رعاية الله ولطفه، ولولا يقظته وفطنته، وسحر بيانه، وقدرته على الإقناع والاقتناع، وقوة حجته، لكان من المحكوم عليهم بالإعدام في مجازر 04 رمضان من عام 1376هـ /04-4-1957م.(43)

كان الشيخ يستدعى للمباحث سواء من قبل السلطات المدنية برئاسة بيار بطايون Pierre Bataillon، أو من طرف السلطات العسكرية بقيادة فوازار فارياش Voisard Wariesh. وكان يجابههم بشعارهم الذي رفعته الثورة الفرنسية عام 1789م، ويقول لهم: أين مقولتكم التي نادت بها ثورتكم، وهي: الحرية والمساواة والإخاء؟ (Liberté–Egalité–Fraternité) ويردف قائلا: أنتم علمتمونا الفرنسية، وأنتم تبيعون لنا صحفكم وتقولون لنا اصمتوا.(44)

أحضر الشيخ من جديد عام1959م من قبل مصالح المخابرات (المكتب الثاني العسكري) 2è Bureau بقيادة الضابط الشاب ابن ماكس لوجان،(45) Max Le Jeune وزير المستعمرات، وأجبر على أن يشترك في الحملة الأولى للانتخابات البلدية(46) التي أجريت في05-4-1959م(47)، وعندما خاطب المعمر روبيسكي(48) Robuschi Marcel الجمهور في قرية تكسبت، تلاه الشيخ الهاشمي، فقال: هذا جعل لكم مخمرة، وأنا فتحت لكم مدرسة، وانظروا ماذا ترون؟ غير أن الانتخابات زورت، ونجح روبيسكي ومن معه في الوادي

وتكسبت، فأصبح المستشار العام للبلدية، وهي انتخابات أنشأها النظام الديغولي، من أجل تكوين قوة ثالثة[49] Troisième force، في إطار حملة بسيكولوجية شنها على الثورة لعرقلتها، وصرف الشباب عن الالتحاق بصفوفها، بعد أن خسر الحملة العسكرية. غير أن ذلك لم يكن مجديا، لأن الشعب تعلق بالاستقلال، فكان على الشيخ ومن على شاكلته أن يقبل أو يتعرض للاستنطاق أو السجن وما إلى ذلك. مع العلم أن الإدارة الفرنسية متأكدة من أن الشيخ الهاشمي ليس له في هذه الانتخابات لا ناقة ولا جمل. ومع ذلك فقد تعرض لمضايقات شتى، من قبل الحاكم العسكري فوازار Voisard Wariesh، الذي حكم من عام 1954 حتى عام 1960م، رفقة بطايون(1950- 1960م)،Bataillon. ذلك الضابط المغرور بطول قامته وضخامة هيكله العظمي، ذو الأصول الجرمانية، الذي يتمتع بجميع السلطات التي تمكنه من التعامل مع الوطنيين كيفما شاء، دون حسيب أو رقيب. وكان هذا الضابط من ألد أعداء الثورة. عايش جميع المعارك الكبرى التي وقعت في ناحية سوف، بدءا بمعركة غوط شيكة[50] التي دامت ثلاثة أيام، أي في 8 و9 و10 أوت من عام 1955م بقيادة حمه الأخضر، والتي ذاق فيها الاستعمار أبشع الهزائم، حيث جاء جاك سوستال[51] Jacques Soustelle شخصيا لمعاينة الخسائر. كما شهد معارك أخرى مثل معركة الدبيديي بالرباح في 15- 01-1956م وغيرها. فأحدثت في نفسه حقدا عنيفا تمثل في أحداث مجازر رمضان عام 1957م الشهيرة. استدعاه هذا الضابط في ثكنته، للمثول أمامه واستنطاقه، بتهمة التحريض وإحداث البلبلة. وكان ذلك بإيعاز من روبيسكي. بيد أن الشيخ بحنكته وحسن تدبيره، غير مجرى الأمور إلى جانبه. وما كان على هذا الضابط المتعجرف، إلا أن وضع سلاحه، وأقر بهزيمته، أمام قوة الشيخ في إقناع خصمه، فأحلى سبيله. ومثل هذا الموقف، يندر حدوثه وتقبله من طرف الاستعمار الذي لا يقترف سوى التعذيب والتنكيل أثناء الاستنطاق.[52]

8- دوره بعد الاستقلال:

بعد حصول البلاد على استقلالها عام 1962م، كان عمر الشيخ ستين سنة، ورغم ذلك نراه لا يألو جهدا في أن يتبوأ منصب معلم في المدرسة الجزائرية، مثل الشباب الطامحين، سنده في ذلك القول المأثور(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا). أحدث الشيخ هزة عنيفة في الأساليب التقليدية في طريقة التحصيل، فصار يلقن طلابه وفق الأساليب العصرية، وبكيفية شيقة، قلما نلاحظها لدى غيره من المدرسين، ولاسيما في عصره. كما أحدث نهضة فكرية واجتماعية رائدة. إذ كان يلقننا الدروس في مختلف المواد، من لغة وتاريخ وفرنسية وإملاء وإنشاء ومحفوظات. كما كان يعرفنا على أنواع الموسيقى، والأوزان الشعرية. بل، وللتاريخ أشهد، أنني كنت أحظى لديه بمكانة متميزة على أقراني، إذ كان يخصص لي جزءا من السبورة، يقدم لي فيها دروسا خاصة في النحو، وذلك لتفوقي الملحوظ في هذه المادة على زملائي. ويكلفني في كثير من المرات بإعراب جميع النص المكتوب

على السبورة، فكنت أحضر نفسي بالرجوع إلى كتاب النحو الواضح بجميع أجزائه، كما أعود إلى الكفراوي في إعراب متن الآجرومية، والأزهري في شرح الأجرومية. هكذا كنت أحضر نفسي استعدادا لما قد يطلبه مني شيخي وأستاذي وملاذي الشيخ الهاشمي، الذي تأثرت به كثيرا. كما كان يزودني بالكتب التي يراها هو مناسبة لي، أو التي أطلبها منه، مما جعلني أواصل دراستي إلى نهايتها، وأشهد أنه لم يطلب مني أبدا إرجاعها، إلا عندما أعيدها وحدي، ولو بقيت عندي أعواما. وللتاريخ أذكر أني ذهبت إليه في أحد الأيام أستعير منه كتاب تاريخ الجزائر العام للشيخ عبد الرحمن الجيلالي، متوسطا لقائد القطاع العسكري(53)، الذي كان مهتما بالتاريخ، وعندما يئست من إعادته بعد مدة طويلة، اشتريت له الكتاب وأرجعته إليه دون علمه.

كان أثناء إجراء الامتحانات الرسمية يعمل على تقديم يد المساعدة للتلاميذ الذين هم في حاجة ملحة إلى ذلك، وهذا نظرا إلى المستوى المتدني في اللغة العربية، والخوف على هؤلاء من الرسوب أو الطرد.

وكان يرتدي اللباس التقليدي من عمامة وجبة وسروال، وكان يشفق عنا لارتدائنا اللباس الإفرنجي على اعتبار أنه غير مناسب، ولا يتلاءم مع مناخ المنطقة.

ومن الطرافة أقول، إنه كان يلقننا درسا في علم(الفياقة)(54)، فيعرض علينا نماذج من مواقف الناس الرعناء، وينبهنا إلى طرق التخلص منها، ويعطينا الحلول المناسبة، فرسخت في أذهاننا هذه النصائح، وترسبت في نفوسنا، فكانت لنا بمثابة المشكاة، التي أنارت لنا الطريق، للتخلص من عبث العابثين، ومكر الماكرين.

واصل الشيخ مشواره التعليمي، فتقدم إلى إجراء الامتحان التطبيقي، في سلك الممرنين خلال السنة الدراسية 1966-1967م. وكان رئيس لجنة الامتحان المفتش إسماعيل عمراني، أحد تلاميذه القدماء، وكان النجاح حليفه، مما جعل عنقه تشرئب نحو التطلع للمزيد من الانتصارات والتفوق، فتقدم مرة أخرى لخوض غمار امتحان شهادة الأهلية، ولم يظفر بالنجاح مرة، لاحتواء الامتحان على مادتي الجبر والهندسة، اللتين لا يحسنهما الشيخ، اعتبارا لتعليمه التقليدي، الذي ورثه عن شيوخه القدماء، ومع ذلك أسعفه الحظ، ونال هذه الشهادة يوم 18-10-1967م، فارتقى إلى صف الأساتذة، في مادة اللغة العربية، في متوسطة ابن باديس بالوادي، وسمي أستاذا بالأقدمية، وهذا ابتداء من أول أكتوبر 1964 حتى 31 ديسمبر 1979م، وترسم بعد حصوله على الأهلية، حتى تقاعد في فاتح جانفي1980.(55) وبالرغم من ذلك، ما فتئ يواصل نشاطه المعهود، فكان يكتب للمواطنين الرسائل والشكاوى، ويحرر العرائض، ويعين الناس على قضاء حاجاتهم، ويتوسط لطلابه القدماء، إذا لاذوا به، لدى أصحاب النفوذ من معارفه وتلاميذه. ومن ذلك أني التجأت إليه يوما، للتوسط لدى مدير ثانوية عبد العزيز الشريف، الأستاذ مصباح مصباحي، لمساعدتي

في إيجاد منصب بالثانوية(56)، فأحالني هذا الأخير على مدير ثانوية طريق توزر (سعيد عبدالحي)، لانعدام المنصب عنده، فوافق على ذلك، ونجحت المحاولة. وإليك نص الرسالة:

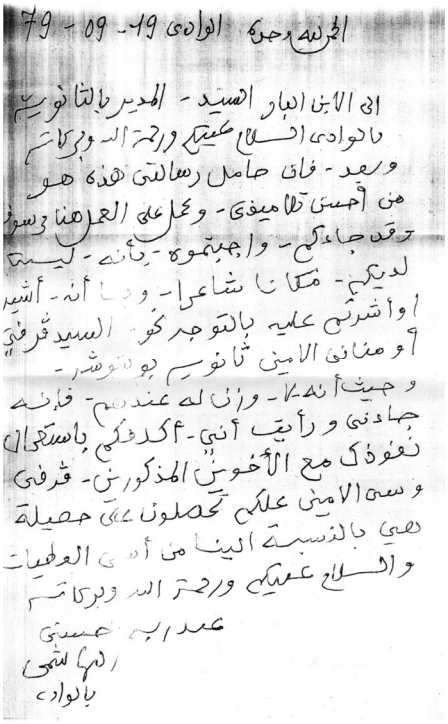

الحمد لله وحده الوادي 19-09-79

إلى الابن البار السيد المدير بالثانوية بالوادي. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد- فإن حامل رسالتي هذه هو من أحسن تلاميذي- وعمل على العمل هنا في سوف وقد جاءكم- وأجبتموه- بأنه ليست لديكم- مكانا شاغرا- وبما أنه- أشير أو أشرتم عليه بالتوجه نحو- السيد قرفي أو منافي الامين ثانوية بوشوشة- وحيث أنه- لا وزن له عندهم- فإنه جاءني ورأيت أني- أكلفكم باستعمال نفوذك مع الأخوين المذكورين- قرفي وسي الأمين علكم تحصلون على حصيلة هي بالنسبة إلينا من أسمى العطيات- والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد ربه حسني

الهاشمي

بالوادي

هكذا كان يتعامل مع تلاميذه، يخدمهم ويساعدهم حتى آخر رمق من حياته. فجزاه الله عنا خير الجزاء، وأجزل له حسن الثواب.(57)

9- نشاطه الثقافي في دكان محمد الصالح الخياط بسوق الوادي:

كان يتردد يوميا على دكان محمد الصالح(58) (1921-1999م) بن محمد ساسي، هذا الدكان البسيط، الواقع شمال غرب سوق الوادي، والذي لا تتعدى مساحته (2,5م × 3م) أضحى مع مرور الزمن منتدى، يجمع ثلة من الناس، لتبادل الآراء، حول ما يستجد في العالم من أحداث، خاصة منها الأحداث السياسية. وكان هذا الدكان مجاورا لدكان آخر قريب منه، يجمع بدوره علماء ومستمعين ومستفتين، يفدون من كل حدب وصوب، للاستفادة والإفادة غير أنهم بخلاف جماعة الدكان الأول، ينتمون إلى الطرق الصوفية، ولم يكن هناك اتصال بين الفريقين، ولعل ذلك يعود إلى اختلاف المشارب، بل أؤكد بأن الطائفة الأولى، تنتمي للحركة الإصلاحية، أما الطائفة الثانية، فتنتمي للحركة الصوفية. والحق أقول، بأنه لم يسجل مرة حدوث أي صدام بين الجماعتين، رغم الجوار والاختلاف، وهذه- لعمري- هي الديمقراطية الحقة.

كانت فترة الستينيات وما سبقها، تعج بالأحداث الجسام، التي غيرت وجه الخريطة السياسية للشرق والغرب على حد سواء، كما كانت مرحلة هامة في تحرير الشعوب واستيقاظها من سباتها. ومن هذه الأحداث:

– انتهاء الحرب العالمية الثانية وتداعياتها في 08-5-1945م.

– حصول بعض البلدان العربية على استقلالها مثل: سوريا ولبنان عام 1946م، والأردن عام 1948م.

– قيام دولة إسرائيل في 14-5-1948م، برئاسة دافيد بن غوريون David Ben Gourion

– اندلاع حرب كوريا عام 1950-1953م.

– قيام ثورة الضباط الأحرار بمصر يوم 23-7-1952م بقيادة الباكباشي جمال عبد الناصر(1918-1970م)، واللواء علي محمد نجيب(1901-1984م)

– اندلاع الثورة الجزائرية في 01-11-1954م ، بعد هزيمة فرنسا في معركة ديان بيان فو، Diên Biên Phû بشمال الفيتنام، والتي دامت 55 يوما (من 13 مارس إلى07ماي1954م).

– حصول كل من المغرب وتونس على استقلالهما، على التوالي: 03 مارس و 20 ماي من عام 1956.

– اعتقال الزعماء الخمسة الجزائريين، في 22 أكتوبر عام 1956م، وهم: حسين آيت أحمد– محمد بوضياف – محمد خيضر– أحمد بن بلة – مصطفى الأشرف.

– هجوم العدوان الثلاثي على مصر، في 29 و31 أكتوبر 1956م ، بعد قيام الضباط الأحرار بتأميم قناة السويس في 26-7-1956 .

– قيام الجمهورية الفرنسية الخامسة، برئاسة الجنرال ديغول في 09-01-1959م، بفعل ضربات الثورة الجزائرية.

كل هذه الأحداث وغيرها، كانت تشكل مادة للبحث، على غاية من الأهمية. وكان الشيخ يحضر باستمرار وانتظام، إلا إذا شغله شاغل. وكان يتروي في ركن من أركان الدكان ويجلس حوله المنصتون، فيطلب منهم الشيخ سرد ما سمعوه من أخبار، ثم يتدخل في النهاية، ليعلق على الأحداث المعروضة عليه، بأسلوبه المتميز، على أساس الإقناع والاقتناع، وهكذا دواليك.

كان فصيح اللسان، قوي الحجة، يتصف بالجد مع التواضع، مرحا، بشوشا، سريع البديهة، ذكيا جدا، محيطا بكل مجريات الأحداث، وهذا راجع إلى علاقته الطويلة بالميدان السياسي، ومستواه الثقافي المزدوج والمتفوق في آن واحد. كان إنسانا اجتماعيا بطبعه، يحب الناس ويحبونه، إلا ما ندر من الخصوم والمخالفين له في الرأي، وبالرغم من ذلك، لم نسمع أبدا أنه اصطدم بأحد. كما كان حريصا على الالتقاء يكره العزلة والانفراد.(59)

10- أداؤه لفريضة الحج ثم وفاته:

ذهب لأداء فريضة الحج يوم 15 نوفمبر من عام 1977م، وبعد إتمام مناسك الحج والعمرة، عاد إلى الوادي يوم 15 ديسمبر من نفس العام.

وهكذا كانت أيامه كلها جهادا وجلادا، إلى أن بدأ يفقد الذاكرة في نافلة العمر، ومع ذلك، كان رفقاؤه ومحبوه يزورونه في بيته، فيستقبلهم، ويقدم لهم الشاي، وما رافقه من إكراميات، ولا ينبئك مثل خبير.

أصيب الشيخ بمرض عضال، لازمه مدة تقارب العامين، فنقل للعلاج بمستشفى عين النعجة، بالجزائر العاصمة، وأجريت له عملية جراحية، غير أن أجله المحتوم وافاه هناك، فتوفي في آخر يوم من فصل الخريف، يوم الثلاثاء 29 ربيع الثاني 1410هـ/ 28نوفمبر1989م، عن عمر مليء بالنشاط، يناهز87 عاما. ودفن بمقبرة أولاد أحمد، في الجهة الشمالية الغربية منها. رحمه الله رحمة واسعة، ولا شك أنه من الذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون. أجزل له الأجر والثواب.(60)

11- نموذج من نثر الشيخ الهاشمي يتعلق بتقديمه لكتاب شيخه إبراهيم بن عامر «الصروف في تاريخ الصحراء وسوف »

عاش شيخنا المرحوم، سيدي إبراهيم بن عامر، ظرفا كان فيه ثائرا ومعلما ومناضلا. ظرفا كان فيه الوحيد، يواجه عدوا ليس متمثلا في الاستعمار فحسب، بل كذلك فيمن يحسبون أنفسهم من علماء الإسلام، في ذلك العصر. هذا بالإضافة إلى ما كانت عليه منطقة سوف، من ظلمات التأخر، ومن الانحراف الديني والاجتماعي.

خرج الشيخ إبراهيم إلى دنيا العمل، وقد أتم دراسته بتونس، فوجد منطقة سوف ونواحيها، ترضخ لحكم استعماري عنيف، مكبلة بنظام عسكري شديد، قوامه السيطرة على العقول، وإخضاع النفوس، وبث الشقاق والتفرقة بين القبائل، بل بين أفراد العشيرة الواحدة، أو الأسرة الواحدة، ولم يكن حينئذ من وازع، ولا قبس للدين، إلا ما يجيده البعض من تلاوة القرآن، فضربت الجهالة أطنابها، وكادت تسود أخلاق الجاهلية الأولى كامل منطقتنا.

فكان اختطاف الفتاة قصد التزوج بها، رغم إرادة أهلها وذويها، إذ يذهب الشبان فيختطفون أو يفتكون الفتاة، ثم يسيرون بها إلى حيث يريدون، من الزوايا أو أسرة أحد الوجهاء، فيودعونها بها، إلى أن يرضخ أب الفتاة أو وليها، لعقد زواجها بمن شاءها، خوفا من الفضيحة والعار. وأذكر أن أولى صرخات الشيخ إبراهيم، كانت لمحاربة هذه الظاهرة الشنعاء، والعادة النكراء.

وكان التنافر والتناحر بين القرى والعشائر، بحيث لا تكاد تخلو عندهم مناسبة من المناسبات، أو موسم من المواسم، من التصادم والتقاتل بالعصي والدبابيس وحتى بالخناجر، إذا ما احتدم الخصام، واشتد النزاع.

وانقسام الأهالي فيما بينهم، واختلافهم باختلاف الطرق، ما بين قادري وتجاني ورحماني وعلوي وغيرها، مع تضارب أهداف هذه الطرق، وتباين مشاربها.

وأخيرا انغماس الشبيبة انغماسا كليا، في اللهو والخمر والميسر، وما إلى ذلك من المحرمات التي لم تلق صوتا يوقف انتشارها، ولا ناهيا يزيل خطبها.

ذلك هو جانب من الوضع الذي كانت عليه المنطقة، يوم أن ظهر المؤلف على مسرح الحياة، يوم أن برز وحده إلى الميدان، رافعا صوته عاليا، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، لا يبالي بغضب الغاضبين، ولا بسخط الساخطين.

رفع صوته لإصلاح ما كان فاسدا، وقد رسم لكفاحه خطته، المستوحاة من ذكائه الوقاد، فذهب رحمه الله، يجمع الناس حوله، بعنوان مسامرات دينية، ودروس في تفسير القرآن، أو شرح سيدي خليل(61)، وذلك يوميا، بعد صلاة المغرب، بجامع النخلة بحي أولاد أحمد.

كانت مسامراته ودروسه مركزة على التوعية، وإيقاظ الضمائر، فاستطاع بفضل ما جبل عليه من فصاحة وصراحة، أن يجمع حوله الكثير من الأتباع، بل قلما كان يتخلف من أهل الوادي، عن دروسه والاستفادة من تعليماته. وتوصل بفضل ما عرف به من شجاعة أدبية، وغيرة وطنية، أن يهدي الله على يديه خلقا كثيرا.

لم يقتصر نشاط الشيخ في نشر التوعية، عن مسامراته الليلية. بل اقتضى بعد نظره، اتخاذ الطرق، أعني الزوايا باختلافها، وسيلة أخرى لبلوغ هدفه، لأن الزوايا في ذلك العهد، كانت الرباط الوحيد للدين، ولأنها تضم العديد من طلاب القرآن، لذا، فكر الشيخ في ربط صلته بها جميعا، والانتماء إليها دونما تحيز.

فقد ولد الشيخ إبراهيم عام1881م، في أسرة تجانية. إذ كان أبوه محمد الساسي تجانيا. ومن عجائب الصدف أن ظرفا من الظروف، جعلت الشيخ ينتقل مع أمه إلى أسرتها القادرية، بأولاد أحمد، وفي مترل بالشارع الرئيسي، الذي كانت تمر به مواكب الطريقة القادرية، فكانت تلك فرصة، جعلته يربط صلته بالطريقة المذكورة، وبذلك أصبح الشيخ تجانيا قادريا.

بقي له حينئذ أن يتعرف على الزاوية الرحمانية، أعني زاوية سيدي سالم، فتم له ما أراد، حينما عبر في كتابه(البحر الطافح)(62)، عن إعجابه بالشيخ سيدي محمد الصالح، رئيس الزاوية إذاك. أعجب به، لأنه كان يدير معهدا، يضم زهاء السبعين طالبا، من الشاوية والنمامشة، تتولى الزاوية إيواءهم، وتعليمهم القرآن، والإنفاق عليهم. أضف إلى ذلك، عدد الطلاب المحليين. ولا غرو أن تكون أريحية الشيخ إبراهيم في ذلك، لائقة بتلك الانفجارات، التي جاءت له في كتابه (البحر الطافح). فالحقيقة التي كان يحوم حولها كلام الشيخ، هي حقيقة الإسلام، المنحصرة في النبع الصافي، الذي سرى بأرض واسعة من الجزائر، على هدي القرآن إلى أن جاء نصر الله.

اتخذ الشيخ رحمه الله، هذه الزوايا وسيلة، للتذكير بالمبادئ الإسلامية، وإحياء اللغة العربية، التي آلت إلى زوال، بإعراض الناس عنها، وإقبالهم على اللغة الفرنسية. فعلت صرخته من أجل

ذلك في دروسه، ومن خلال كتاب (الحيارى وتحذير المسلمين من تعليم أولادهم في مدارس النصار).

كان الشيخ إبراهيم، من جلساء شيخ الزاوية، والمدير والمعلم. وكانت اللغة التي اختارها لجلب الجماهير، لغة القرآن والدين، إلى أن كون لنفسه صفا، انضم إليه المئات من الزقم والبهيمة وحسي خليفة وعميش، وغيرها. وبذلك علا صوت القرآن، وانتشر في الآفاق. وتكونت طبقة من الشبان المثقفين، وجمع كبير من المتفقهين.

وأذكر أيضا أنه كان – رحمه الله– يخرج بعد كل عشاء من داره، فندخل معه منزلا خاصا بندواته، ليلقي علينا مسامرات حول السياسة وأخبار المجاهدين، بحرب طرابلس ضد الطليان، أو حرب تركيا مع البلقان، أو غير ذلك. وقد تتواصل هذه الندوات إلى منتصف الليل. وكان شرب التاي يوميا وما تبعه من كرمه الحاتمي، وكأننا دائما في أعياد.

أما نضاله داخل المحكمة الشرعية، فقد ألبس المحكمة ثوبها الحقيقي فنظم الأحكام، وطبق كل شيء حسب الفقه الإسلامي، لاسيما مذهب الإمام مالك. كما كان المرجع والمفتي في جميع القضايا. وإن حادثة الأرامل اللواتي قتل أزواجهن، وأغير على إبلهن في حدود صحراء طرابلس، وتآمر الحكام العسكريون عندنا إذاك على الاستئثار بجزء كبير من الدية المالية التي أرسلتها الحكومة الإيطالية لأرامل المتعدى عليهم، ثم وقوف الشيخ في وجه المتآمرين، وكشف خيانتهم للأمانة، لأكبر شاهد على نصرته للحق والعدالة، ودفاعه عن مصلحة الضعفاء، وبغضه للظلم والظالمين.

حلت أخيرا بحياة الشيخ فترة، فقد أثناءها نخبة من أنصاره. مات فيها صهره الشيخ محمد العربي(63)، ومات الشيخ محمد الصالح عام 1918م،(64) والشيخ عبد الرحمن العمودي.(65) ورحل الشيخ البشير بوكوشة(66) إلى بسكرة، فبقي الشيخ إبراهيم وحده، يعالج الظروف، ليرضي ربه وضميره. واستمر في صراع مع الأوضاع، إلى أن أبعد تماما إلى بلدة أولاد جلال، ثم إلى تقرت، وبها أصيب بمرض أودى بحياته.

وأخيرا أقول، كانت أيام الشيخ إبراهيم كلها جهادا وجلادا. ومع الأسف، لا يسمح لي المقام بالتعرض إلى تفاصيل مواقفه البطولية، ولا بذكر أمور تدعو إلى الإعجاب، خصني بالاطلاع عليها، لأن المطلوب هنا الاختصار.

فرحم الله أستاذي وشيخي إبراهيم بن عامر، رحمة واسعة، ولا شك أنه من الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.(67)

حسني الهاشمي أستاذ اللغة العربية بوادي سوف

الخاتمـــة

ومما سبق نستنتج أن الشيخ الهاشمي:

– قد قام بدور رائد في ميدان التربية والتعليم لمدة ستين عاما، وتخرجت على يديه أجيال تبوأت مناصب عليا سواء أكانت إصلاحية أم سياسية أم ثقافية أم تربوية.

– ساهم مساهمة فعالة في الحركة الإصلاحية الجزائرية بعد انخراطه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعرض نفسه لأذى المعارضين له.

– كان واسع الاطلاع على قضايا العالم الإسلامي، وكان همه هو تحرر الشعوب العربية والإسلامية من براثن الاستعمار الغاشم.

– كانت له تنبؤات غالبا ما تحققت مثل تنبئه في قضية تأميم قناة السويس عام 1956م.

– كان يتصف بالفطنة وقوة الحجة وسرعة البديهة، ولولا ذلك لكان في عداد شهداء مجزرة 04 رمضان 1376هـ/04-04-1957م.

– كان مسبلا نفسه في الدفاع المستميت عن قضية وطنه العليا، وسجن مرتين، قبل وأثناء الثورة، وترشح للانتخابات البلدية عام 1959م لترجيح كفة الوطنيين، بيد أن الإدارة الاستعمارية قد قامت بتزوير النتائج لفائدة بيادقها.

وهكذا تتجلى لنا مواقف الأبطال الذين قلما يجود الزمان بمثلهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا.

الهوامش

1- حسبما ورد في نسخة من الدفتر الأصلي لشهادة الميلاد رقم 6214 مؤرخة في31-01-2007.

2- تقع في دائرة بئر مقدم التي تفصلها عن مدينة الشريعة حوالي 10 كم. تسكنها قبائل التكاكة وهم فرع من النمامشة.

3- ولد محمد الأمين بن محمد الإمام، بالوادي خلال عام 1890م. دخل الكتاب وحفظ القرآن على يد الحاج أحمد عسيلة. كان على خلاف كبير مع ابن عمه الشيخ عبد العزيز في موقفهما من الثورة. أدى فريضة الحج عام 1929م، ثم مات مقتولا عام 1955م، في خنقة تامغزة بتونس بتهمة الدعاية ضد الثورة. ودفن بجوار جده سيدي إبراهيم بنفطة.
مقابلة شخصية مع الإمام الشريف(ابن المترجم له، ومجاهد متقاعد) بمنزله بالوادي يوم الجمعة 15-6-2007 م، على الساعة 10 و30 د.

4- الشيخ إبراهيم بن عبد القادر بن علي بالقائد الحمدي(قائدي). ولد خلال عام 1877م في قرية طريفاوي. درس القرآن الكريم في جامع النخلة بحي أولاد أحمد منذ عام 1898م حتى وفاته عام 1943م. سكن في حي أولاد أحمد قريبا من جامع النخلة. توفي بالوادي، ودفن في مقبرة أولاد أحمد.
مقابلة مع العربي حمدي تلميذ الشيخ، يوم الجمعة 22- 02- 2008، على الساعة 11 و30 د بسوق الوادي. ومقابلة مع صالح مصطفاوي، تلميذ المترجم له، يوم الثلاثاء 29-4-2008 على الساعة 17 و 30 د.

5- علي غنابزية: بيوت عامرة، إذاعة سوف، الوادي، سبتمبر2003.

6- الشيخ محمد بن عبد القادر بن محمد بن الجديدي، ولد بالوادي خلال عام 1882م. اشتهر بغزارة العلم والذكاء الحاد، وسرعة الالتقاط والبديهة، بالرغم من أنه كان كفيف البصر. كان يحفظ الصفحة الكاملة عن

ظهر قلب وفي أسرع ما يمكن من الوقت. وكان يقول(شرف العلم أقوى من شرف النسب). علم بزاوية سيدي سالم، وكان يتردد على زيارة بلدتي تقرت وتماسين. ومكث مدة طويلة يعلم في زاوية تماسين، وقد تخرج على يديه مجموعة من العلماء أشهرهم: الشيخ أحمد الذي تولى مشيخة الزاوية التجانية مدة 40 عاما. تتلمذ عليه الهاشمي حسني الذي درس عليه العاصمية(متن يتعلق بالأقضية والأحكام) والتفسير، وأيضا محمود بن محمد القروي. توفي بتماسين ودفن بها خلال عام1937م.

انظر: مقابلة شخصية مع رشيد حسني(ابن المترجم له) بمنزله، بحي أولاد أحمد، بالوادي يوم 05-6-2007، ومقابلة مع الشيخ أحمد خراز يوم الجمعة 25-4 -2008 على الساعة 6 و30 د.

7- إبراهيم بن عامر(1875- 1932م) ولد بحي المصاعبة بالوادي عام 1292هـ/1875م. درس على يد الشيخين: عبد الرحمن العمودي ومحمد العربي بن موسى مبادئ اللغة والفقه، ثم نصحه الشيخان بالتوجه إلى تونس لمتابعة الدراسة بجامع الزيتونة، وهناك درس على يد كوكبة من العلماء الأفذاذ، ثم رجع إلى مسقط رأسه، وسكن بجوار منزل جده من الأم بحي أولاد أحمد. شارك في امتحان العدل بمجلس تقرت عام1905م ثم بدأ العمل بالمحكمة الشرعية بكوينين، بقرار حكومي يوم 14-11- 1910م بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في جامع السوق وجامع النخلة بأولاد أحمد. تخرج عليه ثلة من العلماء منهم: الشيخ الأزهاري الحرزولي والمترجم له. حول إلى بلدة أولاد جلال يوم 31 -12-1927م، لسخط الإدارة الاستعمارية عليه، وتتلمذ عليه هناك الشيخ نعيم النعيمي والشيخ زهير الزاهري، ثم حول إلى تقرت في مارس 1930م، وعندما مرض، رجع إلى الوادي فتوفي فيها مساء يوم الأربعاء 14 ربيع الأول عام 1351هـ/20 جويلية 1932م بسطح منزله، ودفن في الجهة الجنوبية من مقبرة أولاد أحمد بالوادي.

انظر: حسني الهاشمي، نبذة من حياة المؤلف ص 12 في كتاب الصروف للشيخ إبراهيم العوامر. حمزة بوكوشة: تمهيد ص19-20 في كتاب الصروف للشيخ إبراهيم العوامر. ارجع أيضا إلى:

Dossiers du personnel de la justice Musulmane . C.0175,T.S. ANA.

8- ولد الشيخ الأزهاري الحرزولي(1903-1986م) بن الطالب صالح بن أحمد بالوادي خلال عام 1903م. كان أبوه تاجرا وخياطا وطالب قرآن ومستمعا. ساعده الشيخ الأزهاري في عمله، بعد أن قرأ القرآن في زاوية سيدي سالم على يد الشيخ العيد بن أحمد بن بكار. وعندما أتم حفظه، واصل دراسة اللغة العربية والفقه على يد الشيخ إبراهيم بن عامر، ثم الطاهر العبيدي وأخيه أحمد وعثمان بن حميدة ، ومحمد بن حمد النفطي. ثم توجه إلى جامع الزيتونة عام 1932 - 1933م، هروبا من والده لمتابعة الدراسة، ولكنه عاد إلى الوادي، ثم رجع إلى تونس، ليمكث فيها سنتين ثم يعود ليقوم بالتدريس متطوعا في جامع أولاد خليفة وجامع السوق. وبعد الاستقلال، عين إماما ومدرسا بجامع ضواي روحه بالوادي. كان يدرس النحو والفقه المالكي، مثل: رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومتن الشيخ خليل. وكان يحفظ ألفية ابن مالك. وافاه أجله المحتوم ليلة الجمعة 27 صفر من عام 1406هـ/31-10-1986م، عند منتصف الليل، ودفن بمقبرة الأعشاش بالوادي.

مقابلة شخصية مع مسعود الحرزولي بن الأزهاري يوم 27 - 06 -2007 م بجامع سيدي سالم بالوادي، على الساعة 10 و 45 د.

9- الشيخ أبوبكر بن موسى بن محمد، وأمه مسعودة بنت بكار. ولد بالوادي خلال عام 1901م، وحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا في زاوية سيدي سالم، على يد خاله العيد بن بكار، ثم درس على الشيخ إبراهيم بن عامر، وربما أيضا على الشيخ محمد بن الجديدي والشقيقين الطاهر وأحمد العبيدي. وتزامل في دراسته مع الشيخين: الأزهاري الحرزولي، وحمزة بوكوشة. تابع تعليمه في المدرسة الأهلية بالوادي. ارتمى في أحضان الحركة الوطنية. وبعد استقلال الجزائر تولى منصب مدير للمعهد الإسلامي بالوادي عام 1965م. كان الشيخ أبوبكر سخيا جدا لدرجة الإفراط. وقد يتبرع حتى بملابسه على المحتاجين، لكنه من جهة أخرى شديد الغضب في الحق. توفي بالوادي في 01 أوت من عام 1975م، ودفن بجبانة الأعشاش.

مقابلة شخصية مع موسى بن موسى(حفيد المترجم له)، بالمركز الجامعي بالوادي، يوم الأربعاء 13 جوان2007 م، على الساعة 9 و40 د، علي غنابزية: بيوت عامرة، إذاعة سوف، الوادي، 1997م.

10- هو الشيخ حمزة شنوف المدعو بوكوشة. ولد خلال عام 1907م بالوادي. تلقى المبادئ الأولية في اللغة العربية وقواعدها في بسكرة، ثم درس في سوف على يد الشيخ إبراهيم بن عامر والطاهر العبيدي ومحمد بن الجديدي. ثم تحول إلى جامع الزيتونة وعمره 17 عاما. وتحصل فيه على شهادة التطويع عام 1930. كان من أعضاء جمعية العلماء المسلمين المؤسسين. وتقلد فيها مناصب عديدة، فكان المعلم والكاتب والصحفي.

وبعد الاستقلال، عمل في ميدان التعليم والقضاء، إلى أن توفي بالجزائر يوم الجمعة 14 جمادى الثانية من عام 1415هـ/16-11-1994م، ودفن في مقبرة القطار بالعاصمة في اليوم الموالي.
انظر: علي غنابزية، « مساهمات علماء سوف في الحركة الصحفية الوطنية ما بين 1920-1938م»، مجلة البحوث والدراسات»، العدد الأول، أفريل 2004، المركز الجامعي بالوادي، ص126، و « العلامة والأديب الصحفي الشيخ حمزة بوكوشة - مسيرة إصلاح - ». صحيفة النبأ، العدد 184، الجزائر، 26-12-94 إلى 01-01-95 .

11- ألف الشيخ إبراهيم بن عامر مجموعة كبيرة من الكتب منها: البحر الطافح، ورسالة تسمى الجواهر الحسان في بعض ما يتعلق بالمعلمين والمتعلمين من حملة القرآن، وحاشية على رسالة الشيخ سيدي محمد البخاري العقبي، سماها: نيل المرام من رسالة كشف اللثام، وحاشية على شرح السنوسي الكبير، وحاشية على الشذور، وشرح متن الشيخ ابن عاشر المسمى المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، وشرح متن الآجرومية في قواعد النحو، وشرح رسالة الأخضري في الحساب، وشرح رسالة سيدي محمد الرقيق في مبطلات الصلاة وشرح النظم المسمى بالتبر الصافي في نظم الكافي في علمي العروض والقوافي، ورسالة منظومة في الفلك، فيها قريبا من خمسمائة بيت، ورسالة أخرى في الفلك والجدول والتربيع نثر، ورسالة أخرى في الفلك تتعلق بالسنة القمرية فقط، ورسالة في الصرف، متن وشرح، ورسالة في القضاء نظم، ونظم الورقات في الأصول، ورسالة في الأربعاء الأكحل، ونظم قطر الندى وبل الصدا، ونظم في الأدب، وتقريرات على حاشية الباجوري على الجوهرة في التوحيد، وتقريرات على كتاب الرحمة في الطب والحكمة للسيوطي. انظر: البحر الطافح ص48.

12- الشيخ الطاهر العبيدي(1886-1968م) بن لعبيدي بن علي. ولد بالوادي عام 1304هـ/1886م. درس بها على يد الشيخين: عبد الرحمن العمودي والعربي بن موسى، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة، فتلقى العلوم على يد شيوخ عظام مثل: الخضر بن الحسين، والطاهر بن عاشور وغيرهما. تخرج على يده الكثير من الطلاب في كل من الوادي وتقرت. ترك عدة مؤلفات هامة لغوية وفقهية. وتوفي في تقرت، ودفن بها يوم الأحد 28 شوال 1387هـ/28- 01 - 1968م.
انظر: أحمد بن السايح، « العلامة الشيخ الطاهر لعبيدي، الفقيه الصوفي». أسبوعية العقيدة، رقم 1و2 ، الجزائر، 08-02-1992.

13- الشيخ أحمد العبيدي(1888-1977م)، هو شقيق الشيخ الطاهر ورفيق دربه. درسا معا في جامع النخلة بأولاد أحمد، وختم القرآن الكريم قبل البلوغ. تتلمذ على يد شقيقه الشيخ الطاهر، ثم واصل دراسته في جامع الزيتونة على نفقة شقيقه المذكور، لكونه عاش يتيما. ولما تخرج، عمل مدرسا متطوعا في جامع السوق والنخلة بأولاد أحمد. كما درس في قرية تقددين بجامعة. تخرج على يده الكثير من المثقفين والعلماء. وترك عدة تآليف هامة في ميدان اللغة والفقه. توفي بالوادي يوم 16-1-1977م، ودفن في مقبرة أولاد أحمد في الجهة الغربية منها.
انظر: عاشوري قمعون، « دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي». مجلة البحوث والدراسات، العدد 4، المركز الجامعي بالوادي، (يناير 2007) ص85-92.

14- مقابلة شخصية مع الشيخ أحمد العبيدي ببيته بالوادي، عام 1967م.

15- هو الشيخ الحسين بن بالقاسم بن علي بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن أحمد بن عون بن خالد بن عبد العاطي زبيدي، ينسب إلى زبدة. ويذكر إبراهيم بن عامر في كتابه الصروف، بأنها قبيلة من عرش جبيرات بالأعشاش، وفدت من الجريد التونسي منذ حوالي قرنين. وفيها تعينت القيادة على جميع أولاد سعود بكوينين وسيدي عون. وزبيد، قبيلة عربية كبيرة، كانت تقيم غرب مدينة صنعاء باليمن. خرج منها خلق كثير من الصحابة، وحين دخلوا إلى إفريقية لنشر الإسلام، اجتمعوا في ناحية واحدة بقرية قرب المهدية بشمال شرق تونس، ومنها تفرقوا. ومن الزبيديين من نزلوا بنفطة، ومنهم من ذهبوا إلى الزاب واستقروا فيه.
ولد للشيخ بالقاسم بعض الأبناء منهم: المختار والأمين والحسين. درس الحسين أولا بالمدرسة الأهلية بالوادي، رفقة زميله الشيخ الهاشمي. ثم سجل في المدرسة الفرنسية الإسلامية Ecole Franco–Musulmane ، بقسنطينة، وتخرج منها بشهادة تعادل البكالوريا، هي دبلوم ترجمان عام 1924م، وبذلك عمل كمترجم في الملحقة العسكرية بالوادي، لدى كل من الرائد فيري(1943-1948م)، Le Commandant Ferry قائد الملحقة العسكرية، والمتصرف الإداري أستي، (1948-1950)، وبيار شالومو، رئيس الملحقة (1950-1954م) Pierre Chalumeau، ونائبه الأول بيقورو(1950-1956م) Pigoreau. ثم ترقى إلى منصب

مستشار في عهد بيار بطايون (1950-1960م)، Pierre Bataillon والمتصرف الإداري لوس كاتينو (1954-1962م) Luce–Catinot ، مهندس فلاحي، ورئيس الملحقة العسكرية بالوادي، وعين في منصبه، في نوفمبر من عام 1954. وكان نائبه الثاني اسمه روشيك سيولي، (1950-1962م) Rochic Sioli وبعد ذلك، رقي إلى منصب قائد الزقم وسيدي عون والبهيمة عام 1955، وألبس البرنوس من طرف الحاكم العام جاك سوستال. أما أخوه الشيخ محمد الأمين، فقد تولى عرش أولاد سعود برتبة باش آغا منذ عام 1942م، حينما تنازل له أخوه الشيخ المختار (1910 – 1942م) المتوفى عام 1951م في عنابة.

تزوج الشيخ الحسين حورية بنت سي محمود (الخوجة القسنطيني، الذي توفي يوم 18 شوال عام 1346هـ/1928م بالوادي)، من عائلة بوعكاز، التي تولت منصب(شيخ العرب)، توارثته أبا عن جد، وتحالفت مع الأمير عبد القادر، وناصرته أول الأمر ضد الفرنسيين. وهي من أقدم وأعرق العائلات في الجنوب القسنطيني، منذ القرن11م . وقد لعبت دورا مرموقا، حسب ابن خلدون، ولفترة طويلة. ويقول نفس المؤرخ، أن عائلة بوعكاز الدواودة، تنحدر من داود بن مرداس بن رياح، القبيلة العربية الهلالية. وقد انتشرت سلطات آل بوعكاز، في العهد العثماني، على كل البلاد من قسنطينة إلى ورقلة.

أنجب الشيخ الحسين عدة أبناء منهم: بالقاسم، وعز الدين، وحمادي، ومحمد رؤوف، وفاتح، إضافة إلى عدة بنات.

يتصف الشيخ الحسين بطيب المعشر، وبالسيرة الحميدة، وبالمعاملة الحسنة، وبالذكاء، وشدة الفطنة، وبالثقافة الواسعة. وكان يكتب مقالات في نشرة الاتصال الصحراوي، Bulletin de liaison Saharienne مثل: Généalogie des Chaâmba (نسب الشعانبة)، و Zénata ،(قبيلة زناتة)، و Histoire succincte de l'administration du Souf, dans les deux derniers siècles ,avant l'arrivée des Français. (تاريخ موجز لإدارة سوف خلال القرنين الماضيين، قبل وصول الفرنسيين).

كما أخبرت بأنه كان يراسل أيضا جريدة الدفاع، La Défense التي أسسها محمد الأمين العمودي(1890-1957م) عام 1934م باللغة الفرنسية، لكن باسم مستعار. وقد كلف بتسجيل الحالة المدنية لبلدية الوادي عام 1937م. ونظرا لذكائه الوقاد وحنكته الدبلوماسية، وثقة الإدارة الفرنسية به، فقد وظف كل هذه العوامل في خدمة مجتمعه، وفي التدخل في كثير من الأحيان لفائدة الأفراد والجماعات.

توفي بعد مرض عضال دام حوالي سنتين، في المستشفى العسكري بعين النعجة بالجزائر، يوم 20-9-1993م. وشهدت جنازته خروج الجم الغفير من المشيعين. دفن في مقبرة كوينين الشرقية.

إبراهيم بن عامر: الصروف ص290، 330، عبد الحميد زوزو: الأوراس إبان فترة الاستعمار الفرنسي(1837-1939م)،ج1، طبعة دار هومة، الجزائر2005 ص93، عبد الحميد إبراهيم قادري: التعريف بوادي ريغ، طبعة الوادي، 1999، ص21، مقابلة شخصية مع محمد رؤوف زبيدي يوم 30-5-2007 بالوادي، مصطفى سالمي: المرجع السابق.

ارجع أيضا إلى:

André–Roger Voisin: Le Souf,Monographie,El-Oued,2004,PP.314-316, Bataillon: Géographie humaine du Souf.

16- سورة البقرة، الآية رقم 184.

17- إبراهيم بن عامر: المسائل العامرية على مختصر الرحبية.المطبعة التونسية 1907 ص1.

18- تفطن الخبراء إلى وجود الفوسفات بكل من الجزائر وتونس منذ عام 1878م. وشرع في إرسال البعثات الاستكشافية الأولى لمختلف أرجاء البلاد منذ عام 1883م. وهكذا فقد اكتشف فيليب توماس Philippe Thomas - بيطري بالجيش الفرنسي، وعضو في البعثة العلمية الاستكشافية المنظمة والمرسلة إلى تونس من قبل وزارة التعليم الفرنسي- الفوسفات بجبال تمغزة وقفصة يوم 18 - 4 - 1885م، على مسافة تمتد إلى 80 كم. وأخبر أكاديمية العلوم باكتشافه يوم 07-12- 1885م.

وقد تم البدء باستغلال منجم المتلوي عام 1897 م، ثم منجم الرديف عام 1909 م، ثم أم العرائس عام 1919م. وكان أول رئيس لشركة فوسفات مناجم قفصة هو دوليفوس قالين Dolifus Galline الذي حكمها من عام 1897 إلى غاية 15- 10- 1907م.

حفيظ طالبي: الحركة النقابية بمناجم قفصة(1936- 1956)، شهادة التعمق في البحث، قدمت لجامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، السنة الدراسية: 1992- 1993. ارجع أيضا:

Noureddine Dougui: Monographie d'une grande Entreprise coloniale: La Compagnie des phosphates et du chemin de fer de Gafsa(1897-1930), Tunis, 1991

19- أخبره أحد العمال السوافة بأن جده (عض غاربه) أي مات. فقرر الشيخ الهاشمي العودة من حيث أتى، وعرج على زاوية الشيخ المولدي بوعراقية بتوزر، فالتقى هناك بالشيخ إبراهيم بن عامر الذي اعتاد على زيارة الزاوية كل عام مع فرقة المديح التي كان يرأسها. واشترك الشيخ الهاشمي مع الفرقة في المديح، غير أنه لم يكن في وضع طبيعي، مما جعل الشيخ إبراهيم يسأله عن حاله، فأجابه بسماعه نعي جده، فأكد له الشيخ بأن جده تركه في صحة جيدة ومع ذلك قرر الشيخ الهاشمي الرجوع إلى الوادي.

مقابلة شخصية مع رشيد حسني، (ابن المترجم له)، بمنزله بحي أولاد أحمد بالوادي يوم 05-6 -2007م.

20- مراسلة رشيد حسني.

21- انظر: Dossiers du personnel de la justice Musulmane .C.0175,T.S. ANA.

ومقابلة مع الشيخ أحمد خراز(موظف متقاعد من مواليد 1926م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18 - 6 - 2007 م، على الساعة 11.

22- مراسلة رشيد حسني.

23- مقابلة مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي(محاسب معتمد) بالوادي عام2005 .

24- رسالة محمد العيد آل خليفة إلى الشيخ الهاشمي مؤرخة عام 1967م.

25-حسني الهاشمي: نبذة من حياة المؤلف ص13 في كتاب الصروف للشيخ إبراهيم العوامر.

26- مقابلة شخصية مع الشيخ الهاشمي ببيته بالوادي عام 1966م.

27- من بين تلاميذه: الحاج مصباح مصباحي بن الحاج عمر، أول مدير لثانوية عبد العزيز الشريف بالوادي، والحاج عاشوري قمعون بن الحاج عبد القادر الذي كان مفتشا للتعليم الأساسي في مادة العلوم الاجتماعية، ويعمل الآن أستاذا جامعيا بالمركز الجامعي بالوادي، والحاج عز الدين زبيدي بن الحسين، الذي كان مديرا تنفيذيا لمديرية الشبيبة والرياضة، وهو الآن يقوم بأعمال رجل الأعمال الكبير الجيلاني مهري بن الحاج الطاهر بالوادي، وأخوه حمادي زبيدي الذي كان قائد فرقة للدرك الوطني، وإسماعيل عمراني الذي تولى منصب مفتش التعليم الابتدائي والمتوسط، والمشري النوبلي بن الحاج علي، مدير مدرسة نصرات حشاني، وإسماعيل ونيسي بن بشير المستشار التربوي للغة الفرنسية، وغير هؤلاء كثير. كما سبق وأن درّس التاجر الكبير الحاج سالم عطا الله(الجديدي)، و محمد بن الطاهر الأطرش(1907-1972م)، الذي كان خياطا بالوادي، و الحاج الحبيب(1911-2007 م) بن البشير زغودة (غندير).

28- مراسلة رشيد حسني، ومقابلة مع الشيخ أحمد خراز(موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18 - 6 - 2007 م، على الساعة11.

29- مقابلة مع الشيخ أحمد خراز(موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18-6-2007 م، على الساعة 11، ومراسلة رشيد حسني.

30- مقابلة مع الشيخ أحمد خراز(موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18-6 - 2007 م، على الساعة 11.

31- مقابلة مع الأستاذ محمد بوقطاية(من تلاميذ الشيخ) عام 2009.

32- مقابلة شخصية مع الشيخ الهاشمي ببيته بالوادي عام 1966م.

33- مقابلة مع الأستاذ محمد بوقطاية(من تلاميذ الشيخ) عام 2009.

34- مقابلة مع الشيخ أحمد خراز (موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18 - 6 - 2007 م، على الساعة 11.

35- مراسلة رشيد حسني.

36- مقابلة مع الشيخ الصادق قديري بمنزله بالوادي يوم 28-8-2008 على الساعة 10 و50 د.

37- مقابلة مع الشيخ أحمد خراز (موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18 - 6 - 2007 م، على الساعة 11.

38- مقابلة شخصية مع الشيخ الهاشمي ببيته بالوادي عام 1966م.

39- مراسلة رشيد حسني.

40- هو الشيخ محمد الهاشمي (1853-1923م) بن الشيخ إبراهيم. ولد بنفطة عام 1853م. أسس زاوية البياضة حوالي عام 1892. ووصل نفوذ الطريقة القادرية في عهده إلى توات وتيميمون وغات وغدامس. قام

بانتفاضة شعبية عارمة يوم15-11- 1918م ضد الإدارة الفرنسية الظالمة، فألقي عليه القبض، ونفي من الوادي مدة تقارب العامين، أي من 15-11-1918م إلى جويلية 1920.
كان الشيخ ذكيا جدا وسخيا جدا، يحترم أهل العلم. توفي بالوادي في صفر 1342هـ/ 23-9-1923م، ودفن بزاويته بالبياضة بالوادي.
انظر: عاشوري قمعون، « دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية». مجلة البحوث والدراسات، العدد الثالث، المركز الجامعي بالوادي (جوان 2006)، ص75-77.
41- ولد الشيخ محمد الإمام(1864-1904م) بن إبراهيم بنفطة خلال عام 1864م، وهو أخ غير شقيق للشيخ الهاشمي. جاء إلى الوادي، وأسس زاوية بالرباح. غير أنه لم يشتهر كشهرة أخيه. مات عام 1904، وعمره لم يتجاوز 40 عاما، ودفن بزاويته بالرباح جنوب الوادي.
انظر: عاشوري قمعون، المرجع السابق ص75-77.
42- مراسلة رشيد حسني.
43- مقابلة مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي(محاسب معتمد) بالوادي عام 2005.
44- مراسلة رشيد حسني.
45- جاء إلى الوادي لأداء الخدمة العسكرية عام 1956م. وكان يتنقل بسيارته إلى حاسي خليفة وغيرها من القرى، ويتصل بالفلاحين وشعراء الملحون للاستماع إليهم. وقد أسس مجلة صوت وادي سوف La Voix (du Souf) التي تحتوي على بعض الأشعار الملحونة وجوانب اقتصادية مختلفة، وكان الشيخ الهاشمي يكتب فيها بعض المقالات. كان يدعم قائمة المواطنين في الانتخابات البلدية. وأوقف في إقامة دار الضياف أربعة أيام، لاتهامه من طرف جماعة روبيسكي بمناصرة الوطنيين. رجع إلى فرنسا عام 1959م.
مقابلة شخصية مع رشيد حسني(ابن المترجم له) بمنزله بحي أولاد أحمد بالوادي يوم 5-6-2007.
46- مقابلة مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي (محاسب معتمد) بالوادي عام 2005.
47- انظر: André - Roger Voisin:Le Souf,PP.314-316.El-Oued,2004.
48- روبيسكي مارسال Robuschi Marcel، من أصل كورسيكي. معمر مشهور بالوادي. ولد بالشريعة خلال عام 1903م، من أب كان يعمل في شركة السكك الحديدية بسوق أهراس. وعندما بلغ سن التقاعد، انتقل بعائلته إلى الشريعة بولاية تبسة، ليعمل كحارس غابات فيها. وحسب المعلومات المستقاة، فإن والده أدخله إلى أحد الكتاتيب بالشريعة لانعدام وجود المدرسة الابتدائية الفرنسية وقتذاك، وعليه فقد كان يتقن اللغة العربية أكثر من إتقانه للغة الفرنسية. ولما بلغ أشده، انخرط في سلك الجيش، وترقى إلى رتبة مساعد. ثم جاء إلى الوادي في الفرقة العسكرية الصحراوية. وفي أواخر الأربعينيات، استقال من خدمة الجيش، واستأجر من عائلة باي محلاتهم المقابلة لنزل ترونزات – Transat- لمزاولة التجارة، وبقي فيها حتى الاستقلال.
صار يخشى المنافسة والخسران في الانتخابات البلدية، فأوعز إلى الحاكم العسكري باستنطاق الشيخ الهاشمي بتهمة التحريض ضد فرنسا، غير أن فطنة الشيخ وفصاحة لسانه، غيرت الكفة لفائدته، واضطر الضابط المتعجرف إلى أن يطلق سراحه مع إبقائه تحت الرقابة العسكرية حتى الاستقلال.
توفي روبيسكي بعد رجوعه إلى فرنسا مصابا بالشلل، بعد أن عاش حوالي 80 عاما.
مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي(محاسب معتمد) بالوادي عام 2005م. ارجع أيضا إلى: André Voisin: OP.CIT.,P.315.
49- مقابلة مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي(محاسب معتمد) بالوادي عام 2005، و مقابلة مع الشيخ أحمد خراز(موظف متقاعد من مواليد 1924م) بمنزله بالوادي، يوم الاثنين 18 - 6 - 2007 م على الساعة 11.
50- معركة غوط شيكا(Chica) معركة عنيفة وقعت في غابة نخيل، تنسب إلى أحد المعمرين الذي قام بإنشائها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يغرسون له النخيل تطوعا. وهذا المعمر هو فرنسي من أصل إيطالي، كان يتردد على قمار، ويمكث فيها ستة أشهر من كل عام، وذلك للاتجار بالتمر والتبغ في الوادي، وكان يعامل الفلاحين معاملة حسنة كما قيل. حدثت في هذه الغابة معركة شديدة، أيام 10/09/08 أوت 1955، وأسفرت عن مقتل عدد كبير من الجنود الفرنسيين وعملائهم من الخونة، مما اضطر الحاكم العام سوستال إلى أن يجيء بنفسه ليلاحظ الخسائر التي تكبدها جيشه.
انظر: أبو القاسم سعد الله ،« معركة غوط شيكا ». مجلة أول نوفمبر عام1986.
51- جاك سوستال Jacques Soustelle رجل سياسي فرنسي. ولد عام 1912 في مدينة مونبيليي Montpellier. خريج المدرسة العليا للأساتذة. ألف عدة كتب حول تاريخ المكسيك القديمة. كان

أستاذ علم الاجتماع في مدرسة الدراسات العليا. تولى وزارة الأخبار عام 1945م، والمستعمرات عام1945-1946م. وعندما تولى منصب الحاكم العام للجزائر عام 1955م، صار مدافعا عن سياسة الجزائر الفرنسية، وسياسة إدماج الجماعة الإسلامية.

استدعي عام 1958م لتولي وزارة الأخبار، ثم وزيرا مفوضا للعمالات الصحراوية، غير أنه أبعد عن وظائفه عام 1960. انظر: .Petit Robert II,Paris,1977,P.1732

52- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي،(محاسب معتمد)، بالوادي عام 2005م.

53- اسم قائد القطاع العسكري أحمد زمولي، ولد بتبسة عام 1936م، ينتمي إلى عرش أولاد خليفة بولاية تبسة. واصل دراسته في الكتاب ثم في جامع الزيتونة. ثم انخرط في جيش التحرير الوطني منذ شبابه، وبعد الاستقلال، تولى قيادة بعض القطاعات العسكرية، منها: قائد القطاع العسكري بتلمسان، ثم الوادي، فبسكرة. ثم أحيل على المعاش برتبة رائد. كان مهتما كثيرا بالثقافة، وبالمداومة على قراءة القرآن. وكان يواصل الدراسة، وهو يمارس عمله، فحصل على شهادة ليسانس في التاريخ من جامعة قسنطينة، كما حصل على ليسانس في الحقوق من نفس الجامعة. وهو الذي نصحني بالتخصص في فرع التاريخ. تقاعد عام 1984م، وهو يمارس مهنة المحاماة في مدينة تبسة حاليا.

54- علم الفياقة هو تعبير مجازي مشتق من استفاق أي انتبه من غفلته وتيقظ، ويقصد به مجموعة الأفكار والتجارب التي مرت على الشيخ والتي كان يلقنها إلينا كدروس عملية من أجل التفطن وأخذ الحيطة والحذر مما يمكن أن يحدث في حياتنا اليومية من مراوغات المخادعين ومكر الماكرين.

55- مراسلة رشيد حسني.

56- رسالة مؤرخة يوم 19-9-1979، بخط الشيخ الهاشمي محفوظة عندي.

57- مصطفى سالمي، المرجع السابق.

58- اسمه محمد الصالح بن محمد بن مسعود ساسي. ولد بالوادي عام 1921م. أمه وريدة بنت الشيخ العربي بن مصباح سالمي، رئيس زاوية سيدي سالم(1916-1945م). كان رجلا فطنا، يميل إلى الحركة الإصلاحية، ومن ملازمي الشيخ الهاشمي، وكان يمتهن حرفة الخياطة في دكان بسوق الوادي، اكتراه من منة بنت المنصوري. تحول عام 1972م إلى ورقلة وفتح متجرا هناك، غير أن الظروف لم تسعفه، فعاد إلى الوادي، واستمر في حرفته الأولى إلى أن وافته المنية في 21 -8-1999م، ودفن بجبانة الأعشاش.

مقابلة مع محمد ساسي ابن المترجم له بالوادي عام 2008م.

59- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد الطاهر العمودي،(محاسب معتمد)، بالوادي عام 2005م.

60- مصطفى سالمي، المرجع السابق، ومراسلة رشيد حسني.

61- كتاب اسمه مختصر خليل، ألفه العلامة أبو الضياء خليل بن إسحاق المصري (ت.775هـ/1374م)، وهو من أعظم فقهاء المالكية في عصره. ذاع صيته عبر آفاق العالم الإسلامي. اعتنى بشرحه الكثير من العلماء، وقد نظمه الشيخ خليفة بن حسن القماري السوفي(1711-1793م) في 9817 بيتا.

انظر: علي غنابزية، « فضاءات تراثية»، أوراق جامعية، العدد الثاني، (المركز الجامعي بالوادي) جوان 2005 ، ص21.

62- هو كتاب يحتوي على مجموعة من مناقب الشيخ محمد الصالح، رئيس الزاوية الرحمانية بالوادي. ألفه صاحبه إبراهيم بن عامر، وتناول فيه بعض الكرامات التي ظهرت للشيخ محمد الصالح. وسماه: البحر الطافح في بعض فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح. كما تناول فيه بعض المطالب، منها: ترك الإنكار على الأولياء، وعدد الأولياء، وتقسيمهم، وعدد الطرق، وجواز البشاشة في وجوه غير المسلمين، وجواز التطبب ولو بالكافر، ونسب الشيخ سيدي محمد الصالح، وسند طريقته، إضافة إلى بعض صفات الشيخ، وبعض القصائد.

انظر: البحر الطافح، طبع بمطبعة بيكار وشركائه بتونس، عام 1323هـ.

63- هو الشيخ محمد العربي بن محمد الصالح بن موسى(موساوي). ولد عام 1290هـ/1873م بالوادي. كان غزير العلم، بذل جهودا كبيرة في التدريس بزاوية سيدي سالم، ومسجد سيدي المسعود بسوق الوادي. ثم انتقل إلى تقرت، ودرس بالمسجد العتيق، وشرع في تفسير القرآن الكريم حتى وصل إلى" وإن عزموا الطلاق".

اتصف بالورع والزهد والتواضع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. أنجب ابنا سماه الميداني، صار من أشهر علماء سوف. وصاهر تلميذه الشيخ إبراهيم بن عامر الذي تزوج ابنته زينب.

تتلمذ على يديه الشيخان: الطاهر وشقيقه أحمد، بالإضافة إلى إبراهيم بن عامر. توفي في ذي الحجة عام 1322هـ/ مارس1905م، وخلفه في التدريس تلميذه الشيخ الطاهر، بتوصية منه.
انظر: عاشوري قمعون، « دور الشيخ العلامة أحمد العبيدي في الجهاد العلمي »، مجلة البحوث والدراسات، العدد الرابع، المركز الجامعي بالوادي، (يناير 2007) ص112.
64- الشيخ محمد الصالح بن سيدي سالم، ولد بالوادي عام1263هـ/1846م، وكان يتردد كثيرا على زيارة الشيخ مصطفى بن عزوز بنفطة. تولى مشيخة الزاوية الرحمانية بالوادي. توفي في شهر صفر عام 1335هـ/27-11-1916م، ودفن بزاويته بالوادي.
انظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية، الوادي 2006 ص176-182.
65- الشيخ عبد الرحمن بن محمد العمودي، ولد بالوادي. درس عليه بعض الشيوخ منهم: إبراهيم ابن عامر والطاهر العبيدي والعروسي بن عبد الله محمدي (الهرش) وغيرهم. كان متصوفا وزاهدا، كثير التجوال، ناشرا للعلم. عمل في سلك القضاء بكوينين. توفي بالوادي عام 1326هـ/1909م، ودفن في مقبرة الأعشاش بالوادي.
انظر: مصطفى سالمي: المرجع السابق ولقاء مع الشيخ البشير الأحمدي يوم الجمعة 06-11-2009 على الساعة 11 بزاوية سيدي سالم بالوادي.
66- البشير بوكوشة هو أحد الخطاطين والنساخين. كان محبا للعلم وأهله، وحرص على تعليم أبنائه. يعد من التجار المعروفين بالوادي. ولد بحي الأعشاش خلال عام 1867م. هاجر إلى بسكرة ليتعاطى التجارة هناك. توفي سي البشير يوم 07-02-1933م، ودفن في مقبرة الأعشاش.
انظر: مصطفى سالمي، المرجع السابق.
67- حسني الهاشمي: نبذة من حياة المؤلف ص11-14.

ثورة أم حرب تحرير ؟؟ جدلية تحديد المفهوم عند مؤرخي الثورة[01] "حربي– مينيي– إلسنهانس"

أ / بلفردي جمال
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

يقدم هذا البحث معالجة تحليلية ـــــ تاريخية لمفهوم الثورة الجزائرية 1954-1962 "حرب الجزائر". خاصة وأن واقع الكتابات الفرنسية "مؤرخين وعسكريين" لا يشيرون إلى هذا المفهوم إلا لماما، كما أن حيز هذه الدراسة لا يتسع للاسترسال في نقد وتحليل بعض المفاهيم التي تضمنتها تلك الكتابات. وأمام هذا الكم الهائل من البيبليوغرافيا ارتأينا تسليط الضوء وبصورة موضوعية على تطور المفهوم عند الأدبيات اليسارية "الجزائرية-الفرنسية-الألمانية"، ولعلنا باختيارنا وانتقائنا لثلاثة باحثين "حربي– مينيي– إلسنهانس" من رحم هذا التيار هو اعتقادنا أنهم يمثلون صفوة نخبة المؤرخين اليساريين المعاصرين رغم التوظيف الإيديولوجي لكتاباتهم. غير أن ذلك لا يلغي قيمة الأعمال الأكاديمية لهؤلاء، وجاء طرح هذه الدراسات كبديل لاستدراك ودحض –ولو نسبيا– النزعة التبريرية– الإنكارية لبعض الكتابات اليسارية منها واليمينية، والتي دأبت في أدبياتها على نعت الثورة الجزائرية بالحرب التحريرية حينا، وحرب الجزائر أحيانا أخرى، وهو صلب موضوع هذه المساهمة التي حوت مكامن التوافق والتضاد في تحديد وضبط مفهوم الثورة على ضوء الإشكال المطروح.

Abstract

Understanding This paper presents analytical – Historical processing of the concept of revolution 1954–1962 "Algerian war", as well as shed light on the evolution of the concept when left-wing literature "Algerian–French–German".

The raison which makes us selecting three researchers "Harbi–Meynier– Elsenhans" from the womb of this trend, is the belief that they're the elite of the historians leftist contemporaries, despite the ideological exploitation of their writings, but that does not eliminate the value of academic works in these particularly by the Correction and refute – albeit relative– the tendency Defensive of some left and right-wing writings which have already described the Algerian revolution as the war of liberation, or the Algerian war sometimes. This later is the matter subject of this contribution, which contained deposits of consensus and contrast in the identification of the concept of revolution.

مقدمـــة

"إذا كان هدف أي حركة ثورية[02] في الواقع هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية... فإن الأسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر باسم ج.ت.و... وانسجاما مع المبادئ الثورية، واعتبارا لأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل التي تحقق الهدف الأساسي و هو الاستقلال الوطني".[03]

إن المتمعن في بيان أول نوفمبر و المقتطفات التي نحن بصدد تحليلها يستنبط أن ثورة أول نوفمبر (الكفاح المسلح الذي وقع بين 54-1962) لم يأت من العدم، ولا قفزا على التاريخ بل هو مخاض عسير، وثمرة جهود الحركة الوطنية الجزائرية منذ سنة1830، و لم تتنكر جبهة

التحرير الوطني للإرث المتواصل للأجيال الجزائرية لذلك تظهر ج.ت.و.، وفي حجم أكبر بكثير من أن تكون جمعية أو اتحادا أو حزبا أو تيارا بل تواصلا تاريخيا، وإرثا، حضاريا للحركة الوطنية "– وبعد مراحل من الكفاح – قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية" (04)، لاستكمال المشروع الوطني بالوسائل الممكنة والمتاحة.

إن الاستدلال بالمرجعية المؤسسة للدولة الجزائرية المعاصرة ، ونعني به بيان أول نوفمبر كحدث مؤسس لقيام أكبر ثورة خلال القرن العشرين سوف يساهم في خلق نوع من العلمية – التحليلية ، و في قراءة الأحداث، و إعطائها بعد موضوعي مجرد من الانفعالية، والتحيز في إعطاء أحكام اعتباطية مسبقة حول ما إذا كانت الثورة الجزائرية(الكفاح المسلح) حسب المراجع والمصادر التي حاولنا استنباط ما تمكّنا من تحليل بعض فصولها، ومقارنتها بالنص الأساسي لجبهة التحرير الوطني "البيان"، دون تغيب عنصر أبعاد وخصائص الثورة الجزائرية كمرتكز و هدف في نفس الوقت من أجل إعطاء صورة متكاملة للإشكالية التي نحن بصدد فك ألغازها : هل الكفاح المسلح الذي جرت وقائعه بين1954-1962 بالجزائر ثورة تحريرية أم حرب تحريرية؟!

قبل الإجابة عن هذه الإشكالية كان ولا بد من رسم خريطة ردود الأفعال الفرنسية وتعليقاتها على انطلاق الثورة الجزائرية على أنها "أعمال إرهابية" كما جاء في تعليق الحاكم العام روجي ليونار الذي أصدر بلاغا يوم 2نوفمبر جاء فيه:" في الليلة الماضية أُقترف نحو ثلاثين اعتداءا في عدة جهات من القطر، وخاصة في قسنطينة، وفي جهة الأوراس، على خطورة متفاوتة، من طرف عصابات إرهابية صغيرة".

أما وزير الداخلية الفرنسي فعلق قائلا: "لا يمكن أن تكون هناك محادثات بين الدولة والعصابات المتمردة التي تريد أن تحل محلها". (05)

إن الاصطلاحات الواردة من الاستعمار الفرنسي: إدارة و معمرين تصب في خانة أن الأعمال التي قامت بها الطليعة الثورية ليلة أول نوفمبر كلها: خارجة عن القانون، متعصبين، إرهابيون، عصابات ليسوا جزائريون بل تونسيون و مصريون، وكلها تلفيقات تنم عن اللاموضوعية في تحديد مفهوم دقيق للذين تجاوزوا مرحلة المطالب السلمية والثورة بالقانون إلى العمل الميداني.

ويمكن التأكيد أن فجائية الثورة ووقعها كان شديدا على العالم كله، ولكن كانت أشد على الاستعمار الفرنسي مما عجله في إطلاق اصطلاحات لا علاقة بالفاتح نوفمبر ومطالب الطليعة الثورية التي فرضت واقعا جديدا وفريدا من نوعه على الساحتين الإفريقية والعربية، بما تحمله من بعد سياسي وثقافي وعسكري واجتماعي من الأدبيات الأيديولوجية للحركة الوطنية الجزائرية وجناحها الاستقلالي.

1- تحديد مفهومي الثورة و الحرب

1-1 الثورة: لغة مصدرها ثار وجمعها ثورات، و تعني اندفاع عنيف نحو تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية تغييرا أساسيا أي جذريا. أما اصطلاحا فقد تأثر سلبا وإيجابا على خلفيات وقناعات معادية وأخرى مؤيدة لفكرة الثورة .

ويعطي فوليتر مفهوم آخر للثورة خلال عصر التنوير في أوربا بقوله : "إطاحة بالنظام القديم الذي فقد جميع إمكانياته الخلاقة لوضع أسس أكثر رسوخا وعدلا لنظام جديد يحل محله واعدا بالتقدم"، وحسبنا أنه مفهوم راديكالي للثورة حيث لم يعد الملك صانع الثورة بل بات ضحيتها، فهولا يمثل التقدم أو يرمز إليه ، بل الماضي الذي يعيق التقدم المنشود.

أما جورج سوبربييتي: فيقر أن " الثورة هي التي تعيد بناء الدولة في نفس الوقت الذي يتغير فيها أسطورة الدولة بأخرى كنواة للتكامل داخل المجتمع "[06]

ويرى هنتجتون "أن الثورة هي تغيير داخلي سريع وأساسي وعنيف للقيم السائدة"[07]، وينظر كوهن للثورة أنها سياسة، و قابلة للحدوث لأن "الأحزاب السياسية المشاركة في الثورة تختلف حول قالب المؤسسات التي يمكن أن يحدث فيها التغيير..." [08]

من خلال التعريفات السابقة يمكن أن نصل إلى نتيجة أن الثورة تبدأ بأساس القيم وركيزتها وهي التغييرات القيمية الحاصلة عن الثورة سواء أكان التغير جذري نسبي أو كاملا، غير أن ثبات الأنظمة الثقافية و الاجتماعية ومدى قدرتها على المقاومة هو الذي يحدد راديكالية الثورة، ويمكن حصر أركان الثورة الأساسية في الآتي:

أ- تغيير النظام أو البناء الاجتماعي القائم:

يمكن لنا الاستدلال المباشر بوجهة النظر الماركسية التي أثرت بشكل كبير على عدد من منظري الحركات الثورية التي برزت في المواقف الثورية، والتي وجد هؤلاء المنظرون أنفسهم فيها. ككروز لوكسمبورج، لينين، ماو تسي تونغ، هذا الأخير الذي يقيم تحليله الثوري على أسس الصراع الطبقي الواضح في المجتمع الصيني مثلا معتمدا على طبقة الفلاحين، ودورها في الانقلاب الاجتماعي الحاصل.

ب- مبدأ تغيير المؤسسات و نخبها :

ويقصد به تغيير النخبة الحاكمة فرادى و جماعات داخل المؤسسات ، فويلبرت موور يرى: "أن الثورة تتسم بالعنف ، ونهاية حتمية لإحدى طرفيه... و تشارك فيه نسبة كبيرة من الشعب ويؤدي إلى تغير في بناء الحكومة القائمة الحكومة القائمة[09]"، وتختلف المؤسسات عن التغيير في البناء الذي هو أكثر شمولا لأن الأول يعني بعض صور الإبدال في المؤسسات السياسية، أما الثاني فيعني إبدالا في علاقة الطبقات في المجتمع.

أما ليفورد إدواردز وفي كتابه "التاريخ الطبيعي للثورة" يرى أن: "أي مؤسسة بالغة ما بلغت من سوء الفساد – ستظل باقية إذا كانت عميقة الجذور في أرض الأعراف السائدة، رغم وضوح جذورها- حتى تفرض الضرورة الملحة إلغاؤها. ذلك أن الإنسان أسير عاداته

وتقاليده، ومعظم المؤسسات نتاج العاطفة لا العقل، وقد يفضل الإنسان أن يتكبد المعاناة والخسارة على أن يسقط من نظامه الاجتماعي مؤسسة قائمة اعتاد بقاؤها طويلا..." [10].

ويعتقد إدوارد أن الأمر يستغرق على الأقل ثلاثة أجيال كي تجمع الناس حول فكرة أنه لا خلاص من الموقف الذي لم يعد محتملا إلاّ بالإطاحة بالحكومة القائمة، وذلك بسبب ارتباطهم العميق بالقيم السائدة[11].

ج- إحداث العنف :

يختلف رواد التعريفات من الأساس على أسس الثورة و قواعدها. فإدواردز يشير أن التغير الثوري: "يمكن أن يحدث ليس باستخدام القوة و العنف بالضرورة "[12].

أما الماركسيون وعلى رأسهم ماو تسي تونغ يقول: "لايمكن أن تكون الثورة حفلة عشاء أو كتابة مقال أو رسم لوحة، أو تطريز قطعة قماش..، لا يمكن أن تكون بهذه الرقة واللطف والتهذيب، بل الثورة انتفاضة عمل عنيف تستطيع طبقة عن طريقه أن تطيح بطبقة أخرى "[13].

ويشير ريجي دوبري: إلى أن "الثورة لا تضم عناصر عنف أو أعمال عسكرية فقط بل هي عملية يصبح خلالها القادة العسكريون داخل الثورة وهم أداتها، أي نواة الثورة وهم الذين يقدمون النظرية الثورية للجماهير لا منظري الحزب...، وفي ظل شروط خاصة لا انفصال بين ما هو سياسي وما هو عسكري، فهما معا يشكلان كلا عضوا واحدا، ويسبق تكوين الحزب تكوين القوى المقاتلة، وأصبح الآن الأمر على العكس فالعسكرية أداة العنف، ويصبح أساس النظرية الحزب"[14].

أما تشالمرزجونسون فيرى" الثورة هي الفعل الذي يؤدي عن قصد أو غير قصد إلى تغير في توجه سلوك الآخرين"[15].

1-2-: تطور مفهوم الحرب على ضوء القانون الدولي

عرف الإنسان الحروب منذ بدأ الخليقة وقتل قابيل هابيل فالصراع بين القبائل كان على أشده وعلى أساس العُرف العشائري، وأداة للتوسع وتحقيق الأطماع التوسعية على حساب الآخر، كما هو معروف لدى الإمبراطوريات القديمة كالإغريق، والرومان، والبيزنط، والفرس، ولم تكن تخضع لقوانين وأسس واضحة[15]، فمثلا لا حصرا الحروب التي كانت قائمة بين المدن الإغريقية كأثينا وإسبرطا، أو بين الإمبراطوريتين البيزنطية والرومانية، والتي قد يلاحظ فيها وجود حد أدنى من شروط الحرب كإعلانها قبل بدايتها.

ومن المهم أن نقتبس من القرآن- مادام أنه نستعرض التطور الزمني والتاريخي لمفهوم الحرب - ببعض الآيات التي تشير إلى الغاية والهدف من الحرب التي هي إحدى وسائل تحقيق السلام حسب قوله عز وجل:

-"يأيها الذين ءامنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين"البقرة208 .

-"و إن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم" الأنفال61.

كما بينت مواضع كثيرة من القرآن العظيم أن الحرب في الإسلام مبدأه و أساسه عند المسلمين هو الدفاع امتثالا لقوله تعالى:

-"فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله و اعلموا أن الله مع المتقين" البقرة194.

كما أجاز الإسلام الحرب الهجومية لتحرير إرادة الشعوب، و إقناعها بالدخول إلى دين الحق دون إكراه، و قهر،وغزو واستعمار، قال تعالى:

-"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" البقرة256.

ويمكن التأكيد أن الإسلام أول من ضبط و أرسى قواعد الحرب و أسسها كنظام قيام الحرب داخل الجيوش الإسلامية،وسلوك المحاربين،مع مراعاة الجانب الإنساني أثناء وبعد الحرب كالرحمة والرأفة أثناء الالتحام بجيوش الأعداء وبعد القتال خاصة الرفق بالشيوخ والنساء والأطفال، واحترام قانون الأسير امتثالا لقوله تعالى: "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّا بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها" محمد4.

فالأصل في الإسلام حسب الآيات القرآنية هو السلم، و الحرب استثناء.

وتطور مفهوم الحرب إلى غاية القرنين 17-19م على حق الدولة في اللجوء إلى الحرب أحيانا بالاعتماد على مبدأ السيادة المطلقة.

وبين الحربين العالميتين ظهرت مؤسسات التشريع و التنفيذ الدوليين وهما عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى التي أخذت بموجب قرارات مؤتمر الصلح بباريس 1918-1919، وبميثاق يقر بالتزامات معينة تقضي بعدم اللجوء إلى الحرب، واحترام قواعد القانون الدولي حسب ما دونته المواد 26 للعصبة.

غير أن ما يمكن الإشارة إليه هو أن العصبة لم تستطع توقيف الحرب بل ألزمت الدول بعدم اللجوء إليها و فقط.

ويعوز فشل عصبة الأمم في تأدية واجبها اتجاه الدول الكبرى و نتائج مؤتمر الصلح المخيبة للدول المنهزمة "ألمان، الطليان" وبداية ظهور الديكتوريات القومية تؤمن بواجب التسلح والدفاع وبناء الآلة العسكرية، والسباق نحو التسلح وعجز العصبة عن فرض منطقها مما أدى إلى اختلاف توازن السلم الدولي[17].

وهكذا تسارعت الأحداث في أوربا بعد الأزمة العالمية الإقتصادية1929 وقيام حروب مختلفة في العالم بين روسيا والصين سنة1930 ثم اليابان والصين1931 وغزو إيطاليا للحبشة1934 و1935، والهجوم الألماني على دول أوربا الشرقية بين سنوات1937-1939.

انتهى باندلاع الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من دمار شامل على مستوى كل الأصعدة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، وبنهايتها انعقد مؤتمر سان فرانسيسكو الذي انتهى بميثاق الأطلس 1945 وتأسيس هيئة الأمم المتحدة بمنظماتها العالمية، وأساسها مجلس الأمن الدولي.

ورغم أن ميثاقها لم يعرف الحرب، وإنما أشار في نص الديباجة إلى ما قررته مبادئ مجلس الأمن الدولي:
- المادة 2-2: فض النزاعات الدولية بالطرق السلمية، و إبداء حسن النية اتجاه المجتمع الدولي.
- المادة 2-7: مبدأ التحريم العام لاستخدامات القوة المسلحة في العلاقات الدولية.
- المادة31: تحريم العدوان الذي هو الحرب الظالمة.(18)

إن الملاحظ في البند السابع للأمم المتحدة والذي ينص على تحريم استخدام القوة المسلحة في العلاقات الدولية،وإمكانية اتخاذ التدابير الإحترازية والإجراءات القسرية والتي ستبقى من صلاحيات مجلس الأمن في إصدار القرارات الإجرائية حسب المادة 27 من ميثاق الأمم المتحدة إذا ما اتفق الأعضاء التسعة في مجلس الأمن، أما في المسائل الأخرى فيجب أن تكون أصوات الدائمين متفقة لا اعتراض فيها "حق الفيتو" مما ينقص إمكانية التطبيق العملي في حل النزاعات الدولية .

1-3- مفهوم الحرب وفقا للقانون الدولي :

يعرف أويناهايم: بأن الحرب نزاع بين دولتين أو أكثر، تستخدم فيها القوات المسلحة من أجل الإخضاع أو فرض شروط المنتصر.

أما الفقيه شارل روسو: بأنها "ظاهرة اجتماعية مرضية، وعنصر من عناصر التغيير السياسي من النواحي التاريخية، السياسية، الاقتصادية، العسكرية، الاجتماعية،وبأن الحرب قتال مسلح بين الدول بهدف تغليب وجهة نظر سياسية، وفقا لقواعد تنظيم حالات الحرب، وهي تختلف عن الحرب الأهلية أو الحملات المسلحة ضد الثوار أو القراصنة بكونها قتالا بين قوات حكومية".(19)

ويرى الصادق أبو هيف أن "الحرب نضال بين القوات المسلحة لكل من الفريقين المتنازعين، ويرمي كل منهما إلى صيانة حقوقه و مصالحه في مواجهة الطرف الآخر والحرب لا تكون إلاّ بين الدول".(20)

3-مؤرخو الثورة و جدلية الثورة و الحرب

3-1- Hartmut Elsenhans: La guerre d'Algérie 1954-1962

كتاب "حرب الجزائر 1954-1962" لهارتموت إلسنهانس اليساري الألماني وهو بروفيسور ماركسي تشبع بالأفكار الاشتراكية، ويقع الكتاب في 1072صفحة، وقدم الكتاب المؤرخ والباحث في الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية جيلبر ميني من جامعة نانسي2 فرنسا، اعتمد الباحث على أرشيف هام و مراجع ومصادر تعدت في المجموع 3000 وثيقة مستقاة من الأرشيف الخاص بالوزارات الفرنسية، وتولت دار النشر بيبليزد الفرنسية طبعه وتوزيعه سنة1999.

"إن هذا العمل هو ثمرة أكثر من 25 سنة، والذي بدأ الباحث في جمع مادته العلمية بداية سنة 1974 وهو كتاب قيم على غرار كتاب الباحث والسفير كوانت وليام: الثورة والقيادة السياسية أثناء الثورة الجزائرية 1954 -1968" مقتطف من تقديم جليبر مينيي (ص 7).

الكتاب يضم فصولا جاءت على النحو التالي:
- النظام العالمي و حرب الجزائر.
- وضعية الجزائر عشية و أثناء حرب الجزائر.
- فرنسا الداخل والجزائر والمعمرين أو المشكلة الجزائرية وإستراتيجية فرنسا بإفريقيا.
- أساسيات و انتقال حرب الجزائر إلى فرنسا"المتروبول" .
- سياسة الردع أو الجزر.
- التقويم الاقتصادي و الاجتماعي الفرنسي بالجزائر.
- الحلقة الجزائرية المفتوحة بالمتروبول.
- التقويم السياسي و المفاوضات.

إن الفصل الخاص بالدراسة تطرق فيه الباحث البروفسور إلى عناصر التاريخ الجزائري، والنمو الديمغرافي، فالنمو الزراعي، والنمو الصناعي، وخلاصة التطور الاقتصادي الجزائري، والعناصر الاجتماعية للتطور التعلمي بالجزائر، وكذا المؤسسات السياسية والإدارية، والجزائر في ظل القوانين الفرنسية، وعناصر الوطنية التاريخية بالجزائر إلى غاية تكوين الأفلان1954.

الذي يهم في هذا الفصل هو أنه أكثر من 75 صفحة كاملة، والتي تناول فيها الباحث الوضعيات المختلفة الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية والتعليمية للجزائريين وبإثباتات "جداول وإحصائيات" قيمة اعتمادا على الأرشيف المستخدم، إلاّ أن الباحث الألماني لم يذكر ولو مرة واحدة مصطلح الثورة رغم تطرقه إلى عنصر تكوين ج.ت.و. (ص210) وأصولها التاريخية التي أخذت على عاتقها برنامج طرد المستعمرين على حسب تعبير الباحث (ص211) .

وإنصافا للمؤلف كثيرا من المرات يشير إلى أن العمل المسلح (54-62) هو حرب تحريرية والاستثناء في (ص503) من حيث أن المشكل التهديدي "التخويفي" للحرب هو الشعب الثوري، ويقصد حسب مضمون العنوان الريفيين الذين يحيطون بالمدن والذين كانوا جنود انتفاضة الثامن ماي 1945، وما استعمال الأفلان لهذا الشعب كصمام الأمان للثورة، مما زادها إصرارا و قوة في مواصلة الكفاح.

3-2- Meynier Gilbert : Histoire intérieure du FLN 1954-1962

كتاب "التاريخ الداخلي ل ج.ت.و 1954-1962" لمؤلفه جيلبر ميني يقع في 812صفحة، وصدر عن دار القصبة للنشر و التوزيع سنة2003. وقدم للكتاب المؤرخ محمد حربي، ويحمل الغلاف الخارجي صورة كل من بومدين، بن طوبال، والعقيد لطفي، الصورة أخذت حسب ما نعتقد في اجتماع العقداء العشرة وكذا صور فردية لكل من محمد بوضياف، آيت أحمد، بوصوف ، عبان رمضان.

"الكتاب خلاصة عمل جيد يؤسس لميلاد ج.ت.و. الجزائرية تحليلا وديناميكية المعروفة عن جيلبر مني...، الجزائر الليبيرالية ، والجزائر الإجتماعية و جزائر الحرية ، وجزائر الإسلام

ماضيا و مستقبلا". إن قيمة الكتاب تبرز من خلال الوثائق المعتمدة في تحليل كفاح العسكر وإرساء العدالة و مقاومة الشعب هي محطات تحليلية للباحث مينيي".

هذا ما جاء في تقديم الأستاذ المؤرخ محمد حربي لكتاب جيلبر ميني، ونعتقد جزما أنه من أهم الأعمال التاريخية اليسارية الفرنسية الموثقة "الأرشيفات الفرنسية المختلفة" قد استغلت في هذا الكتاب ، من خلال اعتماده على الدراسات الإستشرافية السابقة التي تناولت حرب الجزائر(ثورة الجزائر) 1954-1962، و الوثائق الأرشيفية الخاصة : أرشيف إيكس-آن-بروفاسن، أرشيف القوات البرية، الأرشيف الدبلوماسي بنانت، والمتفحص للببليوغرافيا التي أوردها مينيي يلاحظ أن لكل عنصر من عناصر الكتاب أورد لها مراجعها الخاصة، ثم قائمة الفهارس فمحتويات الكتاب .

في قائمة الملاحق يورد لنا الباحث جيلبر ميني بين صفحات708-744، 58 وثيقة تجمع بين الجداول ، المدرجات التكرارية ، الدوائر النسبية، البيانات و يوضح فيها و بدقة متناهية كل ما يتعلق بالثورة من خلال الوضعية الاجتماعية والثقافية والتركيبة الفكرية لمجموعة 22مثلا في الجدول الأول ، ونفس الملاحظة في باقي الملاحق.

وقسم جلبير مينيي دراسته إلى نظام المحاور الستة :

تناول في المحور الأول :المقاومة ضد الاستعمار 1830-1954

المحور الثاني : ما هية الأفلان FLN 1954 – 1962

و هو المحور الذي يجرنا في احدى عناصره إلا أن :

هل ج . ت و هي الثورة أم أنها جبهة المقاومة ؟ وهو صميم موضوعنا .

المحور الثالث : الحرب و السلطة 1954 – 1962

المحور الرابع : ج . ت و في الميدان .

المحور الخامس : ج .و . ت – الدولة: الخدمات، التموين، الاستعلامات 1954 – 1962

المحور السادس : ج . ت . و – الدولة و العالم 1954 – 1962

وفي (ص157) عنون جيلبر ميني عنصر بـــ :ج.ت.و. هي الثورة 1954-1962 " وجاءت كمشروع للقضاء أو ضد الاستعمار" .

"اعتمدت الثورة الجزائرية على الثورة كوسيلة الكفاح أو العكس داخل حركة الشعب وحرب الشعب المنظم أي اتخذ كل الوسائل غير أن الوسيلة الناجعة هي في حرب الشعب أو جعل الشعب داخل الحرب من أجل نيل الاستقلال عن طريق المجاهدين والمسبلين ضد الاستعمار"

"الثورة هو نص ج.ت.و. "في أرضية الصومام...، حرب الشعب، حرب التحرير متلازمان بالنسبة" لج.ت.و". و" جيش التحرير الوطني "و هما سبيلا الثورة " (ص 158).

"هدف ج .ت. وهو التحرير من الاستعمار، والتنمية الاجتماعية للجزائر وتحقيق أهداف برامج أرضية الصومام" (ص 159) .

إن عنصر ج.ت.و. و هي الثورة والتي تمتد من ص ص: 157-168 لا تخلو كل صفحة تقريبا من ذكر مصطلح الثورة رغم أن المؤلف نفسه يقر بأن الثورة في مفهومها الشامل حسبه، ففي (ص159) يؤكد: "الثورة السياسية والاجتماعية هي ثورة القرن18، هي الثورة الفرنسية1792 وهي تفوق الحرب الوطنية و الحرب الشعبية".

أما العنصر الثاني المهم وهو أن ج.ت.و.و هي جهة المقاومة حسب مفهوم عبان رمضان الذي سارع في الاتصال و إدخال باقي تيارات الحركة الوطنية، و نفي ما يعرف أن أول نوفمبر لابد له من زعيم تاريخي، أو التاريخيين الميدانيين لانطلاق ثورة أول نوفمبر.

أما العنصر ج.ت.و. وبخط السياسي- المؤسساتي للثورة الجزائرية بين 1956-1962 يقدم فيها أهم المؤسسات التي تمخضت عن مؤتمر الصومام وهي لجنة التنسيق والتنفيذ والمجلس الوطني للثورة الجزائرية كمؤسستين تنفيذية وتشريعية للثورة الجزائرية، وبهذه المقاربة بين العناصر الثلاث يعطي ويفسر لنا ميني أيديولوجية ج.ت.و. كإطار عام ومشروع مجتمع ص.ص:168-200.

وفي العنصر الأخير من مشروع الأفلان ج.ت.و-الدولة و على أنقاض الاستعمار الفرنسي والمعمرين الأوربيين أعادت ج.ت.و بعث الدولة الجزائرية المعاصرة من خلال خلق الولايات التاريخية عسكرية تقوم بتطبيق تشريعات المؤسسات القيادية للثورة وعلى رأسها الحكومة المؤقتة والمجلس الوطني للثورة الجزائرية، ودعمت بمؤسسات فرعية كالإتحاد العام للطلبة الجزائريين، والعمال الجزائريين لتدعم مركز الثورة داخليا وخارجيا، دون نسيان الفيدراليات الوطنية في المهجر"فرنسا"، المغرب، تونس"ص ص: 200-213.

غير أن المهم أنه تطرق إلى أيديولوجية ج.ت.و- حسب تعبير المؤلف –أنها اشتراكية تضامنية-محمدية، إنه مشروع الشعب الجزائري وهو مشروع ج.ت.و. للمقاومة ص213-214.

3-3: Mohamed Harbi, Le F.L.N, Mirage et réalité 1954-1962. Éditions j.a 1980

الكتاب الثالث و الأخير و هو لمحمد حربي "جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع 1954-1962"، (ترجمة) كميل قيصر داغر، الطبعة الأولى صدرت سنة 1983، مؤسسة الأبحاث العربية بلبنان ,الكتاب المترجم يحتوي 321 صفحة و مقدمة وخاتمة و22 فصلا بداية من الأسس التاريخية للنزعة القومية 1926- 1946 إلى الفصل الأخير بعنوان حرب الخلافة فأخير الملحقات و الهوامش .

إن الكتاب يشكل الجزء الأول من مشروع أوسع يتناول المجتمع الجزائري خاصة أثناء الثورة الجزائرية، و رغم خلافات ج ت و و تبايناتهم فقد حرصوا- حسب حربي – "على أن يضرب تنظيم الجماهير و تأطيرها صفحا من الماضي... ولما لم تكن تدعمهم... حركة شعبية دينامية و حقيقية" (ص 20).

وللكتاب أهمية خاصة فالرجل من المناضلين الذين شاركوا في الحركة الوطنية حيث انظم إلى حركة الانتصار للحريات الديمقراطية حين كان في الخامسة عشرة من عمره عام 1945 أصبح أمينا عاما لرابطة شمال إفريقيا، ثم أصبح منذ عام 1957، وعضوا في قيادة فيدرالية جبهة التحرير

الوطني في فرنسا، ثم مديرا لمكتب وزير القوات المسلحة 1959-1960، وسفيرا في فينا 1961، وخبيرا في محادثات إيفيان الأولى جانفي 1961 وسكرتير عام لوزارة الخارجية 1961-1962 ويقيم في فرنسا منذ 1973[21]، له مؤلفات عدة حول الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية: في جذور ج ت و،ج ت والواقع، والأسطورة، وثائق الثورة الجزائرية، 1954 الحرب تبدأ في الجزائر، الجزائر و قدرها، وحياة واقفة، ج ت والتاريخ و الوثائق، تاريخ الجزائر المعاصر، الثورة الجزائرية سنوات المخاض.

إن الذي يهم دراستنا هاته هي الفصل التاسع الموسوم بنجاح المشروع الانتفاضي، وفي عنصر الوضع عشية الثورة و يقول حربي: "ظهرت ج ت و في فترة كانت الحركة الوطنية واعية في أهدافها وإمكاناتها، في حين تسببت الحركات الثورية السابقة بتقوية السيطرة الإمبريالية كانت حركة نوفمبر 1954 جزء لا يتجزأ من حركة التحرر"(ص 113).

ويستطرد بقوله: "كل المؤلفين الذين درسوا الثورة الجزائرية يشددون على أبوة المنظمة الخاصة لـــ ج ت و ولكن هذا الواقع الذي لا جدال فيه يستحق أن يتم توزيعه..." لقد سيطرت العقوبة على تطورها، لكن بالرغم أنها كانت فجائية انفجار العنف في نوفمبر 1954 والظروف إلى تم من ضمنها". (ص 112)

إن المغزى العام من دراسة مقارنة للكتب و المراجع – مصادر الثورة – يعطي الدلالات الهامة في الزمان و المكان لكل من مفهومي الثورة و الحرب، خاضعة للشروط الخاصة والظروف العامة التاريخية والإنسانية المتغيرة جدا و دون الرجوع إلى المفاهيم التي حددناها لكل من الثورة أو الحرب، سواء اتخذت الثورة قيم و مبادئ لينينية، أو ماوية، أو ماركسية، أو حروب عادلة، أو غير عادلة، أو دفاعية، أو هجومية، فالأساس والأهم بالنسبة للمؤرخين الثلاث أنهم قدموا أعمالا أكاديمية في مستوى التحليل الموضوعي للحادثة التاريخية و تبقى دائما نسبية نسبة العلوم الاجتماعية والإنسانية.

إن التدقيق في قراءة و تحليل ما جاء في الفصول التي حاولنا الإحاطة بتفسيرها أوصلنا إلى بعض النتائج نورد مجملها:

1-قيام المؤرخين الثلاث بعملية التحليل الاجتماعي والاقتصادي للجزائر قبل الثورة وأثناءها، وكذا استعمال تقنية التحليل التقريبي للأوضاع الجزائرية الثقافية والتعليمية كمرتكز للعمل و ردود الأفعال من طرف الشعب الجزائري وأحزاب الحركة الوطنية الجزائرية.

2- التركيز على تحليل الإطار العام و هو ج ت و وجيش التحرير الوطني خاصة لدى حربي و جليبرمينيي اعتمادا على الوثائق الأرشيفية، فالأول بحكم منصبه السياسي أثناء الثورة، و الذي ساعده على الحصول على الوثائق، و الثاني بحكم التخصص الأكاديمي ووفرة الوثائق بالمؤسسات الفرنسية (الشات، أكس أن بروفانس – نانت –فانسان)

3- الموضوعية التاريخية في الطرح التحليلي والإحصائي الذي تميز به إلسنهانس خلافا للتوظيف الإيديولوجي – السياسي لكل من حربي ومينيي.

4- التشابه الحاصل عن – قصد أو غير قصد – بين إلسنهانس و مينيي في وصف الثورة مع انطلاقها بالانتفاضة، و مع شموليتها أصبحت الثورة عند إلسهانس (ص 210) معناه تكوين الأفلان، أو (ص 503) يطلق عليها حرب الثورة الشعبية. أما جلبير مينيي ففي المحور الثاني والذي يتناول فيه ماهية الأفلان 1954- 1962 أنها الثورة ص.ص:157-168 و.ج.ت وهي جبهة المقاومة ص ص: 168-176.

5- نعتقد أن طبيعة الدراسة تختلف رغم أن الموضوع واحد و هي الثورة الجزائرية (حرب التحرير) بين المؤرخين الثلاث: فالتأليف المبكر لحربي لكتابه : ج ت و: الأسطورة والواقع أعطى له الأسبقية والأفضلية في تدوين الحادثة التاريخية، رغم جنوحه إلى الناحية السياسية خاصة التركيبة المؤسساتية ل ج ت و والصراعات التي حصلت للقيادة داخليا وخارجيا أدت إلى حرب الخلافة رغم وضوح هدف الثورة الجزائرية وهو الاستقلال في بناء الدولة الجزائرية الاجتماعية ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

أما إلسنهانس فقد اعتمد في تحليله على الجانب الاقتصادي والاجتماعي لحرب الجزائر، والتدني الحاصل في المستوى المعيشي للجزائريين، واستغلال المعمرين لمقومات و خيرات الجزائر سرعت حسب مفهومه في انتفاضة أول نوفمبر. بينما يرى مينيي الجمع بين الشقين الاقتصادي و الاجتماعي أدى إلى انتفاضة و تطورت إلى ثورة ثم حرب تحريرية ,مما يقودنا إلى القول أن المؤرخين مينيي و إلسنهانس تصف و ضمنيا بأن ما جرى (الكفاح المسلح) بأحقية تسميته بالثورة نتيجة لمبررات اقتصادية , اجتماعية , سياسية، و ثقافية كانت المحور الأساس في عملها.

6 – إستهل مينيي بتطورات الكفاح من خلال التمهيد لمقاومة ضد الاستعمار بين 1830-1954 كأرضية و سياق لجبهة التحرير الوطني التي أشعلت فتيل الانتفاضة وعرفها من خلال عنصري ج.ت وجبهة المقاومة، وج.ت وثورة أنها صاحبة العمل المسلح ثم حرب تحريرية بداية من المحور الثالث والرابع ثم ج.ت – والدولة حسب مفهومه فان الأمر فيه نوعا من التدرجية: انتفاضة ثورة – حرب تحرير.

أما السنهانس فرغم نكرانه في العنوان بتسمية ما جرى على أنه حرب الجزائر إلا أنه ضمنيا يقر بأنه ما جرى في الجزائر عبارة عن انتفاضة، وحرب تحرير وثورة شعبية أما حربي و رغم أن الكتاب يتناول ج.ت.و بين 1954-1962 إلا أنه شارك مصطلح الثورة في فصلين كاملين (التاسع والعاشر)، و يمكن الإشارة –لا حصرا- إلى العديد من كتبه حملت عنوان الثورة الجزائرية مثل: سنوات المخاض و الثورة الجزائرية، أرشيف الثورة الجزائرية...

ومهما يكن من أمر فإن ضريبة الشعب الجزائري لثورة مليون و نصف مليون شهيد وإحراز شعب بأكمله لاستقلال وهو الهدف الأساسي لبيان أول نوفمبر 1954 و بقاء غالبية الفرنسيين خاصة الباحثين والإعلاميين في وصف ما جرى من وقائع على أنه حرب هو تقصير في حد ذاته في حق هذا الشعب.

والمتمعن في الكتب الصادرة حديثا أو أعيد طبعها يجد نوعا من العصبية في إطلاق المصطلحات فهذا مثلا هنري علاق الذي صدر له كتاب ضخم بأجزائه الثلاث تحت عنوان حرب الجزائر سنة 1984 لم يذكر في سياق تحليله كلمة ثورة وصدرت له مذكرات بعنوان "مذكرات جزائرية" [22] عن دار نشر القصبة سنة 2007 فمازال الحنين لديه يشده إلى كلمة حرب الذي لازمته لعقود أربع رغم طفولته التي عاشها في القصبة ورغم صداقته للجزائر بحكم أنه عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي و الجزائري و مواقفه من الثورة خاصة بعد سجنه و تعذيبه بعد معركة الجزائر سنة 1957 من طرف الجنرال ماسو وبقي أسير مصطلح الحرب وكأن الكفاح المسلح الذي جرى بين 1954– 1962 كان بين دولتين وليس بين فرنسا الإمبراطورية والجزائر المستعمرة.

وتأكيدا لما هو حاصل بين مؤرخي الثورة في إثبات المصطلح من هذا الطرف ونفيه من الطرف الآخر وتأكيد طرح البديل الحرب لا يسعنا إلا الاحتكام إلى قيم وأسس كل من الحرب والثورة ومدى مطابقتها للتجربة الجزائرية بين سنوات 1954 – 1962.

إن الاغتراف من المدرسة الوطنية التاريخية مرة أخرى يساهم في إبراز حلول للإشكالية السابقة فسليمان الشيخ وفي دكتوراه الدولة التي نوقشت في سنة 1975 بجامعة غرونوبل الفرنسية والتي حملت عنوان الجزائر تحمل السلاح، دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة والذي عرب ونشر في دار القصبة سنة 2007 يقدم لنا تفسيرا في منتهى الدقة من زاوية إعطاء مفهوم الخصوصية للحدث التاريخي الذي اندلع ليلة أول نوفمبر وفسرها بشيئين اثنين:

الاحتكام إلى الوطنية: ويدرج فيها المقاومة الدفاعية و شرعية مطالب الأهالي واللتان بدورهما هيئتا الأرضية للعنصر الأخير وهو المقاومة الهجومية باندلاع الثورة ليلة أول نوفمبر ثم شموليتها استدعى استكمال بناء مؤسسات الثورة بانعقاد مؤتمر الصومام أوت 1956.

الاحتكام إلى العالمية: أين قامت الثورة الجزائرية برفع الدعوة ضد الاستعمار الفرنسي وطالبت المجتمع الدولي بالتضامن في قضيته من خلال محاكمة الاستعمار وكسب المزيد من التضامن مما أكسب الثورة تناسقية مطردة بين المشروع الوطني ووسيلة الكفاح المسلح والتنظيم الذي حقق انتصار لأكبر ثورة في القرن العشرين.[23]

ويمكن الاسترشاد أيضا بأن الكفاح المسلح هو ثورة من خلال مبدأ التغيير البنائي الذي جاءت به جبهة التحرير الوطني في قلع جذور مؤسسات الاستعمار وأعوانه وبناء مؤسسات تحت قيادة الطليعة الثورية "نخبة الثورة" بوسيلة الكفاح المسلح المحقق لهدف الاستقلال وبناء الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

و في الأخير يمكن إيجاد المبرر للأقلام الاستعمارية عندما تدون للكفاح المسلح من خلال منطلقاتها الفكرية وسياقاتها التاريخية، فنقلا عن الباحث والأكاديمي الفلسطيني ادوارد سعيد ومن خلال قراءته المتأنية لرواية "الغريب" لألبير كامو صديق الثورة!! أنه كان يعارض

في الخمسينات من القرن الماضي استقلال الجزائر ففي سنة 1957 كتب كامو يقول: "فيما يتعلق باستقلال الجزائر فكرة عاطفية إذ لم توجد حتى الآن أمة جزائرية!!"[24] فهذا حكم وقول صديق الثورة فما بالنا بالروايات و المقالات الصحفية والإعلامية أو التحليلات السوسيو-تاريخية التي تنتجها المدرسة التاريخية الفرنسية ومن سار في فلكها.

وبالرغم من أن حيز هذه الدراسة لا يتيح قدرا كبيرا للإلمام والإحاطة بالمفهوم الذي نحن بصدد توضيح بعض جوانبه، وفي السياق العكسي لبعض أصدقاء الثورة نورد الأسطر الأخيرة من خاتمة فرانس فانون في كتابه سوسيولوجية ثورة للمقارنة بينه وبين اليساريين المتقدمين منهم كأجيرون وأندري نوشي وأندري جوليان: "إن الثورة من حيث أنها ثورة في الأعماق، الثورة الحقيقية تكون متقدمة جدا إلا أنها تبدل الإنسان وتجدد المجتمع، فهذا الأكسجين الذي يبدع إنسانية جديدة ويعدها، إنه هو كذلك الثورة الجزائرية"[25].

وفي الأخير يمكن استخلاص النتائج التالية:

ـــ محاولة المؤرخين مينيي وإلسهانس إطلاق مصطلحات في غير محلها والتبرير بالموضوعية والعلمية والتاريخية دون إطلاق المصطلح الدقيق للعمل الكفاحي المسلح الذي قامت به جبهة التحرير الوطني بين 1954-1962 المنطلق أساسا من مقاومة استعمار بالوسائل والإمكانات المتاحة.

ـــ رغم علمية المؤرخين خاصة مينيي فإنه لم يتجرد من الذاتية والتعصب رغم اعترافه ببعض الحقائق ويمكن إيعاز ذلك 'إلى التأثير الإيديولوجي للمؤرخ الفرنسي ونظرته الاستعلائية الفرنسية المبررة للسياسة الاستعمارية الفرنسية للجزائر.

ـــ الترجيح والإقرار بأنها ثورة لا حربا للمدة الزمنية المستغرقة رغم عدم توازن الكفة بين الطرفين عسكريا وسياسيا.

ـــ التعجيل باستقلال الجناحين تونس والمغرب سنة 1956 وفتح الباب أمام حركات التحرر الأخرى في إفريقيا وآسيا وأمريكا وأصبحت قلعة الثوار، أو كما قال المستشرق أميليكار كابرال: "المسيحيون يحجون إلى الفاتيكان والمسلمون إلى مكة، ومكة الثوار إلى الجزائر".

ـــ التواصل والاستمرارية في البرامج والتصورات فإذا كان بيان أول نوفمبر للانطلاقة والشمول فإن الصومام للهيكلة والتنظيم، فظهور نتائج الثورة في طرابلس كتتويج للعمل الكفاحي والثوري للشعب الجزائري اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وثقافيا وعسكريا، أي هناك انقلاب جذري للمجتمع وللسلطة الحاكمة.

- إن إسقاط مبادئ الثورة من الانقلاب الجذري والإطاحة بالنظام القديم وتغيير مؤسساته بطريقة العنف المسلح لدلالات واضحة للكفاح المسلح الذي جرت وقائعه في الجزائر بين سنوات 1954 و1962.

الخاتمـــة

إن إطالة النقاش في المفهوم الجدالي للكفاح المسلح هل هو ثورة أم حرب تحرير سوف يستمر ولكن بظهور الوثائق الأرشيفية ودراسة الحدث وفقا لسياقه التاريخي ومنطلقاته الفكرية ووفقا للتصور الشامل للظروف والعوامل المحيطة به يميط اللثام عن الغموض الحاصل في تفسير الحدث واستقراءه وفقا للثنائية المرجحة: انطلاقة كفاح فثورة بالنسبة للذين حصلوا على الاستقلال من باب أنهم منتصرين، وعصيان وحرب للخاسرين لرهان الجزائر الفرنسية.

الهوامش :

1- إن الإشارة قبل البدء في هذه الدراسة هو التركيز على اليساريين الثلاث ليس من باب الصدفة بل يمكن إدراجه من باب معرفة مسارات صفوة هذا التيار في التأليف والكتابة عن الحدث التاريخي الهام في الجزائر بين (1954-1962)، ومن جهة أخرى معتمدة في غالبها على وثائق أرشيفية هامة وهو ما يضع الباحث أمام رغبة وفضولية البحث العلمي لاستقراء وتحليل بعض فصول دراساتهم الأكاديمية، والمتميزة في نظرنا عن كتابات بعض اليساريين الفرنسيين أمثال أندري جوليان، أجيرون، نوشي، ولاكوست.

2- إن محاولة فهم سببية عدم تحديد المفهوم وضبطه من طرف الطليعة الثورية أثناء تحرير بيان أول نوفمبر بصريح الكلم رغم ورود عبارات "إلى العمل" "الكفاح التحرري" "العمل المحض"... هي تفسير للدعوة إلى العمل الثوري المباشر كما وضعت حدا وقطيعة للبرامج التي وضعتها الأحزاب والشخصيات على مختلف اتجاهاتها قبل انطلاق ثورة نوفمبر 1954 مع تحديد سبيل التحريض المباشر للشعب من أجل احتضان الثورة غير أن هناك اعتبارات سليمة في نظرنا بررت عدم التصريح بمصطلح الثورة في البيان التأسيسي لها منها:

- تزامن انطلاق الثورة وبلوغ الحرب الباردة أوجها بين المعسكرين الشرقي والغربي، والمعروف عن تلك الفترة أن مصطلح الثورة أنه كان مرادفا للشيوعية في المكان والزمان، وهكذا يمكن إبعاد تهمة الثورة الشيوعية على الكفاح عند انطلاقته.
- محاولة الطليعة الثورية كسب كل الأطراف الطبيعية "الأشقاء والأصدقاء" بالدرجة الأولى وهؤلاء كانوا في اتجاهين متعاكسين كتلة تحت قيادة المعسكر الغربي والآخر شرقي، وبالتالي كان يجب مراعاة حساسية ردود الأفعال إلى غاية شمولية الثورة، وهذا ما يتجلى بوضوح في أرضية الصومام التي أقرت وأكدت أن العمل المسلح في الجزائر هو ثورة شعب لكسب استقلاله وأخذ حريته. للمزيد أنظر: محمد جغابة: بيان أول نوفمبر دعوة إلى الحرب رسالة للسلام، قراءة في بيان أول نوفمبر، (تقديم): محمد العربي ولد خليفة، دار هومة للطبع والنشر و التوزيع، الجزائر، 1999، ص 99-100. وأيضا أنظر: عامر رخيلة: "أبعاد ومفاهيم في بيان أول نوفمبر 1954"، مجلة المصادر، العدد 04، م ح و ثورة أول نوفمبر 1954، ص60-70.

3- نص بيان أول نوفمبر، النصوص الأساسية لـ ج.ت.و. 1954-1962، وزارة الإعلام و الثقافة، 1976، ص7-8 .

4- نفسه.

5- مولود قاسم نايت بلقاسم: ردود الفعل الأولية داخليا و خارجيا على غرة أول نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر، دار البعث للنشر و التوزيع،ط11983،قسنطينة،ص ص88-100 .

6- جورج سوبر بيتي : عملية الثورة،نيويورك،الو.م.أ.1971،ص3.

7- صامويل،ب،هنتجتون: النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة، نيوهافن،الو.م.أ.1968، ص263-264.

8- توماس كوهن : بناء الثورات العلمية، شيكاغو،1962،ص92 .

9- ويلبرت مور : التغير الإجتماعي،نيوجرسي الو.م.أ،1963،ص81-82 .

10- ليفورد.ب.إدواردز : التاريخ الطبيعي للثورة،الو.م.أ،1965، ص21 .

11- نفسه ، ص16.

12- نفسه ، ص 02 .
13- ماوتسي تونغ :"تقرير عن دراسة حركة الفلاحين في إقليم هونان" أعمال مختارة لماو، المجلد01، الصين، 1967، ص 28 .
14- ريجي دوبري : الثورة في الثورة،الو.م.أ،1967،ص 104-105 .
15- تشالمرزجونسون : التغير الثوري،بوسطن،الو.م.أ،1966،ص7-8 .
16 - Quincy wrigh :History of concept of war ,1964,p123-124
17- فيليب نويل بيكر: سباق التسلح ،(تر و تع) حمدي حافظ، بريطانيا،1964،ص 11 .
18- صلاح الدين حمدي أحمد: دراسات في القانون الدولي، منشورات دار الهدى، عين مليلة، ط2002،1،الجزائر،ص251 .
19- نفسه،ص264 .
20- علي صادق أبو هيف :القانون الدولي العام،الاسكندرية ،ط1 1961ص780 .
21- مسعود كواتي : "قراءة في كتاب محمد حربي في حياة واقفة" ، مجلة المصادر العدد 6 مارس 2002 مركز الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ص ، 249 .
22- للمزيد أنظر هنري علاق : مذكرات جزائرية، (تر)، جناح مسعود و عبد السلام عزيزي دار القصبة للنشر الجزائر 2007 .
23- للمزيد أنظر سليمان الشيخ : الجزائر تحمل السلاح ، دراسة تحليلية في تاريخ الحركة الوطنية والثورة المسلحة، (تر)، محمد حافظ الجمالي دار القصبة للنشر الجزائر 2007 .
24- سعدي بزيان " منظمة الجيش السري في الجزائر " مجلة الراصد العدد 2 ، مركز الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 2002 ، ص ، 17 ، 18 .
25- فرانز فانون: سوسيولوجية ثورة، (تر) ذوقان قرقوط، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1970، ص191.

هيئة الأمم المتحدة والبعد العالمي للثورة الجزائرية 1955 - 1960

أ / تيتة ليلى
جامعة العقيد الحاج لخضر / باتنة

ملخص

لم تأت الثورة الجزائرية التي اندلعت في الفاتح من نوفمبر 1954 والتي تعتبر من أطول الثورات عمرا خلال القرن العشرين من العدم بل جاءت كنتيجة منطقية لمعاناة شعب عانى الكثير من سياسة سلطة استعمارية اغتصبت الأرض والوطن والكرامة والحقوق.

أمام هذه الأمور، كان من الطبيعي أن تقود ثلة من أبناء الجزائر ثورة ضد هذا الوضع وتتطلع إلى الحرية والاستقلال منتهجة أسلوبا يهدف إلى جعل الشعب ينطوي تحت ظلها ويساندها بكل إمكاناته لأجل الوصول إلى الهدف الذي يرغبه الجميع، وتوجهت أيضا إلى خارج حدود هذا الوطن قصد الحصول على المساندة الخارجية الممكنة فكانت هيئة الأمم المتحدة إحدى المنابر التي خاطبت من خلالها الضمير العالمي من أجل إيجاد حل للمشكل الجزائري وتمكين هذا الشعب من حقه في تقرير مصيره وهو ما يشكل محور هذا المقال خاصة خلال الفترة 1955 إلى 1960.

Résumé

L'explosion du 1er novembre 1954 est le prélude à une guerre de libération qui fut parmi les plus longues et les plus dures.

Une poignée de militants faiblement armées, mais soutenues par tout un peuple spolié de son identité, cruellement exploité et assoiffé de dignité, déclenchèrent une lutte acharnée qui dura plus de sept années.

Parallèlement à la guérilla et à la mobilisation populaire sous diverses formes, le F.L.N menait également un combat à l'extérieur. La proclamation du 1er novembre 1954 a fixé comme objectif extérieur "l'internationalisation de la question algérienne". Cette internationalisation va se concrétiser par la politique menée par le F.L.N et le G.P.R.A surtout à l'O.N.U.

مقدمـــة

تاريخ البشرية تاريخ طويل تعرضت فيه سيادة الشعوب وعلى مر العصور إلى انتهاكات متعددة ومتكررة كان أبشعها قد تم في شكل عدوان أو استعمار مباشر خاصة بعد القرن السادس عشر. والنتيجة المنطقية لذلك أنه ــ وبحلول القرن التاسع عشر ــ كان القسم الأكبر من الشعوب يعيش تحت نير الاستعمار.

وأمام هذه الوضعية، لم تقف هذه الشعوب مكتوفة الأيدي بل سعت جاهدة إلى تحقيق هدف واحد هو الاستقلال الوطني منتهجة في ذلك مختلف الوسائل والأساليب.

من هذا المنطلق، جاء اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 بالجزائر بعد نضال سياسي طويل طالبت خلاله الحركة الوطنية بتطبيق مبدأ تقرير المصير كمبدأ دولي يشير في مجمله

إلى حق المجتمع الجزائري في العيش منفصلا عن المجتمع الفرنسي مع الاعتراف له بالديمقراطية كأقصى شيء، وبالوطنية كأدنى حد.

وعلى اعتبار أن الشرعية الدولية خلال الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين (أي خلال السنوات العشر الأولى من قيام الأمم المتحدة) كانت تنحصر في قرارات الجمعية العامة باعتبارها الجهاز الممثل لجميع الدول الأعضاء، واستناداً إلى النظرية الديمقراطية الغربية في أن الأكثر تمثيلاً هو الأكثر تعبيراً عن الشرعية، سعت الثورة الجزائرية لعزل فرنسا دوليا بكسب الرأي العام الدولي إلى جانبها والحصول على أصوات أكثر الدول تمثيلا داخل الهيئة الأممية بالعمل على إطلاعها على حقائق الأمور، وإقناعها بعدالة قضيتها وبشرعية نضالها التحرري ضد الاستعمار الفرنسي وحقها في تقرير مصيرها، وهو ما لم يكن من الممكن تحقيقه دون السعي إلى تكثيف النشاط الدبلوماسي الجزائري.

من هذا المنطلق، كان النشاط الدبلوماسي من الأهداف الأساسية الأولى التي تضمنها بيان أول نوفمبر حيث أكد على تدويل القضية الجزائرية...كما أكد على التعاطف مع الأمم المؤيدة للكفاح التحرري وفق ميثاق الأمم المتحدة. ومن هنا جاء النشاط الدبلوماسي للثورة تجسيدا لهذه الأهداف وهو ما سنحاول التعرض لأهم ما ميزه خلال الفترة 1955-1960 مستدلين في ذلك ببعض الأمثلة. فكيف كان نشاط الثورة التحريرية لتحقيق التدويل والحصول على الحق في تقرير المصير؟ وكيف كان النشاط باتجاه الهيئة الأممية خاصة؟ وما الأثر الذي تركه هذا النشاط على نشاط الحركات التحررية الأخرى باتجاه الهيئة الأممية؟.

1- مرتكزات العمل الدبلوماسي الجزائري في الهيئة الأممية:

بعد عقود طويلة من المطالبة السياسية، جاء الإعلان عن اندلاع الثورة التحريرية الجزائرية في الفاتح من نوفمبر 1954 بنشر بيان عبر عن الإتجاه السلمي في هذه الأخيرة عندما خاطب -من بين من خاطب- الأمم المتحدة فدعاها الى تحمل مسؤولياتها ومعاملة القضية الجزائرية كقضية تحرر في إطار ميثاق الأمم المتحدة، مؤكدا على النزعة الإنسانية السلمية للثورة، موضحا أنها حركة تستهدف تقرير المصير بإعادة بعث الدولة الجزائرية التي تضمن احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز ديني أو عرقي[1].

ولأجل تحقيق ذلك، تميز نشاط الثورة في المجال الخارجي بالسعي للحصول على الإعتراف والمناصرة الشرعية خارجيا وخاصة داخل منبر الهيئة الأممية للإعتبارات السالفة الذكر. والحقيقة أن ذلك لـــم يكن ممكنا إلا بالوصول إلى تنمية الدعم الدبلوماسي للثورة عن طريق كسب رأي مختلف الدول، خاصة المنظمة الى الهيئة والعمل على إطلاعها على حقائق الأمور واقناعها بعدالة القضية الجزائرية وحملها على مناصرتها. وقد وضح الأستاذ سليمان الشيخ في كتابه:

(الجزائر تحمل السلاح) أن دبلوماسية الثورة لكسب هذا الدعم كانت تتحرك وفق مجالات جيو سياسية تلخصت فيما يلي[2] :

– المجال المماثل: والمقصود به الدول التي تتماثل مع الجزائر وتشترك معها في رفضها للاستعمار وانتهاجها عدم الانحياز، ويتعلق الأمر هنا بالدول العربية والإفريقية والآسيوية المنظمة خاصة إلى الهيئة الاممية. من هنا كانت الثورة الجزائرية تسعى دائما لكسب مساندتها خاصة داخل الهيئة المذكورة للقيام بضغوط ديبلوماسية واقتصادية على فرنسا لإقرار حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره. وفي هذا الإطار كان دور كتلة الدول الأفروآسيوية واضحا كما سيتضح ذلك لاحقا.

– المجال المكمل: والمقصود به مجموعة دول الكتلة الشرقية. وهو المجال الذي يشكل الحليف الموضوعي للثورة الجزائرية والذي كانت تتحكم في كيفية التعامل معه اعتبارات الحرب الباردة. ولذلك تجنبت جبهة التحرير الوطني إسقاط القضية الجزائرية في نطاق الصراع شرق–غرب، واعتمدت في كيفية التعامل معه أسلوبا مخالفا تمثل في البحث عن دعم هذه الكتلة أو بعض الدول المكونة لها داخل الهيئة الأممية باستخدام تناقضات الحرب الباردة أثناء تواجدها (من هنا كان البحث عن دعم الكتلة الشرقية وعلى رأسها الصين الشعبية في مواجهة فرنسا والكتلة الغربية بل وحتى الإتحاد السوفياتي فيما بعد).

– المجال المغاير: والمقصود به مجموعة دول الكتلة الغربية التي تشكل الحليف الموضوعي لفرنسا والتي – بالنظر إلى المسألة الجزائرية – يمكن أن يكون لها مصلحة مختلفة مع فرنسا. وقد حاولت جبهة التحرير استغلال تناقض المصالح بين هذه الدول حالما بدى ذلك واضحا ضد فرنسا وخاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي كان هدفها الأسمى هو العمل على أن ترث الإمبراطوريات الإستعمارية التقليدية (ولعل المثال الواضح لذلك هو سعيها لكسب المناصرة الأمريكية أثناء توتر العلاقات بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية بعد قصف فرنسا لساقية سيدي يوسف في فيفري 1958 باستخدام سلاح من صنع أمريكي).

هذا وقد لخص محمد يزيد[3] أثناء ترأسه وزارة الإعلام في الحكومة المؤقتة الجزائرية النشاط الدولي لجبهة التحرير الوطني منذ اندلاع الثورة في ثلاث نقاط[4]:

– إخراج القضية الجزائرية من الإطار الفرنسي.

– جعل القضية الجزائرية في مستوى القضيتين التونسية والمغربية.

– إبلاغ الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي بالقضية الجزائرية، وإثارة حركة تضامنية واسعة وذلك إنطلاقا من أن ميثاق الأمم المتحدة المصادق عليه في مدينة سان فرانسيسكو في جوان 1945 قد تعرض في مادته الأولى الى حق تقرير المصير، حيث نص على أن أحد أهداف هيئة الأمم المتحدة هو: أن تنمي بين الأمم العلاقات الودية المبنية على مبدأ المساواة في الحقوق لكل الشعوب وحقها في تقرير مصيرها بذاتها"[5]. كما أكد الميثاق هذا المبدأ في فصله التاسع المخصص للتعاون الدولي الإقتصادي والإجتماعي. ومن أجل

تأكيد هذا المبدأ فان الجمعية العامة للأمم المتحدة قد دعت الى إدراجه في صلب مواثيق حقوق الإنسان والمواثيق الدولية الأخرى وأدرج أيضا في ميثاق الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر بتاريخ 10 ديسمبر 1948.

لتحقيق هذه الأهداف ولكي تكون في مستوى تطلعات الثورة الجزائرية، ارتكزت الدبلوماسية على دعائم أساسية أهمها انشاء ممثليات للجبهة انتشرت عبر العالم خاصة بأوربا(لندن، روما، مدريد، ستوكهولم...[6])، يعود الفضل في إنشاءها الى رجال كثر على رأسهم أحمد بن بلة، محمد خيضر، آيت أحمد، محمد يزيد وعبد القادر شندرلي من مهامها إيصال صوت الجزائر إلى الجميع وإقناع المجتمع الدولي قاطبة بالاعتراف بجبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي والوحيد للثورة والناطق الرسمي باسمها وبحق الشعب الذي تمثله في تقرير مصيره. لقد سعت هاته الممثليات الى المشاركة في مختلف التجمعات الثقافية والطلابية والعمالية العالمية، كما دأبت على نشر الدعاية المكتوبة عن طريق الوثيقة والفيلم والمقال الصحفي إظافة إلى تنظيم الندوات والتظاهرات يدعمها في مهامها تلك ذلك المجهود الحربي وتلك التضحيات الجسام وكذا صبر الشعب على محن التعذيب والتشريد والقهر الاستعماري من داخل التراب الوطني.

أما بخصوص الهيئة الأممية رأسا، فقد اهتمت جبهة التحرير بربط علاقاتها معها عن طريق مكتب الجبهة الاعلامي في نيويورك الذي أرسيت دعائمه سنة 1955 أين اتخذ من حي 150مسكن رقم 56 بشارع الشرق مقرا له. عاش بهذا المقر كل من عبد القادر شندرلي وزوجته الايطالية ومحمد يزيد(في تعريف محمد يزيد وعبد القادر شندرلي انظر الهوامش آخر المقال). أما إدارة العمل فقد ساعد فيها ثلاث سكرتيرات:

- آنAnne: (21 سنة كمساعدة لمحمد يزيد)، بربرا Barbara: (أمريكية يهودية من أصل جورجيني، اهتمت بالتصحيح اللغوي والصياغة الأدبية لكتابات شندرلي) وأوليفOlive: زوجة أمريكية لمحمد يزيد. ويذكر أن الرسائل التي كان المكتب في تونس يتلقاها من هذا المكتب في نيويورك لم تتوصل المخابرات الفرنسية لفك شفرتها، لقد كانت رسائل يسأل فيها يزيد عن صحة زوجته زيتونة (Olive)[7].

وكما قلنا فقد كان هذا المكتب على صلة بهيئة الأمم المتحدة في إطار نشاطه الدبلوماسي، وعلى صلة أيضا بالرأي العام الأمريكي في إطار نشاطه السياسي. وللدخول الى منابر هذه الهيئة وإسماع صدى الثورة، عملت جبهة التحرير الوطني على استغلال الظروف الدولية التي كانت مساعدة لذلك. فعلى المستوى العالمي تعزز المعسكر الشرقي بانتصار الثورات الشعبية بقيادات شيوعية في أكثر من بلد وتكون المعسكر الاشتراكي مما شكل سندا كبيرا لحركات التحرر الوطني وحق الشعوب في تقرير مصيرها. وبالمقابل تراجع المعسكر الغربي الذي خرج من الحرب العالمية الثانية منهوك القوى ودخل في أزمات اقتصادية وسياسية عميقة و لم يعد قادرا على تسيير مستعمراته بصفة مباشرة. وتزامن ذلك مع صعود قوة إمبريالية جديدة متمثلة

في الولايات المتحدة الأمريكية والتي سعت إلى خلق ظروف سانحة لبسط نفوذها وافتكاك حصتها من خيرات وثروات الشعوب التي لم تكن تحت هيمنتها وإنما كانت تحت هيمنة القوى العظمى القديمة وخاصة فرنسا وبريطانيا. وعلى الصعيد العربي لعب جمال عبد الناصر وثورة 1952 المصرية دورا هاما في دعم حركات التحرر الوطني العربية وخاصة عبر إذاعة القاهرة التي كانت تشحذ عزائم الشعوب العربية من أجل تصفية الاستعمار.أما في المغرب العربي فقد تعاظم النضال الشعبي في مواجهة الاستعمار، فتكونت (لجنة تحرير المغرب العربي) برئاسة محمد عبد الكريم الخطابي التي بدأت بتنظيم النضال المسلح منذ بداية 1952 في تونس ثم المغرب الأقصى ولاحقا الجزائر. أما على صعيد العالم الثالث فقد كانت حركة عدم الانحياز سندا قويا لحركات التحرر الوطني بدعوتها إلى مواجهة الاستعمار. من هنا سعى آيت أحمد في إطار النشاط الدبلوماسي باتجاه دول العالم الثالث إلى الوصول إلى تمكين جبهة التحرير الوطني من المشاركة في مؤتمر باندونغ بأندونيسيا في 18 أفريل عام1955 بأن عمل على إقناع كل من نهرو والوزير الأول شوان لاي والرئيس عبد الناصر على دعم الجزائر في المطالبة بالمشاركة في فعاليات المؤتمر[8]. وقد حقق وفد جبهة التحرير الوطني برئاسة محمد يزيد- بعد حضوره كملاحظ ضمن وفد الجمهورية المصرية- أول انتصار له على المستوى العالمي بصدور قرار عن المؤتمر الأخير بعد خمسة أشهر ونصف من اندلاع الثورة ينص على الاعتراف الصريح باستقلال الجزائر وعن حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره والاستقلال[9]. والحقيقة أن مقررات مؤتمر باندونغ تدخل ضمن الإقرار بمبادئ الأمم المتحدة، أي أن هذا المبدأ تكرس في ميثاق الأمم المتحدة واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بشأنه في 1952 تطلب فيه من الدول الأعضاء العمل من أجل وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ [10].

2- آثار العمل الدبلوماسي الجزائري سنة 1955 على الحركات التحررية وحقوقها المشروعة داخل الهيئة الأممية:

لقد كانت أولى النتائج العملية لمقررات مؤتمر باندونغ السالفة الذكر هي مراجعة الكثير من الزعماء الوطنيين ورؤساء الحكومات في إفريقيا وآسيا لسياساتهم القديمة التي كانت تلاين الاستعمار وإعطاء معنى الاستقلال التام لبلادهم محتوى سياسي واقتصادي واجتماعي لا استقلالا شكليا. ونتيجة لهذا الوعي السياسي امتدت رقعة الحرية ودعمت أركانها في جميع أركان القارة الآسيوية [11].

بعد ذلك بثلاثة أشهر، قدم مندوب المملكة العربية السعودية مذكرة إلى رئيس مجلس الأمن يحيطه علما بضرورة الانتباه للمشكل الجزائري أين يشرح الحالة الخطيرة التي وصل لها الشعب الجزائري موضحا أن ذلك يعتبر بمثـــابة تهديد للسلم والأمن الدوليين، تبعتها مراسلة مجموعة الدول الأفروآسيوية (أربعة عشر دولة) إلى الأمين العام للهيئة في 26 جويلية 1955 تطلب فيها تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الدورة العاشرة للجمعية العامة. وقد كان لهم ذلك بأن أدرجت القضية لأول مرة في تاريخ الهيئة بقرار اتخذته الجمعية في 03 جانفي 1955

بأغلبية 28 صوتا ضد 27 وامتناع 05[12]. إلا أن الهيئة أنهت دورتها في ذلك العام دون أن تلتفت إلى الوضعية في الجزائر وذلك بسبب المناورات الفرنسية حيث توصلت فرنسا إلى الاتفاق مع تونس بشأن منحها الاستقلال الذاتي، وأظهرت استعدادها للوصول إلى حل فيما يخص القضية المغربية مما جعل الوفود الدولية في الهيئة تعتقد أن فرنسا ستتوصل إلى حل للمشكلة الجزائرية، كما ناورت مع الهند عندما قدم مندوبها في 25 نوفمبر 1955 عريضة تتضمن إلغاء القضية الجزائرية من جدول الأعمال [13]، هذا إضافة إلى إدعاءات فرنسا بأن القضية الجزائرية قضية داخلية وأنها لن تسمح لأحد أن يتدخل فيها بناءا على نص المادة 2 من الفصل السابع لميثاق الهيئة والتي جاء فيها: "ما من شيء في هذا الميثاق يسمح للأمم المتحدة بأن تتدخل في قضايا تتعلق أصلا بالصلاحيات الوطنية لأية دولة من الدول"[14] فضلا عن اعتبار المشاركين في المؤتمر ليس لديهم صلاحية النظر في هذه القضية بناءا على نص (المادة1 فقرة 2).

وقد اعتمدت فرنسا في رفض ذلك أيضا على وقائع التاريخ، حيث أشارت إلى أن الجزائر قد ضمت إلى فرنسا بمقتضى مرسوم ملكي صدر عام 1834، والضم عن طريق القوة لا يمكن أن يعتبر عملا غير مشروع لأن الوحدة الترابية لفرنسا تحققت بانضمام أقاليم طواعية والأخرى عن طريق القوة مثلما حدث لمقاطعة بوقنديا في شرق فرنسا ومقاطعة الروسيون في جنوب غربها حيث ضمتا بالقوة. وردا على كل اعتراض حول كون هذا الحدث في الماضي البعيد نسبيا قبل العصر الحاضر وبالتالي لا يمكن القياس عليه، أوردت مثالا لمقاطعتين ضمتا إليها بعد ضم الجزائر وهما مقاطعتا نيس وسافوا لتخلص في النهاية إلى نتيجة وهي كون الجزائر جزء من الأراضي الفرنسية وسكانها هم مواطنون فرنسيون، لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات[15]. والحقيقة أن الوفد الفرنسي توقف عن حضور جلسات الجمعية العامة من هذا التاريخ و غادر وزير الخارجية الفرنسي أنطوان بيناي الجلسة و لم يعد ليحتل مكانه داخل القاعة إلى غاية تاريخ توقف البحث في هذا الموضوع[16].

إذا، وفي الختام النتيجة المنطقية لكل هذه الأحداث هو أن الثورة الجزائرية استطاعت أن تحقق جملة من الأمور في هاته الفترة بالذات:

ـ أن مجرد السماح بطرح القضية الجزائرية على هذا المنبر يوضح أن الهيئة الأممية قد اتجهت نوعا ما إلى التدخل في إيجاد حلول للمشاكل الاستعمارية وقد أضحى لها على ما يبدو القدرة على ممارسة ضغوط سياسية أكبر من أجل تحرير الشعوب المستعمرة.

– أن المجتمع الدولي قد أصبح من المتنكرين لظاهرة الاستعمار.

– أن الحكومات العربية واجهت في سبيل تدويل القضية الجزائرية صعوبات جمة من ذلك مثلا العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 وهو العدوان الذي جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تستعيد شرعيتها الدولية باستعادة الدول المستعمرة ثقتها بها كحامي للسلم والأمن الدوليين بعدما أدانت هاته الأخيرة هذا العدوان.

3 – العمل الدبلوماسي بعد 1955 وتداعياته:

ولعل هذه الأجواء التي خلقتها الثورة الجزائرية بتداعياتها الدولية هي التي زادت من حماسة العمل لدى ممثلي الجبهة ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في الأمم المتحدة أين تحصل شندرلي من السلطات الأمريكية على رتبة عون خارجي Agent Etranger وهي الرتبة التي سمحت له بالتنقل في كواليس هيئة الأمم المتحدة كما أراد والتي حاولت ممثلية فرنسا تجريده منها. وهناك استطاع أن يخلق دعاية قوية للثورة أزعجت فرنسا، ويكفي هنا فقط القول بأن مراسلاته إلى الحكومة المؤقتة كانت تصل باسم (الجزائر الحرة) Algérie Libre وهو نفس العنوان الذي حملته نشرة الأخبار اليومية لجبهة التحرير الوطني والتي كانت تصدر بنيويورك بما يقارب 28000 نسخة يوميا في إشارة إلى أن الجزائر حرة وليست مستعمرة. و لم يكن ليخفى على السلطات الفرنسية أن وراء هذا العمل كانت هناك مجموعة عمل قوية تساندها الدول العربية. عملت ممثلية جبهة التحرير الوطني في نيويورك أيضا على استغلال الصحافة الأمريكية، ويذكر عن شندرلي أنه كان يردد قوله إن الولايات المتحدة الأمريكية بلد الحقائق، فلنعطي إذا الحقائق... ليس حقائقنا، بل حقائق الآخرين، حقائق الفرنسيين الذين ينتقدون هذه الحرب. وكانت وسيلة شندرلي في التعرف على (حقائق الآخرين) هي الصحافة الفرنسية مثل صحف L'Expresse و Le Monde وغيرهما[17] .

لقد عرف كيف يستغل حرية الصحافة خاصة موضوع فضحها للأساليب الاستعمارية. ومن هنا عرف كيف يستغل الصحافة الأمريكية إذ لم يكن يمر أسبوع إلا وتنشر جريدة New York Times أو جريدة Time [18] رسالة من جبهة التحرير الوطني أو ردا موجها إليها أو منها، وهو ما ساهم في تنوير الرأي العام الأمريكي وممثليات الدول في الأمم المتحدة بالمعلومات عن الثورة الجزائرية. أضف إلى ذلك سلسلة اللقاءات الصحفية التي كانت تصدر عبر الجرائد، الراديو، التلفزيون... ومجموعة الملتقيات واللقاءات والمناقشات وكذا نجاح شندرلي في الدخول إلى قاعات المحاضرات والمؤتمرات الجامعية في جامعات هارفرد Harvard،برينشتون Brinceton بركلي Berkely وكولمبيا Columbia أين كان يقدم نفسه على أنه ممثل الثورة الجزائرية. وهناك استطاع أن يستخدم مَثَل الثورة الجزائرية لشرح تاريخ إفريقيا، كان هدفه الوحيد هو أن يتحدث عن الثورة الجزائرية دون أن يثير ذلك هلعا في نفوس المستمعين. ويكفي الإشارة لندلل على نجاح الدبلوماسية الجزائرية إلى خطاب السيناتور كنيدي قبل أن يصبح رئيسا للولايات المتحدة الامريكية سنة 1960 الذي ألقاه أمام مجلس الشيوخ في 02 جويلية 1957- أي قبل عيد الاستقلال الأمريكي بيومين[19] – وقد حمل كعنوان: (الإمبريالية عدو الحرية)، و اختص بالحديث الجزائر والإستعمار الفرنسي حيث جاء فيه:

"إن الحرب الجزائرية تضع الولايات المتحدة الأمريكية في أخطر مأزق عرفته منذ أزمة الهند الصينية، ومع ذلك فإننا لم نفعل شيئا لمواجهة هذه المشكلة... إن جميع المواقف التي اتخذها

ممثلونا سواء في واشنطن أو في باريس أو في الأمم المتحدة هي مواقف مؤلمة، ومن واجبي أن أصرح بذلك بصفتي رئيسا للجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ المكلفة بمسائل الامم المتحدة...لقد دقت الساعة التي يجب على حكومتنا أن تعتبر فيها أن المشكلة الجزائرية لم تعد مشكلة فرنسية بحتة..."[20]

ولعل أكبر انتصار دبلوماسي حققته الدبلوماسية الجزائرية كان على منبر الهيئة الأممية إذ سمح للقضية الجزائرية بأن تدرج في جدول أعمالها لمدة سبع وثمانية أسابيع كل سنة وهو ما كان يمثل ملايين المقالات التي كانت تنشر في كبرى صحف العالم. ولعل منطق الشرعية في قرارات هذه الهيئة والذي اتخذته خاصة بعد العدوان الثلاثي على مصر هو الذي أدى الى إصدار قرار الجمعية العامة الشهير بالرقم 1415 في منتصف ديسمبر 1960 وهو قرار تحرير المستعمرات. و الحقيقة هي أنه إعلان تاريخي أكد على ضرورة وضع حد فوري ونهائي للإستعمار في كافة أشكاله وصوره وان كافة الشعوب لها الحق في تقرير مصيرها وأن تختار بحرية نظامها السياسي وأن تحقق تطورها الإقتصادي والإجتماعي والثقافي. وأوضح البيان أن أي نقص في النضج السياسي والإقتصادي والإجتماعي والثقافي لا يمكن أن يبرر تأخير منح الإستقلال ويضيف الإعلان بأن الدول الأطراف في هذا الميثاق ملزمة بالإسراع في تحقيق وتجسيد حق تقرير المصير. ومن أجل تحقيق هذا المبدأ أنشأت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1961 لجنة خاصة تدعى (اللجنة الخاصة المكلفة بدراسة الوضع فيما يتعلق بتطبيق إعلان منح الشعوب المستعمرة استقلالها) والتي تعرف بلجنة الـ24 نسبة الى عدد أعضائها وهي مشهورة بشكل خاص تحت اسم (لجنة تصفية الإستعمار)[21]. وبذلك يمكن القول أن الحركة الثورية لتحرير الجزائر كانت بمثابة الدافع القوي لتأييد قضية تصفية الإستعمار في العالم كله حتى وإن كانت -أثناء صدور هذا القرار- لم تستفد منه كونها قد كانت قد دخلت في مفاوضات مع فرنسا.

خـــاتمـــة

لقد أولت الثورة الجزائرية العمل الدبلوماسي أهمية بالغة كان من نتائجه تحقيق العديد من المكتسبات لصالح الاولى خاصة بمنبر الأمم المتحدة. ولعل النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة تظهر أن:

- يعتبر العمل الدبلوماسي من أجل كسب التأييد للثورة الجزائرية مبدءا هاما من المبادئ التي تضمنها بيان الفاتح من نوفمبر 1954.
- لم تدخر الدبلوماسية الجزائرية جهدا في العمل على إنشاء ممثليات لها في كامل العواصم العالمية والمنظمة الدولية التي كانت تمثل الشرعية الدولية آنذاك - الهيئة الأممية.
- قام ممثلو الجزائر في هاته الهيئة على كسب الرأي العام العالمي الى جانب القضية الجزائرية من حيث منح الجزائر حقها في تقرير مصيرها كمبدأ من المبادئ التي أقرها ميثاق الهيئة.

– كان للدول العربية الفضل الكبير في السعي لطرح القضية الجزائرية في الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة على اعتبارها مهددة للأمن والسلم الدوليين.

– رغم المواقف الفرنسية الرافضة لطرح القضية الجزائرية على اعتبار أنها مسألة داخلية إلا أن مجرد قبول الجمعية العامة عرضها يعتبر نجاحا دبلوماسيا للجزائر.

– ساهمت الجزائر من خلال المطالبة بتطبيق حق تقرير في إيقاض الشعوب المستعمرة من سباتها لتحذو حذو الجزائر.

– كان لميل الأمم المتحدة نحو التفرغ أكثر لمعالجة مشاكل الإستعمار– بفعل الضغوطات الأمريكية التي أصبحت تمارس عليها والتي كان للثورة الجزائرية دور كبير فيها– الأثر الكبير في تحرر العديد من دول العالم خاصة بعد صدور القرار 1415 والقرارات الملزمة على تطبيقه.

– على الرغم من العمل الجبار الذي ساهمت به الجزائر–حتى ولو بطريقة غير مباشرة– في صدور هذا القرار إلا أنها في الحقيقة لم تستفد منه كونها كانت قد دخلت في مرحلة متقدمة من المفاوضات الجزائرية–الفرنسية.

الهوامش

[1]- وزارة الثقافة والإعلام ، **ملفات وثائقية : نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني (1954-1962)**، قسنطينة ، مطابع النصر ، 1976 ، ص ص . 12-14.

[2] - سليمان الشيخ ، **الجزائر تحمل السلاح أو زمن اليقين** ، ترجمة محمد حافظ الجمالي، بيروت، الدار المصرية اللبنانية ، 2003، ص ص. 352-355.

[3]- ترأس محمد يزيد مكتب نيويورك إلى ديسمبر 1958، تاريخ التحاقه بمنصبه بوزارة الإعلام للحكومة المؤقتة الجزائرية. وقد خلفه في ذلك المنصب بنيويورك عبد القادر شندرلي يساعده رؤوف بوشقجي.

[4] -محمد يزيد ، "ذكريات من العمل الدبلوماسي"، مجموعة أعمال **الملتقى الوطني الدبلوماسية الجزائرية من 1954 الى 1962** ، المتحف الوطني للمجاهد ، بدون تاريخ ، ص. 105.

[5] -غضبان مبروك ، المرجع السابق ، ص ص. 446 - 447 .

[6]- محمد يزيد، المرجع السابق ، ص.107.

[7] -Alistair Horne , **A Sauvage War of Peace: Algéria (1954-1962),** Great Britain, Western printing Services, 1977, p. 245.

[8] - رياض الصمد، **العلاقات الدولية في القرن العشرين** (الجزء الثاني)،مؤسسة الأبحاث العربية ، 1988، ص.275.

[9] -جمال قنان ،" تشكيل الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية نقلة نوعية في دبلوماسية جبهة التحرير الوطني" ، **الذاكرة**،المتحف الوطني للمجاهد، السنة الثالثة، العدد الرابع، 1996، ص. 11.

[10] -محمد الميلي ، **مواقف جزائرية**، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984 ، ص.105.

[11]- Mohammed Harbi, **Les Archives de la Révolution Algérienne**, Document36, Editions jeune afrique,S.A.E, p.17.

[12] - "تطور القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة"،**المجاهد**، العدد10 ، 5 سبتمبر 1957 ، ص.09.

[13] - سليمان الشيخ ، المرجع السابق ، ص .504.

[14]- جمال قنان ،المرجع السابق ، ص.12.

[15]- رياض الصمد، المرجع السابق، ص280..

[16]-Abdelmadjid Belkheroubi, "Les aspects internationaux de la révolution algérienne",Acte du **colloque Retentissement de la révolution algérienne dans le monde**, Alger, S.A.E, p. 49.
[17]- Alistair Horne , op.cit, p.246.
[18] - Férial FATES , "La lutte de libération algérienne vue par le magazine Time", Acte du **colloque Retentissement de la révolution algérienne dans le monde**, Alger, S.A.E, , pp.34-40.
[19]- Alistair Horne , op.cit, pp. 400,401.
[20]- **مجلة المجاهد**، الجزء الثالث،عدد14،82ديسمبر1960،ص ص.04-05.
[21]- غضبان مبروك، المرجع السابق ، ص . 448.

مسألة الديمقراطية في فلسفة هابرماس

أ / نابت عبد النور
المركز الجامعي بالبويرة

مقدمـــة

إن التغيرات السياسية التي عرفها العالم بعد سقوط جدار برلين(1989) وتفكـــك الاتحـــاد السوفيتي، أعادت موضوع الديمقراطية إلى واجهة الفلسفة السياسية خاصة في كتابات الفلسفة الألمانية المعاصرة مع يورجن هابرماس (1929-)[1].

الذي أراد فهم هذه التحولات السياسية من خلال تحليل المؤسسات الديمقراطيـــة الغربيـــة مراجعا المبادئ الديمقراطية (الحرية، العدالة، السيادة، حقوق الإنسان)، مع تجاوز منطق الصراع الاجتماعي الطبقي الذي ميز الكتابات الفلسفية السياسية الماركسية وهذا ما وقف عليه يورجن هابرماس في كتابه الحق والديمقراطية بين الوقائع والمعايير.

سنحاول في هذه الدراسة معالجة مسألة الديمقراطية لدى هذا الفيلسوف الألماني من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية:

1 – لماذا الدعوة إلى ديمقراطية تداولية؟

2 – كيف يمكن تجسيد هذا الشكل من الديمقراطية؟

3 – ما هو مستقبل الديمقراطية التداولية في ظل تنامي ظاهرة العولمة؟

ولتوضيح هذه العناصر كان لا بد من الربط بين أزمة الحداثة الغربية وفكـــرة الديمقراطيـــة باعتبارها قيمة أخلاقية وسياسية مع توضيح نظرية أخلاقيات النقاش (وضعها هابرمـــاس مـــع كارول أتو أبل) كقاعدة أخلاقية معيارية لنظرية الديمقراطية التداولية (أول من تحدث عن هذا الشكل الفيلسوفة الألمانية حنة أرندت ولكن المنظر الأساسي لهذه الديمقراطية هو هابرمـــاس) والتي دعمت نظريا بفكرة الوطنية الدستورية والمواطنة العالمية وهذا بفعل التحديات الجديـــدة التي فرضتها العولمة .

الحداثة والديمقراطية

لفهم العلاقة بين الحداثة والديمقراطية يجب الرجوع إلى ماكتبه الفيلسوف الألماني الأمريكي الجنسية ليو ستروس (1899-1973)، الذي قال : إن أزمة الحداثة ، إذا هي في المقـــام الأول

أزمة الفلسفة السياسية الحديثة ....والحداثة تبعا لمفهوم شائع جدا إيمان ديني دنيوي... وبطريقة أبسط : ليس المبتغى هو الحياة في الجنة، بل تحقيق الجنة فوق الأرض بوسائل إنسانية صرفة.(2)

وتبدأ الحداثة مع ماكيفلي (1469-1527) وهوبز (1588-1679) اللذان اختزلا المشكل السياسي والأخلاقي في المشكل التقني . وأصبح مفهوم الطبيعة كما لو كان في حاجة إلى تغليفه بالحضارة كمجرد شيء اصطناعي.(3)

بعد هذه الموجة تأتي الموجة الثانية مع روسو (1712-1778) الذي وضع مفهوما جديدا في الفلسفة السياسية سماه الإرادة العامة وجعلها مصدرا للقانون الوضعي.

أما الموجة الثالثة فتنسب إلى نيتشه(1844-1900) الذي فهم عصره على أساس جديد للشعور بالوجود: وهذا الإحساس هو تجربة الرعب والمعاناة بدل الانسجام والسلام وهو كذلك احساس بالوجود التاريخي باعتباره مأساويا بالضرورة.(4)

يعتقد ليو ستروس أن نظرية الديمقراطية الليبرالية مثلها مثل الشيوعية، كانت ناتجة عن الموجة الأولى والثانية للحداثة، في حين أن التجسيد السياسي للموجة الثالثة تبين أنه الفاشية. ومع ذلك فهذه الحقيقة، التي لا يمكن دحضها، لا تسمح لنا بالعودة إلى الأشكال المبكرة للفكر الحديث: فنقد العقلانية الحديثة ، أو نقد الإيمان الحديث بالعقل والذي قام به نيتشه لا يمكن نكرانه أو نسيانه وهذا هو السبب العميق في أزمة الديمقراطية الليبرالية.(5)

إن هذا الإطار التاريخي للحداثة كما بينه ليو ستروس مقدمة لفهم التحليل النظري والسوسيولوجي الذي سيطرحه هابرماس في كتابه نظرية الفعل التواصلي: معقولية الفعل وعقلنة المجتمع (1981) الذي يعتبر بمثابة فتح جديد في الفلسفة الغربية المعاصرة على الرغم من غلبة الطابع السوسيولوجي ويرجع هذا إلى اعتقاد الفيلسوف الألماني **هابرماس** "أن الفلسفة لم يعد بوسعها أن ترتبط بالعالم ككل، أي بالطبيعة والتاريخ والمجتمع، بوصفها معرفة شمولية، وانه ينبغي الآن التحري عن الموضوع الأساسي في الفلسفة، أي العقل، داخل الإطار النظري لعلم الاجتماع، باعتباره علما عقلانيا".(6)

ومن هذا المنطلق، عالج **هابرماس** ظاهرة العقلانية الغربية بالرجوع إلى تحليلات ماكس فيبر (1864-1920) السوسيولوجية الذي يرى في تطور الرؤية الدينية للعالم عاملا مهما في الانتقال إلى الحداثة، ذلك أن أخلاق الزهد البروتستانتية هي التي صنعت الرأسمالية، فالثقافة الدينية الجديدة عقلنت الاعتقاد الديني ومن ثم ساهمت في عقلنة المجتمع والرؤى الدينية للعالم تؤسس لأساليب سلوك أساسية تجاه العالم.(7)

يعتقد **هابرماس** أن نظرية فيبر في العقلنة الاجتماعية تقوم على نموذج الفعل الغائي أو الأداتي، وهذا التصور أدى إلى تحول مجالات الفعل التواصلي إلى مجرد أنظمة ثانوية للفعل العقلاني الغائي (يشخص هذا الفعل في تعامل الانسان الغربي مع أفراد مجتمعه و مع الطبيعة بطريقة حسابية غير خاضعة للقيم)، وكنتيجة لذلك انتقلت سيطرة الإنسان على الطبيعة إلى السيطرة على الإنسان نفسه، وأصبح العلم الطبيعي نموذجا لسائر العلوم الأخرى الإنسانية

والاجتماعية، وأدى ذلك إلى تشاؤم فيبر من تطور الحداثة، ففي تحليله للعالم المعاصر يشخص المجتمع الغربي من خلال مفهومي فقدان المعنى وفقدان الحرية، ويرجع هذه المعاناة إلى تمايز مجالات القيم الثقافية المستقلة (الحق، الفن، الأخلاق) والذي كان ضروريا لبدايات عملية عقلنة المجتمع الذي أدى إلى فقدان المعنى، أما فقدان الحرية فكان نتيجة الاستقلال المضطرد للأنظمة الثانوية في للفعل العقلاني الغائي الذي هو أحد خصائص تطور المجتمع الغربي.[8]

لا يتفق **هابرماس** مع هذه الروح التشاؤمية معتقدا أن فيبر عندما صاغ عبارة الوثنية الجديدة كان يعبر عن أطروحة فقدان المعنى وهذه الفكرة كانت تعكس لنا تجربة جيل فكري متأثر بعدمية نيتشه[9] ، كما أن التمايز الذي تم بين الأنظمة الثقافية للفعل تتطور فيه المعرفة الثقافية تحت أحد الجوانب الكلية للصلاحية ولا يقود بأي حال من الأحوال إلى نزاع بين أنظمة حياة لا مجال لالتقائها فمرجعيتها مجالات قيم ثقافية متمايزة ومستقلة. والخطأ الفادح الذي وقع فيه فيبر هو عدم تفرقته بين هذه الأنظمة الثقافية للفعل والأنظمة الاجتماعية للفعل مثل الاقتصاد والدولة والأنظمة الأخيرة تتكون حول قيم عينية محددة مثل الثروة والسلطة، وفقط مع هذا التحول المؤسسي لأمور قيمية مختلفة، تنشأ علاقات تنافس بين اتجاهات لاعقلانية للأفعال، أما عمليات العقلنة التي ترتبط بمركبات العقلانية العامة الثلاثة (العقلانية الأداتية، العقلانية الجمالية، العقلانية الأخلاقية)، فهي تتضمن بنيات معرفية مختلفة ولذلك لا ينشأ بينها نزاع ولكن قد تطرح تساؤلات حول الكيفية التي يتم بها الانتقال من مركب عقلانية إلى مركب عقلانية آخر.[10]

أما موقف **هابرماس** من الاستنتاج الثاني الخاص بفقدان الحرية فهو يأخذ صفة الازدواجية فلقد أصاب فيبر في نظر هابرماس من تأكيده على معاناة الإنسان من غياب الحرية نتيجة سيادة العقل الأداتي في المجالات العملية (السياسة، الاقتصاد)، ولكنه أخطأ عندما اعتبر فقدان الحرية جوهرا ضروريا في الحداثة الغربية ومصير لا يمكن تفاديه طالما أن عقلنة المجتمع يترتب عليه بالضرورة سيادة الفعل العقلاني الأداتي في كل الأنظمة الثانوية للمجتمع بحيث يصبح مؤكدا أن تجري الأمور فيها بعيدا عن إرادة الناس واختياراتهم. [11]

استمرت أفكار ماكس فيبر في التأثير على تيار الماركسية الغربية مع **لوكاتش** (1885-1971) الذي رأى في الفعل العقلاني أمرا مؤقتا وعارضا يرتبط بالرأسمالية كممكن تاريخي والتي تعاني من تشوه أو خلل أساسي أسماه بالتشيؤ والذي طوره **لوكاتش** من التحليل الماركسي لنمط الإنتاج الرأسمالي القائم على العمل المأجور الذي يحول بالضرورة العمل من وظيفة إنسانية إلى بضاعة. [12]

غير أن **لوكاتش** وعوض التفكير في تجديد مشروع الحداثة أكمل تصوره للتشيؤ بنظرية الوعي الطبقي على الرغم من أن الستالينية تمثل أداتيه أخرى ومن هذه الخلفية يرى **هابرماس** أن **لوكاتش** عاد مرة أخرى إلى المثالية الموضوعية.[13]

ويفهم نقد التشيؤ كنقد للعقل الأداتي والذي كان مفهوما أساسيا لـــدى **هوركـــايمر** (1895-1973) **وادورنو** (1903-1969) ويتفق هؤلاء مع فيبر في تشخيص الزمن الراهن في النقاط التالية:

1 – انهيار مصداقية صور العالم الدينية والميتافيزيقية أمام محاكمة العقلنة من خـــلال نقـــد فلسفة التنوير للاهوت والانطولوجيا.

2 – تمايز قيم المظاهر الثقافية أعطى شرعية للعقلنة الاجتماعية ومن نتائج ذلك أن أصـــبح الإيمان والمعرفة من المسائل الذاتية، وبقي العلم في إطار الفعالية العقلية الغائية وفقد الارتبـــاط بالممارسة التواصلية.

3 – أصبح العقل الأداتي أداة للمحافظة على الذات في وقت يتصارع أفراد المجتمع حسب عقائد لاعقلانية.

4 – تباعد المجالات الثقافية للعلم والفن والأخلاق مسألة غير معقولة.[14]

كان نقد الحداثة من طرف **فيبر ولوكاتش** وتيار واسع من مدرســـة فرانكفـــورت أحـــد العوامل الأساسية في التفكير حول نظرية تحررية لغوية تعيد للفعالية التواصلية أهميتـــها بعـــدما كانت أنظمة ثانوية تابعة للعقل الأداتي، ذلك أن اللغة الـــسياسية والاقتـــصادية والإعلاميـــة أصبحت أدوات تستخدم لتحقيق غايات نفعية وهذا ما يفهم من خـــلال نقـــد **هوركـــايمر وأدورنو** للإيديولوجيات الفاشية التي استغلت السينما والأدب والأحزاب السياسية لتحقيـــق مطامح سياسية.

لهذا السبب كانت الديمقراطية في صلب اهتمامات **هابرماس** الفلسفية السياسية، ففي كتابه نظرية الفعل التواصلي يركز **هابرماس** على فكرة أخلاقيات النقاش التي هي جـــوهر النظريـــة الديمقراطية لديه ذلك أن فكرة التفاهم بين الأطراف المشاركة تحتاج إلى شروط ضرورية تلـــزم كل طرف مشارك في الحوار، غير أن الجانب المهم في نظرية أخلاقيات النقـــاش هـــي تلـــك المقاييس التي يجب على أطراف التواصل مراعاتها لتحقيق هذا الهدف وهـــي كمـــا حـــددها: الحقيقة والدقة والصدق، كما أن استمرار الفعل التواصلي مرهون باستخدام الحجـــة العقليـــة وحتى لو أفضى هذا التواصل إلى الاختلاف لا يجب اللجوء إلى القوة.[15]

الديمقراطية التداولية

كعادة الفلاسفة المحدثين انتقل **هابرماس** من إطار النظرية الاجتماعية والأخلاقية إلى إطـــار النظرية السياسية والتي أراد فيها أن يؤسس لنظام ديمقراطي تداولي قائم علـــى فكـــرة مبـــدأ المناقشة.

في البداية يحلل **هابرماس** نظرية الحق الكانطية لاستجلاء جوابه عن مشكلة المشروعية التي يستند إليها الحق والقانون من جهة، ومبينا في نفس الوقت محدودية هذه النظرية في ردم الهـــوة بين عرضية الواقع ومشروعية المعايير، وبين إجبارية القانون والحرية الذاتية للفعل مـــن جهـــة أخرى. يقول **هابرماس:** ما يهمنا من **كانط** في هذا السياق في المقام الأول هو مفهوم الشرعية

الذي يفسر **كانط** بواسطته وانطلاقا من الحقوق الذاتية الشكل المعقد لصلاحية الحق والقانون.[16]

انتهى فحص **هابرماس** لمسألة الحق عند **كانط** من زاوية الصلاحية والمشروعية إلى المحصلة التي تفيد بأنه لا يمكن تأسيس الحق على مجرد العقل بوصفه المحكمة العليا للتشريع، كما انه من الصعب الاكتفاء بمفهوم التحديد الذاتي الذي يسمح للذات المستقلة بأن تشرع لذاتها قوانينها الخاصة، مثلما أنه من الصعب التوفيق بين حرية الفعل والإكراه القانوني، من دون إرساء منظور تواصلي يسمح بإيجاد معايير مشتركة.[17]

يتساءل **هابرماس**: كيف أمكن **لكانط** أن انتقل من الحق الخاص الحامل للحريات الذاتية إلى الحق العام الضامن للمساواة؟ وبمعنى آخر كيف يلائم الحق الذاتي الذي لا أطيع فيه سوى القوانين التي شرعتها لنفسي بصفتي إنسانا (الحرية وحقوق الإنسان والحق الموضوعي الذي أكون ملزما فيه بالقوانين المدنية (الحقوق المدنية)؟ بالنسبة لهابرماس لم يستطع **كانط** وروسو تحقيق التقاطع بين الحقوق الذاتية والحقوق المدنية[18]، على الرغم من استعانة الأول بنظرية التعاقد، يقول **هابرماس**: "إن **كانط** يقدم صيغة ليبرالية للاستقلالية السياسية، بينما يقدم روسو صيغة جمهورية للاستقلالية العمومية"[19].

يدعو هابرماس إلى تجاوز فلسفة الوعي ووضع التشريعات على أساس مبدأ المناقشة الذي يرتكز على قواعد الحجاج واعتبار المبدأ الأخلاقي قاعدة من قواعد المحاججة وليس حجة قطعية كما يرى **كانط**، يقول **هابرماس**: "أفترض أن المبدأ نفسه (مبدأ المناقشة يرتكز على علاقة الاعتراف المتبادل التي تسكن أشكال الحياة المنظمة والمهيكلة بواسطة التواصل وقواعد الحجاج التي تجعل هذا المبدأ إجرائيا)".[20]

يؤكد **هابرماس** على الدور المحوري للتواصل العمومي الذي يعتبر نتيجة بديهية للمقاربة المقدمة من طرف نظرية النقاش، ومن الناحية المعيارية تأخذ فكرة الحرية التواصلية للمواطنين مكانة السيادة الشعبية ويفترض أن تقود نحو الاستعمال العمومي للعقل.[21]

هذه الديمقراطية التواصلية تتأسس على نظام حقوقي يوفق بين المساواة القانونية الصورية في النموذج الليبرالي والمساواة الفعلية في النموذج الديمقراطي الاجتماعي متخذا إستراتيجية ديمقراطية راديكالية تستمد شرعيتها من خلال المشاورة و المحاججة العمومية ففي تصور **هابرماس** يظهر تقسيم السلطات على الشكل التالي:

أولا: هناك هيئة تشرع وهيئة تطبق القانون (العدالة) وهيئة تنفذ (الإدارة) والظاهر من هذا الترتيب أن **هابرماس** من أتباع أولوية التشريع ولهذا يدعو إلى جعل الفضاء العمومي مركزا أساسيا تظهر فيه أمال وطموحات المواطنين.[22]

غير أن نظرية الديمقراطية التداولية انتقدت من عدة نواحي:

- الجانب الأخلاقي.
- إمكانية تحقيق فكرة التواصل.

– المخاوف التي تثيرها فكرة إنشاء المجالس التواصلية.

لقد تم الاعتراض على نظرية الديمقراطية التداولية من نقد نظرية أخلاقيات النقاش من عدة أوجه:

فلقد تم انتقادها من خلفية أنها إجرائية صورية، ذلك أن الحوار بين المواطنين معرض لخطر الإسهاب والحذلقة والحشو والأطناب عكس ما تنادي به الشروط المثالية لإجراء النقاش.[23]

إضافة إلى ذلك، يعتقد أكسل هونيث (مدير معهد فرنكفورت) وأحد أبرز تلامذة هابرماس بأن الصورية التي يتم التبشير بها من طرف آبل وهابرماس وهمية، لأن التذرع بافتراضات معيارية يستنتج منها مبدأ الكونية يعرض أخلاقيات المناقشة في الحقيقة لتصور جد ضيق للعدالة، يتجلى في اختياره للنموذج الغربي كنموذج شمولي وأعلى.[24] هذا النقد تتفق معه الفيلسوفة الأمريكية سيلا بن حبيب والتي ترى في ادعاء هابرماس بفكرة كونية أخلاقيات النقاش منافيا للحقيقة، ذلك أن تصوره يخضع لأفق ثقافي وتاريخي هو تاريخ وثقافة الغرب وسجين حضارتها ومنطقها، ويتضح هذا الحكم إذا علمنا أن هابرماس اعتمد خلاصة ما وصل إليه بياجيه وكولبرغ في النظرية التطورية للفرد.[25]

لكن الشيء الأساسي في نظرية هابرماس السياسية افتراضه ودعوته إلى تواصل عمومي خال من استعمال القوة يؤسسه خطاب عقلاني تبقى نظرة يوتوبية، خاصة إذا علمنا أن هناك عدة أبعاد للرمز أو المخيال الجماعي (أساطير، أديان، إيمان)، تتموقع خلف آراء الأفراد المتبادلة في النقاش العمومي، وبأكثر تفصيل هناك طبقات اجتماعية ذات تمثلات ذاتية تحمل رؤى للحياة فردية وجماعية تضع شروطا طبيعية لما سيحصل في نسيج الحجاج العمومي ولا يمكن للخطاب العقلاني أن يعدلها بسهولة.[26]

هذا التواصل الذي يدعو هابرماس إلى توسيعه داخل الفضاء العام من خلال تفعيل التجمعات والهيئات المجتمعية تعيقه وسائل الإعلام والاتصال الحديثة الخاضعة للاعتبارات السياسية والمصالح التجارية، حتى أن ثورة الاتصالات رغم تسهيلها للتواصل بين البشر ثقافيا وسياسيا إلا أنها حسب الفيلسوف الفرنسي جان بودريار أثرت في حياتنا الاجتماعية من خلال الإشارات والصور والتي تترك أثرها في المعاني والدلالات لدى المشاهدين، ذلك أن عالمنا قد غدا يمثل كونا موهوما مصطنعا نستجيب فيه ونتفاعل مع صور إعلامية لا مع أشخاص وأحداث وأمكنة واقعية حقيقية . وقد غدونا نتأثر بالمشاهد التي تعرض علينا عن الأحداث والكوارث والمشكلات أكثر بكثير من تأثرنا بالمضمون الحقيقي لهذه الوقائع. ويتحدث بودريار كثيرا في هذا السياق عن انحلال الحياة وذوبانها في إطار شاشات التلفاز.[27]

غير أن النقد الأساسي لهذه النظرية التواصلية يركز على الجوانب النفسية الإدراكية التاريخية، فنظرية هابرماس تمثل خلاصة يوتوبية تذكرنا بفكرة حكم القانون وأولوية التشريع على التنفيذي، ولكن هابرماس يضيف لها حلقات تواصلية تمثل مجالس النقاش العمومي لجمهور المواطنين، تدعم سلطة البرلمان ولكن هذه الفكرة ستؤدي إلى إخضاع السلطة البرلمانية

لضغوطات الرأي العام وهذا الوضع يثير ذكريات مأساوية في الوعي التاريخي الفرنسي الذي عرف أيام عهد الإرهاب الذي تلي مرحلة الثورة الفرنسية برلمانا يتداول فيه ممثلو الشعب قراراتهم السياسية تحت رقابة المجالس الباريسية والأندية وقد أدت هذه الرقابة إلى فرض قرارات تنافي القيم الديمقراطية.(28)

الديمقراطية والعولمة

كان تحليل مفهوم الديمقراطية في كتاب الحق والديمقراطية لصاحبه هابرماس في إطار الدولة الأمة ومع تنامي ظاهرة العولمة طرحت مفاهيم سياسية للدراسة والتحليل متعلقة بالديمقراطية كالأمن والسيادة والمشروعية.

لقد غيرت العولمة بنيويا نسق الاقتصاد العالمي وتقلص دور الفاعلين السياسيين في الدولة الأمة من خلال إقصاء السياسات الحمائية والاقتصادية التي تتأسس على الطلب وأصبحت السياسات الاقتصادية التي تشجع على الطلب منفلتة من الإطار الوطني الضيق باعتبار أن الاقتصاد العالمي أصبح خاضعا للتقنيات النقدية التي تسيطر عليها الشركات العالمية.

يعتقد **هابرماس** أن بنية الدولة الأمة تفهم من خلال مهامها الإدارية والضريبية والسياسية وتأخذ شكل دولة ديمقراطية واجتماعية.(29)

هناك تأثيرات سلبية خلقتها العولمة الاقتصادية تضعف فعالية الإدارة العمومية أهمها الأخطار الإيكولوجية والتي تعجز الدول القومية على ضبطها ومع تنامي الرساميل وحركيتها القارية يجعل من هذه الدول عاجزة عن مراقبة هذه الأموال فتقل بذلك خزينة الدولة نتيجة التهرب الضريبي.

وهذا الوضع الاقتصادي أعطى دفعا قويا لميلاد أنظمة تتجاوز الحكومات الوطنية صورتها المنظمات الدولية ومع إفلاس فكرة المشروعية الديمقراطية تنامت قوة المنظمات غير حكومية (السلام الأخضر، العفو الدولية).(30)

إن الكثير من الظواهر الملاحظة في الغرب تعود إلى العولمة، أهمها تنامي العنف والكراهية ضد الأجانب والهامشيين والمعاقين واليهود ودعوة رابطة الشمال في إيطاليا للانفصال عن الجنوب لأسباب اقتصادية ودعوة الحزب الليبرالي الألماني إلى تخفيض ضريبة التضامن.(31)

ينظر **هابرماس** إلى هذا الوضع بتفاؤل مقترحا فكرة الوطنية الدستورية، وجاءت هذه الفكرة من منطلق تطور الثقافات الفرعية داخل الحدود الوطنية واندماجها وهذا ما يلاحظ في سويسرا والولايات المتحدة الأمريكية، كما أن ظاهرة الهجرة والوحدة الأوروبية ساهمت في خلق معادلة متساوية بين المواطنة والجنسية.

وفي حقيقة الأمر يعتبر مقترح الوطنية الدستورية بمثابة رد فعل ضد تعالي الأصوات العنصرية في ألمانيا خاصة بعد تحقيق الوحدة الألمانية إثر انهيار جدار برلين ويعتقد **هابرماس**

أن تعميق النصوص الدستورية وفتح نقاش عمومي وبيان الأهداف الحقيقية للوحدة الألمانية سيؤدي إلى القضاء على هذه النداءات العنصرية.(32)

وللخروج من حدود النقاشات الداخلية ينادي **هابرماس** بفكرة المواطنة العالمية التي تتناسق نظريا مع فكرة الوطنية الدستورية والتي تفترض وجود مجتمع متعدد الثقافات ومتناسق مع وجود دولة القانون مع فصل واضح بين المجال الاجتماعي والمجال السياسي.(33)

غير أن هذه الفكرة تعترضها جملة من الصعوبات أهمها:

- صعوبة الفصل بين السياسة والثقافة.
- الاندماج الاجتماعي يمر أولا عبر الإيمان بالقيم الثقافية ثم تبني القيم السياسية.
- تنامي التعددية الثقافية يعيق فعالية الثقافة السياسية.

تعتبر مشكلة التعدد الثقافي وما تحمله من أخطار وتهديدات للوحدة الوطنية للدول عائقا أمام فكرة المواطنة العالمية، وهنا يعيدنا **هابرماس** إلى نظرية الفعل التواصلي لإنقاذ مقترحاته السياسية وهنا يدعو إلى حوار هيرمونوطيقي بين الثقافات وأن على الغرب أن يطور خطابه الحضاري لتحقيق العدالة والسلم ولأنه يحمل إرث يهودي وإغريقي ومسيحي عليه أن يركز على النقد والتأمل الذاتي وأن يعتبر رؤيته الثقافية واحدة من مئات الآراء وأن يبتعد عن منطق التمركز الحضاري.(34)

وفي هذا السياق يؤمن هابرماس باختلاف الحضارات، فحضارات آسيا القديمة (والحضارات القبلية في إفريقيا) تقدم الجماعة على الفرد ولا تعرف الفصل بين القانون والأخلاق، وتقول هذه الأطروحة ان الكيان السياسي العام تكامل تقليديا بواسطة الواجبات أكثر من الحقوق ولا تعرف الأخلاق السياسية بحسب وجهة النظر هذه حقوقا شخصية، بل فقط حقوقا تمنح للأفراد. إن هذا النقاش الذي يركز على الفروق الحضارية بين الغرب والشرق يأخذ منحنى خاطئ، ولكن المجتمعات الآسيوية رغم اختلافها حضاريا عن المجتمعات الغربية لا بد لها من اعتماد القوانين الفردية من أجل تحقيق التحديث الرأس مالي وهذا لارتباط الاقتصاد الرأسمالي بالقيم الليبرالية.(35)

إن حقوق الإنسان بالنسبة لهابرماس هي نتاج للعقلانية الغربية، ذلك أن تاريخ تأويل وتحقيق هذه الحقوق يمثل تمركزا غربيا، فالتاريخ يبين أن الحريات لم تتحقق إلا بشكل بطيء و لم تتوسع الحريات لليهود والغجر والنساء والمثليين وطالبي اللجوء السياسي إلا بعد صراعات سياسية كانت تسعى لإثبات إنسانية هذه الفئات المظلومة .(36)

ومن هذه الخلفية التاريخية هناك حاجة حسب اعتقاد هابرماس إلى إيجاد آليات مؤسسية وعملية كفيلة بفرض احترام حقوق الإنسان وإلزام الدول والأنظمة على التطبيق الفعلي لبنود الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، هذه الفكرة تبرر مواقف هابرماس من الأزمات الدولية ووقوفه مع تدخلات الدول الغربية في قضايا العالم العربي والإسلامي.

الخاتمـــة

من خلال المعطيات السابقة تتبين لنا الأسباب النظرية لطرح فكرة الديمقراطيـــة التداوليـــة والمرتبطة أساسا بأزمة الحداثة الغربية والتي تتلخص في فقدان المعنى وضـــياع الحريـــة وســـعى **هابرماس** إلى بناء براديغم تداولي جوهره نظرية النقاش ومع خطـــر العولمـــة دعـــا فيلـــسوف فرانكفورت إلى وطنية دستورية خلفيتها هواجس الماضي الألماني المرير.

الهوامش :

(1) ولد يورجن هابرماس الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني عام 1929 ويعتبر أهم ممثلي الجيل الثاني في مدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية الاجتماعية، من أهم مؤلفاته : نظرية الفعل التواصلي (1981)، الحق والديمقراطية بين الوقائع والمعايير (1992)، بين النزعة الطبيعية والدين، تحديات الديمقراطية (2005).
(2) ليو ستروس، موجات الحداثة الثلاث، ترجمة مشروحي الذهبي ، مجلة فكر ونقد ، السنة الأولى ، العدد الثاني، أكتو بر 1997، ص 125.
(3) نفس المرجع ،ص 126.
(4) نفس المرجع،ص 135.
(5) نفس المرجع ، ص 137.
(6) Jürgen Habermas, Théorie de l'agir communicationnel. Tome1, Rationalité de l'agir et rationalisation de la société, Traduit de l'Allemand par Jean marc - ferry, Fayard 2005. PP 17-18.
صدر الكتاب باللغة الألمانية سنة 1981 وترجم إلى الانجليزية سنة 1982.
(7) ibid P 228.
(8) ibid P 255.
(9) ibid P 258.
(10) ibid PP 260-261.
(11) Jürgen Habermas, Théorie de l'agir communicationnel tom 2, pour une critique de la raison fonctionnaliste. Traduit l'Allemand par Jean Louis Schlegel , fayard (1987) . p 364.
صدر الكتاب باللغة الألمانية سنة 1981 وترجم إلى الانجليزية سنة 1982.
(12) - Jürgen Habermas, Théorie de l'agir communicationnel. Tome1 . P 364-365.
(13) ibid PP 370-371.
(14) ibid P 357.
(15) ibid PP 26-27.

(16) Jürgen Habermas, Droit et démocratie entre faits et normes, Traduit de l'Allemand par Rainer Rochlitz et Christian Bouchindhomme, nrf essais, Gallimard. 1997, P 42.
صدر الكتاب باللغة الألمانية سنة 1992 .

(17) ibid P 127.
(18) ibid P116.
(19) ibid P125.

(20) Jürgen Habermas, Sur le droit et la démocratie. Traduit par eric vigne. In le débat mars avril 1999. P 46.

(21) Jürgen Habermas, Droit et démocratie. P 212.

(22) حسن مصدق، يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت. النظرية النقدية التواصلية، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء، المغرب)، الطبعة الأولى 2005، ص 161 .

(23) نفس المرجع، ص 167 .

(24) نفس المرجع، ص 167-168 .

(25) تراعي نظرية أخلاقيات النقاش مراحل النمو المعرفي التي حددها بياجي ومراحل النمو الأخلاقي التي ضبطها كولبرج التي تعتبر شروطا لنجاح التواصل بين الأفراد.

(26) Stefano Petrucciani : morale universelle et politique democratique dans la perspective de Habermas in sciences de la société numéro 52. février 2001. pp73-74.

(27) Vincent Descombes : le contrat social de Jürgen Habermas. In le débat mars avril 1999.p54.

(28)- أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، مؤسسة ترجمان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص 717 .

(29) Jürgen Habermas, Après l'Etat-nation : une nouvelle constellation politique, traduit de l'allemand par Rainer Rochlitz (Fayard 2000) P 49.

(30) ibid. PP 62-63.

(31) ibid. PP 64-65.

(32) Yves Sintomer, La démocratie impossible? Politique et modernité chez weber et Habermas, la découverte (Paris 1999) P 339.

(33) ibid. P 340.

(34) Jürgen Habermas, Une époque de transitions, écrits politiques 1998- 2003, Traduit par Christian Bouchindhome, Fayard (2005)PP 328-329.

(35) يورجن هابرماس، الحداثة وخطابها السياسي، ترجمة جورج تامر، مراجعة جورج كتورة، دار النهار، بيروت، 2002، ص 219 .

(36) Jürgen Habermas , l'intégration républicaine . Essai de théorie politique. Trad par Rainer Rochlitz .fayard 1998.p246.

مكامن الضعف في النظام التربوي الجزائري
دراسة نقدية لأركان المنظومة التربوية الجزائرية

أ / هويدي عبد الباسط
المركز الجامعي بالوادي

ملخص

يحاول هذا المقال تسليط الضوء على تجربة المنظومة التربوية الجزائرية مبرزا نقاط قوتها ومبينا نقاط ضعفها، و ذلك من خلال دراسة أركان هذا النظام و السياسات العامة التي انتهجت منذ الاستقلال إلى يومنا هذا و مدى انعكاس هذه التجربة على المجتمع عموما، و في الأخير نحاول أن نستنتج الأسباب الكامنة وراء ضعفها و مدى تأثير ذلك على المشروع التنموي الجزائري ككل.

Abstract

We shall during the essay study the experience of Algeria educational system showing its advantages and drawbacks . The study covers foundations of the system and general policies adopted since independence. It also reveals numerous repercussions of the experience on the society.

In the end, we shall conclude about reasons behind its repeatable failures and effects on the development project.

مقدمـــة

لقد شهد العالم في منتصف القرن العشرين تغيرات حضارية سريعة و تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية هامة انعكست بأشكال متباينة على مختلف المجتمعات وفي مختلف القارات.

وقد أحدثت هذه التغيرات والتحولات تفاوتا حضاريا كبيرا بين المجتمعات، و أصبحت المساهمة العلمية و التكنولوجية بين الدول الكبيرة و الصغيرة لا تقاس بزمن و لا تقدر بثمن وأصبحت الدول الصغرى تسير تحت ضغوط الدول الكبرى.

وللتخفيف من حدة الضغوطات عليها عمدت هذه الدول الصغيرة إلى إصلاح أنظمتها التربوية، ولاسيما المستقلة كما هو الشأن بالنسبة للجزائر التي حاولت بعد الاستقلال مباشرة إصلاح المنظومة التربوية وتطويرها حسب أهداف الخطط التنموية والظروف الحضارية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وذلك بغية التغلب على المشكلات التربوية الموروثة من عهد الاستعمار.

وللخروج من هذا الوضع المحرج قامت الجزائر بمحاولات لإصلاح التعليم، و تبنت في ذلك استراتيجيات تعليمية جديدة تهدف إلى تجويد التعليم و توسيع مجالاته و توثيق الصلة بين الواقع

التعليمي والواقع الاقتصادي والاجتماعي المتغير، على اعتبار أن إصلاح التعليم شرط من شروط التنمية الوطنية الشاملة.

ومن خلال النظرة المتفحصة للتجربة الجزائرية في ميدان إصلاح المنظومة التربوية يلحظ النقاط التالية:

1- تعدد الإصلاحات بدون إستراتيجية واضحة: من المعلوم أن المنظومة التربوية ليس لها أي معنى إذا لم تكن متداخلة الحلقات، منسجمة مع المجتمع الذي يعايشها و يتلاحم معها تلاحما يخدم و يلبي الحاجيات الأساسية لمجموع السكان و من هذه الوجهة فإن المدرسة الجزائرية لا زالت في طور البناء رغم التعديلات و التغيرات التي أدخلت على هذه المدرسة الناشئة.

إن إصلاح التعليم لم ينسجم و يتلاءم و مهماتها من حيث تسهيل انتشاره و توسيعه في المجتمع الجزائري.

إن هذا العمل الإصلاحي الهام و الشاق و الطويل لا يمكن إنجازه إلا بطريقة تعاهدية وبمقتضى خطة محكمة و الواقع أن هذا الإصلاح مازال في حاجة لتعديلات متواصلة وتكييفا مستمرا مع مقتضيات و أماني التقدم و التنمية[1].

2- تكوين إطارات التربية: إن المجتمع الذي لا يستطيع أن ينمي موارده البشرية، لن يستطيع أن ينمي أي شيء آخر فيه بصورة ايجابية[2]. من هذا المنطلق، فإن مشكلة تكوين المعلمين تعتبر، من أكثر المشاكل إلحاحا و أهمية، في نظم التعليم المعاصرة، لما لها من أسباب فرضت نفسها على واقع القرن العشرين...ولكن الغريب في الأمر فعلا، هو أن نظام التعليم في الجزائر، يضعها في ختام مشكلات التعليم، من حيث الأهمية، والاحتفاء بها، بالرغم أنه من الأمور البديهية أن نجاح التعليم أو فشله يعتمد إلى حد كبير على توافر المعلم المؤهل تأهيلا جيدا ليتولى مسؤولية النمو المتكامل للتلميذ[3].

و لعلنا لا نبالغ إذا ادعينا، أن مشكلة تكوين المعلمين تعتبر أساس مشكلات التعليم في الجزائر، وأساس مشكلة تخلفها، وبالتالي أساس المشكلة التنموية، و ذلك لأن المعلم الجيد، قادر على أن يعوض النقص، الذي يمكن أن يكون موجودا، سواء في فلسفة التعليم وأهدافه، أو في المناهج وطرق التدريس، و في نقص الإمكانيات..أيضا.

ومن الطبيعي أن كل حديث عن الإصلاح لا يستكمل كل معطياته إلا إذا شمل بالضرورة السعي الجاد إلى تحسين ظروف عمل المربين من جميع الوجوه[4]. ولقد ظلت الجزائر عبر المراحل السابقة وفي أثناء جميع الإصلاحات التربوية تفتقر إلى فلسفة لتكوين المعلمين من الناحيتين

الكيفية والكمية، فالأرقام تشير إلى أن عدد الإطارات تراجع في العشر سنوات الأخيرة إلى نصف ما كان عليه في العشر سنوات الماضية، و الجدول [5] يبين ذلك بالتفصيل.

السنوات	77/73	82/78	87/83	92/88	97/93	02/98	07/03
أعداد الإطارات	31389	22568	33115	33165	18510	8698	4736

جدول يبين تطور أعداد الإطارات التعليمية المكونة من 1973 إلى 2007

3- الإدارة المدرسية: ليس من المبالغة أن توصف الإدارة في أي مؤسسة أو نشاط بأنها الطاقة المحركة لمختلف المكونات التي يتألف منها مجمل الموارد و الإمكانات المتاحة لعمل من الأعمال[6] و من الأمور التي يتجه الاهتمام إليها في مجال تطوير المنظومة التربوية والتي أهملتها معظم مشاريع إصلاح المنظومة التربوية الجزائرية هي ضبط إستراتيجية جديدة لتغيير نمط الإدارة المدرسية و إخراجها من حالة التهميش التي هي عليها، و دفعها إلى المساهمة في عملية الإصلاح، و إشراكها في اتخاذ القرارات الخاصة بتطوير المناهج و الطرائق والتفاعلات التربوية الأخرى، و جعلها أداة تنسيق و تنشيط لأعضاء الفريق، و لكل العمليات التربوية الجارية في المدرسة و خارجها. مما ينعكس على نشاطها اليومي فتتحول من جهاز فوقي مسيّر إلى عنصر أساسي في العملية، وطرف معني بموضوع التجديد متحمسا له مدركا لأبعاده. ولا يمكنها تأدية هذا الدور إلا إذا كانت تعيش وقائع التطوير و تسهم فيه و كانت واعية بأهميته وتفاصيل فلسفته. و هذا مرهون بتوفير فرص التدريب الكافية للعاملين فيها لصقل مواهبهم، وتعميق معارفهم، وإبراز مسؤولياتهم لأن التدريبات التي تنظم لرجال الإدارة عموما قاصرة ومحدودة لا تحقق الغرض المطلوب[7]، كما أننا لو نظرنا إلى المستويات العلمية لرجال الإدارة والموظفين العموميين لعرفنا حجم الكارثة، إذ أن أقل من 2 % منهم فقط ذوي مستوى جامعي في سنة 1987، و ارتفعت هذه النسبة لتصل سنة 1997 إلى 4 % فقط و لم تزيد في سنة 2007 على نسبة 10 %[8] وهي نسبة منخفضة جدا ولا يمكن لنا بأي حال من الأحوال أن نتوقع لهذا النوع من الإدارة القدرة على رسم الخطط التربوية وتنفيذها .

4- البحث العلمي: لا شك في أن ثورة البحث العلمي و التكنولوجي هي من أهم العلامات البارزة لعصر العولمة[9]، كما أن البحث العلمي هو عصب الرقي و التقدم والعملية الأهم في التنمية، لكن على الرغم من ذلك إلا أنه لم يكن في أي مرحلة من مراحل إصلاح المنظومة التربوية ذو أولوية و يتجلى ذلك في المخصصات المالية المتدنية و انعدام الحوافز و عدم الاهتمام بتكوين مراكز و فرق للبحث في شتى التخصصات بل إن البحث العلمي بقي محصورا داخل مخابر الجامعات و لم يكن هناك تصور واضح بشأن الاستفادة منه في ميادين الصناعة والفلاحة و غيرها من القطاعات[10].

و لقد ظل الأساتذة الجامعيون طوال عقود من الزمن يناضلون من أجل الاعتراف بأهمية البحث العلمي، هذا الاعتراف الذي لم يكن يحتاج إلى نضال أو فتح للحوار مع شتى الوزارات

من أجل التوصل إلى صيغ مقبولة، إن هذا المؤشر لوحده يوضح عمق أزمة الوعي بالأولويات الإستراتيجية لقيام عملية تنموية ناجحة.

لذلك، فإذا ما أرادت الجزائر أن تنهض بالبحث العلمي فعليها زيادة ميزانيات البحث العلمي وربط مراكز الأبحاث بالشركات و المصانع لتتولى الإنفاق و التمويل و المساهمة في دعم الأنشطة الثقافية و العلمية[11].

5- المناهج و البرامج الدراسية:

يجب على التربية أن تقوم بإعداد التلاميذ بمنهجية تجعلهم قادرين على حل مشكلا المجتمع[12]، وهو ما تهدف إليه المدرسة حيث أن مهمتها تتمثل في إعطاء التلميذ قدرا معينا من المعارف في كل فرع من فروع العلوم يتناسب مع مداركه و حاجاته. كما يتصل اتصالا وثيقا بحاجات البيئة و المجتمع. و تعبر المناهج التعليمية في مختلف مراحل التعليم، تعبيرا صادقا عن فلسفة الدولة و اتجاهاتها وما تهدف إليه من تطلعات و آمال[13].

و المناهج من زاوية أخرى، هي مجموعة الثقافات و التجارب و المواقف التعليمية التي تشمل جوانب المعرفة النظرية و التطبيقية[14].

و يمكننا أن نوجز أهم نقاط الضعف التي عانت منها المناهج التعليمية الجزائرية في جميع مراحل التعليم في النقاط التالية:

- لقد كانت معظم المناهج المعتمدة منذ فجر الاستقلال إلى يومنا هذا مستوردة من تجارب الآخرين و الأمثلة على ذلك كثيرة (التدريس بالمضامين، التدريس بالأهداف، التدريس بالكفاءات...).

- لم يكن هناك توافق بين أهداف هذه المناهج و ما تهدف إليه الدولة، و ما تسعى إلى تحقيقه من شؤون سياسية، و اقتصادية و اجتماعية.

- لم تكن هذه المناهج تمثل فلسفة المجتمع (أيديولوجية) و ما ترمي إليه خطته في التنمية. فتارة ننتهج الاختيار الاشتراكي و ندعي أنه أفضل فلسفة تقوم عليها التنمية وتارة أخرى ننقلب إلى النقيض الرأسمالي و ندعي أنه أفضل سبيل لبلوغ مصاف الدول المتقدمة و بين هاذين النقيضين ضاعت المنظومة التربوية.

- لم توفق معظم هذه المناهج في التوفيق بين النواحي النظرية و العملية التطبيقية مما أنتج جيلا من الإطارات ذوي معارف تطبيقية هزيلة.

- لم تكن هذه المناهج في كثير من الأحيان تناقش حياة المجتمع و إمكانياته و موارده ومصادر ثروته.

6- ضعف التمويل و التجهيز:

على الرغم من الأهمية التي أولتها مخططات التنمية للمنظومة التربوية إلا أن تمويل وتجهيز هذا القطاع لم يكن بالقدر اللازم مما أنتج انعكاسات سلبية تمثلت فيما يلي:

- الاكتظاظ داخل الأقسام مما أفقد مفهوم الفوج التربوي محتواه فأصبحنا نكدس التلاميذ داخل القاعات دون مراعاة لأدنى شروط التواصل بين الأستاذ و تلاميذه.

– النقص الواضح في المخابر و الورشات مما انعكس سلبا على مصداقية العملية التربوية وأهدافها.

– الظروف غير الصحية سواء داخل المؤسسات التعليمية أو داخل الأقسام فالتلميذ والأستاذ على السواء لم يعودا يحسان بأنهما داخل مؤسسات تعليمية أو قاعات دراسية.

– النتائج العامة:

– إن كبرى مشكلات التربية و التعليم مازالت تعبر عن نفسها في النسب العالية لأمية الكبار بصفة عامة و للإناث بصفة خاصة.

– إن حركة التوسع في التعليم الأساسي في الجزائر قد جاءت بصفة عامة دون تخطيط واضح، إذ خضعت في معظم الأحوال لضغوط في الطلب الاجتماعي على التعليم في البيئات التي تزخر بالسكان بدرجة أكبر بدلا من خضوعها لحاجيات حقيقية في هذه البيئات مما نتج عنه التكديس و التخلخل فأثر ذلك على مردودية التعليم.

– على الرغم من اطراد زيادة أعداد الملتحقين بمرحلة التعليم الثانوي فإن المشكلة الأساسية تظل قلة و ضعف تكوين الأطر المتوسطة الفنية بسبب سيادة الطابع الأكاديمي النظري على التعليم الثانوي حتى التقني منه، و هو الحلقة الرئيسية لتكوين هذه الأطر المتوسطة.

– عدم وجود خريطة متكاملة للتوسع في التعليم العالي الجامعي، مما ساعد على أن يكون التوسع فيه بلا تخطيط و بلا رؤية واضحة، و لذا فقد تكررت أنماط الجامعات والمعاهد والتخصصات، و بدأ النقص في إعداد هيئات التدريس، و بدأت أسباب عدم الاستقرار بينهم.

– إن النظام التربوي السائد في الجزائر يقوم على تسلط نظام الامتحانات بصورته التقليدية التي تقوم على اختبار كفاءة التلقين أساسا، كما أنها تعاني جمود مناهج التعليم وانغلاق المدرسة و ابتعادها عن وسائط البيئة..فهي مدرسة بعيدة عن مشكلات المجتمع لا تدرسها أو تعالجها بشكل يدفع إلى تطوير مناهجها و ربطها بمصادر غنية للمعرفة وللمهارة و أساليب الإنتاج خارج أسوار المدرسة[15].

– إن بعض خبراء اليونسكو يذهبون إلى أن تكثيف الجهود من طرف الدول النامية من أجل النهوض بالتعليم النظامي، يكلف تلك الدول أموالا طائلة و بالتالي، فمثل هذا النظام لا يلاءم الأوضاع الاقتصادية السائدة فيها[16]، و ذلك أن نشر التعليم من حيث الكم على حساب الكيف اقترن به تدهور ملحوظ في النظام التربوي[17].

خاتمة

من خلال هذا العرض يمكننا أن نستنتج النقاط الآتية:

– هناك عدم الكفاءة في إعداد الطالب لإتقان الحد الأدنى من المهارات والمعارف والخبرات التي يتوقع أن يتقنها في نهاية السنة الدراسية، فتكون النتيجة الطبيعية لذلك إما الإعادة أو التسرب قبل إتمام المرحلة التعليمية المقيد بها، و نتائج شهادة البكالوريا وشهادة التعليم

الأساسي في المعدلات العامة أو معدلات المواد تبين ذلك بوضوح، و لذلك فإنه من المنطقي أن توحي النسبة المرتفعة للتسرب المدرسي بالمردودية المنخفضة للمنظومة التربوية وكلفتها العالية[18].

– النقص الحاد في الموارد المالية الذي حال دون أن تستجيب المنظومة التربوية للأهداف التي سطرت لها من المساهمة كغيرها من المنظومات الاجتماعية في التنمية الشاملة.

– فقدان استمرارية القيادة التربوية، مما أدى إلى تقلب السياسات و الأهداف التربوية الأساسية، وإلى هجر للخطط التربوية المعتمدة سابقا.

– نقص الجهود التخطيطية الموازية، الموجهة إلى الاقتصاد جملة، وإلى المنظومة التربوية على الخصوص، و هي جهود ضرورية لتوفير إطار مناسب لربط خطط التعليم بالخطط القومية الشاملة للتنمية.

– تهميش فكرة مزج التعليم بالعمل (الجوانب النظرية مع الجوانب التطبيقية)، والعمل بالحياة، حيث بقيت هذه الفكرة مجرد شعارات لا مكان لها في الواقع[19].

– فشل مشروع التعليم التقني في الوصول إلى أهدافه، من ربط وثيق بين الواقع العملي في الميدان و المكتسبات و المعارف العلمية فلقد حاولت كل الدولة العربية تقريبا و منها الجزائر إيجاد أنواع منفصلة من التعليم الثانوي. إلا أن الممارسات المجتمعية المخلة بنظام القيم والحوافز وأسلوب التوجيه لهذا النوع من التعليم حرمت البلاد من فرص مثلى لاستغلال طاقات الشباب[20].

و على الرغم من أن الدراسات الحديثة بينت أن ظواهر التنمية الاقتصادية و التقدم التكنولوجي في الولايات المتحدة الأمريكية و أوروبا و اليابان تعود إلى دور التنمية[21]، وأن أكثر من ثلاثة أخماس (5/3) الدخل الحقيقي يرجع إلى تأثير ارتفاع المستويات التعليمية على زيادة القدرة على الإنتاج إلا أن الجزائر لحد الآن ما زالت تصنف قطاع التربية من القطاعات غير المنتجة[22].

الهوامش

1 - الطاهر زرهوني: **التعليم في الجزائر قبل و بعد الاستقلال**، دار موفم للنشر، الجزائر، 1988، ص 61

2 - علي خليفة الكواري: **نحو فهم أفضل للتنمية بإعتبارها عملية حضارية**، مجلة المستقبل العربي، العدد49، السنة 1983، ص 22.

3 - حسن محمد حسان:**التعليم الأساسي بين النظرية و التطبيق**،دار النهضة العربية،بيروت،1993،ص 214.

4 - علي بن محمد: **معركة المصير والهوية في المنظومة التربوية**، دار الأمة، الجزائر، 2001، ص 32.

5 - SOUS-DIRECTION DES STATISTIQUES,MINISTERE DE L'EDUCATION NATIONALE – STATISTIQUES de 2007

6 - حامد عمار: **من مشكلات العملية التعليمية**، ط2، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، 1997، ص 23.

7 - عبد القادر فضيل: **التعليم الاساسي و نماذج ربطه بالتعليم الثانوي عربيا و عالميا**، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس 1992، ص 62.
8 - موقع وزارة التربية الوطنية، (www.meducation.dz)، إحصائيات، سنة 2007.
9- حامد عمار: **في التنمية البشرية و تعليم المستقبل**، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، 1999، ص 134.
10- كمال سليمان، علي العبد الله: **التربية أصولها طرقها، وسائلها**، منشورات مجلة الثقافة، بيروت، التاريخ غير موجود. .
11 - محمد الروبي عبد الوهاب: **إصلاح العملية التربوية...بداية العلاج**، مجلة العربي، العدد 493، ديسمبر 1999، ص 191.
12 - برترنديا: **النظريات التربوية المعاصرة**، ترجمة: محمد بوعلاق، قصر الكتاب، البليدة،2001، ص 215.
13 - P. LEBEL: audio-Visuel et pedagogie. Edition ESF. Paris. 1979. P 75.
14 - G. MIALARET: Traite de psychologie appliqué. Sous la direction de ; M. REUCHLIN. RUF. Paris. 1971. p 62.
15 - إبراهيم سعد الدين و آخرون: **صور المستقبل العربي**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 96.
16- هانك فان دايل: **التربية المقارنة**، ت: جورجيت الحداد، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2000.
17 - حنفي بن عيسى: **مشكلة الأمية في مختلف جوانبها**، المجلة الجزائرية للتربية، الجزائر، العدد 03، جوان 1995، ص 53
18 - وزارة التربية الوطنية: **التسرب المدرسي**، سلسلة الملفات التربوية (موعدك التربوي)، العدد 06، الجزائر، 2001ص 03.
19- عبد القادر ميسوم: **تحسين الآداء التربوي و الفعالية لدى المدرسي**، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، الجزائر، 2001.
20- علي خليفة الكواري: **نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1985، ص 102.
21- حامد عمار: **في التوظيف الإجتماعي للتعليم**، ط2، مكتبة الدر العربية للكتاب، مصر، 1997.
22- عبد الغني عبود: **التربية و مشكلات المجتمع**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998.

ذكريات الوفاء والعرفان... مهداة إلى روح الفقيد
الـــدكتور إبراهيم مياسي

الحديث عن الحياة الفائتة للأحباب والأصدقاء، والأساتذة والعلماء، لها معانيها النبيلة، لأنها تحمل الذكريات الطيبة، والمواقف الجديرة بالذكر والنشر لتكون نبراسا للأحياء، وتخليدا لتـــاريخ الرجـــال الأوفياء للمبادئ والقيم؛ ومن هذا المنطلق تمر بنا ذكرى مرور أربعينية الفقيد الدكتور المؤرخ الحـــاج إبراهيم مياسي السوفي الحمدي الجزائري، الذي يعتز كثيرا بانتسابه إلى كل الجهات المذكورة انتساب محبة لمن يستحقها، وتعلق وجدان بالأصول، وارتباط رحم ونسب بالأهل والأحباب مهما توزعـــت بهم الأمكنة والأزمنة، لأن القبول عند الله هو الملاذ الأخير، كما قال سبحانه: (إن أكرمكم عنـــد الله أتقاكم إن الله عليم خبير).

إن ذكرياتي مع الدكتور إبراهيم لا تتجاوز العقد والنصف من الزمن الأخير، ولكنها جعلتني اعرفه في الميدان العلمي، والدرب الثقافي الذي جمعنا في أكثر من سبيل، وكانت البداية في الندوة الفكريـــة المخلدة للشيخ العدواني التي نظمت ببلدة الزقم، بمدينة الوادي سنة 1997، وتناقـــشنا في كتابـــات العدواني، وجادلته في الكتاب الثاني عن صحراء قسنطينة، وأكد لي عدم وجود مثل هـــذا الكتـــاب، ووقفت على الحقيقة بعد البحث المتأني، ويومها بدأت أقترب من الأستاذ الكريم، الذي جمعـــتني بـــه جامعة الجزائر طالبا في صفوف طلبة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، ودرست عليـــه في ســـنة 1999 وحدة علمية تدعى " نصوص ووثائق" وكان منهجه في ترجمة النـــصوص وتحليـــل الوثـــائق الفرنسية والوطنية، منهجا سهلا، يتتبع المعاني الظاهرة، ويجعلنا نستنبط الخفايا التي تـــدرب الباحـــث على استنطاق الوثائق الأرشيفية ليكون استغلالها مفيدا في الكتابة المنهجية، وعندما أتممـــت رســـالتي حول مجتمع وادي سوف في القرن التاسع عشر، كان الأستاذ إبراهيم في نـــشوة كـــبيرة، وحـــضر إلى جلسة المناقشة، ومن فرط تعلقه بتاريخ وادي سوف كان يتدخل في بعض الأحيان دون شـــعور، ووجدته يومئذ كالنحلة الدوارة وهو يحمل آلة التصوير، يصور بعض مجريات المناقشة، الـــتي قـــدمها في مقال خاص في جريدة الشروق اليومي بتاريخ الأحد09 جوان 2002، ووفق في عرضه وثنائـــه على دراستي التي وصفها "بالدراسات التاريخية والاجتماعية الثقافية الهامة والجديدة".

وتوالت المعاملات بيننا كزملاء في مسلك واحد، أوله البحث العلمي في تاريخ الجزائـــر، ويليـــه البحث في تاريخ سوف، وكان يجمعنا الحوار والتشاور في مسائل عديدة، وتبادل الأفكار والمعـــارف حول هذه المنطقة الزاخرة بتراثها، والتي عكف المرحوم على استخراج مآثرها من طي النـــسيان، وآلى على نفسه أن يخدم تاريخها، وعمل بدون كلل إلى آخر رمق في حياته، وهذا الحب جعلـــني أقترحـــه مناقشا لرسالتي في الدكتوراه، لأني أعلم أن مجرد مشاركته يعطيها ألقا خاصا، وهو أعرف بحيثيـــات المجتمع الذي تربى داخله في شبابه الغض، وكان فرحا محبورا بذلك الاختيار، ولكن شـــاءت إرادة الله أن يصيبه المرض، وتفاجأت به عندما كلمته يوما قبل المناقشة، في 26 ماي 2009، فاعتذر لمرضه لي، وهنأني مسبقا، وكانت آخر اللحظات التي جمعتنا، في هذا السبيل الرسالي.

إن حديثي عن الدكتور إبراهيم يقودني إلى التذكير بعشقه لوادي سوف، وتعلقه بأرضه، وحدثني في حدود سنة 2006، أنه كان ينوي عند التقاعد أن يترك العاصمة ويتفرغ للبحث العلمي في وادي سوف، ليكمل مشاريعه في البحث والتأليف الذي وهبه وقته؛ ولا تلتقي به يوما إلا وتجده مهمومـــا بالدراسات والمعارف التي يفكر فيها، أو التي وفق إلى انجازها، لأنها تحولت إلى هدف الحياة، وأذكـــر انه في إحدى الندوات الفكرية التي عالجت موضوع الطريقة الشابية في تاريخ العدواني وعلاقتها بوادي

سوف، ويومها قدمت محاضرة عن الموضوع وأكدت على الدور الذي قام به سيدي المسعود الشابي التونسي في وادي سوف، داعيا أهلها، ومؤسسا لبعض مساجدها، ولما تعرضت بالنقد والتجريح لبعض المواقف التي عاشها سكان المنطقة في القرن السادس عشر، وبعد المحاضرة التي كانت في وقت متأخر من الليل ـــ الأمر الذي جعل اللجنة المنظمة تلغي المناقشة ـــ غضب الأستاذ إبراهيم، وواجهني بشدة، ووبخني لأني انتقصت من أهل سوف، و لم اذكر العلماء وخاصة سيدي مستور وأمثاله، وكاد النقاش يتحول إلى خصومة، لولا لطف الله، وحكمة الدكتور المرحوم موسى لقبال الذي اخذ بيدي وخرجنا لتناول وجبة العشاء، ولكن الحادث مر بسلام، و لم يترك أي أثر سيئ في نفس الحاج إبراهيم الذي عرف قلبه العفو والتسامح، والمحبة لوادي سوف التي أوصى أن يدفن في ترابها الغالي على نفسه، وفي ذلك عبرة للأحياء.

إن التذكير بمآثر الدكتور مياسي تقودني إلى التنبيه إلى قيمة الكلمات المكتوبة، والمباحث المسجلة في الأسفار التي هي أثمن ميراث يخلد الأموات، لأن حياتهم تبدأ بعد مماتهم، يستلهم منها الشعراء ملامح من حياتهم، ويسطر المترجمون لسيرهم مواقفهم وأعمالهم، وتحكي المناسبات أخلاقهم وصفاتهم لتكون محل القدوة والتأسي، وترصد الدراسات الأكاديمية فقرات وأفكار من كتاباتهم العلمية، وأصدق كلمة قالها صاحب الظلال الشهيد سيد قطب: (إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة) ونحسب أن الدكتور إبراهيم مات وهو يسابق الزمن، ويجمع تلك الكلمات، ويسعى بكل قوته إلى إخراجها وتقديمها واضحة جلية للناس، ووفقه الله إلى طبع ما استطاع إليه سبيلا، وهاهي اليوم تدب فيها الحياة، لأنها كلمات في العلم النافع، وصاحبه يعتز بما كتب، ولا يستحي منه يوم لا ينفع فيه المال والبنون، وصدق القائل:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه

وإذا تصفحنا ما كتبه المرحوم، وجدنا منهجا تاريخيا متوازنا، جمع التحليل للأحداث بالروح الوطنية، والعمق العربي، والبعد الإسلامي الذي يمد حباله الوثيقة مع العقيدة، ويعتبر التمسك بالقيم هدفا لصاحبه، لأن تجريد التاريخ من تلك القيم، يجعله كلاما استهلاكيا لا روح فيه؛ وتعتبر كتاباته حول الاستعمار الفرنسي ومخططاته التي تستهدف مصير الأمة، هي باكورة أعماله، بتقديمه مذكرة المنهجية في الدراسات العليا عن " احتلال فرنسا لمنطقة توات" بالصحراء الجزائرية، ووسعها في الماجستير لتشمل رقعة أوسع، فكان موضوعه الموسوم " بتوسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري 1881-1912"، وتوخى فيه دراسة التاريخ الوطني بطريقة علمية تعتمد على الموضوعية، ومما أشار اليه هو إبراز" ... الحقائق التاريخية التزيهة والبعيدة عن الأغراض والنوايا المبيتة، وبذلك نحمي تاريخنا من الدس والتزوير، ونضمن إيصاله إلى الأجيال الصاعدة بكل أمانة..." وكان من دعاة المدرسة التاريخية الجزائرية، والتي بدأت تتشكل في عهد المواجهة الثقافية، وهي مستمرة اليوم في خطها الوطني، وظل يحفز الباحثين إلى إرساء قواعدها، فيقول : "...يجب إقامة مدرسة تاريخية علمية وفق القواعد السليمة وتعتمد على الأصول التاريخية الضرورية...إن تحقيق هذا المشروع يعد من الأعمال العظمى والنبيلة التي تتطلب تضافر الجهود وجمع الإمكانيات، وقهر الصعوبات، لأن التاريخ لا يدرس عفوا ولا يكتب اعتباطا، وليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا، ذلك أن المؤرخ تتوفر فيه الصفات الضرورية..." وقد جسد تلك الروح في رسالته للدكتوراه، لتشمل

الصحراء الجزائرية، وكشف فيها عن توغل الاستعمار الفرنسي في أرجائها، ومخططاته التي امتدت ما بين 1837-1934، ومقابلة الشعب الجزائري لتلك المخططات، والدفاع عن دياره المغصوبة، باشتعال المقاومة الشعبية، والتي خصص لها كتابه" المقاومة الشعبية" وبدأه بالمقاومة المسلحة التي قادها الأمير عبد القادر، وأبطال الصحراء، وانتهى إلى المقامة الفكرية، والثورة التحريرية، واعتبر نفسه جنديا ضمن كوكبة الباحثين ممن يتصدون مستقبلا لنفض الغبار عن هذا التاريخ المجيد، ومما قاله في هذا السياق: "لا شك أن المقاومة الشعبية في الجزائر تحتاج إلى جيش من المؤرخين لتغطية كل جوانبها الموضوعية ومن ثم فإن كتابة تاريخ الجزائر، يعد من الأولويات الأولى في حياتي الدراسية... حينما اكتشفت مقدار ما تعرض له الشعب الجزائري خلال الحقبة الاستعمارية المظلمة من مظاهر الاحتقار والإذلال، ومن محاولات طمس الهوية الوطنية، لدمج الجزائر في فرنسا، ولكن الأحرار من الشعب الجزائري قارعوا هذا الاستعمار بكل شدة وقوة،... وافشلوا كل الخطط الاستعمارية الماكرة لفسخ ومسخ المجتمع الجزائري." وخص الثورة التحريرية بجانب هام في كتاباته، سواء عن أسس ومنطلقات الثورة، ومساهمة الجالية الجزائرية بتونس في دعمها ما بين 1954-1962، حينما كان الدكتور إبراهيم شاهد عيان في رعيان شبابه، وهو يعايش صعاب الغربة التي عاشها ـــ في تونس ـــ بعيدا عن بلاده الأسيرة في قبضة الفرنسيين، فكان واجب الوفاء أن يخص تلك الفترة بما تستحق، وعرضها لجيل الاستقلال، وكيف نشأت الدولة الوطنية المستقلة بعد إرساء قواعدها من عهد الأمير عبد القادر، ورجال الحركة الوطنية، واستكملت لبناتها في نشاط الثورة التحريرية، التي رسمت مسارها، ومكنت قواعدها، وأخرجتها للوجود حرة أبية. واستمر الدكتور مياسي في تفصيل المقاومة، بجمع لمحات منها في كتاب منفرد، أطلق عليه " لمحات ... من جهاد الشعب الجزائري" لإيمانه بالبعد الحضاري للشعب الجزائري، الذي يمثل عمق الأصالة في فكره، ويعتقد جازما أن الثقافة الأصيلة كان لها الدور الأساسي في الصمود والثبات أمام سياسة المسخ والتضليل، والتي واجهها العلماء أمثال إبراهيم العوامر السوفي الحمدي والشيخ الطاهر العبيدي الحمدي، وهما من أبناء حيه بمدينة الوادي، فضلا عن الزوايا التي كانوا من رجالها، ولاسيما الزاوية القادرية ومدى مساهمتها في تأطير الثورات الشعبية، ودور زاوية سيدي سالم الرحمانية في التلعيم في منطقة الجنوب الشرقي، ونشر القرآن الكريم وخصوصا في أبناء النمامشة ووادي ريغ؛ ومما ينبغي التنويه إليه في كتابات الأستاذ إبراهيم:

ـــ تحري الموضوعية، وتفويض الباحثين لإثراء دراساته، واستكمال الناقص منها،وسد الخلل، وكان استعماله للكمات يوحي بهذا التواضع المطلوب في الباحثين، ومما أورده في هذا المضمار، قوله عن فصول كتابه حول تاريخ الجزائر: (... وقد جمعتها بين دفتي كتاب تحت عنوان "مقاربات في تاريخ الجزائر" لأن أكثر هذه الدراسات تتطلب المزيد من البحوث والدراسات المعمقة لاستفاء حقها والإحاطة بكل جوانبها، غير أن هذه الدراسات والبحوث تكمل بعضها ..."

ـــ الالتزام بالحرية في طرق المواضيع، واعتماد المنهج العلمي، والإشادة بأساتذة جامعة الجزائر في إرسائهم للكتابات التاريخية العلمية، وأشار إلى ذلك في سياقه التالي: " لقد كتبت هذه الدراسات والبحوث بكل حرية واقتناع و لم تخضع إلا للإطار العلمي الموضوعي، الباحث عن الحقيقة التاريخية البحتة، وهو المنهج الذي استقيناه من جامعة الجزائر على أساتذة أحرار كرام، وهو ما أنقله وأقوله لطلابي باستمرار وهو الإيمان بالحرية في الحركة والتعبير في الجزائر لأنها قد دفعت الثمن غاليا وباهض التكاليف."

ـــ التأكيد على بعث التاريخ الوطني ضمن المدرسة التاريخية الجزائرية، التي تستلهم العبرة، وتتفادى أخطاء الماضي، وفق النظرية الخلدونية، التي يعتبر نفسه قريبا منها، واستمداده لمادته الأولية

من الوثائق الأرشيفية الوطنية والفرنسية، وهو على حذر من هذه الأخيرة، ومما قاله عنها: "... جاءت كتاباتهم عرجاء، فاقدة للصبغة العلمية، لبعدها عن الموضوعية، وعن الحقائق التاريخية، فهي إذن محل مراجعة عامة وتدقيق نظر، وغربلة المعلومات حتى نستطيع استخدامها في كتابة تاريخ هذه الثورات خاصة وتاريخ الجزائر المعاصر عامة، مع إعطاء المكانة اللائقة والأهمية الكبرى للوثيقة العربية ومقارنتها بالوثائق الأخرى، حتى نصحح الأحداث والوقائع الوطنية وإنصاف أصحابها وإبراز مواقفهم على حقيقتها." ويرى انه حاول تطبيق هذا المنهج العلمي من اجل افتكاك " وتحرير تاريخنا من هيمنة المدرسة الاستعمارية من جهة، وتصفيته من التزييف والتحريف من جهة أخرى."

وظل الدكتور إبراهيم مياسي شعلة من النشاط والحيوية، يجوب الوطن في كل أرجائه، محاضرا وناقدا، يبلغ رسالة العلم، ويكتبها لتبقى شاهدة على آثاره، بين قومه شامة ساطعة، وبين ذويه مفخرة راسخة، وظل أثناءها يحترق وهو يسعى، ويذوب وهو يكتب، ويراعه يسيل من روحه، حتى أقعده المرض في حدود شهر ماي 2009، وعجز الطب عن علاجه، ولبى نداء ربه ببيته بالجزائر العاصمة يوم الخميس 7 جانفي، ووري مثواه الأخير بمقبرة أولاد أحمد بوادي سوف يوم الجمعة 8 جانفي 2010، وفي كلمات التأبينية التي ارتجلتها بعفوية، ووفاء لروحه، قلت على شفير قبره الطاهر: " إنه خلف أبناء من صلبه يَصِلون رَحِمَهُ مع الأقارب، وخلف أبناء من بنات أفكاره، علما نافعا يصله بالأجيال على مر الزمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا هو عز العلماء، ومثال افتخارهم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. رحم الله الفقيد وجعله ذخرا لوطنه، وفي حياته الزاهرة عزاء لأهله، ونسأل الله أن يتقبله في الصالحين، وأن يسكنه فسيح الجنان مع الصادقين، وحسن أولئك رفيقا.

الوادي يوم الثلاثاء 2010/02/16.

د/ علي غنابزية

رئيس المجلس العلمي

معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية

فـــــــارس، يكتب أمّـــــة
مهداة إلى روح المؤرخ الأستاذ د/ إبراهيم مياسي رحمه الله

سـبحان مـن زان الحيـاة مـدارها ... عند الخليقـة واصـطفى أعمارهـا
إن شـاء أوفى بالمناعـة نبـضها ... أو شـاء قـدّر في الزمـان مـسارها
أوحى لهـا عنـد الرحيـل فراقهـا ... فاسـتكملت عنـد القبـور مزارهـا
مـا بـين مـيلاد يـردّد صـرخها ... وصـهيل سـعي يمتطـي أطوارهـا
تتعاقـب الأنفـاس فينـا مثلمـا ... تجري الفـصول لتجـتني مـشوارها
تمضي علـى عجـل يـسابق دربهـا ... دنيـا تعـدّد للـورى أخبارهـا
أعمارنـا جـني الحواصـل بعـدنا ... أعمار من سـبقوا، نعـيش ثمارهـا
وخلاصـة الأعمـار مـتن عـزائم ... تروي لينـصف سـعيُها أمـصارها
يا راحـلا والـدمعُ يرسـم لوعنـا ... عنـد الخريطـة يـستفز حوارهـا
من ذا الذي جـاب الـبلاد بطولهـا ... جـيلا ، ليـسأل برّهـا و بحارهـا
يـستنطق الثـورات عنـد ربوعهـا ... يحكي مـدا هـا ، يقتفـي آثارهـا
يـروي جهـاد الأولـين مرابطـا ... يصغي لمن أهـدى الجزائـر ثارهـا
حيّـاه كـلّ مجاهـد مـن شـعبها ... والـشعب وقّـع للـبلاد شـعارها
للـشعب تحـيى بـالتحرّر غايـة ... بالـشعب تـبني عزّهـا ووقارهـا
هـو ذاك إبـراهيم فـارس أمّـة ... بمـداده الميمـون رصّـع دارهـا
مـن أول الثـورات في صـحرائنا ... حـتى روى آمودهـا هقارهـا
ما غـادر الـشهداء منـها مرصـدا ... حتى غـدت روح الـشهيد منَارهـا
هـو ذاك إبـراهيم أبـدع رحلـة ... من واد سوف و كم أبـرَ صـغارها
و لـورجلان دعتـه أول دفعـة ... لـلأرض والتـاريخ ، يـا أحرارهـا
وسـبته بيـضاء الجزائـر فاسـتوى ... صـبّا يعـانق بالكتـاب غمارهـا
يلقـى بـسعد الله أروع رفقـة ... وأبـوّةُ التـاريخ تعـرف كارهـا
نار علـى علـم الكتابـة مـن رأى ... و الحـرفُ يعـرف للكتابـة نارهـا
فلكـم أضـاءت للحقيقـة سَمْتـها ... كالشمس تـشهد بالـضياء أوارهـا
تـأتي علـى زيـف يـروّج للـدنى ... كبتَ الحقيقـة أو يـرومُ حـصارها

الصدق في التـــاريخ يرســـم وجههـــا والعدل ينـــصف بُعـــدها و جوارهـــا
هو ذاك إبـــراهيم أســـرج وامتطـــى فزكـــت بـــه إذ أدخلتـــه كبارهـــا

الوادي، في 16/15 فبراير 2010

شعر/ **السعيد المشردي**
أستاذ بقسم التاريخ
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية